المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا التاريخية

جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع الهجري

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

إعداد المحاضر
عبد الله سعيد محمد الغامدي

إشراف الأستاذ الدكتور/ محمد حمدي المناوي

١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م




بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :-

" انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون "

سورة التوبة آية "٤١"

شكر وتقدير

أود في مفتتح هذه الرسالة أن أسجل عميق شكري وصادق تقديري، واعترافي بالجميل لمعالي الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، وزير المعارف في المملكة العربية السعودية، فقد زودني معاليه بمخطوطة «تاريخ الملك الظاهر» لمؤلفها الصاحب عز الدين بن شداد وكتابي «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» لمؤلفه محيي الدين بن عبد الظاهر، و«حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع بن علي وتأتي هذه المؤلفات في مقدمة المصادر الأساسية لفترة البحث.

الباحث

محتويات الرسالة

" محتويـــــات الرســـالـــــه "

الموضـــــوع	رقـم الصفحـه
المقدمـــــــــه :	
– دراســه نقديـــه لأهـم مصــادر البحـــــث	٢٣
التمهيـــــــــد :	
بـلاد الشام قبيـل منتصـف القرن السابــــع الهجـــرى	٤٠
– المسلمــــــــــون	
– الصليبيــــــــون	
– الأرمـــــــــــن	
الفصـل الأولـــــ : الغـــزو المغولـي لـبلاد الشـــــام	١٨١
– سقوط بغداد في أيدى المغول ونتـائجــــه	
– موقف القوى الاسلاميه وغيرها من الزحف المغولي على بلاد الشـــام .	
– سقوط مدن الشام في آيـــدى المغـــــــــول	
– طبيعـــة الغزو المغولـــي وأهدافـــــــه .	
الفصل الثانـــي : معركـة عين جالـــــوت (رمضان ٦٥٨ هـ)....	١٧٦
– مقدماتهـــــــــا .	
– حوادثهـــــــــا .	
– نتائجهـــــــــا .	
آ – طرد المغول من بلاد الشــــام .	
ب – احيـاء الخلافه العبـاسيه في القاهره .	
ج – انهيار بقيايا الصليبيين في بلاد الشام .	

الموضوع	رقم الصفحه

الفصل الثالث : جهاد السلطان بيبرس ضد المغول والصليبيين .. ٢٦٩

- محاولات عقد حلف صليبي مغولي .
- استيلاء بيبرس على انطاكيه سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م .
- جهاد بيبرس في أرمينيه الصغرى .
- انتصارات بيبرس على أبغا بن هولاكو في أعالي الشام والأناضول (موقعة ابلستين ونتائجها) .

الفصل الرابع : جهاد اسرة قلاوون ضد المغول والصليبيين ... ٣٥٣

آ ـ ضد المغول .
- فشل محاولات ابغاء الاستيلاء على حلب وحماه وحمص .
- اعتناق المغول الاسلام ونتائجه .

ب ـ ضد الصليبيين
- سقوط امارة طرابلس الصليبيه ٦٨٨هـ/١٢٦٩م .
- استيلاء الأشرف خليل على عكا ونهاية الوجود الصليبي في بلاد الشام .

الفصل الخامس : مقومات حركة الجهاد عند المماليك ٤٤٣

- المماليك وتجديد حركة الجهاد ضد المغول والصليبيين .
- نظام الاقطاع الحربي .
- ديوان الجيش المملوكي .
- الجيش المملوكي وتنظيماته .
- اساليب التعبئه والقتال .
- الاسطول المملوكي .

الموضوع	رقم الصفحه

الخاتمه : أهم نتائج البحث ٤٦١

الملاحق ٤٩٤

المصادر والمراجع ٥٢٩

الخرائط ٥٤٠

المقدمة

دراسة نقدية لأهم مصادر البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمه : دراسه نقديه لاهم مصادر البحث .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الانبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، وبعد :

فلم يكد المسلمون يصلون بالصراع مع القوى الصليبيه في الشرق الاسلامي الى قرب نهايته ، في القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، حتى فوجئوا بحركة آخرى آشد هولا وأقسى وقعا ، هي حملات المغول على الدول الاسلاميه ، الذين استغلوا ذلك التفكك والانقسام الذى حل بالعالم الاسلامي في تلك الفترة ، فاتخذوا من المشرق الاسلامي مجالا لتوسعهم ، فتقدموا من الشرق الى الغرب ، حتى دخلوا مدينة بغداد ، واستطاعوا اسقاط الخلافة العباسيه ، ثم تقدموا غربا الى الشام . ولم يقف امامهم سوى قوى دولة المماليك المسلمين في مصر ، التي انزلت بهم هزيمة مروعه في معركة عين جالوت ،[1] وأوقفت تقدمهم وغيرت موازين القوى ، حتى تحقق لها تطهير بلاد الشام من نير الاحتلال المغولي والصليبي معا .

ومن الاسباب التي دعت الى اختيار هذا الموضوع ، أنه موضوع ذو اهميه بالغه خاصه ، فيما يتعلق بفكرة احياء حركة الجهاد الاسلامي التي استدعى الامر احياءها في نفوس المسلمين لمواجهة الاخطار التي احدقت بالشرق الاسلامي .

---

(١) عين جالوت ، بليده شرق دارين بين بيسان ، ونابلس من أعمال فلسطين ويرجع هذا الاسم الى الاسطوره القائله بأن داود قتل جالوت في هذا المكان وكان الصليبيون يسمونها مدينة Tubanea (انظر ياقوت معجم البلدان ، احمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الاولى، ص ١٦٣ .

في ذلك الوقت ، فضلا عن كونه يلقي الاضواء على الجهود الجباره التي بذلها سلاطين دولة المماليك في سبيل توحيد القوى الاسلاميه في الشام ومصر ، للوقوف في وجه أعداء الاسلام ، المغول والصليبيين التي اثمرت طرد المغول من بلاد الشام ، وتطهير سواحله من بقايا الوجود الصليبي ، وليثبتوا بذلك العمل الجليل اركان دولتهم الفتيه التي تعتبر بحق دوله جهاديه استحقت عن جداره زعامة العالم الاسلامي آنذاك .

ومن ناحيه ثالثه جاءت أهمية دراسة هذا الموضوع ، لكونه يجسد ماعليه العالم الاسلامي اليوم من اختلاف الآراء وتعدد القوى ، وأنه ما أحوج الامه الاسلاميه في وقتنا الحاضر الى تكرار مافعله المماليك من جمع الكلمة ووحدة الصف وتجديد احياء فكرة الجهاد المقدس ضد أعداء الاسلام ، لاستعادة المسجد الأقصى اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، ومسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، واعادة ارض فلسطين العربيه لأهلها .

وقد اعتمدت الدراسه على مصادر اصليه يأتي في مقدمتها مؤلفات المؤرخ عز الدين ابو عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد الانصارى الحلبي (٦٣١ - ٦٨٤ هـ) الذى كان من خواص الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ،(١) وسفيره الى المغول .

---

(١) هو الملك الناصريوسف بن الملك العزيز محمد بن غازى بن صلاح الدين بن يوسف بن ايوب ، قتله هولاكو سنة ٦٥٩هـ ، وذلك بعد هزيمة جيوشه في معركة عين جالوت ، (انظر الزبيدى ترويح القلوب في ذكر الملوك بنى ايوب ، ص ٥٧) ؛ انظر ايضا ابن شداد الاعلاق الخطيره ، ج ٣ ، ص ٧٤٩ ، ٧٥٠ (الملاحق) .

وبعد سقوط بلاد الشام في أيدى المغول ، رحل ابن شداد الى مصر واستوطنها ، وصار له مكانة كبيره لدى الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، وكان فاضلا أديبا له العديد من المؤلفات التاريخيه ، (١) .

أفاد البحث من كتابين منها ، اولهما كتاب الاعلاق الخطيره في ذكر امراء الشام والجزيره ، الذى جمع فيه ابن شداد بين التاريخ والجغرافيه ، وجعله في ثلاثة أقسام ، خصص الاول منها لمسقط رأسه مدينة حلب ، والقسم الثاني لدمشق والاردن وفلسطين ولبنان ، والثالث لمنطقة الجزيره ، وتحدث عما فيها من معالم ، وآثار ومدارس ومساجد وخوانق وغيرها ، ثم الحق بكل قسم تاريخا لتلك البلاد منذ الفتح الاسلامي حتى عصره .(٢)

وقد افاد البحث من كتاب الاعلاق الخطيره في معالجة استيلاء المغول على مدن اقليم الجزيره في أعالي العراق ، وبالأخص مدينتي ميافارفين ، وماردين ، حيث صور لنا في اسلوب ممتع ماقام به حاكما هاتين المدينتين من جهود جباره في محاولة تكوين جبهه اسلاميه متحده بينها وبين الايوبيين في الشام للوقوف في وجه المغول .

---

(١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، ج ٦ ، ورقه ٢١٠ أب ؛ ابن الفرات م٨ ،ص ٣٣ ٣٤ ؛ وابن شداد ، هذا هو غير بهاء الدين بن شداد (٥٣٩ - ٦٣٢ هـ) مؤلف سيرة صلاح الدين المعروف باسم " النوادر السلطانيه والمحاسن اليوسفيه " (انظر ابن شداد الاعلاق الخطيره ، ج ٣ ، ق ٢ ، مقدمه المحقق ، ص ١٥ - ١٧ ؛ علي الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، رسالة دكتوراه من جامعة ام القرى لم تطبع ، ص ١٣ حاشيه (٣) .

(٢) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ح ٢ ، مقدمه المحقق ، ص ٢٦ ؛ علي الغامدى، المرجع نفسه ، ص ١٤ .

ومن ثم ما أبدياه من ضروب البسالة والشجاعه في مقاومة الحصار المغولي لمدينتيهما ، وأمدنا بمعلومات جديده مخالفه لما ذكره مؤرخ المغول رشيد الدين أن هولاكو بعد أن اقتحم مياقارفين اضطر الى ترك ماردين لما هي عليه من الحصانة والمنعه وارتفاع الروح المعنويه لرجالها الى عبور نهر الفرات قاصدا مدن الشام ، ولم يعد اليها الا بعد وفاة حاكمها الملك السعيد .(١)

أما المؤلف الثاني فهو كتاب " تاريخ الظاهر بيبرس "(٢) الذى أمد البحث بمعلومات قيمه هي عباره عن مشاهداته بنفسه لما بذله السلطان بيبرس من جهود جباره لمواجهة عدوين في وقت واحد ، هما المغول والصليبيين .

وأورد ابن شداد في هذا الكتاب معلومات فريده من نوعها فيما يتعلق بجهاد السلطان بيبرس ضد المغول وحلفائهم في الاناضول ، فصور لنا بوضوح حوادث معركة ابلستين ، وما أعقبها من دخول بيبرس مدينة قيصريه وجلوسه على تخت الملك بها .(٣)

ولا يقل اهمية عن ذلك كتاب " مفرج الكروب في اخبار بني أيوب " لمؤلفه جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله ابن واصل المازني التميمي الحموى الشافعي الذى يعتبر من كبار مؤرخي القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى ، ولد بعد مولد هذا القرن ، وتوفي قبل نهايته بقليل (٦٠٤ - ٦٩٧ هـ / ١٢٠٨ - ١٢٩٨ م) .

---

(١) انظر مايلي ص :

(٢) لايزال هذا الكتاب مخطوطا وتوجد منه نسخه في المسجد السليماني بادرنه تحت رقم " ٢٣٠٦ " .

(٣) انظر مايلي ، :

وقد نشأ في حماه وتلقى بها علومه الاولى ، ثم رحل في طلب العلم الى دمشق وحلب وبيت المقدس والكرك والقاهره وبغداد ومكه والمدينه ، ونبغ وصنف في علوم كثيره . وأقام في مصر مدة طويله ، وعاصر الحملات الصليبيه المتأخره ، وسقوط الدولة الايوبيه وقيام دولة المماليك وغزوات المغول ، وسقوط الخلافه العباسيه . (1)

والذى يهمنا من كتاب ابن واصل ، هو (2) الذى تناول فيه المراحل الاخيره من الدولة الايوبيه ، وصدر دولة المماليك . وبالأخص الايام الاولى من حياة السلطان الظاهر بيبرس ، وما واجهه من صعاب على أثر تولية السلطنه ، كما أمدنا بمعلومات قيمه فيما يختص بعلاقة السلطان بيبرس بجزيرة صقليه التي ذهب اليها بنفسه موفدا من قبل السلطان بيبرس يحمل هديه الى ملكها ، منفرد بن فردريك الثاني ، امبراطور الدولة الرومانيه المقدسة ، وذلك في سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٣ م .(3)

ورغم أن ابن واصل انقطع عن الكتابة منذ هذه السنه ، فان أحد تلاميذه واصل كتابته الى سنة ٦٨٠ هـ ملخصا عن كتاب آخر اسمه " التاريخ " لايعرف مؤلفه (4) ، وقد أفاد البحث منه فائده كبيره .

---

(١) انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، مقدمه المحقق ، ص ٤ ؛ علي محمد الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ١١ .

(٢) لايزال الجزء مخطوطا بدار الكتب المصريه تحت رقم (١٩٣٥ تاريخ) ويقوم على تحقيقه الآن استاذنا الدكتور/ حسنين محمد ربيع ، الاستاذ بكلية الآداب ، جامعة القاهره .

(٣) انظر مايلي ، ص ١٧٥-١٧٦

(٤) انظر محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ١ .

ومن مصادر البحث القيمه ، كتابات القاضي محي الدين ابو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدى المصرى، ولد في القاهره سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م ، ومات في اليوم الثالث من رجب سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م .(١)

كان محي الدين كاتبا في ديوان الانشاء عندما تولى بيبرس السلطنه ، ويبدوا انه عمل في الديوان على الاقل من ايام السلطان المظفر قطز ، فقد رافق حملته على الشام ضد المغول ، وسرعان ماحاز ثقة بيبرس بعد توليه الحكم .(٢)

وتعتبر مؤلفات ابن عبد الظاهر من أهم مصادر البحث ، وذلك لكونها غطت معظم فترته ، فكتابه " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر " تناول بالتفصيل الجهود العظيمه التي بذلها السلطان الظاهر بيبرس منذ أن كان قائدا من قواد السلطان قطز حتى وفاته ، وكيف تمكن بفضل تلك الجهود القائمه على أساس توحيد كلمة المسلمين واحياء حركة الجهاد الاسلامي من الوقوف في وجه المغول وافشال محاولاتهم في اعادة سيطرتهم على بلاد الشام ، وكذلك معاقبته حلفائهم المسيحيين من الارمن وغيرهم . ومن ثم اكمال مشروع اقتلاع الوجود الصليبي من بلاد الشام . حيث اوضح لنا هذا المصدر في دراسه مستفيضه الخطط الحربيه البارعه التي نفذها بيبرس حتى تمكن من اسقاط امارة انطاكيه الصليبيه.(٣)

---

(١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٨٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهره ،ج٨، ص ٣٨ ؛ ابن عبد الظاهر ،الروض الزاهر ، مقدمه المحقق ،ص ٩ ؛ تشريف الايام والعصور ، مقدمه المحقق ،ص ٩ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، الروض ، مقدمه المحقق ، ص ٩ .

(٣) انظر مايلي في الفصل الثالث .

أما كتاب " تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور " الذى تناول فيه ابن عبد الظاهر سيرة السلطان المنصور قلاوون ، فقد معظمه ولم يعثر منه الا على تاريخه للحوادث من سنة ٦٨٠ هـ الى وفاة قلاوون . (١)

وقد أمد هذا الجزء المتبقى البحث بمعلومات في غاية الاهميه ، حيث اوضح تلك الجهود العظيمه التي بذلها قلاوون لاكمال مشروع اقتلاع الوجود الصليبي من بلاد الشام حتى تمكن من الاستيلاء على مدينة طرابلس ، وطرد الوجود الصليبي منها . (٢)

أما الكتاب الثالث الذى أفاد منه البحث فهو تاريخ الاشرف خليل بن قلاوون الذى أسماه ابن عبد الظاهر " الالطاف الخفيه من السيره الشريفيه " من سنة ٦٩٠ - ٦٩٣ هـ ، وقد ضاع معظمه ولم يبق منه سوى جزء بسيط من سنة ٦٩٠ - ٦٩١ هـ . (٣)

ومما يزيد هذه السير الثلاث أهميه بالنسبة لموضوع البحث ،كونها دونت مواكبه للحوادث نفسها ، فالمؤلف يستعمل كلمة " نصره الله " حينما يتكلم عن الظاهر بيبرس ، وكلمة " زيدت عظمته " حينما يتكلم عن الملك بركه خان القبيله الذهبيه الذى عاصر السلطان بيبرس وتوفي قبله ، وكذلك كلمة " مولانا " كما يذكر في موضع آخر أنه ألّف السيره الظاهريه ، خدمه لمكتبة السلطان حيث يقول : " خدمت الخزانه المعموره بجمع هذه السيره " وأن بيبرس نفسه ساعده فيما بعد بأن أملى عليه معلومات عن حياته الاولى . (٤)

---

(١) ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور ، مقدمه ، ص ١٥ .

(٢) انظر مايلي في الفصل الرابع .

(٣) ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور ،مقدمه المحقق ،ص ١٥؛ انظر ايضا كتاب الالطاف الخفيه ، نشر . AXEL MOBERG .

(٤) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، مقدمه المحقق ،ص .

كما يذكر ابن عبد الظاهر في تشريف الايام والعصور ، عبارة " قال لي السلطان " يقصد السلطان المنصور قلاوون ،و " هذا ما أخبرني به الاتابك " (١) ، وكذلك كلمة " مولانا السلطان " (٢) .

ومن المؤرخين الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن السابع الهجرى ، بيبرس المنصورى الخطائي الدوادار المتوفي سنه ٧٢٥ هـ ، تولى بعض المناصب الاداريه في عهد السلطان سيف الدين قلاوون ، وابنه الناصر محمد . قلده قلاوون ولاية الكرك ، ثم عزله ابنه الاشرف خليل ، وعندما تولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م عينه رئيسا لديوان الانشاء ، ولقب منذ ذلك الوقت بالدوادار ، وترقى في مناصب الدوله حتى عين نائبا للسلطان سنة ٧١١ .(٣) ومن ذلك نرى أن هذا المؤلف كان يكتب عما شاهده بنفسه في ذلك العصر .

ومن مؤلفات بيبرس الدوادار التي أفاد منها البحث ، الجزء التاسع من كتاب " زبدة الفكر في تاريخ الهجره " (٤) الذى يعتبر من المصادر الهامه في دراسة التاريخ السياسي لسلاطين دولة المماليك في النصف الثاني من القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى . وقد اعتمد البحث على هذا

---

(١) ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور ، ص ٦٩ ، ١١٢ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنه في أعيان المئه الثامنه ، ح١ ،ص ٥٠٩/٥١٠ ؛ محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ،ص ١٠/٩ .

(٤) مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهره تحت رقم (٨ > ٢٤٠>) ، وقد قامت زبيده محمد عطا بتحقيق هذا الجزء ، وتقدمت به كرساله لنيل درجة الدكتوراه من كلية الآداب ، جامعة القاهره ، باشراف الاستاذ الدكتور/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، ولكنها لم تطبع حتى الآن .

المصدر في دراسة جهاد سلاطين دولة المماليك قطز وبيبرس وقلاوون، وابنه الاشرف ضد المغول والصليبيين في بلاد الشام . وبالأخص الاستيلاء على آخر المعاقل الصليبيه في الشرق الاسلامي مدينة عكا ، فقد اورد بيبرس الدوادار في كتابه هذا وصفا تفضيلا للاستعدادات الضخمه التي سبقت اقتحام عكا ، ومن ثم الخطط الحربيه البارعه التي نفذها الأشرف خليل بن قلاوون ، وتوج جهود من سبقه من زعماء حركة الجهاد ضد الصليبيين باقتلاع هذا الوجود من جذوره سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١ م . (١)

أما كتابه " التحفه الملوكيه في أخبار الدوله التركيه " (٢) ، فعلى الرغم من الصعوبة التي واجهتها في قرأئته ، فانني استطعت أن أستفيد منه بعض الفائده ، وخاصه فيما يتعلق بجهاد سلاطين دولة المماليك الاولى ، لتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام . (٣)

ومن المصادر المعاصره للفترة موضع الدراسه ، كتاب " ذيل مرآة الزمان " للشيخ قطب الدين موسى بن محمد بن أبي الحسن اليونيني الحنبلي البعلبكي ،(٦٤٠ - ٧٢٦ هـ / ١٢٤٢ - ١٣٢٦ م) ، تلقى تعليمه ببعلبك ، وصار شيخها بعد أخيه أبي الحسين . (٤)

وقد أفاد البحث من هذا الكتاب - الذى ذيل به اليونيني على كتاب " مرآة الزمان في تاريخ الفضلاء والاعيان " لسبط ابن الجوزى ، المتوفي سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦ م ، ورتبه على أساس حولي - فائده عظيمه ، خاصة وأن معظم كتابات اليونيني هي عباره عما شاهده وسمعه بنفسه في تلك الفتره . (٥) أما التي سبقت عهده فقد دون معلوماته عنها نقلا عن

---

(١) انظر بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ح٩ ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ .
(٢) مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم (٢٤٠٢٩) .
(٣) انظر مايلي صفحات ، ص٢٩٥-٢٩٧-٢٩٨-٣٠٠
(٤) ابن حجر ، الدرر الكامنه ، ح٤ ، ص ٣٨٢ .
(٥) انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م٢ ، ص ٣٠ ، ٤٢ ؛ م٣ ، ص ١٣٣ ؛ م ٤ ص ٩٤ .

مؤرخين معاصرين أمثال ابن واصل ، وعز الدين بن شداد وغيرهما . (١)

ومن مصادر البحث القيمه كتابات المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الدمشقي المعروف بأبي شامه (٥٩٩ هـ - ٦٦٥ هـ / ١٢٠٣-١٢٦٧م) وهو من كبار الفقهاء والمحدثين ، تفوق في علوم الفقه والحديث والنحو واللغه ، اضافة الى مؤلفاته التاريخيه القيمه . (٢)

ألف أبو شامه الى جانب كتب الدين واللغه ، كتبا كثيره في التاريخ يهمنا منها كتاب " الذيل على الروضتين " الذى ذيل به على كتابه " الروضتين في أخبار الدولتين " تحدث فيه عن الفتره من سنة ٥٩٠ هـ حتى وفاته سنة ٦٦٥ هـ ، وأكثر فيه من التراجم للعلماء والفقهاء الذين عاشوا في بلاد الشام خلال تلك الفتره ، وقد أفاد البحث كثيرا من ذيل الروضتين عند دراسة اكتساح المغول لبلاد الشام ، ومن ثم هزيمتهم في عين جالوت ، كما أمدنا بمعلومات في غاية الاهميه عند دراسة احياء الخلافه العباسيه في القاهره . (٣)

ومن المصادر المهمه لموضوع البحث كتاب " نهاية الارب في فنون الأدب " لشهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم النويرى، الذى حصل له حظوه عند الملك الناصر ، ووكله في بعض اموره ، وباشر نظر الجيش في طرابلس ،توفي سنة ٧٣٣هـ / ١٢٣٣ م . (٤)

---

(١) انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ،م٢ ،ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١٦١ .

(٢) السبكي ، طبقات الشافعيه ،ح٨ ،ص ١٦٥ - ١٦٧ ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ،ح٢ ، ص ٢٦٦ .

(٣) انظر مايلي ، ص :

(٤) ابن حجر،الدرر الكامنه ،ج١ ،ص ١٩٧ .

اعتمدت الدراسه على الاجزاء ، الثامن ، والثامن والعشرون ، والتاسع والعشرون ، من هذا الكتاب [١] فأمدت البحث بمعلومات طيبه ، فالجزء الثامن كان خير معين لمعرفة نظام الاقطاع الحربي لدى المماليك، وخاصة ديوان الجيش المملوكي ، الذى كان يعد الجهاز التنظيمي لهذا النظام . [٢]

أما الجزآن ، الثامن والعشرون ، والتاسع والعشرون ، فقد أمدا البحث بمعلومات قيمه عن جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ، ناهيك عن موضوع احياء الخلافه العباسيه في القاهره . [٣]

ومن مصادر البحث المعاصره كتاب " المختصر في أخبار البشر " للملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه الايوبي ، كان جوادا شجاعا عالما في عدة فنون ، نظم الحاوى في الفقه وصنف تاريخه المذكور ، وتقويم البلدان ، ونظم الشعر والموشحات ، وفاق في معرفة علم الهيئه ، واقتنى كتبا نفيسه، ولم يزل على ذلك الى أن توفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م . [٤]

---

(١) يقع كتاب " نهاية الارب في فنون الادب " في ثلاثين مجلدا ، طبع منها سبعة وعشرون ، أما الاجزاء المتبقيه فلا زالت تنتظر اتمام طبعها ، وهي محفوظه بدار الكتب المصريه .

(٢) انظر مايلي صفحات ،

(٣) انظر مايلي ، صفحات ،

(٤) ابن حجر ،الدرر الكامنه ،ح١ ،ص ٣٧١ ، ٣٧٢ ؛ الصفدى ، اعيان العصر وأعوان النصر ، ورقه ١١٨ آ ب ؛ الزبيدى ،ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب ،ص ٤٧ .

وقد أمد كتاب " المختصر في أخبار البشر " البحث بمعلومات في غاية الاهميه ، عن جهاد سلاطين دولة المماليك ضد المغول وحلفائهم وكذلك الصليبيين ، وخاصة عند استيلاء السلطان الاشرف خليل بن قلاوون على عكا وتصفية الوجود الصليبي من بلاده التي شارك أبو الفدا حوادثها بنفسه ، فجاءت كتاباته عباره عن مشاهداته الشخصيه ، فكان هذا المصدر هو العمده في توضيح هذا الحدث العظيم الذى ترتب عليه اقتلاع الوجود الصليبي من بلاد الشام من جذوره . (١)

والى جانب ذلك اعتمدت الدراسه على بعض المصادر المسيحيه المعاصره لفترة البحث ، منها كتاب " تاريخ مختصر الدول " لابي الفرج غريغورس الملطي المعروف بابن العبرى (٦٢٣ هـ – ٦٨٥ هـ / ١٢٢٦ – ١٢٨٦م) الذى يبدو أن أباه كان على اليهوديه ثم تحول الى اليعقوبيه ، ونشأ أبو الفرج في ملطيه بالجزيره حيث درس اليونانيه والسريانيه والعربيه ، كما درس اللاهوت والطب والفلسفه . وأمام المصائب التي توالت على الجزيره أيام غزوات المغول ، اضطرت الاسره على الهرب الى انطاكيه ، وبعد أن أتم دراسة الطب في طرابلس ، عينه البطريق اليعقوبي اسقفا ، وتنقل بين بلاد الجزيره وعكا وحلب ، ثم رُسِّمَ بعد الغزو المغولي مطرانٌ على الشرق أى شمال العراق ، والعراق العجمي ، فهادن المغول مما مكنه من حماية طائفته وتنظيمها ، وتجديد كنائسها ، وبقي في منصبه هذا حتى مات في مدينة مراغه من أعمال أذربيجان . (٢)

ويهمنا من مؤلفاته كتابه في التاريخ الذى كتبه في آخر حياته ، وانتهى فيه بذكر دولة المغول التي عاصرها بنفسه ، فكان شاهد عيان لحوادثها . وقد اعتمدت الدراسه على كتاباته عند تناول موضوع اعتناق المغول الاسلام . (٣)

---

(١) انظر مايلي ، ص :

(٢) شاكر مصطفى ،التاريخ العربي والمؤرخون ،ح٢ ،ص ٤٥٥ – ٤٥٧ .

(٣) انظر مايلي ،ص :

ولا يقل أهميه عن ذلك كتاب المؤرخ الصليبي جوانفيل (Joinville) حاكم شامبانيا (١٢٢٤ - ١٣١٨ م) عن " تاريخ القديس لويس " الذى يعتبر من أهم المصادر الاوربيه المعاصره للحملة الصليبيه السابعة على مصر، ان لم يكن أهمها على الاطلاق ، فقد كان جوانفيل أحد فرسان هذه الحمله وشاهد عيان لها ، كما أنه كان موضع ثقة الملك الفرنسي لويس التاسع. كثيرا ما كان يستشيره في شئون الحمله العامه ، وفي اموره الخاصه ايضا . (١)

ورغم أن كتابات هذا المؤرخ جاءت متقدمه لفترة البحث ، فإنها أفادت الدراسه كثيرا عند معالجة المحاولات التي بذلها زعماء المغول بعد هزيمتهم في عين جالوت لتكون حلف مغولي صليبي ضد المسلمين . حيث أوضحت ما سبق ذلك من اتصالات بين خانات المغول ولويس التاسع في هذا المجال . (٢)

أما المجموعه الثالثه لمصادر الرساله ، فهي مؤلفات لمؤرخين عاشوا بعد فترة البحث غير أنهم نقلوا عن مؤلفين معاصرين ، ويأتي في مقدمتها كتاب " تاريخ ابن الفرات " لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي ، الشهير بابن الفرات ، المتوفي سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٣م . كان مغرما بالتاريخ ، فكتب فيه كتابه هذا في عشرين مجلدا حتى عصره . (٣)

---

(١) جوزيف نسيم ،العدوان الصليبي على مصر ،هزيمة لويس التاسع في المنصوره وفارسكور ،ص ٤ .

(٢) انظر مايلي ، في الفصل الثالث

(٣) ابن العماد ،شذرات الذهب ،ج٧ ،ص ٧٢ ؛ علي الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،ص ١٩ .

وترجع أهمية تاريخ ابن الفرات الذى أفاد منه البحث فائده كبيره الى أنه نقل عن مصادر معاصره للفترة موضع الدراسه ، منها على سبيل المثال ، كتابات القاضي محي الدين بن عبد الظاهر [١] والجزرى، وقطب الدين اليونيني [٢] ، وبيبرس الدوادار [٣]، فضلا عما ذكره من أنه كان يستقي بعض المعلومات عمن شهد الحوادث بنفسه [٤].

ومن المصادر المتأخره والمهمة جدا لموضوع البحث كتابات المؤرخ القدير احمد بن علي المقريزى ،المولود سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م بحارة برجوان بمدينة القاهره ، والمتوفي سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م ، وهو بعلبكي الاصل ، مصرى المولد والمنشأ ، عرف باسم المقريزى نسبة الى حارة المقارزه في مدينة بعلبك ، عكف على دراسة القرآن ،وعلوم الدين، والتاريخ وغيرها ، وتقلد العديد من الوظائف ، كان آخرها وظيفة الحسبه بالقاهره ، ويعتبر المقريزى من أشهر المؤرخين المسلمين ، وله مؤلفات تاريخيه كثيره . وقد تميزت كتاباته بالدقة في ايراد الحقائق والاعتماد على مصادر ووثائق لاتزال اصولها مفقوده . [٥]

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م٧ ، ص ٣ .

(٢) ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م٧ ، ص ٨١ ،٢١٧ ؛ م٨ ،ص ٣ .

(٣) ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م٧ ، ص ٢١٥ .

(٤) ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م٨ ، ص ٤٩ .

(٥) السخاوى ،الضوء اللامع ، ج٢ ،ص ٢١ ؛ انظر ايضا ، دراسات عن المقريزى ،مجموعة ابحاث اشترك في اعدادها مصطفى زياده وآخرون ، ص ٧ – ٨ ؛ علي عوده الغامدى ،بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،ص ١٩ ؛ محمد عبد الله عنان ، ص ٨٧ .

وقد أفاد البحث من كتابين للمقريزى هما كتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " وكتاب " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " ،فقد أمد الاول البحث بمعلومات مهمه وقيمه في كثير من الموضوعات السياسيه التي تناولتها الدراسه ،(١) في حين أفادت الدراسه من الثاني عند معالجة موضوع تطور نظام الاقطاع الحربي في عهد المماليك .(٢)

ومن المصادر المتأخره التي أمدت الرساله بمعلومات فريده كتاب " جامع التواريخ " لرشيد الدين فضل الله بن عماد الدوله ابو الخير حفيد موفق الدين الهمذاني المتوفي سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨ م . (٣)

شغل رشيد الدين منصب الوزاره لعدد من ايلخانات المغول في ايران ، وقد رأى ايلخانات المغول تدوين كتاب التاريخ لشغفهم بهذا العلم ، يجمع الروايات التاريخيه لجميع الامم التي تدخل في الامبراطوريه المغوليه ، او التي لها علاقه بالمغول ، ونفذ بعض هذا العمل ، حيث كلف للقيام به خواجه رشيد الدين الذى كان يهوديا فأسلم على أرجح الاقوال ، وعاونه في هذا العمل رجل مغولي عالم بالروايات التاريخيه المغوليه ، واثنان من علماء الصين ، وراهب بوذى من كشمير ، ومجموعه من علماء ايران وأدبائها . (٤)

---

(١) انظر على سبيل المثال مايلي ، الصفحات :

(٢) انظر مايلي ،في الفصل الخامس ، ص

(٣) رشيد الذين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، المقدمه ، ص ٥ .

(٤) قام الاستاذ الدكتور / فؤاد عبد المعطي الصياد بدراسة شخصية رشيد الدين فضل الله وكتابه " جامع التواريخ " دراسه متكامله فأخرج بحوثا ودراسات وتحقيقات قيمه على المغول وعن رشيد الدين وكتابه ؛ انظر ايضا عبد العزيز فهمي ، تاريخ الدوله المغوليه في ايران ،ص ١٠ ، ١١ .

وقد أمد كتاب جامع التواريخ ـ الذى دونه رشيد الدين باللغة الفارسيه ، وباسلوب سلس عام ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م [1] البحث بمعلومات وافيه وقيمه مدعمه بالوثائق ، فكان العمده في دراسة موضوع سقوط الخلافه العباسيه في بغداد ، وكذلك اكتساح المغول لبلاد الشام ، كما أمد البحث ببعض الحقائق عن معركة عين جالوت . [2]

ويلاحظ على رشيد الدين ميله الواضح الى زعماء الشيعه أمثال ابن العلقمي ، وكذلك الى زعماء المغول وتجريحه لزعماء المسلمين السنه وخاصة عند حديثه عن حصار المغول مدينة ماردين . هذا ما أخذه الباحث بعين الاعتبار في مواضعه . [3]

وفضلا عن هذه المصادر التي ورد ذكرها فقد أفاد البحث من مصادر أخرى كثيره مخطوطه ومطبوعه ، وكذلك مراجع حديثه ، وجميعها مثبته في حواشي الرساله .

واحتوت الدراسه على مقدمه وتمهيد وخمسة فصول ، اقتصرت المقدمه على دراسه نقديه لاهم مصادر البحث . وناقش التمهيد الاحوال في بلاد

---

(١) يقع كتاب جامع التواريخ في مجلدين كبيرين ، طبع منهما المجلد الثاني الذى يشمل تاريخ الدوله المغوليه من عهد " اوكتاي خان " حتى هولاكو خان وذلك بمدينة ليدن عام ١٩١١م ضمن مجموعة " جب التذكاريه " بتصحيح المستشرق اوجار بلوشيه . وطبعت منه في باريس سنة ١٨٤٤م قطعه خاصه عن تاريخ هولاكو بتصحيح المستشرق الفرنسي كاتر مير ، ونشر المستشرق كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ السلطان محمود غازان في مجموعة جب التذكاريه ايضا عام ١٩٤٠م ، كما أن له نسخه عربيه موجوده في دار الكتب والوثائق العربيه بالقاهره .(انظر عبد العزيز فهمي، تاريخ الدوله المغوليه في ايران ،ص ١٠). وقد اعتمدت هذه الدراسه على النسخة المترجمة الى العربيه ، التي اشترك في نقلها محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطي الصياد ، وراجعها وقدم لها يحيى الخشاب .

(٢) انظر مايلي ،في الفصل الاول والثاني .

(٣) انظر مايلي ، ص   ، حاشيه رقم   ؛ ص

الشام قبيل منتصف القرن السابع الهجري ،الثالث عشر الميلادى ، فأوضح أن بلاد الشام في ذلك الوقت كانت تتقاسمها سلطات ثلاث متنازعه فيما بينها هي سلطة الصليبيين الغربيين ، والارمن المسيحيين ، والحكام المسلمين ومن امراء البيت الايوبي . وألقى الاضواء على اوضاع تلك القوى كل منها على حده ، ومن ثم الجهود العظيمه التي بذلها الملك العادل الايوبي وبعض الامراء الايوبيين لتوحيد الجبهة الاسلاميه في الشام ومصر لمواجهة اطماع الصليبيين الغربيين ،والارمن المسيحيين في الشرق الاسلامي .

أما الفصل الاول وعنوانه " استيلاء المغول على بلاد الشام " فقد تطرق الى موضوع سقوط الخلافه العباسيه في بغداد ، باعتباره الاساس الاول الذى سهل على المغول بعد ذلك السيطرة على بلاد الشام ، حيث أوضح الاستعدادات الضخمه التي أعدها المغول للهجوم على مدينة بغداد خاضرة الخلافه العباسيه والمتمثله في تلك الارشادات والخطط الحربيه التي رسمها خان المغول منكو لأخيه هولاكو خان والتي قضت بأن يكمل الاستيلاء على ماتبقى من ايران وذلك بتحطيم قلاع الاسماعيليه في المنطقة القريبه من بحر قزوين .

وناقش هذا الفصل ماقام به هولاكو من توجيه رسائل عده الى الملوك والسلاطين في البلاد المجاوره يطلب منهم معاونته في تحطيم قلاع الاسماعيليه ، مقابل أن يبقيهم على ممتلكاتهم . وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته سيجرهم الى الهلاك والدمار . فكان لهذا التهديد والوعيد أثره البالغ على نفوسهم ، فسارع معظمهم الى تقديم فروض الطاعه لهولاكو الذى وصل على رأس جيشه الى قلاع الاسماعيليه واستولى عليها الواحدة تلو الاخرى .

ثم شرح الفصل بعد ذلك حالة الخلافه العباسيه التي أدركتها

الشيخوخه ، وظهرت عليها مظاهر الضعف والانهيار ، الذى لم يكن وليد عصره ، بل أن جذوره قد امتدت الى الخلافه العباسيه قبل مجيء المغول بمدة طويله . وزاد من ذلك عند وصول المغول ضعف شخصية الخليفه العباسي المستعصم بالله ، فضلا عن الصراع المذهبي العنيف الذى احتدم بين السنه والشيعه ، والذى لم يقتصر عليهم بل شمل الطوائف الاخرى من المسحيين واليهود الذين كانوا على خلاف دائم حول المسائل الدينيه والميول السياسيه . هذا بالاضافة الى تدهور الاوضاع الاقتصاديه داخل الخلافه العباسيه .

وتناول الفصل بعد ذلك رسائل التهديد والوعيد التي تبودلت بين هولاكو والخليفه العباسي . التي ضاق هولاكو بها ذرعا ، فأعلن الهجوم الكاسح على بغداد ، فدخلها المغول ، وأتوا على كل ما بها (آسرفوا في القتل والنهب والتخريب . وألقت الدراسه الاضواء على أهم النتائج التي ترتبت على سقوط الخلافه العباسيه في بغداد في أيدى المغول .

كما ناقش الفصل ايضا موقف القوى الاسلاميه وغيرها من الغزو المغولي بعد اكتساحهم مدينة بغداد ، فأوضح موقف الامراء المسلمين في شمال العراق وبلاد الشام ، وآسيا الصغرى ، الذين ساورهم الخوف من المغول ، فسارع معظمهم الى تقديم فروض الولاء والطاعه لهولاكو . كما ألقت الدراسه الاضواء على موقف القوى المسيحيه في الشرق الادنى من هذا الغزو .

وأخيرا شرح الفصل سقوط مدن أعالي الجزيره وبلاد الشام في أيدى المغول ، بعد أن أوضح ما قام به بعض الامراء المسلمين من محاولات جاده لتكوين جبهه اسلاميه لمواجهة العدوان المغولي .

ثم تطرق هذا الفصل الى طبيعة الغزو المغولي وأهدافه ، فأوضح التلاحم الذى تم بين القوى المغوليه والمسيحيه الشرقيه حتى غدت حملة المغول أشبه بحمله صليبيه أتت من الشرق لا من الغرب ، والتي أثمرت استيلاءهم على مدن أعالي الجزيره والشام والتطاول على المسلمين بها والاعتداء على مقدساتهم .

وناقش الفصل الثاني وعنوانه " معركة عين جالوت " ماسبق معركة عين جالوت نفسها من مقدمات متمثله في لجوء القوى الاسلاميه الهاربه من وجه الغزو المغولي الى الاراضي المصريه والتي استقبلها السلطان قطز أحسن استقبال ، وأصبحت تكوّن جزءا هاما من جيشه ، كما قام السلطان قطز بالاتصال بالصليبيين ، على ساحل بلاد الشام لمعرفة نواياهم لضمان عدم تورط قواته في جهتين متباعدتين في وقت واحد . وكذلك الاتصال بالخان المسلم بركه زعيم القبيله الذهبيه (القبجاق) وحثه على قتال ابن عمه هولاكو على اعتبار أن ذلك واجب يفرضه عليه دينه الاسلامي .

ثم تناول هذا الفصل حوادث معركة عين جالوت ، فأوضح التهديد والوعيد الذى وجهه هولاكو قبيل عودته من بلاد الشام الى عاصمته مراغه الى السلطان المملوكي المظفر قطز ، ورد السلطان عليه .

ومن ثم الحوار الذى دار بين الامراء المماليك والذى انتهى باجماعهم على اعلان الجهاد لمواجهة الغزو المغولي ، ثم تناولت الدراسه في هذا الفصل التنظيمات العسكريه التي نفذها السلطان قطز وقواده عند اشتباكهم مع المغول في غزه وعين جالوت ، والتي ادت الى تحقيقهم ذلك الانتصار الحاسم على المغول وحلفائهم الذى غيّر موازين القوى في ذلك الوقت ، وذلك لما ترتب عليه من نتائج عظيمه . كان أهمها الخسائر الماديه والمعنويه التي مني بها المغول وحلفاؤهم . والتي اعقبها طرد المغول

نهائيا من بلاد الشام ، واكتساب دولة المماليك صفة الشرعيه الكامله بعد أن نجح السلطان الظاهر بيبرس في إحياء مشروع الخلافه العباسيه في القاهره ، فضلا عن اضعاف مركز الامارات الصليبيه على ساحل بلاد الشام .

أما الفصل الثالث وعنوانه " جهاد السلطان الظاهر بيبرس ضد الصليبيين والمغول " فقد تناول في البدايه ماترتب على هزيمة المغول وحلفائهم في عين جالوت من أصداء في الاوساط المغوليه والمسيحيه على حد سواء ، والتي تجسدت في محاولات جاده لاقامة حلف مغولي صليبي لمواجهة الخطر المملوكي الذى بات يهدد وجودهم بالزوال من الشرق الادنى بأكمله .

كما تناول هذا الفصل الجهود العظيمه التي بذلها السلطان المملوكي بيبرس لاحتواء هذا الحلف والعمل على افشاله بعقد معاهدات صداقه مع بعض القوى الخارجيه التي كانت على عداء مع المغول والصليبيين .

وتناول هذا الفصل بعد ذلك الجهود الجباره التي ظهرت واضحه في الخطط الحربيه البارعه التي بذلها بيبرس للاطاحة بامارة انطاكيه الصليبيه ، التي اسهمت بزعامة اميرها الصليبي بوهيمند اسهاما فعالا في مساعدة المغول اثناء اكتساحهم القوى الاسلاميه في الشرق الاسلامي. وكذلك الحال بالنسبه لمملكة ارمينيه الصغرى التي مارس ملكها هيثوم الاول الدور نفسه في مساعدة المغول في ذلك الهجوم الكاسح ، حيث لقنه السلطان الظاهر بيبرس درسا قاسيا لم يستطع بعده تقديم أى مساعده تذكر لحلفائه المغول .

وأخيرا شرح هذا الفصل انتصارات السلطان الظاهر بيبرس على المغول في أعالي الشام والاناضول ، عندما حاولوا اكتساح مدن الشام من تلك الناحيه بعد أن عجزوا عن مهاجمتها عن طريق معابر نهر الفرات .

وتناول الفصل الرابع وموضوعه " جهاد اسرة قلاوون ضد المغول والصليبيين " أحوال دولة سلاطين المماليك عقب وفاة السلطان العظيم الظاهر بيبرس ، فأوضح الخلافات التي نشبت بين القاده المماليك والتي كادت أن تطيح بذلك الصرح المملوكي العظيم ، خاصة بعد أن استغل المغول وحلفائهم ذلك الخلاف ، وحاولوا احتلال بلاد الشام مرة أخرى ، لولا ذلك التصرف الحكيم الذى اتبعه السلطان قلاوون بعد اعتلائه عرش السلطنه المملوكيه مع خصومه ، وعلى رأسهم الامير سنقر الاشقر ، حتى تمكن من لم شمل المسلمين ، وتوحيد كلمتهم لمواجهة اعدائهم ، والذى تمكن قلاوون بفضله تحقيق ذلك النصر العظيم على المغول في معركة حمص الشهيره التي أطاحت بآمال المغول في انتزاع بلاد الشام من أيدى المسلمين مرة أخرى .

وتناول الفصل بعد ذلك ، التحول الكبير الذى حدث في صفوف مغول فارس بعد وفاة الايلخان أبغا ، وجلوس السلطان المسلم احمد تكدار على العرش المغولي في فارس ، والذى كان له الدور الكبير في اعتناق المغول في اقليم فارس للدين الاسلامي ، ومن ثم محاولته اقامة علاقات طيبه مع دولة سلاطين المماليك قائمه على احترام مبادىء الدين الاسلامي وحسن الجوار ، والتي كادت أن تحقق للدين الاسلامي انتشارا اوسع في الاوساط المغوليه لولا خروج ارغون خان على عمه احمد تكدار ونسفه تلك المحاولات الخيّره .

كما تناول الفصل بعد ذلك ، جهاد السلطان المنصور قلاوون وابنه الاشرف خليل ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام ، فأوضح الجهود الجباره التي بذلها السلطان قلاوون والتي ظهرت واضحه في الخطط الحربيه البارعه التي نفذها ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام حتى تمكن من السيطرة على امارة طرابلس الصليبيه . ومن ثم شروعه في الاعداد للاستيلاء على آخر معقل للصليبيين في الشرق الاسلامي ، بقايا مملكة بيت المقدس

الصليبيه ، في مدينة عكا وماجاورها ، وعندما لم يمهله القدر لينال هذا الشرف العظيم قام باكمال هذه المهمة من بعده ابنه السلطان الاشرف خليل الذى حقق آمال زعماء الجهاد ضد الصليبيين واقتلاع الوجود الصليبي في الشرق الاسلامي من جذوره .

أما الفصل الخامس والاخير ، فقد ناقش موضوع " مقومات حركة الجهاد عند المماليك " حيث تناول بالشرح السبل التي اتبعها سلاطين دولة المماليك لاحياء فكرة الجهاد في نفوس المسلمين ، ومن ثم تفكيرهم في تكوين جيش منظم قام على أساس اقطاعي ، كفل لسلاطين المماليك توفير كافة الاحتياجات لهم ولجيوشهم ، من مؤن وعتاد وأسلحه ، فضلا عن كون هذا النظام الاقطاعي قد كفى سلاطين هذه الدولة دفع رواتب لجيوشهم .

كما تناول هذا الفصل بالدراسة ديوان الجيش المملوكي الذى كان بمثابة الجهاز التنظيمي لنظام الاقطاع الحربي ، وكذلك عناصر الجيش المملوكي الذى كان يتكون من الجيش السلطاني وجند الامراء وفرق الجند المتطوعه ، فضلا عن طائفة " أولاد الناس " التي استحدثها المماليك في عهدهم . ثم عالج هذا الفصل اساليب القتال المتنوعه التي اتبعها سلاطين المماليك في جهادهم ضد المغول والصليبيين ، وكذلك أنواع الاسلحة التي استخدمت في ذلك ، وأخيرا تناولت الدراسه في هذا الفصل دور سلاطين دولة المماليك في اعادة بناء الاسطول الاسلامي منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وما أسهم به الاسطول في عهدهم من مجهود وافر في تحقيق النصر على المغول والصليبيين ، وتطهير بلاد الشام منهم .

وأخيرا احتوت الرساله على خاتمه توضح أهم النتائج التي توصل اليها البحث ، ومجموعه من الملاحق التي تفسر بعض الحوادث

الواردة في فصول الرسالة .

ومن الواجب في هذا المقام ، أن أتقدم بخالص شكري وتقديري، واعترافي بالجميل الى استاذي الفاضل المشرف على الرسالة الاستاذ الدكتور / محمد حمدي عبدالحميد المناوي ، الذي لم يبخل عليّ طيلة مدة البحث بغزير علمه ، ووافر توجيهاته وارشاداته العلميه السديده . جزاه الله عني وعن طلابه وطالباته خير الجزاء .

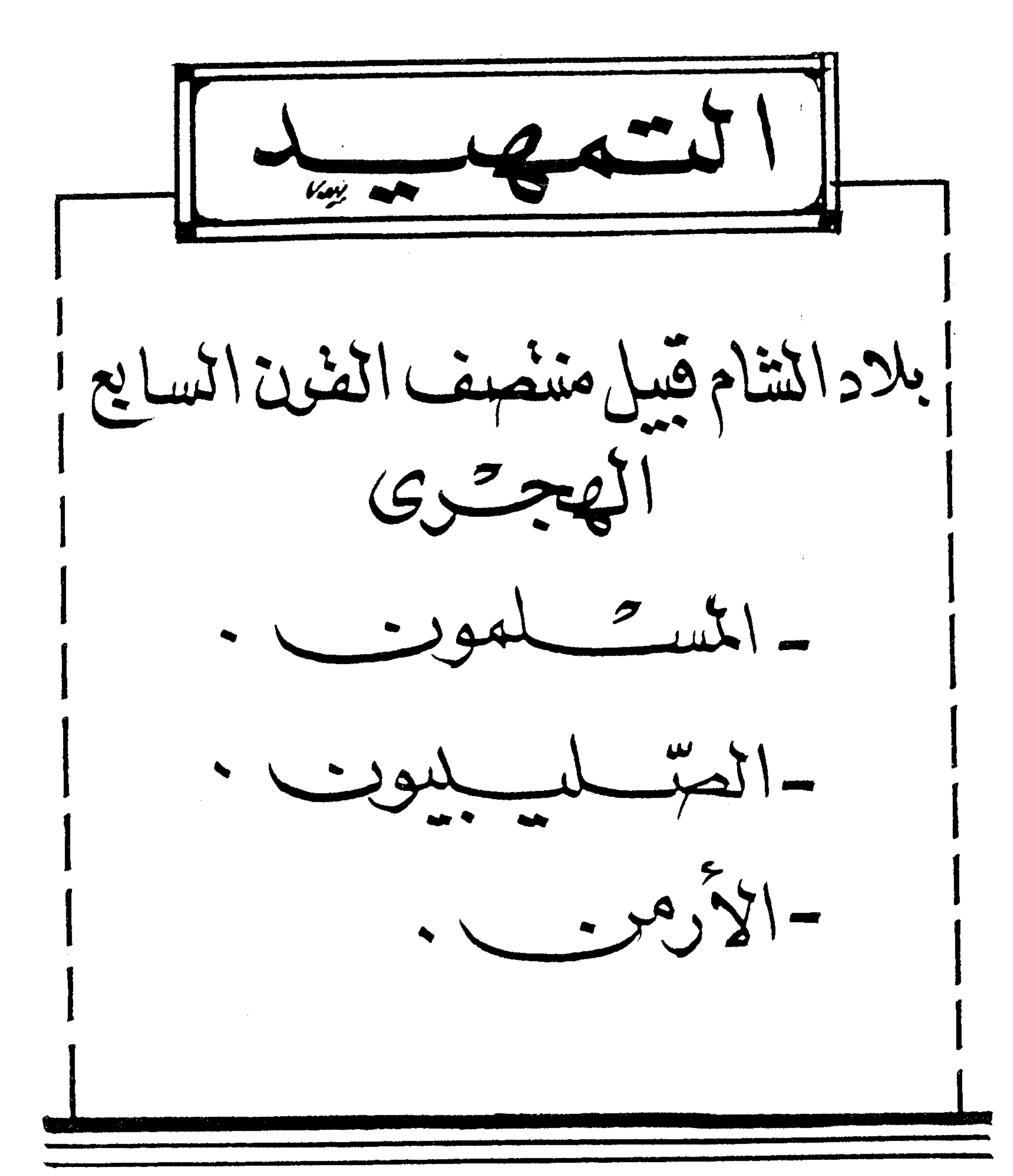
كما لايفوتني أن أتقدم بخالص شكري الى المسئولين في مكتبات جامعة أم القرى ، ومكتبة الحرم المكي الشريف بمكة المكرمه ، ومكتبة جامعة الملك عبدالعزيز ، ومكتبة وزارة المعارف بجده ، ودار الكتب المصريه ، ومكتبة جامعة القاهره ، والمكتبه الازهريه ، ومعهد احياء المخطوطات العربيه بالقاهره ، ومكتبات استانبول فيما قدموه من مساعدات قيمه .

والله أسأله العون والسداد ، انه نعم المولى ونعم النصير وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على خاتم الانبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

الباحث

عبد الله سعيد محمد الغامدي



التمهيد

بلاد الشام قبيل منتصف القرن السابع الهجري

- المسلمون .
- الصليبيون .
- الأرمن .

ـ التمهيد : بلاد الشام قبيل منتصف القرن السابع الهجرى .

كانت بلاد الشام قبيل منتصف القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى تتقاسمها سلطات ثلاث متنازعه فيما بينها ، هي سلطة الصليبيين الغربيين والارمن المسيحيين ، والحكام المسلمين من أمراء البيت الايوبي . الذين انقسموا على أنفسهم بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م اثر مرض قصير اعتراه ، وكانت وفاته خساره فادحه للجبهه الاسلاميه المتحده التي انهارت بعده ، والتي كان من الممكن بفضل استمرار تكوينها تحقيق المزيد من الانتصارات العظيمه على الصليبيين وغيرهم من أعداء الاسلام . الا أن رحيل صلاح الدين جاء نذير انقسام في جسم الدولة الايوبيه بسبب قيام المنازعات بين أولاده حول تقسيم التركه . حيث اشتغل أكبرهم وهو الافضل علي بحكم دمشق والساحل وبيت المقدس ، أما الابن الثاني وهو الملك العزيز عثمان والذى كان بمصر وقت وفاة والده ، فقد احتفظ بها . في حين بقيت حلب وأعمالها من نصيب الظاهر غازى(١) أما الملك العادل الايوبي ـ أخو صلاح الدين ـ فقد كان نصيبه من هذه التركه الكرك [٢] والاردن وأرض الجزيره وديار بكر التي ظلت على حالتها

---

(١) عماد الدين ،الفتح القدسي ،ص ٣٥٩،٣٥٨ ؛ ابن واصل ،التاريخ الصالحي، ورقه ٢٠٩ ؛ الصفدى ،تحفة ذوى الالباب ،ورقة ٤٩ آب ، ١٥٠ آب ؛ ابن الاثير ،الكامل ،ح١٢ ،ص ٩٨،٩٧ ؛ العليمي ،تاريخ من ملك عكا والشام وحلب والسواحل ،ورقه ١١١ب ،الحلبي ، جهينة الاخبار ،ورقه ٣٧ ب ، ٣٨ آ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهره ،ح٦ ،ص ١٢١ ـ ١٤١ ؛ سعيد عاشور، الحركه الصليبيه ،ج٢ ،ص ٩١٢ ؛ الباز العريني ،الشرق الادنى في العصور الوسطى ،القسم الاول (الايوبيون) ،ص ١١٥ ؛ علي الغامدى ،بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،ص ٣٥ .

(٢) عن الكرك : انظر مايلي ،ص ١٩٧

اقطاعا له .[1] أما بقية الاراضي فقد وزعت كاقطاعات على بقية اخوة صلاح الدين وأبناء بيته .[2]

ولم تمض سنة واحدة على وفاة صلاح الدين حتى دب الشقاق ونشبت حرب الوراثه بين أبناء البيت الايوبي ، حيث هاجم الملك العزيز عثمان الملك الافضل بدمشق ، اذ لم ترق له على مايبدو - تلك الوصيه التي أوصى بها صلاح الدين لابنه الاكبر الافضل بالسلطنة من بعده ، بمعنى أن تكون له السلطه العليا في جميع انحاء الدوله الايوبيه[3] وبالرغم من محاولة الملك العادل والملك الظاهر وقف النزاع بين الاخوين ،فان العزيز خرج من مصر في صيف سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٤م قاصدا الشام وشرع في حصار الافضل بدمشق ، الامر الذى دفع الملك الافضل الى اللجوء الى عمه الملك العادل والاستنجاد به .[4]

وبهذا العمل اتيحت الفرصة للملك العادل وهو الرجل الطموح الذى كان يعمل جاهدا على اعادة توحيد الدوله الايوبيه تحت زعامته . والذى كان يدرك في الوقت نفسه بأن نصيبه من تركة أخيه صلاح الدين لاتليق بمكانته وما قدمه من خدمات جليله في حياة صلاح الدين . والواقع أن العادل الذى كان يتمتع بذكاء شديد حيث وصفه ابن واصل

---

(١) ابن واصل ،مفرج الكروب ،ج٢ ،ص٣٧٨ ؛ ابو شامه ،الروضتين ،ج٢ ،ص ٥٢ ؛ العريني ، الايوبيون .

(٢) انظر العماد ،الفتح ،ص ٣١٤ ؛ سعيد عاشور ،الحركه الصليبيه ،ج٢ ،ص ٩١٢،٩١٣ ؛ العريني المرجع نفسه .

(٣) ابن الاثير ،الكامل ،ج١٢ ،ص ٩٧ ؛ سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٩١٧ .

(٤) ابن الاثير ،المصدر نفسه ،ج١٢ ص١٠٩ ؛ سعيد عاشور ،ص ٩١٣، ٩١٤ ؛ العريني ، المرجع نفسه .

بأنه " ذا مكر وخديعة [1] " كان يشعر بذلك الشيء منذ البدايه الا انه لم يشأ أن يتعجل الامور عقب وفاة صلاح الدين ، وأخذ يتحين الفرص المناسبه فاستجاب لنداء الملك الافضل ، واتصل بالملك الظاهر غازى صاحب حلب والملك المنصور محمد صاحب حماه ، والملك أسد الدين شيركوه صاحب حمص والامجد صاحب بعلبك ، واتفق مع هؤلاء جميعا على الوقوف مع الملك الافضل صاحب دمشق ، ومنع الملك العزيز صاحب مصر من الاستيلاء على دمشق . وكان لهذا الحلف الاثر البالغ في تثبيط عزيمة الملك العزيز ، الذى أدرك أن لاقبل له بمقاومة اولئك الامراء جميعا ، فأزمع العوده الى بلاده ، ولم يشأ العادل أن يعود العزيز الى مصر دون تسويه سلميه ، مع اخوته في بلاد الشام ، فاجتمع به وطيب خاطره بأن زوجه احدى بناته [2] وسوى بين الطرفين ، بأن يحتفظ الافضل بدمشق وطبريه وأعمال الغور في حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين ، ويأخذ الظاهر جبله واللاذقيه علاوه على مابأيديهم [2] وبهذه التسويه العادله الهادئه أثبت العادل أنه الرجل القوى العاقل الحريص على وحدة البيت

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ ص ٧١

(٢) سبط ابن الحوزى ،مرآة الزمان ،ج٨ ،ص ٤٣٦ ؛ ابن واصل ،مفرج الكروب ،ج٣، ص ٣٤ - ٣٧ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهره ،ج٦ ،١٢٢؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ص ١١٧ ؛ سعيد عاشور ،الحركه الصليبيه ،ج٢ ، ص ٩١٤ ،٩١٥ .

(٢) الاصفهاني ،البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان ،ورقه ١٢٥ آ ؛ العيني ،عقد الجمان ،ج١٣ ،ص ١٨٦ ،١٨٧؛ ابن الاثير ،الكامل ج١٢،ص ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم ،ج٦ ،ص ١٢١ ؛ سعيد عاشور ،المرجع نفسه ،والغور يبدأ من أول بحيرة طبريا ثم يمتد على بيسان حتى ينتهي الى زغر ويرد البحيره الميته ،والغور مابين جبلين غائر في الارض جدا ،وبعض الغور من حد الاردن الى أن يجاور بيسان ، فاذا جاوزه كان من حد فلسطين ،وهذا البطن اذا امتد فيه السائر اداه الى ايله (انظر ابن حوقل ،صورة الارض ،ص ١٦٠) .

الايوبي للوقوف في وجه العدوان الصليبي المتربص بالمسلمين الوائر في ذلك الوقت[١] الا أن هذه التسويه لم تدم طويلا اذ عاد الخلاف مرة أخرى بين الملك الافضل وأخيه الملك العزيز الذى خرج في العام التالي ٥٩١هـ/١١٩٥ م من مصر على رأس جيش كبير لمحاربة أخيه الافضل ،الذى سارع بدوره الى الاستنجاد مره أخره بعمه الملك العادل. وفي هذه المره اتبع الملك العادل سياسه اخرى حكيمه لتهدئة الموقف وحقن الدماء اذ عمل على مراسلة امراء الملك العزيز وحرضهم على التخلي عنه ،فوجد العزيز نفسه في الطريق الى دمشق ، وقد انفض عنه أمراؤه ، فاضطر العوده الى مصر .[٢] ويبدو أن العادل أدرك أن ذلك الخلاف بين الاخوين لن ينتهي ،فبدأ يفكر جادا في السيطرة على الامور ، مستغلا ذلك الفرق الكبير بين كل من الافضل والعزيز ، اذ كان الاوله يميل الى حياة اللهو والدعه والانغماس في الملذات،بينما كان العزيز على قدر كبير من المروءه والطيبه وحسن الخلق ، فحسن للعزيز انتزاع دمشق من يد الافضل تمهيدا لفرض سيطرته عليها ، فاستجاب له العزيز ، وسار على رأس جيشه لمحاربة الافضل في دمشق وتمكن من الاستيلاء عليها في سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م ، وحينئذ حل العادل محل الافضل في دمشق وحكمها نيابة عنه .[٣]

---

(١) سعيد عاشور ،الحركه الصليبيه ،ج٢ ،ص ٩١٥ ؛ وجبله : قلعة مشهوره من قلاع بلاد الشام الساحليه وتعد من أعمال حلب قرب اللاذقيه . (انظر ياقوت ،معجم البلدان) .

(٢) ابن واصل ،التاريخ الصالحي ،ورقه ٢١٢ آ ؛ مفرج الكروب ،ج٣ ،ص ٤١،٤٢ ؛ ابن الفرات ،تاريخ ابن الفرات ،ج٤ ،قسم ٢ ،ص ١٠٣ ، ١٠٤ ؛ المقريزى، السلوك ،ج١ ،ص ١٢٤ ، ١٢٥ ؛ عاشور ،المرجع السابق ،ج٢ ،ص ٩١٥ ؛ علي الغامدى، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،ص ٤١ .

(٣) ابن واصل ،مفرج الكروب ،ج٣ ،ص ٦١ ؛ ابن تغري بردى ،النجوم الزاهره ، ج٦ ،ص ١٢٦ ؛ العريني ،الايوبيون ،ص ؛ سعيد عاشور ،مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ،ص ٦٣ .

محققا بذلك العمل اول أهدافه لاعادة توحيد الدوله الايوبيه ،ثم توالت الفرص للملك العادل لتحقيق بقية أهدافه ، فلم تمض سوى مده قليله على توليه مدينة دمشق حتى لقى الملك العزيز عثمان مصرعه في مصر سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩ م ،الامر الذى شجع الملك الافضل على الوصول الى مصر ليلى الوصايه على المنصور بن العزيز الذى لم يكن قد تجاوز العاشره من عمره . ثم انتهز الافضل هذه الفرصه السانحه ، فجمع الجيوش المصريه وخرج على رأسها قاصدا بلاد الشام في محاوله لاعادة سلطانه على مدينة دمشق ، الا أن الملك العادل تنبه لخطورة الموقف ، فسبقه الى مدينة دمشق ، فأدرك الافضل أن لاقبل له بمحاربة عمه العادل ، فعاد الى القاهره دون تحقيق هدفه ، وعاقبه العادل على ذلك العمل بأن تعقبه في طريق عودته الى مصر ووقعت بين الطرفين معركة قويه في بلبيس كان النصر فيها من نصيب الملك العادل ، أما الافضل الذى مني بخساره فادحه في هذه المعركه ، فلم ير بدا بعدها من اعلان خضوعه لعمه العادل ، الذى دخل الى القاهره واستولى عليها سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م .[١] وغدا بذلك سلطانا على مملكة صلاح الدين كلها ما عدا بلاد الحجاز واليمن ،وأعالي الشام، حيث كانت تحكم فروع من البيت الايوبي في حلب وحمص وحماه ، واختفظت هذه الديولات الشاميه باستقلالها مقابل الاعتراف بزعامة العادل والتعهد بتقديم المعونه الحربيه اليه كلما طلب ذلك .[٢]

---

(١) الاصفهاني ،البستان الجامع ،ورقه ١٤٦ ب ،١٤٧ آ ؛ العيني ،عقد الجمان ، ح١٣ ،ص ٢٤٣ ،٢٤٤ ؛ ابن الاثير ،الكامل ،ح١٢ ،ص ١٥٥ ؛ ابو شامه ، الروضتين ،ح٢ ،ص ٢٣٧ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم ،ج٦ ،ص ١٢٦ ؛ العريني ، الايوبيون ،ص ١١٦ ،١١٧ ،وبلبيس مدينه بمصر على طريق الشام بينها وبين الفسطاط ،عشرة فراسخ (انظر ياقوت ،معجم البلدان) .

(٢) ابن الفرات ،تاريخ ابن الفرات ،ج٤ ،ق ٢ ،ص ١٧٧ ؛ الجنابي ،البحر الزاخر، ح٢ ،ورقه ١٧ ب ؛ العريني ،المماليك ،ص ٣٦ ،٣٧ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١، ص ٢٠٩ .

وجه العادل بعد ذلك جهوده نحو تهديدات الصليبيين ، حيث أعد ملك بيت المقدس جان دى برين حمله صليبيه جديده [١] وجهها الى مصر سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م بعد أن أدرك أن مصر هي مركز المقاومة الاسلامية ، فاستولى على دمياط . وفي هذه السنة مات الملك العادل ،وخلف لابنه السلطان الكامل معالجة الموقف ، الى أن انتهى الامر بعقد صلح معهم جلوا بموجبه عن دمياط سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ ،وعقد معهم هدنه لمدة ثمان سنوات . [٢]

ومات الكامل بدمشق سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م بعد أن حكم مصر أربعين عاما،منها عشرون عاما نائبا عن أبيه وعشرون سلطانا ، وولي الامر بعده ابنه العادل الصغير الذى لم يمكث في السلطنه سوى عامين فخلعه الجند وتولى السلطنه أخوه الملك الصالح سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠ م وهو الذى استدعى الخوارزميه الفارين من وجه جنكيز خان ،فاستولى بمساعدتهم على بيت المقدس سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٤ م [٣] كما استولى على دمشق سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م وعسقلان سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م من عمه الصالح اسماعيل الذى كان على علاقه طيبه مع الصليبيين . [٤] وبذلك تمكن الصالح ايوب من اعادة

---

(١) لمعرفة تفصيل هذه الحمله (انظر محمود سعيد عمران ،الحمله الصليبيه الخامسه ،حملة جان دى برين على مصر) .

(٢) ابو شامه ،الروضتين ،ج٢ ،ص ١٨٤ ، ١٨٥ ؛ العريني ،الايوبيون ،ص ١٢٤ ؛
Selec Tions from Tarik Ibn Alfurat . P.75 ؛
Steverson; The crusaders in theEast.P 307 ؛
ودمياط : مدينه قديمه بين تنيس ومصر ،وصفها ياقوت بانها ثغر من ثغور الاسلام (انظر معجم البلدان) .

(٣) ابن تغرى بردى ،النجوم ،ج٦ ،ص ٣٢٣ ؛ ابن دقماق ،نزهة الاسلام في تاريخ الاسلام ،لوحه ٣٤ ، ٦٣ ، ٦٨ ؛ العريني ،الايوبيون ،ص ١٤١ ؛ محمد حلمي محمد احمد ،مصر والشام والصليبيون ،ص ٢١٤ .

(٤) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج٦ ،ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ ؛ العريني ،المرجع السابق ،ص ١٤٢ ؛
Selctions. From Torik IBN Alfurat.p.76.

الدولــة الايوبيـــه الى وحدتهـــا • وبدأ يوجه جهوده لوقف تهديـدات الصليبيين ،حيث أعد لويس التاسع ملك فرنسا حمله صليبيـه جيـده [١] نـزل بها على دمياط سـنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م ،وفـي هـذه الظروف الحرجه مات الملك الصالح ، فقامت زوجته شجر الـدر بتسيير دفـة الحـرب وشئون البلاد المصريـه ، حتى قدم ابنـه نورانشـاه من حصن كيفا بديار بكر سـنة ٦٤٧هـ / ١٢٥٠م ، وتمكن من مواصلة جهود والده ضد الصليبيين حتى اجلاهم عن مصـر بمساعدة المماليك البحريه [٢] الذين اساء معاملتهم بعد ذلك فنقموا عليه ، وعقدوا العزم على التخلص منه ، فقتلوه سنة ٦٤٨هـ / ١٢٤٠م [٣] ووقـع اختيارهم على شجر الدر لتلي السلطنه من بعده . [٤]

---

(١) عن حملة لويس التاسع على مصر انظر (جوافقيل ،القديس لويس ؛ محمد مصطفى زياده ،حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصوره ؛ جوزيف نسيم ،العدوان الصليبي على مصر هزيمة لويس التاسع في المنصوره وفارسكور ؛ حسن حبشي ،حملة القديس لويس على مصر والشام ؛ عبد الرحمن زكـي ، معركة المنصوره وآثرها في الحروب الصليبيه) •

(٢) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ص ٣٥٣ – ٣٥٩ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم ،ح١ ، ص ٣٢٤ – ٣٢٦ ؛ العريني ،الايوبيون ،ص ١٤٩ – ١٥٢ ؛المماليك ،ص ٤٦ ؛ وحصن كيفا : بلده وقلعه عظيمه كانت تشرف على دجله بين امد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر (انظر ياقوت معجم البلدان ؛ القرماني ، أخبار الدول وآثار الاول ،ص ٣٣٦) •

(٣) العيني ،عقد الجمان ،ج١٩ ،ص ٣١٣ ، ٣١٤ ؛ المقريزى ،السلوك ،ح١ ، ص٣٥٨ •

(٤) الخزرجي ،تاريخ دولة الاكراد والاتراك ،ورقه ١٩٦ ب ، ١٩٧ آ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم ،ح ٦ ،ص ٣٧٢ ؛ العريني ،المرجع السابق ، ص ٤٦ •

وبمقتل توران شاه انتهى حكم الايوبيين في مصر ،لان اختيار المماليك لشجر الدر أرملة الصالح أيوب ، والتي كانت بحكم أصلها أقرب الى المماليك منها الى الايوبيين جعلها اولى سلاطين المماليك في مصر ، ولعل مما يؤيد هذا الرأى هو زواجها من أمير مملوكي هو ايبك التركماني عندما استاء المسلمون من أن يلي أمرهم امرأه .(١)

فضلا عن أن ذلك الحدث لم يرق للايوبيين في بلاد الشام ، اذ سارع الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب الى الاستيلاء على دمشق التابعه لمصر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م .(٢)

كما أعلن الملك المغيث عمر الايوبي استقلاله بالكرك والشوبك .(٣) الامر الذى أثار حفيظة المماليك في مصر فتنبهوا لخطر الايوبيين عليهم، فاستدعوا طفلا من البيت الايوبي اسمه الاشرف موسى وجعلوه سلطانا على مصر تحت وصايتهم .(٤)

الا أن تلك الحيله لم تجد أمام التصميم الايوبي في الاستيلاء على مصر واعادتها الى حوزتهم . وبدأ الصدام الفعلي بين الايوبيين

---

(١) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ص ٣٦٩؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهره ،ج٦،ص٣٧٤؛ سعيد عاشور ،الحركه الصليبيه ،ج٢ ،ص ١٠٧٨؛ العريني ،المماليك ،ص ٤٦ ؛ انظر ايضا ،علي ابراهيم حسن ،نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ،ص١٠٧.

(٢) ابن ايبك الدرادار ،الدر المطلوب ،ج٧ ،ص ٣٨٥ .

(٣) ابن ايبك الدرادار ، المصدر نفسه ،ج٧ ،ص ٣٨٥ ؛ والملك المغيث هو :المعز فتح الدين عمر بن ابي بكر بن الكامل محمد بن ابي بكر العادل بن ايوب توفي سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م (انظر الزبيدى ،ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب) ،ص ٦٢ ،١٠٥ .

(٤) ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهره ،ج٧ ،ص ٥ ؛ ابن الراهب ،تاريخ ابن الراهب ،ص ٩٩ .

والمماليك حيث زحف الملك الناصر على غزه واستولى عليها ، مما جعل الطريق الى مصر مفتوحا أمامه . فتقدم حتى دخل الى الاراضي المصريه يحدوه الامل الى السيطرة عليها .(١)

وفي مقابل ذلك خرجت الجيوش المصريه لوقف زحفه بعد أن أعلن ايبك أن البلاد تحت سلطة الخلافه العباسيه ، صاحبة السلطان القديم على الاراضي المصريه ، وأنه نائب الخليفه العباسي بها .(٢)

والتقى المماليك بالايوبيين في معركه كبيره عند بلدة العباسيه (٣) سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م انتصر فيها الملك الناصر أول الامر ، الا أن فرقه من جيشه تدعى المماليك العزيزيه خذلوه وانضموا الى العسكر المصرى الذى تمكن بمساعدتهم هزيمة الناصر الذى عاد ادراجه الى بلاد الشام.(٤)

---

(١) ابن ايبك ،الدرة الزكيه ،ج٨ ،ص١٦،١٧ ؛ عاشور ،الحركة الصليبية ،ج٢، ص١٠٨٧ .

(٢) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ص٣٧٠ ؛ ابو الفدا ،المختصر ،ج٣ ،ص١٩٢ ؛ العبادى ،قيام دولة المماليك في مصر ،ص١٢٥ .

(٣) العباسيه : بليده تقع على طريق القاصد مصر من الشام ، بينها وبين القاهره خمسة عشر فرسخا عمّرها السلطان الكامل وجعلها أحد منتزهاته ، (انظر ياقوت ،معجم البلدان) .

(٤) ابن واصل ،مفرج الكروب ،ج٢ ،ص٣٨٢ ،٣٨٣ ؛ المقريزى ،المصدر نفسه ، ج١ ،ص٣٧٣ ،٣٧٥ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم ،ج٧ ،ص٨٠٧ ؛ ابن ايبك ، المصدر نفسه ،ج٨ ،ص١٦ ،١٧ ؛ العبادى ،المرجع نفسه ،ص١٢٦ ،١٢٧ .
والعزيزيه : نسبه الى العزيز محمد والد الناصر يوسف ،وقد انتقلوا الى خدمته بعد وفاة ابيه سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م (انظر احمد مختار العبادى ،المرجع نفسه ،ص١٢٦ حاشيه)

وساق الملك المعز خلفه يتعقبه ، الا أن تدخل الخليفه العباسي المستعصم بالله انهى الخلاف بين الطرفين المتحاربين ، وتقررت قواعد الصلح بينهما .(١) قاصدا بذلك التدخل حقن دماء المسلمين ، وتوحيد جهودهم لايقاف تغلغل الصليبيين في بلاد الشام ، ومن ثم الوقوف في وجه الخطر المغولي القادم من الشرق .

أما بالنسبه لشمال الشام والذى كان خاضعا لسلطة الارمن المسيحيين فقد شاءت الظروف أن يتوج لبو الثاني ، ملكا على أرمينيه الصغرى(٢) سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٨ في الوقت الذى اعقب وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م تقسيم دولته بين أفراد أسرته - كما سبق أن أشرنا - (٣) .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ،ج٣ ،ص ١٧٠ .

(٢) نجم عن توسع السلاجقه في هضبة ارمينية، هجرة اعداد كبيره من الارمن عن مواطنهم الاصليه الى الاقاليم الواقعه غربي نهر الفرات وشماليه ، وقد اشتدت هجرة هؤلاء الارمن عقب انتصار السلاجقه في معركة ملازكرد سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١م ،فلجأ كثير منهم الى جبال طوروس والى اقليم قليقيه وشمال بلاد الشام والجزيره ،مثل انطاكيه والرها واللاذقيه وأرتاج وأفاميه وتل باشر ،وقد اختار الارمن هذه المناطق لبعدها عن الطرق الرئيسيه التي سلكها السلاجقه في غزواتهم . وأصبحت هذه المناطق التي نزح اليها الارمن تعرف باسم ارمينه الصغرى (سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ومملكة ارمينيه الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ٢٢٨، ٢٢٩)؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبيه ،ج١ ،ص ١١٢، ١١٣؛ كارل بروكلمان ،تاريخ الشعوب الاسلاميه ،ص ٤٠٢ ؛ عليه الجنزوري ، امارة الرها الصليبيه ،ص ١٢٢ ؛ دائرة المعارف الاسلاميه (ماده ارمينيه)؛ علي الغامدى ،بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ،ص ٣٢٣ .
Cahen, la. Syriedunord, p.190; The cambridg medieval, vol. Iv,p.R,628 - 629 .

(٣) راجع ماسبق ،ص ٢٤ .

ويبدو أن ذلك النزاع الذى احتدم بين أمراء البيت الايوبي بعد رحيل السلطان العظيم صلاح الدين ، أدى الى زيادة أطماع الارمن في السيطرة على أجزاء من بلاد الشام ، فحدثت اشتباكات عنيفه بين ليو الثاني ملك أرمينيه وبين الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب ، بسبب امارة انطاكيه الصليبيه التي كانت على علاقة طيبه مع الملك الظاهر . ذلك أنه حدث بعد وفاة بوهيمند الثالث حاكم انطاكيه الصليبي سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م أن ساءت العلاقه بين ارمينيه الصغرى وانطاكيه بسبب طمع ليو الثاني الارمني في بسط سيادته على امارة انطاكيه عن طريق الوراثه ،وهاجمها سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٣م ، فأسرع الملك الظاهر الايوبي صاحب حلب لنجدة حلفائه في امارة انطاكيه ، الامر الذى اضطر معه ملك أرمينيه الى العوده الى بلاده دون تحقيق هدفه .(١)

ولا شك أن ذلك التدخل من الملك الظاهر قد أغضب اليو الثاني الارمني ، والذى عزم على الانتقام منه بالقيام بهجوم مباغت على دير بساك سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٥م .(٢) وأمام ذلك الاعتداء خرج الملك الظاهر غازى بنفسه على رأس قواته سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٦م للانتقام من الملك الارمني ، وانضم اليه حاكم امارة انطاكيه ، ولم يستطع ليو الثاني الصمود أمام هذه القوات المتحالفه ، بل تقهقر أمامهم ثم وافق على عقد هدنه معها لمدة ثمان سنوات . الا أن تلك المعاهدة لم تدم طويلا ، اذ حدث أن قام الملك الظاهر غازى بمساعدة سلطان

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ،ج٣ ،ص ١٤٠ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ص ١٦٠ - ١٦٣ ؛ سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ومملكة ارمينيه الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ،ص ٢٤٠ .

(٢) ابن شداد ،الاعلاق الخطيره ،ج١ ،ص ٣٧٨ ؛ ابن واصل ، المرجع نفسه ، ج٣ ،ص ١٤٠ ؛ ابن الاثير ،الكامل ،ج١٢،ص ١٠٠ ؛ عاشور ،المرجع نفسه ، ص ٢٤١ . ودير بساك : حصن قرب انطاكيه من اعمال حلب (انظر ياقوت، معجم البلدان) .

سلاجقة الروم بهجوم مفاجيء على ارمينه الصغرى ، انتهى باستيلاء المسلمين على حصن عرقوس قرب مرعش ، وبعض القلاع الاخرى في تلك المنطقة . (١)

على أنه اذا كانت امارة حلب قد انفردت ـ بحكم موقعها في شمال بلاد الشام ـ بمواجهة قوة ارمينيه الصغرى في النصف الاول من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، فان الموقف اختلف في النصف الثاني من ذلك القرن ، ذلك أن قيام دولة المماليك المسلمين في مصر والشام تحت قياده سياسيه واحده أدى الى جعل مملكة ارمينيه الصغرى في مواجهة هذه الدوله الفتيه التي استهدفت منذ بداية عهدها الجهاد ضد المغول والصليبيين جميعا . (٢)

أما بالنسبه لاوضاع الصليبيين ببلاد الشام في ذلك الوقت ، فلم تكن أحسن حالا من غيرها ، فبالرغم من أن وفاة صلاح الدين قد أغرت المتحمسين في الغرب الاوربي الى القيام بحملات صليبيه جديده على المشرق الاسلامي بهدف استعادة بيت المقدس من المسلمين ، لاسيما وأن صلح الرمله الذى عقده ريتشارد قلب الاسد مع صلاح الدين سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م كان محددا بثلاث سنوات وثلاثة أشهر . (٣)

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ١٨٧ ؛ سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة ارمينيه الصغرى ، ص ٢٤١ . ومرعش : مدينه في الثغور بين الشام وبلاد الروم (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ٢٤١ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانيه ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٠٣ ؛ ابن واصل ، المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٤٠٤ ؛ سعيد عاشور ، الحركه الصليبيه ، ج٢ ، ص ٩١٧ .

فان تلك الحملات الصليبيه التي استهدفت الاراضي المصريه التي كانت تعد مركز المقاومه الاسلاميه في العصور الوسطى لم تحقق ولو جزء بسيط من أهدافها ، باستثناء ماحققه الامبراطور فردريك الثاني من استعادة بيت المقدس لبعض الوقت بالطرق السلميه من الملك الكامل الايوبي بمقتضى صلح يافا سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م .(١) فقد اضطربت أحوال الصليبيين في جنوب الشام وشماله ، ففي الجنوب شهدت مملكة بيت المقدس صراعا مريرا مع مملكة قبرص ، نتيجة استنجاد أسرة آل ابلين بحنادى ابلين .(٢) هذا فضلا عن أنه اذا كانت مملكة قبرص قد استطاعت سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ هـ أن تخلص نفسها من سيطرة الامبراطوريه المقدسه ، فان مملكة بيت المقدس في بلاد الشام ظلت حتى سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م - تابعه من الناحيه القانونيه على الاقل للامبراطوريه . وطوال هذه المده كان أباطرة الغرب مشغولين عن ممتلكاتهم في الشرق . الامر الذى جعل مملكة بيت المقدس طوال تلك السنين الطويله دون ملك مقيم فيها يرعى شئونها ، وينظم أمورها ويدافع عن حقوقها . خاصة وأن الفتره من سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣م - ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م كانت فتره حاسمه في تاريخ الشرق الادنى نظرا لما شهدته من أحداث جسام كان من الممكن أن يستغلها الصليبيون لقلب الموقف في بلاد الشام لصالحهم (٣) اذ أن تلك الفتره

---

(١) انظر اليافعي ، جامع التواريخ المصريه ،ورقه ٢٧ ب ،٢٨ آ ؛ السيوطي، اتحاف الاخصاء ،ورقه ١٢٤ آ ؛ ابن ايبك ، درر التيجان ،حوادث سنة ٦٢٦هـ؛ ابن واصل ،مفرج الكروب ،ج٤ ،ص ٢٤١ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ص ٢٣٠ ؛ سعيد عاشور،الحركه الصليبيه ،ج٢ ،ص ١٠٠٩ - ١٠١٧ ؛ علي الغامدى ،بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ؛

Campbell. The Crusades . p 406; THE Cambridge History of islame.p20B; panter Ahistory of the middle Ags,p217.

(٢) سعيد عاشور المرجع نفسه ص ١٠١٨

(٣) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ،ص ١٠٢٠ - ١١٠٢١ .

وافقت سقوط الدولة الايوبيه ، واستيلاء المغول على الدول الاسلاميه في ايران والعراق والشام ،- كما سنرى فيما بعد - هذا بالاضافة الى ماحدث في مملكة بيت المقدس في ذلك الحين من خلاف حول ولاية العرش ،والذى ترتب عليه تدخل الامبراطوريه بارسال حمله عسكريه الى قبرص والشام - الا أن هذه الحمله انتهت بالفشل ، الامر الذى ترك الصليبيين في بلاد الشام في حالة شديده من التفكك والانقسام . (١)

ولم تكن أحوال الصليبيين في شمال الشام في تلك الفترة أحسن منها في جنوبه ، فالمعروف أن صلح يافا الذى عقد بين السلطان الكامل محمد الايوبي والامبراطور فردريك الثاني سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م لم يتعرض بنوده لاحوال امارتي انطاكيه وطرابلس او لاملاك الداويه (٢) والاسبتاريه (٣) في تلك الجهات . (٤)، وقد استغل الاسبتاريه الظروف التي ألمت بالبيت الايوبي في ذلك الوقت ، وأغاروا على منطقة بعرين، ونتيجة لذلك الهجوم قام الملك المظفر تقي الدين الايوبي صاحب حماه بهجوم مضاد وأنزل بهم هزيمه ساحقه . (٥)

---

(١) سعيد عاشور ،الحركه الصليبيه ،ص ١٠٢٢ .

(٢) الداويه : هي طائفة فرسان المعبد (Templers) وتختلف عن الاسبتاريه في كونها نشأت اصلا على اساس حربي منذ سنة ٥١٢/١١١٨م ،واتخذت هذه المنظمه العسكريه من ساحة المسجد الاقصى مقرا لها ، وتعهد اتباعها بحماية الطريق بين يافا وبيت المقدس ، ثم أسهم فرسان الداويه في جميع الاعمال العدائيه التي قام بها الصليبيون في بلاد الشام وغدت الداويه تابعه للبابويه مباشره شأنها في ذلك شأن الاسبتاريه ، وشكلت هاتان الطائفتان اقوى دعا متين للوجود الصليبي في بلاد الشام (انظر سعيد عاشور ،الحركه الصليبيه ،ج١ ،ص ٤٨٧ - ٤٨٩ ؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبيه ،ج٢ ،ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ؛ العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبيه ،ص ٣٥٩ ؛ علي الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،رسالة دكتوراه لم تطبع ،ص ٢٣٣ ،حاشيه (٢)) .

---

(٣) الاستباريه : (Hospitallers) طائفه من الفرسان الصليبيه نشأت منذ فجر الحروب الصليبيه ، وبدأت اول الامر على هيئة جمعيه هدفها العنايه بمرضى الصليبيين ، وايواء الحجاج ورعايتهم وطبقت مبادئ الديريه البندكتيه في فلسطين ولم تلبث أن تخلت عن تبعتها للبندكتيه وانتمت للبابويه مباشرة ، ثم تطورت واكتسبت صفه حربيه وارتدى أصحابها زى الرهبان ، وآخذوا يقاتلون من على ظهور الجبل كالفرسان تماما • ونذروا أنفسهم لقتال المسلمين منذ سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م • واسهمت مع طائفة الداويه في حماية كيان الصليبيين في الشام طوال أكثر من قرن من الزمان • (انظر سعيد عاشور ، المرجع نفسه ،ج١ ،ص ٤٨٦ – ٤٨٧ ؛ رنسيمان ، المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٢٤٧ – ٢٤٩ ؛ العريني ، المرجع السابق ، ص ٢٥٧،٢٥٨؛ علي عوده الغامدى ،المرجع نفسه ،ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ حاشيه (٣) ؛ جوزيف نسيم ،العدوان الصليبي على بلاد الشام ،ص ٢٣٣)•

(٤) سعيد عاشور ، الحركه الصليبيه ، ج٢ ، ص ١٠٢٣ •

(٥) ابن الاثير ،الكامل ، ج١٢ ،ص ٦٢٧ ؛ سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ١٠٢٤ •

أما بالنسبه لامارتي أنطاكيه وطرابلس فقد توفي صاحبهما بوهيمند الرابع في مارس سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ ، وخلفه ابنه بوهيمند الخامس الذى شارك بدوره في نزاع الاسبتاريه مع الملك المظفر صاحب حماه بعد أن تجددت الحرب بين الطرفين بسبب مطالبة الاسبتاريه للملك المظفر بأموال فوضوها عليه .[1] حيث هاجمت قوات الصليبيين مدينة بعرين وبعض المناطق القريبه منها ، الا أن هذه القوات الصليبيه عادت من تلك المناطق بعد اسبوع واحد ، وذلك لخوفها من الاصطدام مع قوات الايوبيين الذين تنبهوا للخطر الصليبي ، وكونوا حلفا لمواجهته ضم الملك الكامل ، صاحب مصر ، والاشرف صاحب دمشق ، والناصر داوود صاحب الاردن ، والمجاهد شيركوه صاحب حمص .[2]

كما كان لتجدد النزاع بين بوهيمند الخامس امير انطاكيه وطرابلس، وملك ارمينيه هيثوم الاول.اثره البالغ في اضعاف تلك الامارتين في ذلك الوقت ، ذلك أن هيثوم الاول لم يصل الى حكم ارمينيه الصغرى الا بعد أن تخلص من أحد افراد البيت الحاكم في انطاكيه ، وهو فيليب أخو بوهيمند الخامس ، الامر الذى أثار غضب بوهيمند ضد الارمن ودخل معهم في صراع مرير ، واستغل ذلك النزاع الدائم بين الداويه وارمينيه الصغرى حول حصن بغراس ، فنظم مع الداويه حمله كبيره على ارمينيه الصغرى سنه ٦٣١ هـ/١١٣٣م ولكن ذلك المشروع لم يؤت ثماره كامله لاختلاف الداويه مع بوهيمند حوله .[3]

---

(١) العيني عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٢٧ ؛ عاشور ، الحركه الصليبيه ،ص ١٠٢٤.

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص ٢٤٧ ؛ عاشور ،المرجع نفسه ،ج٢ ،ص ١٠٢٤، ١٠٢٥ ؛ بعرين اوبارين : بلد بين حمص والساحل (انظر ياقوت معجم البلدان) .

(٣) عاشور ، المرجع نفسه ،ج٢ ،ص ١٠٢٥ ،١٠٢٦ ؛ وبغراس : مدينه بينها وبين انطاكيه اربعة فراسخ على يمين القاصد الى انطاكيه من حلب في البلاد المطله على طرطوس (انظر ياقوت ،معجم البلدان) .

أما العامل الاخير الذى كان له الاثر البالغ على اضعاف الوجود الصليبي فهو تجدد الصراع الاسلامي الصليبي في بلاد الشام ، اذ من المعروف أن صلح يافا انتهى امده سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م الامر الذى تجدد معه الصراع بين المسلمين والصليبيين ، حيث أخذ الايوبيون يعملون جاهدين على استعادة بيت المقدس من الصليبيين ، وبالفعل تمكن الملك الصالح أيوب من استعادته • الامر الذى أثار غضب الغرب ، فأرسل حمله صليبيه جديده تزعمها الملك الفرنسي لويس التاسع ، الا أن هذه الحمله منيت بفشل ذريع أمام ذلك الصمود الهائل الذى أظهره المسلمون في الاراضي المصريه •

وهكذا غدا وضع الصليبيين في بلاد الشام سيئا للغايه نتيجة تلك الهزائم المتلاحقه التي حلت بهم • الامر الذى سهل على دولة المماليك الفتيه طردهم نهائيا من بلاد الشام – كما سنرى فيما بعد – •

الفصل الأول

الغزو المغولي لبلاد الشام

- سقوط بغداد في أيدي المغول ونتائجه.
- موقف القوى الإسلامية وغيرها من الزحف المغولي على بلاد الشام.
- سقوط مدن الشام في أيدي المغول.
- طبيعة الغزو المغولي وأهدافه.

" سقوط بغداد في أيدى المغول "

بعد وفاة أكتاى خان امبراطور المغول سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م اضطربت أحوال المغول ، واختلفوا على من يخلفه على العرش ، وكثر الطامعون في تولى عرش المغول ، حتى استطاع كيوك بن اكتاى أن يصل الى العرش سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م ومن بعده منكو بن تولوى بن جنكيز خان سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م . (١)

ولم يكد منكو خان يتربع على عرش المغول ويقضي على الفتن الداخليه ويتخلص من المناوئين لسياسته حتى بدأ في توجيه همته نحو الغزو " وأرسل الجيوش الى الاطراف والحدود " (٢) حيث ارسل قائده بابجو نويان على رأس جيش جرار للمحافظة على ايران ، وما أن وصلها حتى بادر بارسال رسالة الى منكو خان يشكو اليه الاسماعيليه وخليفة بغداد ويحذره من خطرهم على ممتلكات المغول في ايران . (٣) والواقع أن منكو خان بدأ يفكر منذ اللحظة الاولى في اكمال استيلاء المغول على غرب ايران والعراق والشام ومصر ، واختار أخاه هولاكو الذى كان يتوسم فيه " مخايل الملك " لقيادة هذه الحمله على البلاد الاسلاميه . (٤)

والواقع انه لم تكن أمام المغول بعد استيلائهم على املاك الدوله

---

(١) انظر رشيد الدين ، جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٢٣٢ ؛ ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول ،ص ٤٥٦ ،٤٥٧ ؛ العريني ،المغول ،ص ١٨٨ ؛ الصياد، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص ١٨٨ – ٢١١ ؛ عبدالسلام فهمي ، تاريخ الدوله المغوليه في ايران ، ص ١٠٠ – ١٠٨ .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٢ .

(٣) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .

(٤) رشيد الدين ، المصدر نفسه ،ص ٢٣٤ ؛ انظر ايضا ،لعين بول ، الدول الاسلاميه ، ص ٥١٤ .

الخوارزميه أى قوه تستطيع اعتراض طريقهم نحو الغرب ، وكان الحكام المسلمون يعرفون تمام المعرفه أهمية الدوله الخوارزميه كحاجز قوى بينهم وبين المغول ، يدلنا على ذلك ماحدث بعد مقتل السلطان جلال الدين منكبرتى بن السلطان محمد خوارزمشاه ، حيث ذهب بعض خواص الملك الاشرف موسى الايوبي صاحب مدينة خلاط يهنئونه بمقتل عدوه جلال الدين ، فرد عليهم قائلا : وتهنئوني به وتفرحون سوف ترون غبه ، والله لتكونن هذه الكسره سببا لدخول التتار الى بلاد الاسلام ، ماكان الخوارزمي الامثل السد الذى بيننا وبين ياجوج وماجوج .[1] ولقد صدقت نبوءة الاشرف .

وعلى كل فقد حرص منكو خان على اعداد حملة هولاكو اعدادا محكما يكفل لها النجاح ، فقد ارسل المرشدين ليختبروا الطريق الذى سوف تمر منه عساكر هولاكو من قراقورم حتى شاطئ نهر جيحون ، فأقاموا الجسور على الانهار العميقه ، وعلى مجارى المياه السريعه .[2] ثم رسم لاخيه الخطه التي كان عليه أن يتبعها حيث قال له : " انك الآن على رأس جيش كبير وقوات لاحصر لها ، فينبغي أن تسير من توران الى ايران .. وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزئيات وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر بلطفك وبانواع عطفك وانعامك ، أما من يعصيك فاغرقه في

(١) ~~سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق٢ ، ص~~ ؛ ابن نغرى بردى ، النجوم الزاهره ، ج٦ ، ص ٢٧٧ ؛ انظر ايضا ، الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ، ص ٢٤ ؛ ومنكبرتى هو جلال الدين محمد بن خوارزمشاه تكش بن ارسلان شاه بن اتسز توفي مقتولا سنة ٦٢٨ (انظر النسوى ، سيرة جلال الدين ، ص ٣٨٤ ؛ ابن نغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج٧ ، ص ٧٤ حاشيه) والملك الاشرف هو : موسى بن ابي بكر العادل بن ايوب توفي بدمشق سنة ٦٣٥ هـ ؛ وخلاط : مدينه كبيره مشهوره ، ذات خيرات كثيره وموارد كبيره وهي قصبة بلاد ارمينيه (انظر القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٢٤) .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص .

الذلـه والمهانـه مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل مايتعلق به ، وابـدأ باقليم قهستان في خرسان ، فخرب القلاع والحصون ٠٠٠٠ ، فاذا فرغت من هذه المهمة فتوجه الى العراق وأزل من طريقك اللور والاكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها ٠ واذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة ، فلا تتعرض لـه مطلقا ، اما اذا تكبر وعصى ، فالحقه بالآخرين من الهالكين ، كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الامور العقل الحكيم والرأى السديد ، وأن تكون في جميع الاحوال يقظا عاقلا ، وأن تخفف عن الرعية التكاليف والموّن ، وأن ترفه عنهم ، وأما الولايات الخربه ، فعليك أن تعيد تعميرها في الحال ، وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الاعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديده ، وشاور دقوز خاتون في جميع القضايا والشئون " ٠(١)

وبعد أن قدم منكو خان وصاياه ونصائحه لاخيه هولاكو ، اختار أخاه الاصغر سنتاى اغول ليكون في صحبته ، وخرج هولاكو على رأس جيشه من قراقورم عاصمة المغول في سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م وفي طريقه لقى مساعده كامله من أمراء المغول الذين أعدوا له المأكل والمشرب في جميع المراحل وحرصوا على أن ينظفوا الطريق التي تقرر أن يسلكها جيش هولاكو من الحجاره والاشواك ، كما أعدوا السفن له لعبور الانهار الكبيره ، كما قام الامراء والنبلاء في تلك النواحي بحشد اعداد كبيره من الجند للانضمام الى جيش هولاكو ٠(١) وفي شهر شعبان سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م وصل جيش هولاكو الى سمرقند ، وأمضى بها أربعين يوما ثم توجه الى مدينة كش ، وهناك وصله كافة الامراء والاكابر في خرسان وقدموا خضوعهم وهداياهم له ٠ وأقام بهذه المدينه قرابة شهر وجه خلالها عدة رسائل الى الملوك والسلاطين في البلاد المجاوره طلب منهم معاونته في تحطيم قلاع الاسماعيليه والقضاء عليهم ، وفي مقابل ذلك تعهد لهم بأن يبقيهم على ولايتهم ولايتعرض لهم بسوء ، وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته سيجرهم

---

(١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ، ج١ ، ص ٢٣٨ ٠ ودوقوز خاتون كانت زوجة تولوي ثم آلت مسؤوليه الى ابنه هولاكو

(٢) رشيد الدين المصدر نفسه ص ٢٤٨

الــــى الـهـــــلاك وأنـــــه ســـينزل بـهم ماسيـنزلـه بـالاسماعيليـــــه . (١)

(١) انظر نص الرسالة في رشيدالدين، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص ٢٤٠ ؛ انظر ايضا ، محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبيه والغــــــزو المغولــي ، ص ٦٨ ؛ والاسماعيليه : أصلا فرقه تنسب الى اسماعيل بــــن جعفر الصادق المتوفي سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥م (عن ظهور هذه الفرقــه انظــر برنـارد لـويس ، اصول الاسماعيليه ، ص ٨٣ – ١١٥). ولكن المقصود بـالاسماعيليه هنا الفرقه التي تعرف بـالبـاطنيه ، أو الحشيشيه ، أو الملاحـده والتي أسسها الحسن بن محمد الصباح الذى سافر من ايران الـــى مصـر وقـابل الخليفه المستنصر الفاطمي وتلقى منه مبادىء الدعـــوه الاسماعيليه ، ثم عاد الى بلاد فارس ، وفي سنة ٤٨٣هـ / ١٠٨٨ م استولـــى الحسن الصباح على قلعة الموت التي عرفت باسم عش العقاب لمناعتهـــــــا وارتفاعها وحصانتها ، ووضع الحسن الصباح لاتباعه تنظيما دقيقـــــا قسمهم الى خمس مراتب وألف كتابا من أربعة فصول ضمنـه أهم مبـــادىء دعوتـه وجند فئه من أتباعه تميزت بقوة الابدان وطاعتها العميــــاء اشتهرت بتنفيذ حوادث الاغتيالات السياسيه بالخناجر مهما كانـــــت النتائج (انظر الشهرستاني الملل والنحل ، ص ٢٠٣ – ٢٠٧ ؛ المقريـــزى، اتعاظ الحنفاء ، ج٢ ، ص ٣٢٦ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ،ص ٣٢٢، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ؛ الذهبـــي ، دول الاسلام ، ج٢ ،ص ٢٣ ؛ فيليب حتـــي تاريخ سوريه ، ج٢ ، ص ٢٤٥ ،٢٤٦ ؛ محمد أبو زهره ، تاريخ المذاهـــب الاسلاميه ، ج١ ، ص ٦١ ،٦٢ ؛ سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشـــرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ٣٤١ ؛ كلود كاهن ، تاريخ العـــــرب والشعوب الاسلاميـه ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ؛ برنارد لويس ، الدعوه الاسماعيليـه الجديده (الحشيشيه) ،ص ٦٣ ؛ صابر طعيمـه ، دراسات في الفـــــرق، ص ؛ احمد محمد جلي ، دراسه عن الفرق في تاريخ الاسلام ،ص ١٩٣، ٢٠١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ؛ مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق قبل قيام الدوله الايوبيـه ، ص ؛ علي الغامدى ، بلاد الشام قبيــــل الغزو الصيلبي ،ص ٣٢١ ،٣٢٢ (حاشيه) ؛

Leuis. Saladin and the Assassins.p.238.

وكش : بلده بنواحي سمرقند شمالي وادى الصغد (انظر ياقوت ، معجم البلدان).

ويبدو أن ذلك التهديد كان له الاثر البالغ على نفوس هؤلاء الملوك والسلاطين فسارع بعضهم الى التوجه الى هولاكو لتقديم فروض الطاعة له، حيث وصل الى حضرة هولاكو كل من سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكاوس وأخيه ركن الدين ، وكذلك ابن اتابك فارس ، وغيرهم من أمراء العراق وخراسان ، واذربيجان وجورجيا ، وكانوا جميعا يحملون الهدايا الثمينه الى هولاكو .(١)

وفي ذى الحجه سنة ٦٥٣هـ / يناير ١٢٥٦ م . اصدر هولاكو أوامره بتوقف جميع السفن والزوارق ، واقامة جسر على نهر جيحون حيث عبرت قواته النهر متوجهه الى قلاع الاسماعيليه ، ونزل في مرعى شبورقان بالقرب من مدينة بلخ وأمضى هولاكو الشتاء هناك .(٢) ثم واصل سيره باتجاه قلاع الاسماعيليه ، وكان القائد كيتو بوقا قد سبق هولاكو على رأس طلائع جيشه الى قهستان ، واستطاع أن يستولي على بعض القلاع الموجوده هناك.(٣) ثم وصل هولاكو بعد ذلك على رأس الجيش الرئيسي الى قلاع الاسماعيليه الحصينه ،واستطاع بالحيلة تارة ، وبالقوة تاره أخرى أن يستولي عليها الواحده تلو الاخرى حتى انتهى من آخر قلاعهم قلعة الموت في اواخر سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م حيث لم يستطع زعيم الاسماعيليه ركن الدين خورشاه ، مقاومة هولاكو ، فاستسلم له وقبل الارض أمامه. وبذلك تمكن المغول من الاستيلاء على كل قلاع الاسماعيليه التي بلغ عددها نحو المائه ، والتي اتخذها هؤلاء الاسماعيليون اوكارا لهم سنين طويله .(٤)

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص ٢٤٠ .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٣) رشيد الدين ، المصدر نقسه ،ص ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

(٤) رشيد الدين ،المصدر نفسه ،ص ٢٤٣ ــ ٢٥٥ ؛ الجزرى ،تاريخ دولة الاكراد والاتراك ، ورقه ١٩٤ ب ، ١٩٥ آ ؛ احمد السعيد ،تاريخ الدول الاسلاميه ، ومعجم الاسرات الحاكمه ، ج٢ ، ص ٤٨٠ ؛ لين بول ،الدول الاسلاميه ،ص ٥١٤ .

ولم يكتف هولاكو بالاستيلاء على قلاع الاسماعيليه في تلك المناطق بل طالب من ركن الدين خورشاه تسليم جميع قلاع الاسماعيليه في بلاد الشام ، فاستجاب له وأرسل مندوبين من قبله الى بلاد الشام ومعهم رسل هولاكو لدعوة الناس هناك الى التسليم عندما تصل اليهم " الرايات المغوليه " (١) .

وبالرغم مما ذكره البعض من أن اندحار طائفة الاسماعيليه كان له رنة فرح وسرور عمت معظم العالم الاسلامي ، رغم ماكان يعانيه من الخطر المغولي الداهم بما ينتظره على أيديهم من أحداث أخرى أكثر هولا .(٢) فانه يبدو لنا أن ذلك كان له مردود سيء على العالم الاسلامي ، اذ أن الاسماعيليين كانوا يمثلون جدارا آخر بعد الخوارزميين أمام المغول ، وأنه باندحارهم أصبح الطريق امام المغول ممهدا وأكثر سهوله من ذى قبل .

وبعد أن قضى هولاكو على طائفة الاسماعيليه ، سارلتحقيق هدفه الثاني ، الذى رسمه له أخوه منكوخان ، وهو الاستيلاء على بغداد والقضاء على الخلافه العباسيه ، التي أدركتها الشيخوخه ، وظهرت عليها مظاهر الضعف والانهيار . والواقع أن جذور الضعف والتفكك قد امتدت الى جسم الخلافه العباسيه قبل مجيء المغول بمدة طويله بسبب سيطرة الفرس اولا ثم غلبة الاتراك ثانيا منذ أن فتح لهم الخليفه العباسي المعتصم بالله الباب على مصراعيه . هذا بالاضافة الى تهاون العباسيين وانصرافهم عن الجنس العربي ، الامر الذى ترتب عليه سقوط هيبة الخلافه العباسيه ، وبذلك تفككت الروابط القويه التي كانت تربط

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ص ٢٥٧ .

(٢) العريني ، المغول ، ص ٢١٢ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص ٢٤٤ ؛ سعيد عاشور ، الحركه الصليبيه ، ج٢ ، ص ١١١٥ .

الخلافه العباسيه بمختلف الامصار الاسلاميه ، حيث نشأت دول عديده وامارات مستقلة في قلب الخلافه العباسيه وعلى اطرافها .(١)

وعندما بدأ المغول زحفهم على الممالك الاسلاميه في الشرق ، كان الخليفه العباسي في ذلك الوقت هو المستعصم بالله (٦٤٠هـ/١٢٤٢م – ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م) الذى تكاد تجمع المصادر على وصفه بأوصاف لاتحمد . وبأنه لم يكن يأبه بخطورة وضع المسلمين آنذاك من جراء خطر المغول القادم من الشرق.(٢)

(١) الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ،ص ٢٤٩ ،٢٥٠ .

(٢) وصفه بن تغرى بردى بقوله :" كان قليل المعرفه بتدبير الملك نازل الهمه مهملا للامور ، محبا لجمع الاموال ، يقدم على فعل مايستقبح ، أهمل أمر هولاكو حتى كان في ذلك هلاكه " (انظر النجوم الزاهره ، ج٧ ، ص ٦٤) كذلك وصفه رشيد الدين بأنه كان " شخصا عاجزا لارأى له ولا تدبير ، وساذجا " (انظر جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٢٦٢) ؛ كما وصفه الاربلي بأنه كان " محبا للهو واللعب .. ثم وكل اموره في الكليات الى غير الاكفاء ، وأهمل مايجب عليه حفظه والتصرف فيه " (انظر خلاصة الذهب المسبوك ،ص ٩٢ ، ٢٩١) ؛ أما ابن طباطبا فقد وصفه بقوله : " كان المستعصم رجلا متدينا لين الجانب سهل العريكه عفيف اللسان ... الا أنه كان مستضعف الرأى ضعيف البطش قليل الخبره بأمور المملكه مطموعا فيه غير مهيب في النفوس ، ولا مطلع على حقائق الامور ... وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أراذل العوام " (انظر الفخرى في الآداب السلطانيه ،ص ٣٣٣ ؛ وكذلك وصفه ابن كثير بانه " كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبه للمال وجمعه " (انظر البدايه والنهايه ،ج١٣، ص ٢٠٥ .

ففي الوقت الذى كان على الخليفه المستعصم بالله اعداد العده واتخاذ الاحتياطات الكامله واصلاح اموره الداخليه وتقوية جيوشه للوقوف في وجه الخطر المغولي الذى بات يهدد ممتلكات الخلافه العباسيه ، فقد عمد الى قطع أرزاق أكثر جنده وانقاص عدد جيشه من مائة الف فارس الى عشرين ألف ، بحجة توفير الاموال وارسالها الى المغول لاسترضائهم واثنائهم عن مهاجمة دولته .(١)

والواقع ان هذا الامر الذى اقدم عليه الخليفه المستعصم لم يكن مجديا لاثناء هولاكو عن الهجوم على الخلافه العباسيه ، خاصه اذا علمنا بأن الخليفه المستعصم نفسه قد رفض طلب هولاكو بمساعدته على تحطيم قلاع الاسماعيليه ، وأن هولاكو قد هدد من لم يستجب له بتحطيم ممتلكاته، فضلا عن أن خطة منكوخان التي رسمها لاخيه هولاكو كانت تنص على أن تأمين الخليفه العباسي يكون بدخوله في طاعة المغول من غير قيد أو شرط. وهذا معناه عدم اعتراض جيش المغول الذي كانت خطتهم تنص على مواصلة الزحف غربا باتجاه الشام ومصر .

كما أن الخليفه المستعصم بالله حاد عن السياسه التقليديه التي اتبعها أسلافه من الخلفاء العباسيين ، الذين كانت سياستهم تقوم على مصانعة القوى التي تعاقبت على حكم ايران كالبويهيين والسلاجقة مثلا،اذ كانوا يوكلون اليهم الامور السياسيه في حين يظلون هم متمسكين بالوظائف الروحيه ويترقبون ضعف تلك السياده ، فيعاودون رفع رؤسهم والاستيلاء على الامور السياسيه والروحيه معا .

أما الخليفه المستعصم الذى كان يظن في نفسه القدرة على الصمود امام الخطر المغولي فانه لم يعر تلك السياسه أى اهتمام ، بل ظل على مكابرته معتقدا بأن الخلافه العباسيه لن يعتريها أى سوء .

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٢٧٦ .

والواقع أن الخليفه العباسي في ذلك الوقت لم يكن الرجل المناسب في المكان المناسب ، حتى أن أحد رجاله وهو مجاهد الدين ايبك الدواتدار الذى جمع حوله " الرعاع والسفله " وأصبح خلال مده وجيزه صاحب شوكة وبأس في الخلافه العباسيه ، ورأى الخليفه المستعصم شخصا ضعيف الرأى قليل العزم . اتفق مع طائفه من الاعيان على خلع الخليفه وتولية خليفه آخر من البيت العباسي مكانه - ومالبث أن وصل نبأ هذه المؤامره الى مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفه ، الذى سارع بدوره الى اطلاع الخليفه وتحذيره من مجاهد الدين ، فاستدعاه الخليفه ، وأطلعه على ماقاله الوزير في شأنه ، فاتهم مجاهد الدين ابن العلقمي بالتزوير والمخادعه وأنه يمالئ المغول ويتبادل معهم الجواسيس . فاقتنع الخليفه ومال الى مجاهد الدين ، وقال له :" منذ هذه اللحظه كن يقظا عاقلا " وحاول الدواتدار الذى بم يكن يأبه بالخليفه ،الانتقام من ابن العلقمي الا أن الخليفه الذى خشي تفاقم الفتنه ببغداد تدخل مره أخرى ووضع حدا لهذه الفتنه ، وأرضى مجاهد الدين بأن نودى في بغداد بأن ماقيل في حقه انما هو كذب ، وصار اسمه يذكر في الخطبه بعد اسم الخليفه . (١)

وزاد الطين بله في تلك الفتره الحرجه من تاريخ الخلافه العباسيه ذلك الصراع المذهبي العنيف الذى احتدم بين أهل السنه في بغداد والشيعه في الكرخ ، وكان الخليفه المستعصم ومجاهد الدين يؤيدان أهل السنه ، في حين كان الوزير ابن العلقمي شيعيا يساند الشيعه ، فكثرت الفتن والمنازعات بين هاتين الطائفتين ، ونشبت حرب ضروس بين السنه والشيعه اضطر معها الخليفه الى التدخل لفض النزاع ،ووكل المهمة الى ابنه أبي بكر الذى أغار على مقر الشيعه في الكرخ ، وأنزل بهم ضربة قويه . فكان لهذا العمل أسوأ الاثر في نفوس الشيعه ، فنقموا على الخليفه كما عظم ذلك الامر على ابن العلقمي الذى كان من كبار الشيعه ، فأضمر الشر للخليفه العباسي ، وأمر أهل الكرخ بالصبر والكف عن القتال،

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ " م٢ ،ج١ ،ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

ووعدهم سرا بالانتقام لهم . فكان أول عمل قام به هو اقناع الخليفه بانقاص عدد جنده لتوفير الاموال وارسالها الى هولاكو ، زعما منه بأن ذلك سيثني المغول عن مهاجمة بغداد . في حين أنه قام في الوقت نفسه بالاتصال سرا بالمغول وأطمعهم في بغداد ، ووعدهم بتسهيل ذلك لهم . في مقابل أن يكون نائبا لهم بالبلاد بعد سيطرتهم عليها ، وأرسل غلامه وأخاه الى المغول لهذا الغرض . (١)

ولم يقتصر الصراع على طائفتي السنه والشيعه ، بل تعداها الى الطوائف الاخرى من المسيحيين واليهود ، الذين كانوا على خلاف حول المسائل الدينيه ، كما كانوا يختلفون في الميول السياسيه ، ولاشك أن هذا كثيرا ماكان يثير الفتن والمنازعات بين السكان . (٢)

---

(١) تغرى بردى ،النجوم الزاهره ، ج٧ ،ص ٤٨ ؛ ابن كثير ،البدايه والنهايه ، ج١٣ ،ص ١٩٦ ؛ ابو الفدا ،المختصر في اخبار البشر ،ج٣ ،ص ١٩٣ ، ١٩٤ ؛ السيوطي ،تاريخ الخلفاء ،ص ٤٦٦ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ج١ ،ص ١٥٩ ؛ سعد حذيفه الغامدى ،سقوط الدوله العباسيه ،ص ٢٧٧ . والذى يجدر ذكره أن المؤرخيّن ،رشيد الدين فضل الله ،وابن طباطبا يؤكدان براءة ابن العلقمي من هذه التهمه ،ويذهبان الى أن خصومه من أهل السنه هم الذين روجوا لهذه التهمه ، (جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ؛ ابن طباطبا ، الفخرى في الآداب السلطانيه ص) ويبدو لنا ان ماذهب اليه هذان المؤرخان بعيد عن الصحه بدليل اجماع المصادر على اتصال ابن العلقمي بالمغول ، فضلا عن انتساب ابن طباطبا الى آل البيت ، اما رشيد الدين ، فلا يستبعد أن يكون هو الآخر بحكم اقامته في بلاد فارس التي اشتهرت بميلها لآل البيت أن يكون متشيعا ، لذلك مال الى الدفاع عن ابن العلقمي .

(٢) انظر الصياد ، المغول في التاريخ ،ج١ ،ص ٢٥٤ .

كما كان لتدهور الاوضاع الاقتصاديه أثره البالغ على اضعاف الخلافه العباسيه ، فقد حدث آخر صيف سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، أن هطلب أمطار غزيره ، سال على اثرها سيل عظيم اغرق مدينة بغداد ، لدرجة أن الطبقة العليا من المنازل غمرتها المياه واختفت معالمها تماما ، وقد استمر انهمار السيل خمسين يوما ثم بدأ في النقصان ، ونتج عن ذلك أن نصف أراضي العراق اصبحت مهجوره خربه .[1] هذا بالاضافة الى الخراج الذى أرهق كواهل الناس ، فضلا عن تحكم الطبقة الحاكمه في شئون الامصار لمصلحتها حتى ازداد أصحابها غنا ، وازداد الفقراء فقرا . الامر الذى ترتب عليه الكساد الزراعي والصناعي ، كما قضت الحروب المتواصله بانقاص عدد الرجال العاملين بهذا المجال ، مما أدى الى تلف معظم الحقول الزراعيه ، وزاد خرابها تكرار الفيضانات في سهول العراق الجنوبيه .[2]

وبالرغم من هذه المتاعب والمحن التي احاطت بالخلافه العباسيه فان المصادر لم تشر الى أى محاوله من الخليفه العباسي المستعصم بالله في الاتصال بالقوى الاسلاميه ، وبالاخص الايوبيين في الشام ، والمماليك في مصر . اذ يبدو انه كان واهما بان تلك القوى ستكون رهن اشارته عند الحاجة لها ، يدلنا على ذلك تلك الرسالة التي رد بها الخليفه على تهديدات هولاكو ، والتي ذكر فيها بأن كل القوى الاسلاميه تنتظر اشاره بسيطه منه للوقوف في وجه المغول ، متناسيا بأن الايوبيين والمماليك كان لديهم من المشاكل مايمنعهم من تقديم أى مساعده لبغداد .[3]

وهكذا غدت الخلافه العباسيه في بغداد في وضع يرثى له ، في الوقت الذى كان المغول بالجانب الآخر مشغولين باعداد الجيوش وتجهيزها بأحسن العتاد والعدد ، استعدادا للزحف على بغداد ، حيث بلغ هولاكو

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٢٦٢ .

(٢) فليب حتى ، تاريخ العرب ،ج٢ ،ص ٥٨٢ ؛ الصياد ،المغول في التاريخ ،ج١ ،ص ٢٥٤ .

(٣) انظر نص الرساله فيما يلي ،ص ٥٢ - ٥٤

بجيوشه الدينور [١] في التاسع من ربيع الآخر سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م ثم مضى الى همذان في الثاني عشر من رجب من السنة نفسها ، ومن هذه المنطقه بدأ هولاكو في تنفيذ وصية أخيه الخان الاعظم وتعليماته ، فأرسل للخليفه العباسي المستعصم في رمضان من هذه السنه رسولا يحمل رساله كلها تهديد ووعيد قال فيها : " لقد ارسلنا اليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحده وطلبنا مددا من الجند ، ولكنك اظهرت الطاعه ولم تبعث الجند ، وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا الى الطغاة ، فلم ترسل الينا الجند ، والتمست العذر ... ولابد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ، ماحل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي ، منذ عهد جنكيز خان [٢] الى اليوم ، والذل الذى حاق بأسر الخوارزميه والسلجوقيه وملوك الديالمة والاتابكه وغيرهم ممن كانوا ذوى عظمة وشوكه ، وذلك بحول الله القديم الدائم ، ولم يكن باب بغداد مغلقا في وجه آية طائفه من تلك الطوائف ، واتخذوا منها قاعدة ملكا لهم ، فكيف يغلق في وجهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان ؟ ولقد نصحناك من قبل ، والآن نقول لك احذر الحقد والخصام ولاتضرب المخصف بقبضة يدك ، ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب . ومع هذا فقد مضى مامضى ، فاذا أطاع الخليفه ، فليهدم الحصون ويردم الخنادق ، ويسلم البلاد لابنه ، ويحضر لمقابلتنا ، واذا لم يرد الحضور فيرسل كلا من الوزير وسليمان شاه ، والدواتدار ، ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص ، فاذا استجاب لامرنا ، فلن يكون ومن واجبنا أن نكن له الحقد ، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته ، اما اذا لم يصغ الى النصح وآثر الخلاف والجدال ، فليعن الجند وليعين ساحة القتال فاننا متأهبون لمحاربته ، وواقفون له على استعداد ، وحينما أقود الجيوش الى بغداد ، مندفعا بثورة الغضب ، فانك لو كنت مختفيا

---

(١) الدينور ، مدينه من أعمال الجبل وهي كثيرة الثمار والزهور بينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخا ، ومنها الى شهر زور اربع مراحل (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) عن ظهور جنكيز خان وتوحيد القبائل المغوليه وجهوده لتوسيع امبراطوريه المغول (انظر الباز العريني ،المغول ،ص ٣٧ وما بعدها ؛ فؤاد الصياد =

في السماء أو في الارض ... فسوف انزلك من الفلك الدوار ، وسوف القيك
من عليائك الى أسفل كالأسد ، ولن أدع حيا في مملكتك ... وسأجعل
مدينتك واقليمك وأراضيك طعمة للنار . فاذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك
فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء ، والا فسأرى كيف تكون ارادة الله)[1]

ويبدو أن هولاكو قصد بهذا التهديد ادخال الرعب في نفس الخليفه العباسي المستعصم ليعترف له بالسياده بحيث يصبح له من الهيمنه على بغداد ما كان للبويهيين ثم للسلاطين السلاجقه بعدهم ، في حين تبقى السلطه الروحيه للخليفه العباسي ، الا أن المستعصم رفض ذلك بشده ورد على هولاكو برساله كلها احتقار قال فيها : " ايها الشاب الحدث ...... المتمني قصر العمر ، ومن ظن نفسه محيطا ومتغلبا على جميع العالم مغترا في يومين من الاقبال ، متوهما أن أمره قضاء مبرم ، وأمر محكم. لماذا تطلب مني شيئا لن تجده عندى ... الا يعلم الامير أنه من الشرق الى الغرب وأنه من الملوك الى الشحادين ، ومن الشيوخ الى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي . انني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الامور في ايران ثم اتوجه منها الى بلاد توران ، وأضع كل شخص في موضعه ، وعندئذ سيصير وجه الارض مملوء بالقلق والاضطراب ، غير أني لاأريد الحقد والخصام ولا أن أشترى ضرر الناس وايذاءهم ، كما أنني لا أبغى من وراء تردد الجيوش أن تلهج " السنة الرعيه بالمدح أو القدح ، خصوصا وأنني مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد ، واذا كنت مثلي تزرع بذور المحبه فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم ، فاسلك طريق الود وعد الى خرسان ، وان كنت تريد الحرب والقتال ، فلا تتوانى لحظه ولا تعتذر ، اذا استقر رأيك

= المغول في التاريخ ، ج١ ، ص ١٩ وما بعدها ؛ عبدالسلام فهمي ، تاريخ الدوله المغوليه في ايران ، ص ٢٩ ومابعدها .

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ؛ انظر ايضا محمد ماهر حماده ،وثائق الحروب الصليبيه والغزو المغولي للعالم الاسلامي، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

على الحرب ، ان لي الوفا مؤلفه من الفرسان والرجاله وهم متأهبون للقتال، وأنهم ليثيروا الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان ".[١]

واذا أمعنا النظر في رد الخليفه هذا فبالرغم مما ذكره البعض من أن الخليفه المستعصم كان واهما في هذا الرد الذى اشتمل على التهديد والوعيد والاحتقار من هولاكو ، مستدلين بأن العالم الاسلامي الذى كان يعاني من الاثره والانانيه والتفكك ، لم يكن في مقدوره انجاد الخليفه المستعصم.[٢] فانه يبدو لنا أن الخليفه المستعصم كان بامكانه تحقيق ذلك فيما لو حاول بالفعل استغلال سلطته الروحيه ، وجدد الدعوه الى اعلان حركة الجهاد الاسلاميه المقدس ضد اعداء الاسلام المغول ، اذ أن تلك الدعوه كانت ستجد بلا شك أصداء كبيره في نفوس المسلمين ، خاصة في العراق والشام ومصر حاله في ذلك حال عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود[٣] وصلاح الدين من قبله[٤]، والمظفر سيف الدين قطز من بعده[٥]، فضلا عن أن القوى الاسلاميه الاخرى في المغرب ستسارع بلا شك الى ارسال المدد للخلافه العباسيه في بغداد ، اذ انها هي الاخرى كانت على يقين أن نجاح المغول في السيطرة على الشام ومصر سيعرضها للخطر لامحاله .

---

(١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ، م٢ ،ج١ ،ص ٢٦٩ ،٢٧٠ ؛ انظر ايضا ،محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبيه والغزو المغولي ،ص ٣٤٦ ،٣٤٧ .

(٢) انظر الباز العريني ،المغول ،ص ٢١٦ ،٢١٧ ؛ الصياد ،المغول في التاريخ، ج١ ،ص ٢٥٧ ،٢٥٨ .

(٣) لمعرفة جهود عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود في توحيد الجبهة الاسلاميه والجهاد ضد الصليبيين ، انظر محمد محمد الشيخ ،الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في عصر الاسره الزنكيه ؛ مسفر الغامدى الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الاسلامي قبل قيام الدوله الايوبيه .

(٤) لمعرفة جهود صلاح الدين في توحيد الجبهه الاسلاميه والجهاد ضدالصليبيين انظر عبدالله الغامدى ،صلاح الدين والصليبيون .

(٥) لمعرفة جهود مظفر قطز ،انظر مايلي ،في الفصل الثاني .

ومهما يكن من أمر فقد عادت رسل هولاكو ومعهم رسل الخليفه برسالته هذه مع بعض التحف والهدايا وتعرضوا اثناء سيرهم في الصحراء الى مضايقه شديده من الرعاع الذين اطلقوا السنتهم بسب الرسل ، وبادروهم بالسفاهه وأخذوا يمزقون ثيابهم ، ويبصقون في وجوههم ، لعلهم يقولون لهم شيئا يتخذونه ذريعه لايذائهم والاعتداء عليهم . الامر الذى زاد من غضب هولاكو عندما وصل الرسل اليه ، حيث عرضوا عليه كل ماشاهدوه وعبر عن غضبه بقوله : " ان الخليفه ليست لديه كفاءة قط ، اذ انه معنا كالقوس الاعوج ، فلوا أمدني الله الازلي بعونه فسوف أجعله مستقيما كالسهم " ، ثم دخل رسل الخليفه وبلغوا الرساله ، فغضب هولاكو مرة أخرى من " عبارة الخليفه غير اللائقه " - على حد تعبير رشيد الدين - وقال : " ان إرادة الله مع هؤلاء القوم أمر آخر ، اذ ألقى في روعهم مثل هذه الاوهام " (١) .

ثم اذن هولاكو لرسل الخليفه بالانصراف وأرسل اليه يقول : " ان الله الازلي رفع جنكيز خان ومنحنا وجه الارض كله من الشرق الى الغرب ، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه ، تبقى له أمواله ونساؤه وابناؤه ، ومن يفكر في الخلاف والشقاق لايستمتع بشيء من ذلك، لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدوله الفانيه ، بحيث أنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير ، وأن في أذنيك وقرا فلا تسمع نصح المشفقين ، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك ، واذا فعليك أن تكون مستعدا للحرب والقتال ، فاني متوجه الى بغداد بجيش كالنمل والجراد ، ولو جرى سيل الفلك على شاكلة أخرى ، فتلك مشيئة الله العظيم " .(٢)

---

(١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٢٧٠ ؛ محمد ماهر حماده ،وثائق الحروب الصليبيه والغزو المغولي ،ص ٣٤٧ .

(٢) رشيد الدين ،المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ؛ محمد ماهر حماده ،المرجع نفسه ،ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

والواقع أن رد هولاكو هذا يؤكد ماسبق ذكره من أن هولاكو كان يحسب للخليفه العباسي بالرغم من ضعف دولته حسابا كبيرا • بدليل أن هذا التهديد هو الثالث من نوعه ، كما يلاحظ أن هولاكو بدأ يصارح الخليفه بأن يعامله معاملة من سبقه من البويهيين والاتراك والسلاجقه بدليل قوله يخاطب الخليفه " ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك " ، كما يبدو أن هولاكو بدأ ايضا منذ هذه اللحظه يتشكك في تحقيق الانتصار على الخلافه العباسيه رغم تشدقه به في اكثر من رساله بدليل قوله هنا " ولو جرى سير الفلك على شاكله أخرى فتلك هي مشيئة الله العظيم "•

ومهما يكن من أمر فان الخليفه المستعصم لم يعر ذلك الامر اهتماما• ولايستبعد أن يكون الوزير ابن العلقمي الذى كان على اتصال بالمغول ، والذى تسلم رسالة هولاكو هذه من الرسل ، وعرضها على الخليفه • [1]قد أخفى بعض نصوصها لكي لايطلع الخليفه على تلك التغييرات التي طرأت على تهديدات هولاكو له • كما تمادى الخليفه المستعصم في عدم معالجة الامور بنفسه ، وأخذ يستشير كبار الرجال في دولته لمواجهة ذلك الخطر ، فأشار عليه الوزير بجمع الاموال من الخزائن والدفائن وارسالها مع التحف والهدايا الى هولاكو ، مع تقديم الاعتذار اليه •[2] فاستحسن الخليفه هذا الرأى ، وأشار به ، الا أن مجاهد الدين ايبك الذى كان على خلاف مرير مع الوزير ابن العلقمي ، سارع بالاتفاق مع بقية الامراء بابلاغ الخليفه بأن مؤيد الدين ابن العلقمي على اتفاق مع هولاكو وأنه دبر هذه الحيله لمصلحته الخاصه ، لكي يتقرب منه ، وأنه من الواجب القاء القبض على الرسل وأخذ ما معهم من الاموال ، فعدل الخليفه عن مشورة الوزير وأخذ برأى مجاهد الدين •[3]

---

(١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٢٧١ •
(٢) رشيد الدين ،المصدر نفسه ،ص ٢٧١ ، ٢٧٢ •
(٣) رشيد الدين ،المصدر نفسه ،ص ٢٧٢ •

وبالنظر في موقف الخليفه المستعصم من هذين الرأيين ، فانه يبدو أنه قصد بذلك تفادى مزيد اشتعال الفتنه بين السنه والشيعه بدليل انه لم يهمل الوزير ابن العلقمي بالرغم من رفضه لمشورته ، بل بعث اليه رساله . ذكر له بأنه على علاقة طيبة مع هولاكو وأخيه وأن رسالة الرسل غير صحيحه ، وفي حالة مخادعة المغول له ، فانه سيدعوا ملوك المسلمين الذين يعتبرهم بمثابة الجند له ، وأنهم متفادون ومطيعون لامره ونهيه للوقوف في وجه خطر المغول الغادر . (١)

ولكن يبدو أن الوزير ابن ابن العلقمي كان مصرا على التمادى في تنفيذ خطته . فلم يعجبه تصرف الخليفه هذا ، فجمع امراء بغداد وعظماؤها في حظرته ، وأطلقوا ألسنتهم في قدح الخليفه وطعنه ، واتهموه بالمساخره وحب المطربين وأنه " عدو الجيوش والجنود " . ثم تقدم القائد سليمان شاه وأعلن بأن الخليفه ، اذا لم يبادر بطلب العون والمساعده لدفع الخطر المغولي ، حيث أن الفرصه لازالت مواتيه لحشد الجيوش من كافة الاطراف ، فسيتغلب جيش المغول عن قريب على بغداد وسينزلون بالبلاد والعباد خسائر فادحه . وأعلن سليمان شاه استعداده لقيادة هذه الجيوش ، فاستحسن الخليفه المستعصم هذا الرأى وقال للوزير " ان كلام سليمان شاه له الاثر في النفس المنهكه ، فاستعرض الجند حسب تقريره ، لاغنيهم بالدرهم والدينار وسلم أمرهم الى سليمان شاه ليحقق خطته. " . (٢)

---

(١) انظر نص الرساله في رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ،ج ١ ،ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبيه والغزو المغولي للعالم الاسلامي ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، م ٢ ،ج ١ ،ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

والذى لاشك فيه أن هذا الرأى كان الاصلح لمواجهة خطر المغول في ذلك الوقت ، اذ لم يبق امام الخليفه المستعصم بعد أن أعلن استعداده لبذل الاموال . سوى استغلال سلطته الروحيه لتجديد الدعوه الى احياء حركة الجهاد الاسلامي المقدس ضد المغول،ودعوة كافة الاقطار الاسلاميه الى نبذ خلافاتها ، وارسال المدد والجيوش للدفاع عن الخلافه العباسيه . الا أن الخليفه المستعصم الذى لم يكن يقصد بذلك ـ على حد تعبير المؤرخ رشيد الدين ـ سوى ايصال نبأ تعبئة الجيوش الى البعيد والقريب لتصد عزيمة العدو . لم يف بما تعهد به من دفع الاموال ، وعاد ثانيه الى ممارسة الحرب النفسيه مع هولاكو ، فرد عليه برسالة ذكره فيها بما حل بما سبقه من الملوك والسلاطين ممن حاولوا قصد اسرة بني العباس والاعتداء على دار السلام بغداد ، كيف كانت عاقبته وخيمه ، وأنه ليس من المصلحه أن يفكر هولاكو في قصدها والاعتداء عليها ، وأنهى رسالته مخاطبا هولاكو بقوله : " فاحذر عين السوء من الزمان الغادر ".(١)

ولكن هولاكو لم يأبه بهذا التحذير ، بل يبدو انه بعد تلقي هذه الرساله ، قطع كل أمل له في الحصول على تنازلات من الخليفه المستعصم ، وأدرك ألا سبيل له سوى تنفيذ خطة أخيه منكو خان بمهاجمة الخلافه العباسيه في بغداد ، بدليل رده على الخليفه بقوله : " اذهب واصنع من الحديد المدن والاسوار ، وارفع من الفولاذ الابراج والهياكل ، واجمع جيشا من المرده والشياطين ، ثم تقدم نحوى للخصام والنزال ، فسأنزلك ولو كنت في السماء ، وسأدفع بك غصبا الى افواه السباع ".(٢)

---

(١) انظر نص الرساله كامله ، في رشيد الدين ، جامع التواريخ ،م٢،ج١ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ؛ محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبيه والغزو المغولي للعالم الاسلامي ، ص ٣٤٩ .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .

أخذ هولاكو بعد هذا التهديد الاخير يعد عدته ، استعداد لبدء الزحف على بغداد ، وهنا يبدو أن الديانه البوذيه [١] الوثنيه التي كان المغول وعلى رأسهم الخان الاعظم وهولاكو يدينون بها في ذلك الوقت ، كان لها الاثر في جعلهم يؤمنون ايمانا كاملا بالطيرة والفأل . اذ حرص الخان الاعظم على أن يصحب جيش هولاكو منجما ليختار للجيش وقت النزول والركوب . وعمد هولاكو قبل زحفه على مدينة بغداد الى استشارة أحد منجميه ، الذى أشار عليه بمشورة مماثله لتلك الرساله التي سبق وأن بعثها الخليفه الى هولاكو يذكره فيها بخيبة أمل من قصد بغداد قبله . وانه اذا لم يستمع الى نصحه فستحل به وبجيشه مصائب عده [٢].

ولكن هولاكو الذى كان -على مايبدو - يتشكك في نوايا منجمه حسام الدين وانه يتعاطف لكونه مسلما سنيا مع الخليفه العباسي ، لم يقتنع برأيه هذا ، لذلك ركن الى استدعاء الخواجه نصير الدين الطوسي، واستشاره في الامر ، فأجابه هذا الاخير بأن شيئا من ذلك لن يحدث [٣] ونفى أن تكون للعباسيين مكرمه خاصه ، مستدلا بأن

---

(١) عن الديانه البوذيه ، انظر عبدالرحمن زكي ، سلسلة مقارنة الاديان ، ج٤ ، أديان الهند الكبرى ، الهندوسيه ، الجينيه ،البوذيه .

(٢) ذكر رشيد الدين أن المصائب التي ذكر المنجم أنها ستنزل بالمغول هي: أن الخيول تموت كلها ، ويمرض الجنود ، ولن تطلع الشمس ، وينقطع المطر ، وتهب ريح شديده ،ويتعرض العالم للتخريب والدمارمن جراء الزلازل، ولاينبت النبات في الارض ،ويموت منكوخان في تلك السنه (انظر جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ص ٢٧٩ ؛ انظر ايضا ، الصياد ، المغول في التاريخ، ج١ ،ص ٢٥٩) .

(٣) ذكر رشيد الدين أن الخواجه نصير الدين ، أجاب هولاكو بالنفي تحت تأثير الخوف منه لانه كان يظن أنه كان يقصد بذلك اختباره (انظر جامع التواريخ ،ص ٢٧٩ ،٢٨٠) . ونصير الدين هو : محمد بن محمد ابن الحسن ، يكنى بأبي جعفر وشهرته الطوسي نسبة الى طوس المدينه =

بعض الخلفـــاء ، قد قتــل ولـم تختل الامور . (١)

ومهما يكن من أمر فقد آخد هولاكو برآى نصير الدين الطوسي وعقــد النيه على مهاجمة بغداد ، فأصدر هولاكو أوامره بان تتحرك جيوش قائديه جرماغون ، وبايجونويان ، اللذين كانا يعسكران في اطراف بلاد الـروم مشكله الميمنه ، الى الموصــل عن طريق اربـد ، ثم تعبر جسر الموصـل وتأخذ طريقها الى التمركز في الجانب الغربي من بغداد ، في انتظار وصـول الجيش الرئيسي القادم من الشرق . أما جيوش كيتوبوقـا [٢] والتي كانـت

= المشهوره ، الجهرودى نسبه الى جهرود من نواحي طوس . وقد تحدث ابـن كثير في كتابه البدايه والنهايه ،ج١٣ ،ص ٢١٠ عن بدء صلته بالمغـول فأشار في صراحه الى آن نصير الدين دخل في خدمة هولاكو بعد انتزاع قلعة الموت من يد الاسماعيليين . ومن هنا اختصه هولاكو فأكرمـه غاية الاكرام ، ولم يمض وقت طويل على هذه الصله التي أثارت فـي نفس نصير الدين سعادة المطمئن بعد أن لاذ من الوحش بالوحش نفسـه ، أن أعلن بشكل رسمي انه شيعي (اثنا عشرى) فأزاح عن وجهـه القناع الذى لازمه طوال ثمانيه وعشرين عاما في قلاع الاسماعيليين، وكان ذلك الاعلان المدهش في الرابع عشر من شوال سنة ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦م، ليصبح فيما بعد الزعيم الفعلي للفكر الشيعي بلا منازع ، والفيلسوف الشيعي الاول الذى يفخر به التراث الشيعي بكامله ـ على حد تعبيـر الدكتور عبد الامير الاعسم ـ(انظر عبد الامير الاعسم ، الفيلسوف نصير الدين الطوسي مؤسس المنهج الفلسفي في علم الكلام الاسلامي ،ص ٢٣، ٤١-٤٣)

(١) استدل نصير الدين بأن طاهر ابن الحسين جاء من خرسان بأمر المأمون وقتل اخاه محمد الامين ، وكذلك قتل المتوكل ابنه بالاتفاق مـع الامـراء ، كما قتل الامراء والغلمان المنتصر والمعتز ، وقتل غيرهم ايضا ، ولم يحدث شيئا مما ذكره حسام الدين (انظر رشيد الديـن، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ،ص ٢٨٠) .

(٢) يرد هذا الاسم على صيغ مختلفه مثل كتبوغا ، كتبغا ، وكيتوقانويان، من قبيله مغوليه اعتنقت الدين المسيحي منذ قرون ، ولعل هذا مـن =

تمثل ميسرة الجيوش المغوليه ، فقد بدأت زحفها عن طريق لرستان وبيات وتكريت وخوزستان (١).

اما هولاكو فقد بدأ زحفه على رأس قواته باتجاه بغداد عن طريق كرمان شاه وحلوان ، وبصحبته كبار رجاله من أمراء المغول وغيرهم، وعندما وصل أسد اباد اوفد رسولا من قبله الى الخليفه العباسي يدعوه الى الحضور اليه . ولكن الخليفه المستعصم رفض كعادته الامتثال لامر هولاكو ، واكتفى بأن أرسل اليه رساله حاول فيها اثناءه عن مهاجمة بغداد مقابل أن يدفع له مايطلبه من الاموال . الا أن هولاكو رفض ذلك العرض المغرى ، وزعم أن الخليفه يريد من وراء تلك المماطله اعداد الجيوش وتهيأتها لمواجهة المغول .(٢)

وفي اوائل محرم من سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٧ م اكتمل عقد الجيوش المغوليه في الناحيه الشرقيه من بغداد ، وفي مقابل ذلك كان الخليفه المستعصم قد أعد جيشا تحت امرة قائده مجاهد الدين ايبك الدواتدار عبر به نهر دجله ، وباغت المغول في معسكرهم ، ودارت بين الطرفين معركة كبيره انتصر في بدايتها جيش مجاهد الدين ، وتمكن من قتل عدد كبير من جند المغول ، وأخذ يتتبعهم طوال اليوم الاول من المعركه الا أن ادركه الليل.

= من الاسباب التي جعلته يضطهد مسلمي دمشق ويعظم قسوس النصارى،ونويان لفظ فارسي كثيرا مايقترن بأسماء قواد المغول ومعناه مقدم الف ، وقيل عشرة آلاف (انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهره ، ج٧ ،ص ٧٨، حاشيه) ؛ العبادى قيام دولة المماليك ،ص ٢٥٧ ،(حاشيه) .

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ،ص ٢٨١ ؛ ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول، ص ٤٧٢ .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ،ص ٢٨١ ،٢٨٢ ؛ وأسد آباد : بلده قريبه من همذان عمرها اسد ابن ذى السرو الحميدى (انظر ياقوت ، معجم البلدان ؛ مسفر الغامدى ،الجهاد ضد الصليبيين بالشرق ، ص ٧٤حاشيه ؛ وحلوان بلده في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد(انظر ياقوت ، المصدر نفسه) .

الا أن المغول عادوا في اليوم الثاني ونظموا صفوفهم ، وحملوا على جيش مجاهدالدين ، وتمكنوا من انزال الهزيمه به واستشهد عدد كبير من جنده في ساحة القتال ، وعاد الباقون الى بغداد .(١)

وفي يوم الثلاثاء ٢٢ من شهر محرم سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م شرع المغول في الهجوم الكاسح على بغداد ، وأحاطوا بالمدينة من كل الجهات ونصبوا عليها المنجنيقات ، وأخذوا يمطرون المدينه بوابل من الحجاره ، حتى أحدثوا الثغرات في السور والابراج وتمكنت أعداد كبيره من جند المغول من الدخول الى المدينة .(٢)

ونتيجة لذلك الهجوم القوى الذى تعرضت له مدينة بغداد ادرك الخليفه المستعصم أن لاقبل له بمقاومة المغول ، وأخذ برأى وزيره ابن العلقمي الذى أشار عليه بأن يرسله اليهم لتقرير الصلح معهم ، فخرج موّيد الدين ابن العلقمي وبصحبته الجاثليق المسيحي " مكيخا " الذى يبدو أنه كان لاختياره لمرافقة ابن العلقمي اهميه خاصه ، نظرا لما كان للمغول الترك والنساطره من نفوذ عند هولاكو ، وما لجأ اليه الخليفه من ارسال زعيم النساطره ، مندوبا عنه الى هولاكو . دل على ان المستعصم أرد بذلك استمالة دوقوز خاتون زوجة هولاكو النسطوريه التي كان لها مكانه كبيره عنده .(٣)

والواقع ان ابن العلقمي كان يعرف تمام المعرفه ، أن هولاكو لن يقبل بعروض الخليفه مهما كان حجمها ، بدليل ان هولاكو بادر ابن العلقمي بمجرد وصوله اليه بطلب العودة الى بغداد ، واصطحاب قائدى جيش الخليفه

---

(١) ابن الفوطي ،الحوادث الجامعه ،ص ٢٢٣ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص ٢٨٥ .

(٢) ابن الفوطي ،المصدر نفسه ،ص ٢٢٦ ؛ رشيد الدين ،المصدر نفسه ،ص ٢٨٦ ؛ ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص ٢٧١ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر، ج٢ ،ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٣) رشيد الدين،المصدر نفسه ،ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ؛ العريني ،المغول ،ص ٢١٨ .

الدواتدار سليمان شاه . ولايستبعد أن يكون ابن العلقمي قصد بذلك العمل التوصل الى بلاط المغول لاظهار ولائه لهم ، ولينفذ مخطط الخيانه الذى كان ينويه للخليفه العباسي سرا ، بدليل ماذكره ابن تغرى بردى من أن ابن العلقمي عندما خرج الى معسكر هولاكو ، اجتمع به وتوثق لنفسه لاخذ الامان منه ، ثم عاد الى الخليفه لابلاغه بمطالب هولاكو. (١)

ومهما يكن من أمر فان هولاكو لم يستجب لهذا النداء ، واكتفى بأن أرسل نصير الدين الطوسي الى الخليفه المستعصم يطلب منه ارسال الدواتدار وسليمان شاه ، فمتثل الخليفه لذلك وبعثهما اليه ، فلما قابلا هولاكو أعادهما الى بغداد لإصطحاب أتباعهما ، بحجة أنّ سينفيهم الى مصر والشام ، فخرج بصحبتهما جمع كبير من جند بغداد ، وما أن وصلوا الى معسكر هولاكو حتى أمر بقتلهم عن آخرهم في ٢ صفر ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . (٢)

وفي يوم الاحد الرابع من صفر من السنة نفسها (١٠ فبراير) خرج الخليفه ، ومعه ابناوّه الثلاثه وثلاثة آلاف شخص من أعيان ووجهاء بغداد لمقابلة هولاكو ، فلما وصلوا الى معسكره أمر بالقبض عليهم ، وطلب من الخليفه أن يأمر أتباعه والمقربين بالخروج الى معسكر المغول ، ولما وصلوا قتلوا عن آخرهم ، ثم أمر هولاكو بوضع الخليفه المستعصم وأبنائه في المعتقل . (٣)

وفي يوم الاربعاء السابع من صفر أعلن هولاكو الهجوم العام على المدينه من الشرق ومن الغرب ، وأمر بردم الخنادق ، وهدم الاسوار ، فدخلها المغول وخربوا المساجد وهدموا القصور ، بعد أن سلبوا مابها من الخزائن والتحف النادره ، ثم أسرفوا في القتل والنهب وسفك الدماء ، وأتبعوا ذلك باشعال

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهره ،ج٧،ص ٤٩ ،٥٠ .
(٢) رشيد الدين ،جامع التواريخ ، م٢ ،ج١ ، ص ٢٨٩ .
(٣) رشيد الدين ، المصدر نفسه ،ص ٢٩٠ ،٢٩١ .

الحرائق في المدينه ، فالتهمت النيران كل ماصادفها ، واستمرت هذه الغاره اربعين يوما ، ذهب ضحيتها مايقارب ثمانمائة ألف نسمه من سكان بغداد .(١)

وفي يوم الجمعه التاسع من صفر سنة ٦٥٦ هـ / ١٥ فبراير ١٢٥٨م دخل هولاكو قصر الخليفه ، وأمر باحضاره الى مجلسه ، ثم أمره بتسليم أمواله وكنوزه ودفائنه وأوكل هولاكو الى أحد رجاله مهمة جردها ، فكانت – على حد تعبير رشيد الدين – عباره عماجمعه الخلفاء في خمسة قرون ، وضمه المغول بعضه على بعض فكان " كجبل على جبل " .(٢)

وأخيرا فان هولاكو لم يجد بدا بعد هذا كله سوى اعلان الامان في المدينة ، بعد أن أصبحت أشلاء محطمه ، فخرج الناس من مخابئهم فكانوا " كأنهم الموتى اذا نبشوا من قبورهم " (٣). وفي يوم الاربعاء ١٤ صفر ٦٥٦هـ / ٢٠ فبراير ١٢٥٨ م استدعى هولاكو الخليفه المستعصم وأولاده وأقاربه وقتلهم جميعا . أما ابن العلقمي الذى كان يتولى الوزاره للخليفه المستعصم قرابة أربعة عشر عاما فقد نصب وزيرا

---

(١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٢٩١ ؛ الذهبي ،دول الاسلام، ص ١٢٣ ؛الديار بكرى ، الخميس في احوال انفس نفيس ، ج٢ ،ص ٤٢٠ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج٢ ،ص ٢٨١ ؛ ابن الفوطي ،الحوادث الجامعه ص ٢٢٩ ؛ العريني ،المغول ،ص ٢١٩ ؛ الصياد ،المغول في التاريخ ،ج١ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ ؛ عبد الحليم عويس ،دراسه عن سقوط ثلاثين دوله اسلاميه ، ص ١٢٧ .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ ؛ انظر ايضا ، جعفر خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانين ، ص ٥٥ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص ٢٠٣ .

في دولة المغول .[١]

وهكذا سقط ذلك الصرح الاسلامي العظيم ، وكان لسقوطه أسوأ الاثر على نفوس المسلمين جميعا ، فعلى الرغم من أن الخلافه العباسيه ، فقدت منذ قرون عديده جانبا كبيرا من قوتها الماديه . الا أن ازالتها نهائيا على أيدى المغول ، أدى الى شغور منصب الخليفه الذى كان المسلمون في الشرق ينظرون اليه نظرة اجلال واحترام .[٢]

ولم يقتصر ذلك الامر على الناحيه الروحيه ، بل تعدى الى الناحية السياسيه ، فقد كانت بغداد قبل سقوطها بأيدى المغول مركزا هاما للنشاط السياسي في كافة أنحاء الشرق الاسلامي ، يؤمها وفود الحكام المسلمين للحصول على التأييد من الخليفه ، فلما سقطت في أيدى المغول فقدت تلك المكانة الممتازه وأصبحت مجرد مدينه ثانويه يعين عليها وال من قبل المغول ، بينما انتقل ذلك النشاط السياسي العظيم الذى كانت تتمتع به الى مدن الشمال في الأربيجان مثل مراغه وتبريز وغيرهما حيث أخذت تلك المدن تلعب دورا

---

(١) بيبرس الدواتدار ، زبدة الفكره ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٦ هـ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٢٩٤ ،٢٩٥ ؛ ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ص ٢٧١ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعه ،ص ٣٢٧ ؛ الخزرجي ، العسجد المسبوك ،ج٢ ،ورقه ٩١ آ ؛ ستانلي لين بول ، طبقات سلاطين الاسلام ،ص ٢٠٠ ؛ ذكر المؤرخون آراء متعدده في كيفية قتل الخليفه المستعصم . (لمعرفة تفصيل ذلك انظر عبد المعطي الصياد ،المغول في التاريخ ،ج١، ص ٢٦٦ ،ـ ٢٧٠ ؛ جعفر خصيباك ،العراق في عهد المغول الايلخانيين ، ص ٥٥ .

(٢) العريني ،المغول ،ص ٢٢٣ ؛ الصياد ،المرجع نفسه ،ص ٢٨٠ ؛ عبد السلام فهمي، تاريخ الدوله المغوليه في ايران ،ص ٢٣١ ،٢٣٢ ؛حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ،ج٤ ،ص ١٦١ .

سياسيا كبيرا خلفا لما كان لمدينة بغداد من قبلها . (١)

كما كان لسقوطها ايضا اثره البالغ على الناحيه الاجتماعيه ، فالمعروف ان الخلافه العباسيه السنيه اشتهرت في ذلك الوقت بمحاربة التشيع والحد منه في مناطق ايران وغيرها ، الا أنه بالقضاء على الخلافه العباسيه انتشر التشيع في تلك المناطق بطريقه غير مألوفه ، نتيجة لازدياد نفوذ رجال الشيعه الذين أصبحوا يتبوؤون المراكز الهامه لدى المغول ، كنصير الدين الطوسي الذى كان مستشارا لهولاكو ، ووزير الخليفه مؤيد الدين بن العلقمي الذى اسند اليه حكم بغداد بعد سقوطها .(٢) هذا بالاضافة الى ازدياد نفوذ المسيحيين الذين ساعدوا هولاكو في الاستيلاء على بغداد والقضاء على الخلافه العباسيه ، اذ من المؤكد أن يحظوا بمكانه عاليه في تلك المناطق على حساب مكانة السكان المسلمين . خاصة وأن درفوزخانون زوجة هولاكو التي كانت مسيحييه نسطورته لم تكن تألوا جهدا في التعاطف مع المسيحيين الشرقيين ، والعمل على رفع شأنهم لدى زوجها هولاكو.

وما قيل عن هذه النواحي الثلاث الروحيه والسياسيه والاجتماعيه يمكن أن يقال ايضا عن الناحيه العلميه ،فقد كانت بغداد مركزا هاما للعلوم والفنون والآداب غنيه بمدارسها ومعاهدها ، ومكتباتها ، وبعلمائها، وبشعرائها وفلاسفتها وفنانيها ، يهرع اليها طلاب العلم من كل مكان . فلما حلت بها النكبه على ايدى المغول ، قتل آلاف من العلماء والادباء والشعراء والفنانين ، وأحرقت المكتبات وأتلفت الكتب ، وخربت المدارس والمعاهد، وقضي على الآثار الاسلاميه التي كانت تزخر بها بغداد .(٣)

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبيه ، ج٣ ،ص ٥٢٢ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ،ج١ ،ص ٢٨٠ ؛ عبد السلام فهمي ،تاريخ الدوله المغوليه في ايران ،ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) عبد السلام فهمي ، المرجع نفسه ، ص ١٣٤ .

(٣) عبد السلام فهمي المرجع نفسه ، ١٣٥ .

وقصارى القول فان تدمير بغداد بعد آن دمرت قبلها بخارى وسمرقند ونيسابور والرى وغيرها ، كان خسارة عظيمه على الحضاره الاسلاميه ، خاصة وأنه ترتب على ذلك آن فقدت اللغة العربيه مكانتها في تلك، المناطق وتفوقت عليها اللغه الفارسيه التي كان المغول يؤثرونها على اللغة العربيه ، ولعل خير وصف لما حل باللغة العربيه بعد سقوط بغداد في آيدى المغول هو قول ادوارد براون " ان تحطيم بغداد كعاصمة للمسلمين وانزالها الى مرتبة المدن الاقليميه ، قد أصاب رباط الوحده بين الامم الاسلاميه بلطمة شديده ، كما أصاب مكانة اللغه العربيه في ايران بضربة قاصمه ، فاقتصر استعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهيه والفلسفيه ، فاذا وصلنا الى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) لم نعد نصادف الا القليل من الكتب العربيه التي تم تأليفها في ايران " .(١)

---

(١) فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ،ج١ ،ص ٢٨١ ،نقلا عن ادوارد براون، تاريخ الادب في ايران ، ص ٥٦٤ ؛ انظر ايضا ، عبد السلام فهمي ،تاريخ الدوله المغوليه في ايران ،ص ١٣٦ ؛ حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ج٤ ،ص ١٦١ ؛ وبخارى من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها ، وسمرقند مدينه اخرى من آشهر مدن ماوراء النهر،ونيسابور والرى مدينتان من آشهر مدن خراسان (انظر ياقوت ، معجم البلدان ؛ انظر ايضا ، كي لسترانج ، بلدان الخلافه الشرقيه ، ص ٥٦٠ ، ٥٠٧ .

موقف القوى الاسلاميه وغيرها من الغزو المغولي :

كان من نتائج سقوط بغداد في أيدى المغول أن عم الرعب والخوف الحكام المسلمين الذين أخذوا يتسابقون لتقديم الولاء والطاعة لهولاكو، مقابل ابقائهم على ممتلكاتهم ، وكان أول هؤلاء الحكام بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، الذى راح منذ وصول المغول الى ايران يتقرب اليهم ، ويعمل على ممالأتهم لابعاد الاخطار المحتملة عن امارته وممتلكاته ، ففي الوقت الذى عزم هولاكو على مهاجمة بغداد ، عهد الى أحد قواده ويدعى ارقيو نويان بالاستيلاء على قلعة اربل الحصينه ، وعندما شرع هذا القائد المغولي في حصارها ، أبدى رجالها مقاومة عظيمه ، فعجز المغول عن تحقيق اقتحام القلعه بالرغم من استسلام أميرها تاج الدين بن صلايا العلوي. الامر الذى اضطر القائد المغولي الى طلب النجده من بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل ، الذى بادر باجابة طلبه وأرسل اليه عددا من جنده ، الا أن تلك النجده لم تفلح في تحقيق ذلك الهدف . فاضطر ارقيو نويان الى استدعاء بدر الدين بنفسه للتشاور معه في أمر القلعه ، فأشار بدر الدين على القائد المغولي بأن يترك حصارها حتى حلول فصل الصيف " لان الاكراد يفرون من الحر ويلجأون الى الجبال " ، وأخيرا قرر ارقيو تسليم أمر القلعه بكامله الى بدر الدين الذى عمد الى هدم اسوارها والاستيلاء عليها .(١)

وعندما بدأت الجيوش المغوليه - كما سبق أن ذكرنا - في مهاجمته مدينة بغداد كانت فرقه منها قد قدمت من حدود بلاد الروم ومضت

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ،ج١ ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ؛ ابن دقماق ، نزهة الانام في تاريخ الاسلام ، لوحه ١٠٤ ؛ الذهبي ،تاريخ الاسلام ،ورقه ٢٤٧ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ،م١ ،ص ٧٨ ؛ الرويشدي ،امارة الموصل ص ٢٥٣ ،٢٥٤ .

في طريقها على الموصل حيث عبرت الجسر ورابطت في الجانب الغربي من بغداد . ولم تشر المصادر الى تعرض تلك القوى المغوليه الى تهديد أو اذى من قبل بدر الدين ، الأمر الذى يؤكد أن امارة الموصل واعمالها قدمت كل التسهيلات للقوى المغوليه العابره ، وأنها كانت مناطق نفوذ مغوليه .(١)

والواقع أن بدرالدين لؤلؤ قد اتبع سياسه فريده قائمه على الحفاظ على امارته من هجمات المغول المدمره . حيث كان يعلم أن الخلافه العباسيه في بغداد كانت في وضع يرثى له ، علاوة على أن الايوبيين في شمال الجزيره وبلاد الشام منقسمون على أنفسهم ، ولم يكن في استطاعة هذه القوى الاسلاميه انجاد امارة الموصل بأى حال من الاحوال . لذا فانه لايستبعد أن يكون بدر الدين قد مالاء المغول انتظارا لما يسفر عنه هجومهم على الخلافه العباسيه في بغداد . وقد يؤيد ذلك ماذكره السبكي في طبقات الشافعيه من أن المغول عندما قصدوا العراق كتب صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ الى الخليفه العباسي في الباطن يستنهضه ضد المغول ، مع أنه في الظاهر كان يدارى المغول ويسترضيهم (٢) ولعل هولاكو كان يحس بما يبطنه كثير من أمراء المسلمين وأما انضمامهم له كان ممالاة لاأكثر ، اذيذكر ابن العبرى أن هولاكو لم يقابل الملك الصالح ركن الدين اسماعيل الذى وصل اليه نائبا عن والده بدر الدين مقابلة حسنه، وقد اظهر له هولاكو عبسه وقال له " أتيتم بعد شك في أمرنا ومطلتم نفوسكم يوما بعد يوم ، وقدمتم رجلا وأخرتم رجلا لتنظروا من الظافر بصاحبه فلو انتصر الخليفه وخذلنا لكان مجيئكم اليه لا الينا . قل لابيك لقد عجبنا منك تعجبا كيف ذهب عليك الصواب وعدل بك ذهنك عن سواء السبيل .... " .(٣)

---

(١) الرويشدى ، امارة الموصل ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) انظر السبكي طبقات الشافعيه ،ج٨ ،ص ٢٦٩ .

(٣) ابن العبرى تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

ومهما يكن من أمر فان هولاكو لكي يعزز تهديداته لحكام الامارات والاقاليم المجاوره ، فقد أرسل اليهم رسائل يعرفهم بسقوط بغداد وماحل بالخلافه العباسيه من الهلاك والدمار والخراب ، حيث بعث الى بدر الدين لؤلؤ رؤوس بعض القتلى من عظماء بغداد مع ابنه الملك الصالح ركن الدين اسماعيل لتعلق في الموصل . وعندما وصل الملك الصالح الى ابيه وأبلغه رسالة هولاكو التي انطوت على التهديد الزاجر ، أيقن بدر الدين أن المنايا كشرت له عن أنيابها وأن سياسة الاسترضاء والممالأه التي اتبعها مع هولاكو لم تجد في تخفيف غضب هولاكو عليه . فانتبه من غفلته وبدأ يفكر في مخرج له من تلك الورطه ، فأخرج ما في خزائنه من الاموال واللآلئ والجواهر ، وحملها بنفسه الى هولاكو بجبال همذان ، فأحسن هولاكو استقباله لكبر سنه ، وأقام بدر الدين عنده أياما ثم أعاده الى الموصل .(١)

والحق أن هذه الزياره التي قام بها بدر الدين لؤلؤ لبلاط هولاكو قد مكنته من تحقيق نجاح كبير في سياسته تجاه المغول ، اذ استطاع بهذا العمل أن يحفظ امارته من الخراب والدمار ، هذا بالاضافة الى ان هولاكو أخذ يعامل بدر الدين معامله خاصه قائمه على الثقه به واخترام كبر سنه ، يدلنا على ذلك أن هولاكو عندما عزم على مهاجمة بلاد الشام بعث الى بدر الدين رسالة قال فيها : " ان سنك قد جاوزت التسعين ولذلك أعفيناك من السير معنا ، ولكن عليك أن تبعث ابنك الصالح مع الرايات الغازيه لفتح ديار الشام ومصر " فامتثل بدر الدين لذلك وسير ابنه الى معسكر هولاكو ، الذى كافأه بمنحه

---

(١) ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ؛ ذكر رشيد الدين في جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣٠٠ ،٣٠١ أن بدر الدين وصل الى هولاكو في ضواحي مراغه في التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ٦٥٦هـ/ / ١٢٥٨ م ، وأعاده هولاكو في السادس من شعبان من السنة نفسها .

ابنة السلطان جلال الدين خوارزمشاه ليتزوجها .[1] ويبدو أن هولاكو قصد بهذه الزيجه ، استمالة بقايا الخوارزميه المتواجدين في تلك المناطق للانضمام الى صفوف المغول .

كما قدم الى هولاكو في شهر شعبان من السنة نفسها الاتابك سعد ابن ابي بكر أتابك فارس ، ليقدم له التهنئه باستيلائه على بغداد . ثم الاخوان عز الدين كيكاوس الثاني ،وركن الدين قلج ارسلان اللذان كانا قد اقتسما سلطنه سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، لتقديم اعتذارهما لهولاكو ، الذى كان ممتعظا من السلطان عز الدين بسبب تمرده على قائده بايجو نويان والاشتباك معه في احدى المعارك .[2] وهنا لايستبعد أن يكون السلطان عز الدين هذا بالرغم من اعلان تبعيته لهولاكو منذ البدايه قد اتبع في الباطن سياسة الحياد مع المغول حتى سقوط بغداد ، حاله في ذلك حال بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل.

ومهما يكن من أمر فان المصادر [التي بين ايدينا] لم تشر الى الدور الذى قام به هؤلاء الحكام لمساعدة المغول ، ولكن يبدو كما أن موافقة هولاكو على ابقائهم في اماراتهم وممتلكاتهم كان مشروطا لتقديم المساعده لجيوشه الزاحفة على الشرق الاسلامي ، ولعل مما يؤيد ذلك التذلل والخضوع

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ،ج١ ، ص ٣٠٥ ؛ الرويشدى ، امارة الموصل ، ص ٢٥٨ .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ،ص ٣٠١ ؛بيبرس الدوادار ، زبدة الفكره ، ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٦ هـ ؛ ذكر العريني في كتابه المغول ،ص ٢٢٤ حاشيه رقم(١) ان الاخوين عز الدين ،وركن الدين اقتسما سلطنة سلاجقة الروم ، فنال عز الدين الاقاليم الغربيه منها ، بينما حكم ركن الدين الاقاليم الشرقيه وكان نهر قول ارمك حدا بين القسمين ؛ انظر ايضا ، المقريزى، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٠٨ حاشية المحقق .

الذى أبداه عز الدين لهولاكو عند اعتذاره عن زلته ، حيث يذكر رشيد الدين أن عز الدين لكي يبحث له عن مخرج من ورطة هذا الخطأ الذى اقترفه ضد القائد المغولي بايجونويان • أمر بصنع حذاء ملكي في غاية الجوده ، ونقشت صورته على نعل ذلك الحذاء ثم قدمه الى هولاكو ، ثم قبل عز الدين الارض أمامه وقال : " ان أملي أن يشرف الملك رأس هذا العبد بوضع قدمه المباركة عليها " .(١) هذا بالاضافة الى ماذكره ابن العبرى من أن الاخوين عز الدين وركن الدين خرجا في خدمة هولاكو عند توجههه الى بلاد الشام حتى قارب نهر الفرات ثم سمح لهما بالعودة الى بلادهما مسرورين مغبوطين.(٢)

ولم يقتصر ذلك التذلل والخضوع على البلدان الاسلاميه في اعالي الجزيره وآسيا الصغرى ، بل تعداه الى بلاد الشام نفسها • اذ أقدم الملك الناصر يوسف الايوبي صاحب حلب ودمشق الذى كان يعد أعلى الامراء الايوبيين شأنا في بلاد الشام على اعلان خضوعه لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة • فقد استجاب لامر هولاكو ، فأنفذ اليه ابنه الملك العزيز يحمل الهدايا والتحف ومعه عدد من الامراء ، فلما وصل العزيز الى معسكر هولاكو وسلمه ما معه من الهدايا والتحف التي تعبر عن الولاء والتبعيه لهولاكو ، طلب منه العزيز على لسان والده أن يرسل اليهم نجده لمساعدتهم في استعادة الاراضي المصريه من أيدى المماليك.(٣)

---

(١) انظر رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ،ج١ ، ص

(٢) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٨ •

(٣) المقريزى ، السلوك ، ج١ ،ق ٢ ،ص ٤١٠ ، ٤١١ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعه ، ص ٣٣٩ ؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهره ،ج٧ ،ص ٥٦ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج٢ ،ص ٢٨٥ ؛ ابن العبرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ ؛ ابن كثير ، البدايه والنهايه ، ج١٣ ،ص ٣١٥ ؛ ابن دقماق ، نزهة الانام في تاريخ الاسلام ، لوحه ١٠٥ •

الا أن هولاكو الذى رأى أن عدم استجابة الملك الناصر يوسف لاوامره بالخروج اليه بنفسه ، يعد تمردا على أوامره ، وأن الوفد الذى أرسله الملك الناصر اليه لايناسب مقامه . لم يكتف بعدم الاستجابة لطلبه هذا ، بل أصر هذه المره على خروج الملك الناصر اليه بنفسه لتقديم الولاء والطاعة ومعه قوة قوامها عشرون الف فارس ، حيث أعاد هولاكو الملك العزيز الى ابيه ومعه رساله ذكّر فيها الملك الناصر بما أنزله المغول بمدينة بغداد وبالخليفة العباسي من صنوف العذاب والدمار والهلاك ، وختم هذه الرساله بقوله مخاطبا الملك الناصر " اذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك ، الى طاعة سلطان الارض .... تأمن شره ، وتنل خيره ... ، ولاتعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم الى كروان سراى ، فان كانوا في الجبال نسفناها ، وان كانوا في الارض خسفناها ".(١)

ويبدو أن هذه التهديدات أزعجت الملك الناصر ، فانتابته نوبه من صحوة الضمير ، وشعر بمدى السخط الذى جلبه على نفسه بين الامراء الايوبيين والمسلمين عامة ، فرفض دعوة هولاكو ، وأرسل اليه ردا مليئا بالسباب ، وقلب سياسته تجاه المغول رأسا على عقب حيث اقدم عندما بلغه عبور القوات المغوليه نهر الفرات على ارسال رسول من قبله هو الصاحب كمال الدين ابن العديم الى المماليك في مصر يستنجد بهم ضد جيوش هولاكو التي بات هجومها وشيكا على بلاد الشام.(٢)

---

(١) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ؛ انظر ايضا ،السيوطي ،تاريخ الخلفاء ،ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ ؛ اليافعي ،جامع التواريخ المصريه ،ص ١٥٠ .

(٢) المقريزى ، المصدر نفسه ، ص ٤١٥ ، ٤١٦ ؛والصاحب كمال الدين ابن العديم هو المؤرخ عمر ابن احمد بن هبة الله بن جراده العقيلي ،ولد سنة ٥٨٨ هـ /١٢٦٢م توفي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وهو من اسرة عريقه في حلب اشتهرت بالعلم والفقه والقضاء والادب والشعر على مدى قرنين من الزمان (انظر ابن تغرى بردى ،النجوم ،ج٧،ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ؛ شاكر مصطفى ،التاريخ العربي والمؤرخون ،ج٢ ،ص ٢٦٣ .

وأمام هذا التصرف الجرىء للملك الناصر يوسف ، أدرك هولاكو ـ على مايبدو ـ فشل سياسة التشدد التي اتبعها مع الملك الناصر ، والتي ادت به الى الارتماء في احضان المماليك بمصر ، وبدأ هولاكو يفكر في تلافي ذلك الخطأ حيث سارع بارسال نجده سريعه الى الملك الناصر في دمشق . ولكن هذه النجده لم تؤت ثمارها بالنسبة لهولاكو ، بل زادت من تحالف المماليك مع الايوبيين ، اذ يذكر المقريزى أن السلطان المملوكي المظفر قطز عندما سمع بوصول تلك النجده المغوليه الى الملك الناصر بدمشق ، بعث اليه كتابا اقسم له فيه بالايمان أنه لاينازعه في الملك ولايقاومه ، وأنه نائب عنه بديار مصر ، وختم كتابه هذا بقوله : " وان اخترتني خدمتك ، وان اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فان كنت لاتأمن حضورى سيرت اليك العساكر صحبة من تختار " .[1] كما يؤكد ذلك ماذكره ابن عبد الظاهر انه لما توالت الاخبار بقصد المغول بلاد الشام بعث السلطان مظفر قطز الى الملك الناصر يوسف الايوبي رسالة يعرض نفسه عليه ، ويحثه على مهاجمة المغول في معسكرهم قبل دخولهم بلاد الشام ، ويبدى استعداده للمسير على رأس هذا الجيش ، حيث قال في رسالته : " لو جهزت معي عسكرا فيه ثلاثة آلاف فارس سقت الى العدو الى المكان الذى هم فيه " وكانت الاخبار تفيد بأن المغول قد أقاموا معسكرهم في بالس ، وأنهم في ثمانية آلاف فارس .[2]

وبالرغم مما ذكره هذا المؤرخ الاخير من أن الملك الناصر لم يستجب لذلك العرض السخي الذى تقدم به السلطان المملوكي قطز ، ولعل ذلك كان بسبب خوفه من بقية الامراء الايوبيين الناقمين على المماليك في مصر.

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ٤١٨ .

(٢) ابن عبد الظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٦٢ ؛ وبالس ، بلده صغيره بالشام بين حلب والرقه وأرض الفرات ، (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

فانه يمكن القول أن مماطلة الملك الناصر للمغول ، وتخوف السلطان المملوكي قطز - نتيجة لسياسة العداء التي كانت قائمه بينه وبين الايوبيين في الشام - من معاودة الملك الناصر مرة أخرى تسهيل مهمة المغول بالاستيلاء على بلاد الشام وطلب المساعدة منهم على مصر ، وماترتب عليه من اعلان المظفر قطز استعداده للخروج الى بلاد الشام لمساعدة الايوبيين ضد المغول ، واعتبار نفسه نائبا للملك الناصر على مصر . يعتبر الاساس الاول لقيام الوحده الاسلاميه بين الشام ومصر ، التي مكنت المسلمين بعد ذلك من ايقاف الزحف المغولي المدمر على ممتلكاتهم .

أما عن موقف أرمينيه الصغرى من الغزو المغولي لبلاد الشام ، فان ملوك ارمينيه ماكادوا يحسون باقتراب المغول من المشرق الاسلامي حتى هللوا لهم ورأوا فيهم القوة الضاربه الكبرى التي تستطيع أن تقضي على الاسلام والمسلمين وتقوى الوجود المسيحي في تلك المناطق ، خاصة وأن المغول في ذلك الوقت لازالوا يدينون بالوثنيه ، الامر الذى جعل هؤلاء المسيحيين ينظرون الى هذه القوى على انها مادة خام يسهل تشكيلها في القالب المسيحي ، وزاد من قوة هذا الطمع ظهور تيارات واتجاهات مسيحيه بين صفوف المغول ، من ذلك أن زوجة هولاكو دفوزخانون ، وأمه سيورقوقيتى كانتا مسيحيتين نسطورنين ، فعملتا دائما على مؤازرة المسيحيين ومناصرتهم في كل المناطق التي خضعت للسيطرة المغوليه . (١)

واذا كان الملك الارمني ليو الثاني قد توفى سنة ١٢١٩م /٦١٧ هـ فان خليفته هيثوم الاول وضع دعائم سياسه خارجيه جديده قامت على اساس احلال التحالف مع المغول محل التحالف مع الغرب الاوربي ، بعد أن ثبت

---

(١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٢٢٠ ؛ سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ، ومملكة ارمينيه الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ؛ انظر ايضا ، بول آميل ، تاريخ ارمينيا ،ص ٣١ ، ٣٢ .

انشغال الغرب الاوربي بمشاكله الخاصه [١] عن المساهمة الجديه في الحروب الصيلبيه . وظهرت سياسة هيثوم عندما لجأت الى بلاد زوجه كيخسرو سلطان سلاجقة الروم وابنته ، فرارا من بايجو القائد المغولي الذى ارسله هولاكو لمهاجمة السلاجقة والاستيلاء على قونيه [٢] وكانت الشهامه تتطلب من هيثوم ملك ارمينيه الصغرى حماية امرأتين لجأتا الى بلاطه وقت الشده ، ولكنه ضرب بقواعد العرف والاخلاق عرض الحائط ، واختار أن يتقرب الى المغول على حساب المثل والفضيله ، فسلم زوجة الحاكم المسلم وابنته الى بايجو . [٣]

---

(١) كانت الكنيسه في اوربا في العصور الوسطى ، تعاني من ثلاثة امراض خطيره هي : السيمونيه (Simon) أى شراء الوظائف الكنيسيه بالمال ، وزواج رجال الدين ، والتقليد العلماني (Investiture) أى قيام الحكام العلمانيين بتعيين رجال الدين ، وعندما حاول باباوات روما ابتداء من البابا جريجورى السابع الذى اعتلى عرش البابويه في سنة ١٠٧٣ م معالجة امراض الكنيسه في حزم وشده. دخلة في صراع مع الاباطره ، وبدأ دور من ادوار النزاع العنيف بين البابويه والامبراطوريه الذى كان سمة بارزه من سمات تاريخ العصور الوسطى انعكست آثاره على النشاط السياسي لغرب اوربا فبرز فريق ثالث وقف موقفا وسطا بين انصار البابويه وانصار الامبراطوريه في محاوله لتجنيب العالم الاوربي ويلات هذا الصراع ورفعوا شعارا جديدا مفاده " اعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر " (انظر سعيد عاشور ، اوربا العصور الوسطى ،ج١ ،ص ٣٤٥ – ٣٥٧ ؛ محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ اوربا العصور الوسطى ، ص ٢٩٣ – ٣٠٨ .

(٢) عن هجوم المغول على سلطنة سلاجقة الروم ،انظر الباز العريني ،المغول ، ص ١٧٦ – ١٨٠ ؛ الصياد،المغول في التاريخ ، ج١ ،ص ١٨٢ – ١٨٣ ؛ علي الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،ص ٤٢٤ – ٤٢٧ .

(٣) سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ومملكة ارمينيه الصغرى ،ص ٢٤٣ .

ولم تقتصر جهود هيثوم الاول على استرضاء هولاكو عند هذا الحد بل عمد الى الاتصال مباشرة بخاقان المغول الاعظم كيوك خان بعاصمته قراقورم. حيث أقدم على ارسال أخيه سمباد في مهمة رسميه الى قراقورم في سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م وعاد اليه منها سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ومعه شهادة ضمان من خان المغول ببقاء مملكة ارمينيه الصغرى مع اعادة القلاع التي انتزعها السلاجقه منها . ولقد شجع نجاح هذه السفاره هيثوم على الخروج بنفسه سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م لزيارة خاقان المغول الجديد منكو خان في عاصمته ، ولقي منه كل احترام وأكد له الضمانات والوعود التي قدمها سلفه كيوك لسمباد ، وزاد على ذلك باعفاء الكنائس والاديره الارمينيه داخل دولة المغول من الضرائب . الامر الذى شجع هيثوم على الطمع في الزج بالمغول في تيار الحروب الصليبيه ،واتخاذهم حليفا قويا للمسيحيين في حركتهم الكبرى لاعادة سيطرتهم على بلاد الشام.[(١)]

ولم يكد الملك هيثوم يعود من عاصمة المغول الى بلاده حتى شرع في تنفيذ خطته الجديده التي تقضي بتكوين جبهه من المسيجيين والمغول ضد المسلمين فاتصل بامراء الصليبيين بالشام يدعوهم الى المشاركه في مشروعه الكبير ، ولكنه لم يجد استجابة سوى من زوج ابنته بوهيمند السادس امير انطاكيه الصليبي الذى أعلن انضمامه الى صهره هيثوم ومساعدة المغول الذين يتطلعون الى الاستيلاء على بلاد الشام ، حيث اشترك هيثوم الاول مع زعماء المغول في وضع الخطه لغزو بلاد الشام . وكان أن طلب هولاكو من حليفه الارمني أن يلتقي به على رأس جيش عند الرها ، حتى يذهب معه الى بيت المقدس ويخلص الاراضي المقدسه من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين .[(٢)]

---

(١) انظر ،سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ، ومملكة ارمينيه الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ،ص ٢٤٣، ٢٤٤ ؛
The cambridge of Islam ,p.211 .

(٢) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ،ص ٢٤٤، ٢٤٥ .

وما قيل عن ملك الارمن وبوهيمند امير انطاكيه ، يمكن أن يقال عن بقية المسيحيين الشرقيين الذين كانوا داخل بلاد الشام نفسها آنذاك. اذ أن هذه الطائفه كانت ستنضم بلا شك الى صفوف المغول وتؤيد استيلاءهم على بلاد الشام ، باعتبار المسلمين عدوهم المشترك ، كما كان لدقوز خاتون التي كانت توليهم رعاية خاصه باعتبارها مسيحيه نسطوريه - كما سبق القول - أثره البالغ على هذه الجموع المسيحيه التي كانت تعيش آمنة داخل العالم الاسلامي ، بفضل اتباع المسلمين لمبدء التسامح الذى يحث عليه الدين الاسلامي الحنيف . ومما يؤكد ذلك تعاون هذه الطوائف المسيحيه مع العدوان المغولي - كما سنراه فيما بعد - من مظاهر البهجة والسرور التي عمت تلك الطوائف المسيحيه وعبرت عنها بممارسات انتقاميه ضد المسلمين في مدينة دمشق .

أما بالنسبة للقوى الصليبيه الغربيه ، التي كانت تتمركز في ذلك الوقت على الشريط الساحلي لبلاد الشام ، فقد وقفت موقف المتردد من الهجمات المغوليه على بلاد الشام ، حتى أن سلوك بوهيمند السادس أمير انطاكيه الصليبي وتأييده لحركة الغزو المغولي على بلاد الشام ، والذى لم يكن بوصفه أميرا كاثوليكيا ، وانما لكونه زوج ابنة ملك ارمينيه الصغرى هيثوم الاول وحليفه وصديقه .[1] قد ضايق معظم الصليبيين في بلاد الشام وخاصة في عكا . ويمكن ارجاع عدم تعامل الصليبيين مع المغول الى انشغال الصليبين بمنازعاتهم الداخليه . الامر الذى لم يترك لهم مجالا للخوض في ميدان السياسه الخارجيه ، واستغلال الظروف السيئه التي ألمت بالعالم الاسلامي من جراء الغزو المغولي. كما لايستبعد أن يكون لاستياء التجار البنادقه في عكا من حركة المغول ، لما ترتب عليها من خلل اعترى طرق التجاره البريه بين الشرق والغرب ، هذا بالاضافة الى أن العلاقات التجاريه بين هؤلاء البنادقه والمماليك المسلمين في مصر كانت طيبه ، لذا حرص البنادقه على ألا يحدث مايعكر

1) The cambridg History of Islam . p . 211 - 212 .

صفو تلك العلاقات التي كانوا يحصلون من ورائها على مكاسب ماديه كبيره .[١]

وقد يكون السبب ايضا استياء الصليبيين الغربيين في الشام لما أظهره المغول من عطف واضح على المسيحيين الشرقيين دون الغربيين ، حتى أن المغول طلبوا من بوهيمند السادس أمير انطاكيه اعادة البطرك الارثذوكسي الذى كان البطرك الكاثوليكي قد طرده من المدينه . اضافة الى أن زوجة هولاكو بالذات كانت نسطوريه ، كما أن بطانته ومستشاريه ومؤيديه كانوا من النساطره والارمن بوجه خاص . كما يبدو أن احساس الصليبيين الغربيين بعطف المغول على المسيحيين الشرقيين ضايقهم وأخافهم من الوقوع تحت رحمة الكنائس الشرقيه ، حتى أنهم أرسلوا الى الغرب الاوربي يطلبون حملة صليبيه جديده ليس ضد المسلمين هذه المره ، وانما ضد المغول وحلفائهم المسيحيين الشرقيين .[٢]

وبالرغم مما ذكر من أن النتيجة الواضحه لموقف الصليبيين الغربيين من حركة الغزو المغولي ببلاد الشام . هي أن الصليبيين الغربيين أضاعوا من أيديهم فرصة ثمينه ، لم يتحها لهم الزمان مرة أخرى .[٣] فانه يبدو لنا أن موقف الصليبيين هذا هو الذى مكنهم من البقاء مدة أطول في بلاد الشام . اذ لو تحالف الصليبيون مع المغول ، لحققوا جزءا من أهدافهم ، وهو الانتقام من المسلمين في تلك الجهات ، ولكن ذلك التحالف كان سينعكس على

---

(١) رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبيه ، ج٣ ،ص ٣٠٧ ؛ سعيد عاشور، الحركه الصيلبيه ،ج٢ ،ص ١٠٧٧ .

(٢) جوانفيل ، القديس لويس ، ص ١١٧ ؛ سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ١٠٧٧ .

(٣) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ،ص ١٠٧٧ .

وضعهم السياسي هناك ، اذ أنهم كانوا بلا شك سيصبحون عبارة عن ولايه من ولايات المغول حالهم حال الارمن وأمير انطاكيه من قبلهم . هذا بالاضافة الى أن ذلك التحالف كان سيغضب عليهم الباباوات في روما ، اذ أن تبعيتهم للمغول الذين عرفوا بمحاباة المسيحيين الشرقيين ، كان سيؤدى الى اضعاف مركز الكنيسه الغربيه في بلاد الشام .

سقوط مدن الشام في أيدى المغول :

سبق أن ذكرنا أن هولاكو عندما عزم على مهاجمة بغداد، عهد في الوقت نفسه الى قائده ارقيو نويان بالاستيلاء على قلعة اربل . ولم يتمكن هذا القائد المغولي من الاستيلاء عليها ، الابعد أن طلب المساعدة من بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل ، الذى سار بنفسه الى معسكر المغول ، حيث سلمه ارقيونويان مهمة الاستيلاء على المدينة ، فهاجمها وهدم أسوارها وتسلمها من حاكمها بالقوة .(١)

وبعد أن تم للمغول الاستيلاء على اربل ، أمر هولاكو الامراء يشموت ، وايلكانويان ، وسونتاى ، بالتوجه الى مدينة ميا فارقين ، ولما بلغوا حدودها أرسلوا رسولا من قبلهم الى الملك الكامل الايوبي صاحبها يدعونه الى الخضوع والطاعة لهم ، ويتوعدونه بالهلاك والدمار في حالة عصيانه لهم . الا أن الملك الكامل قابل ذلك التهديد بالرفض الشديد ، وذلك لما كان يعرفه عن المغول من الخيانة ونكث العهود ، حيث رد عليهم قائلا : " انني لن أنخدع بكلامكم المعسول ، ولن أخشى جيش المغول ، وسأضرب بالسيف ما دمت حيا " .(٢)

---

(١) انظر ماسبق ،ص ٦٨

(٢) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣١٩ ؛ انظر ايضا ،ابن شداد، الاعلاق الخطيره ،ج٣ ،ق٢ ،ص ٤٨٩ ، ٤٩٠ ؛ وميا فارقين : من أشهر مدن ديار بكر بمنطقة الجزيره (انظر ياقوت ،معجم البلدان)؛ والملك الكامل : هو الشهيد ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن الملك العادل سيف الدين ابي بكر محمد ابن ايوب ، ملك ميافارقين سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧م . (انظر الزبيدى ، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب ،ص ٧١ ؛ ابن شداد ،الاعلاق الخطيره ،المرجع نفسه ،ص ٧٠٨ ، الملاحق) .

ونتيجة لهذا الرد الحاسم من الملك الكامل ، اتفق الامراء المغول على مهاجمة ميافارقين ، وانتزاعها بالقوة من يد حاكمها وفي الوقت نفسه أخذ الملك الكامل يعد نفسه وقواته لمواجهة ذلك الخطر ، حيث عمد الى تطييب خواطر سكان مدينته ورفع روحهم المعنويه ، باعطائهم وعدا ببذل كل مايملك من الذهب والفضة والغلال الموجودة بالمخازن في سبيل الدفاع عن مدينتهم، فاتحد معه سكان المدينة جميعا ، وأعلنوا له أنهم رهن اشارته ، وعلى استعداد للجهاد ضد العدوان المغولي الذى بات يهدد مدينتهم بالخراب والدمار .(١)

ولم يأبه المغول بتلك الاستعدادات التي أبداها الملك الكامل وأهل مدينته ، بل أقدموا على فرض حصار شديد على مدينة ميافارقين ، اشتركت فيه فرق ارمنيه ومسيحيه شرقيه ، وقابله المسلمون داخل المدينة بصمود هائل عجز أمامه المغول عن اقتحامها مدة طويله . وكان في جيش الملك الكامل فارسان بارعان أذهلا قادة المغول ودوخاهم وأوقعاهم في الدهشة والحيره ، اذ كان لبسالتهما واحكامهما الرمايه سببا في انزال افدح الخسائر في الجيش المغولي . حتى اضطر هولاكو – الذى ادرك عجز قواته عن اقتحام المدينه – الى ارسال مدد جديد بقيادة الامير ارقتوا ، وانضم هذا القائد الجديد بجموعه الى الجهة التي فيها جيش الامير المغولي ايلكيانويان . ونظرا لطول الحصار الذى فرضه المغول على المدينة ، نفذت الارزاق من داخلها وعمّ القحط ، وانتشر الوباء ، وتهدمت الاسوار من شدة ضرب المنجنيقات ، حتى هلك أكثر سكان المدينه . ولما تأكد الملك الكامل أن مقاومته للمغول أمست عديمة الجدوى ، استسلم للمغول

---

(١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣١٩ ، ٣٢٠ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيره ،ج٣ ،ق٢ ،ص ٤٩٠ .

فقتلوه شر قتلة ، اذ أخذوا يقطعون لحمه قطعا صغيره ويدفعون بها الى فمه حتى مات ، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في البلاد وذلك في سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م .(١)

وبعد أن تمكن هولاكو من انهاء الامر في ميافارقين ، أشار على أمرائه بالزحف على مدينة ماردين ، التي كانت تتمتع هي الاخرى بحصانة كبيره ، اذ تعجب المغول من ارتفاع قلعتها واستحكاماتها . لذلك عمد هؤلاء القاده الى اتباع نهجهم التقليدى بارسال الرسل الى صاحبها الملك السعيد .(٢) بالتهديد والوعيد ، الا أن الملك السعيد الذى كان يعرف هو الآخر ماكان عليه المغول من الخيانة ونكث العهود والمواثيق ، أبى الانصياع الى اوامرهم ، ورد عليهم قائلا : " كنت قد عزمت على الطاعة والحضور الى الملك ، ولكن حيث أنكم قد عاهدتم الآخرين ، ثم قتلتموهم ، بعد أن اطمئنوا الى عهدكم وأمانكم ، فاني الآن لا أثق بكم . وأن القلعة بحمد الله تعالى مشحونة

---

(١) ابن شداد ،الاعلاق الخطيره ،ج٣ ،ق٢ ،ص ٥٠٢ ،٥٠٦ ؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكره ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٦ هـ ؛رشيد الذين ،جامع التواريخ ،م٢، ج١ ،ص ٣٢١ ،٣٢٢ ؛ ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص ٢٧٧؛ ابو الفدا ،المختصر في اخبار البشر ،ج٣ ،ص ٢٠٣ ؛ ابن الفوطي ،الحوادث الجامعه ،ص ٣٤٠ ؛ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهره ،ج٧ ،ص ٩١ ؛ ابو شامه ،الذيل على الروضتين ،ص ٢٠٥ ؛ الزبيدى ،ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب ،ص ٥٦ ،٥٧ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ،ج١ ،ص٢٩٣.

(٢) هو الملك السعيد نجم الدين ايلغازى بن الملك المنصور ناصر الدين ارتق بن ايلغازى ، خلف آباه على ملك ماردين سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م (انظر ابن شداد ،المرجع نفسه ،ص ٥٩٨ الملاحق) .

بالذخائر والاسلحه ، ومليئه برجال الترك وشجعان الكرد " .[١]

ونتيجة لهذا التصميم من جانب الملك السعيد على مواجهة جيش المغول، اصدر قائدهم ارقيونويان أوامره بنصب المنجنيقات حول المدينة ، ايذانا ببدء حصارها ، وضرب أسوارها ورميها بالسهام . واستمرت الحرب بين الطرفين على أشدها مدة ثمانية أشهر .[٢] وهنا يبدو أن استحكامات المدينه واستماتة المسلمون بداخلها في الدفاع منها أدى الى شعور القاده المغول بأن اقتحام المدينه بالقوة بات أمرا مستحيلا وأنه من الافضل الاكتفاء بتشديد الحصار عليها ، وفي الوقت نفسه حرصوا على كسب الوقت وعدم اضاعته ، بالاغاره على المدن القريبه من ماردين حيث اغاروا على دنيسر وأرزن .[٣]

وأخيرا ظهر الغلاء والقحط والوباء في المدينه ، ومات أكثر سكانها ، ومرض الملك السعيد نفسه ، وهنا تذكر المصادر روايتين مختلفتين في كيفية سقوط مدينة ماردين في ايدى المغول ، فيذكر رشيد الدين أن الملك السعيد كان له ولدان أكبرهما مظفر الدين ، كان يقول لوالده اثناء محنة الحصار " من المصلحة النزول من القلعه اذ ليس في الامكان مقاومة هذا الجيش " فلم يصغي اليه والده وأصر على الصمود داخلها ، فسقى الابن أباه دواء ساما مات على اثره . ثم ارسل مظفر الدين الى القائد المغولي ارقيونويان يخبره بوفاة والده ، ويطلب منه ايقاف القتال وفك الحصار ، مبديا استعداده

---

(١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣٢٤ ،٣٢٥ ؛ انظر ايضا ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيره ،ج٣ ،ق٢ ،ص ٥٥٩ .

(٢) رشيد الدين ،المصدر نفسه ،ص ٣٢٥ .

(٣) رشيد الدين ،المصدر نفسه ،ص ٣٢٥ ؛ ودنيسر : بلده عظيمه من نواحي الجزيره قرب ماردين بينهما فرسخان ، وأرزن : مدينة مشهوره قرب خلاط . (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

الى النـزول من القلعـه وتسليمها اليه . فاستجاب لـه ارقيو وأمرجيوشه بالكف عن القتال ، ثم نزل مظفر الدين مع آخيه وسلم القلعه الى المغول . ويستطرد المؤرخ رشيد الدين في سرد حوادث مسرحية التسليم هذه ، فيذكر أن مظفر الدين عندما وصل الى بلاط هولاكو طالبه بدم أبيه قائلا له : " هل يجيز أحد قط أن ابنا يقتل أباه ...... "، فأجاب مظفر الدين " انما فعلت ذلك لاني كلما تضرعت اليه وبكيت أمامه لكيلا يفرط في القلعه وفي دماء الناس لم يستجب لي ، فأقدمت على هذا العمل الخاص من أجل المصلحة العامه ، لاني عرفت أن القلعه ستفتح باقبال الملك ، وأنه سوف يقتل عدة آلاف من الابرياء ، فالحقيقة أن التضحيه بدم واحد خير من التضحيه بمائة ألف "، ثم تضرع مظفر الدين الى هولاكو بأن يغفر له زلته تلك ، وأن يمنحه ملك ماردين خلفا لوالده . فعفى عنه هولاكو ، وسلمه ماردين ،فظل سلطانا عليها حتى وفاته سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م ،١٢٩٦م . (١)

واذا فرضنا جدلا صحة هذه الروايه ، فانه يبدو أن خطة اغتيال الملك السعيد قد تمت باتفاق مسبق تم بين هولاكو والملك المظفر ابن الملك السعيد ، وأن ماذكره رشيد الدين أن هولاكو قد عاتب المظفر على قتل والده ، كان من باب اظهار هولاكو في صورة مغايره لما عرف عنه من الغدر والخيانه وسفك الدماء . بدليل ماذكره رشيد الدين نفسه عند سرده هذه الروايه ، حيث أنهى حديثه عنها بأن حكمها انتقل بعد وفاة الملك المظفر الى ابنه شمس الدين داود ، ولما مات هذا الاخير حل محله نجله نجم الدين الذى تلقب بالملك المنصور ، واشتهر باخلاصه للايلخان غازان ، فمنحه غازان التاج والمظله الملكيه ، وجعله من خواص امرائه ، وفوض اليه الملك في كل ديار بكر وديار

---

(١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ ؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيره ،ج١ ،ورقه ١٢١ آ ـ ب ؛ ابو شامه ،الذيل على الروضتين ، ص ٢٠١ .

ربيعة . (١)

أما المؤرخ عزالدين ابن شداد ، فانه يختلف مع رشيد الدين ليس في كيفية سقوط ماردين في ايدى المغول ، فحسب ، بل حتى في تاريخ سقوطها : فيذكر ان هولاكو بعد ان استولى على ميافارقين تقدم على رأس قواته الى مدينة آمد ووصلها في اواخر عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، ومن هناك بعث رسلا من قبله الى الملك السعيد حاكم مدينة ماردين يطلب منه الحضور اليه ، فاجابه الملك السعيد بأن بعث اليه ابنه الملك المظفر قرا ارسلان ، وقاضي القضاه مهذب الذين محمد بن على ، والاميرسابق الدين بلبان ، وهو من اكابر امرائه ، ومعهم هدية سنية ، ورسالة تتضمن الاعتذار عن ابطائه عن الحضور الى هولاكو لمرض ألم به ، ووافق وصول رسل صاحب ماردين الى بلاط هولاكو استيلاءه على قلعة اليمانية التابعه لميافارقين ، وانزاله منكان بها من حريم الملك الكامل واولاده وأقاربه ، فلما اجتمع هولاكو برسل الملك السعيد اطلعهم على مصير آل الكامل ليوءثر على معنوياتهم ، ويلقي الرعب في قلوبهم ، فلما قدموا الهدية وادوا الرسالة قال لهم هولاكو " ليس مرض الملك السعيد صحيح وانما هو متمارض ، وقصد بذلك انتظار مقابلتي للناصر حتى يرى مايتم لي معه فان انتصرت عليه اعتذر بزيادة المرض ، وان انتصر على فتكون له اليد البيضاء ، اذ لم يجتمع بي ، ولكن لو كان للناصر قوة كافية لم يمكنني من دخول هذه البلاد ، وقد بلغني انه بعث حريمه وحريم امرائه وكبراء رعيته الى مصر ، وهذا يدل على الهرب فلو نزل الملك السعيد الي ، لرعيت له ذلك"(٢)

---

١) رشيد الدين،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣٢٦ ؛ وديار ربيعة هي الديار الواقعة بين الموصل الى رأس عين ، نحو بقعاء الموصل ونصيبين ورأس عين ودنيسر والخابور جميعه ومابين ذلك من المدن والقرى (انظر ياقوت ،معجم البلدان ؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة ، ج٣ ،ق٢ ،ص ٧٩٤ (الملاحق)

٢) ابن شداد ، المصدر نفسه ،ص ٥٥٩ ، ٥٦٠ .

ثم سمح هولاكو لقاضي القضاه بالعودة الى ماردين وحـــده واحتجز عنده المظفر ابن الملك السعيد ، والامير سابق الدين بلبان فلما عاد قاضي القضاه الى ماردين واخبر الملك السعيد بما فعلـه هولاكو ، تألم لهما وندم على ارسالهما الى هولاكو ، وبعث الى الملك الناصر يستحثه على التقدم الى حلب ، ويعده انه متى وصل اليهـا رحل هو اليه برجاله وماله . وفي الوقت نفسه اخذ يفكر في استخلاص ابنه من يد هولاكو ، فدبر لذلك الامر خطة محكمة ، تقوم علـى التظاهر بارسال رسول اخر اليه ، ليقدم له هدية ثانية ، وليتصـل سرا بابن الملك السعيد وولدى سلطان سلاجقة الروم - اللذين صـادف مجيء رسل الملك السعيد الى هولاكو وجودهما عنده وتحفظه عليهـما لبعض الوقت - ويحرضهم على الهرب ، فينفذ رسول الملك السـعيد هذه المهمه وقال لعز الدين بن سلطان سلاجقة الروم " أن هـدف هولاكو من الابقاء عليه هو تهديد الملك الناصر بك ، لا لمحبه لـك ورغبة فيك ، فأوسع الحيلة في الانفصال عنه والحذر منه " فشـكره عز الدين ورد عليه قائلا "والله ماخرجت البلاد من ايدينا الابتخادل بعضنا عن بعض ، فلو كانت الكلمة مجتمعة لم يجر علينا ماجـرى"(١)

ومن كلام عزالدين هذا يبدو لنا ما كان عليه العالم الاسلامي آنذاك - رغم ماحل به من متاعب بسبب ظروف الفرقة والانقسام - مـن احساس بالتطلع الى التكتل ووحدة الصف لمواجهة الاخطار الـتي احدقت به . وان ذلك الشعور والتحمس لم يكن ينقصه سوى الشـخص القوى الذى يستطيع تحقيق رغبات تلك الجموع المتعطشة الى سـماع نداء داع الجهاد الاسلامي المقدس ، وقيادتها في ميادين الشـرف

---

١) ابن شداد ، العلاقة الخطيرة ، ج٣ ،ق٢ ،ص ٥٦٠ ، ٥٦١ ؛ انظر ايضـا اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ،م١ ،ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ؛ ابن العمـاد الحنبلي ،شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ص ١٦١ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ج٨،ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ =========

والكرامة للذود عن حوزة الاسلام والمسلمين ، ولتبقى كلمة الله هي العليا . كما ان هذا الكلام يوءيد ماسبق ذكره من أن معظم الحكام المسلمين وعلى رأسهم بدر الدين لوءلوء صاحب الموصل ، بالرغم من ممالاتهم للمغول والدخول في طاعتهم وان ذلك لم يكن باقتناع منهم ، وانما كان ناتجا عن خضوعهم لسياسة الامر الواقع ، اذ ان شعورهم بعدم القدرة على مواجهة المغول لضعف امكاناتهم ، فضلا عن استحالة حصولهم على النجدة من الخلافة العباسية ، في بغداد ، أو الايوبيين في الشام . قد دفعهم الى اتباع سياسة خاصة قائمة على اساس تقديم الولاء والطاعة ، في مقابل تأمينهم وابقائهم على ممتلكاتهم .

وعلى كل فان هولاكو استطاع خلال تلك المدة ان يستولى على آمد وحران والرها وسروج وعدد كبير من مدن وحصون اقليم الجزيرة .(١) ومن ثم قرر هولاكو ارجاء أمر ماردين ريثما يصفي حسابه مع الشام ، فعبر الفرات على رأس قواته قاصدا حلب فاستولى عليها في المحرم من عام ٦٥٨هـ /١٢٥٩م - كما سنرى - وكان الملك السعيد خلال تلك المدة قد اشتد مرضه واشرف على الهلاك ، ثم شفى من مرضه وارسل الى هولاكو يطلب منه الافراج عن الامير سابق الدين بلبان الذى كان يحتجزه عنده ، فأطلق سراحه ، وكان هولاكو قد استماله في مدة احتجازه عنده ، فلما اجتمع سابق الدين

====== عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٣٢٨، ٣٢٩ .

١) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة ،ج٣،ق٢ ،ص ٥٥٩ ؛ ابن العبرى تاريخ مختصر الدول ،ص ٤٨٦ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٠ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٢٠٢ ؛ المقريزى، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤١٩ ؛ عماد الدين خليل المرجع نفسه ، ص ٣٢٩ .

بالملك السعيد اخبره بما حل بأهل حلب من القتل والسبي والفتك والدمار ، ليخوفه من بطش المغول ، ثم اشار عليه بتسيير هدية اخرى الى هولاكو ، فأخذ الملك السعيد بمشورته ، وارسله وبصحبته شخص اخر بهدية الى هولاكو ، فلما وصلا اليه وجداه على قلعة اعزاز ، فاجتمعا به وقدما له الهدية ، واشار عليه سابق الدين ان يستميل زميله (عزالدين بن بطه) ، فاستدعاه هولاكو سرا وقال له " اقض لي حاجة اقض لك الف حاجة ، قال ماهي ؟ . قال : اريد منك أن تعرفني ، هل ان الملك السعيد مريض حقيقة أم متمارض ؟ ، قال: كان متوعكا وازداد مرضه عند اخذك حلب ثم عوفي ، فقال: اذا الزمته بالمجيء فهل تعلم انه يفعل ؟ قال : مايفعل اصلا ، قال لأي سبب قال ؛ لاشياء كثيرة منها انكم لاتفون لاحد ، ولاتقفون عند كلام تقولونه ، وانكم تهينون الملوك ولاترعون حقوقهم ، وانكم تكلفونهم مالا تطيقه نفوسهم ، وقد تحقق انه متى نزل اليك قتلته ، قال : فان قصدته فهل يقدر ان يمنع نفسه مني؟ قال : نعم ، قال بأى شيء ؟ قال : بحصانة قلعته ، وبما فيها من الدخائر والاقوات ، فانه ادخر فيها قوت اربعين سنة " .

فلما فرغا من الكلام قدم له هولاكو هدية ثمينة استمالة له وصرفه ، فلما اصبح استدعاه وسابق الدين ، وكتب للملك السعيد كتابا جاء فيه " اني قد اعفيتك من النزول فطيب قلبك . " ثم اجتمع هولاكو سرا بسابق الدين ، واتفق معه على استمالة اهالي ماردين واعيانها وامرائها واجنادها وكتب لهم مراسيم بذلك ، وألزمه بتكفل هذا الامر . فأشار عليه سابق الدين ان يرسل معه الملك المظفر بن السعيد ليطمئن قلب ابيه بذلك فاجابه ، واعاد المظفر مع الرسولين الى ماردين ، فلما وصلا اديا الرسالة ، ثم خلا عز الدين بطه بالملك السعيد ، وعرفه ميل سابق الدين الى

هولاكو وانه يعمل لمصلحة المغول ، فغضب الملك السعيد من ذلك ، وكان قد سير سابق الدين بهدية ثالثة ورسالة اعتذار الى هولاكو. وما ان غادر بلبان ماردين حتى اجتمع بعض غلمانه بالملك السعيد وعرفوه ميله الى هولاكو ، وقالوا له انه متي اجتمع به افسد عليك الاحوال ، واشاروا على الملك السعيد بالقبض عليه قبل وصوله الى معسكر المغول . وكان ذلك تعزيزا لما ذكره عز الدين ، فأرسل الملك السعيد رسولا في طلبه يأمره بالعوده ليرسله ثانية الى هولاكو برسالة جديدة ، متظاهرا بأمر تجدد بعد مغادرته ماردين . الا ان احد امراء صاحب ماردين ، ممن حصلوا على مرسوم من بلبان ، أرسل غلاما اليه ليطلعه على عزم الملك السعيد القبض عليه ، فلحقه الغلام وهو على دنيسر وابلغه الرسالة ، وانه متى عاد الى ماردين قبض عليه الملك السعيد فلحق بلبان بهولاكو ولم يعد الى ماردين ثانية . (1) .

ايقن الملك السعيد بعد ذلك من ان المغول سيهاجمون ماردين لا محالة ، فأخذ يعد العدة لمواجهتهم ، ونقل مافي البلد من الذخائر والموءن الى القلعة . وبعد اربعة أيام وصلت رسل من هولاكو يحملون هدية للملك السعيد . وبعد ذلك بفترة قصيرة وصلت قوات المغول بقيادة هولاكو نفسه ونزلت الى ماردين في مطلع جمادى الاولى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، ولم يعلن هولاكو القتال طيلة ستة عشر يوما . وقام خلال هذه المدة بمعاونة قواده بالاشراف على القلعة ، لدراسة تحصيناتها لمعرفة مواطن الضعف بها . ثم غادر وبعض قواده ماردين الى جهة خلاط ، وارسل من هناك رسالة الى صاحب ماردين ، يلتمس منه ان يفتح أبواب المدينة ليدخل عسكره ويتمون منها بالاقوات والعلوفات أياما قلائل قبل ان يرحل عنها ، فاذن لهم الملك السعيد فدخلوها ، وترددوا في الدخول والخروج

---

1) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ،ج٣ ،ق٢ ،ص ٥٦١-٥٦٤ ؛ انظر ايضا عماد الدين خليل ،الامارات الارتقية ،ص ٣٢٩ - ٣٣١

بحرية تامة . فلما كان عصر اليوم الثاني والعشرين من جمادى الاولى من السنة نفسها ، تسلق المغول اسوار البلد ، ودقوا الطبول وجردوا السيوف وهاجموا البلد ، فقاتلهم المسلمون في الازقة والشوارع والمنعطفات ، ودام القتال ثلاثة وستين يوما الى ان فتح لهم بعض مقدمي البلد ثغرة فسيطروا عليها ، ودخلوا منها الى الجامع وصعدوا المنائر واخذوا يرمون منها بالنشاب ، فانسحب اكثر اهل البلد الى القلعة وتم للمغول الاستيلاء على البلد . ومن ثم بدأو مهاجمة القلعة ونصبوا عليها ست منجنيقات فلم يصل منها الى القلعة سوى ثلاثة احجار ، واستمر الحصار الى ان انقضت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م ودخلت سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م .(١)

وفي تلك الاثناء توفي الملك السعيد ، بسبب وباء انتشر بين سكان القلعة فهلك اكثرهم . فتولى الحكم بعده ابنه الملك المظفر ولما وصل الخبر بوفاة الملك السعيد الى المغول ، ارسلوا الى المظفر، وطلبوا منه الدخول في طاعتهم ، فبعث اليهم رسولا ليتعرف على ما اضمرته نفوسهم ، فلما اجتمع بمقدميهم قالا له " ان بين الملك المظفر قرا ارسلان وبين هولاكو وعدا أن والده متى مات وتسلم الملك المظفر الحكم من بعده دخل في طاعته ، فقال لهم الرسول "هذا صحيح ولكن انتم اخربتم بلاده وقتلتم رعيته فبأى شيء يدخل في طاعته حتى يدارى عنه ، فقالا " قد علمنا ذلك ونحن نضمن له أن هولاكو متى اتصل به خبر وفاة الملك السعيد وان ولده المظفر تحت طاعته عمل ماكان تقرر بينهما ، وعوضه عما خرب من بلاده بلادا عامرا مما جاوره ". فلما عاد الرسول للمظفر واخبره بما دار بينه وبين

---

١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٣ ، ق٢ ،ص ٥٦٤، ٥٦٥ ؛ انظر ايضا عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ،ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

مقدمي المغول ، أعاده اليهم برسالة اخرى مضمونها " ان اردتم ان اسير رسلي الى هولاكو ، فابعثا الي رهائن من جهتكما تكون عندى حتى يرجع رسلي " وترددت الرسل بين الطرفين الى ان تم الاتفاق على ان يرسل قطز نويان ولده ، ويرسل جرمون ابن اخيه ، فلما صعدا الى القلعة ، بعث المظفر اليهما نور الدين محمود بن كاجار (شقيق الملك السعيد لامه) فأرفقه قطز نويان بسابق الدين بلبان وارسلهما الى هولاكو ، فاديا مضمون الرسالة اليه والتي كانت تنص على ماتم الاتفاق عليه ، فأجاب الى ماتعهد به قائداه ولكنه احتجز رسل ماردين عنده ، ثم اصدر اوامره الى قواده بالجلاء عن ماردين ، وذلك في رجب من سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م ، ومن ثم اعاد هولاكو الرسولين الى ماردين واصحبهما بكوهداى احد كبار امراء المغول فتوجهوا الى ماردين وتم عقد الصلح بين الطرفين ، واعلن كوهداى اسلامه على يد الملك المظفر فزوجه الاخير اخته .(١)

واعقب ذلك مسير الملك المظفر بنفسه الى هولاكو في رمضان من السنة نفسها يحمل الهدايا اليه ، فاجتمع به هولاكو واكرمه ، ثم قال له " بلغني ان اولاد صاحب الموصل هربوا الى مصر ، وأنا أعلم ان اصحابهم كانوا سبب ذلك ، فاترك اصحابك الذين رافقوك عندى ، فاني لا آمن ان يحرفوك عني ، ويرغبوك في النزوح عن بلادك الى مصر ، واذا ما دخلت البلاد فاستصحبهم معي ". فأجابه الملك المظفر الى ذلك ، ثم قفل عائدا الى بلده وفي الطريق ارسل هولاكو في طلبه يأمره بالعودة اليه ثانية ، فعاد اليه يرتجف خوفا

---

١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ،ج٣ ،ق٢ ،ص٥٦٦ – ٥٦٨ ؛ انظر ايضا اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ،م١ ،ص٣٨٧ ،٣٧٩ ؛ عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٣٣٢ ،٣٣٣ .

فلما اجتمع به قال له هولاكو " ان اصحابك اخبروني ان لك باطنا مع صاحب مصر ، وقد رأيت ان يكون عندك من جهتي من يمنعك من التسلل اليهم " ثم عين لذلك اميرا يدعى (احمد ابغا) واعادهما الى ماردين ، بعد ان اضاف الى الملك المظفر نصيبين والخابور ، ومنطقة لايستهان بها من ديار بكر ضمت الى آمد وميافارقين ، كما الحق بامارته بعض المدن التي سيطر عليها المغول في الجزيرة كقرقيسيا حيث ابقى فيها المغول قوة لحفظ المعابر .[1] وفي الوقت نفسه أمر هولاكو الملك المظفر بهدم ابراج قلعة ماردين. وما ان غادر الملك المظفر معسكر هولاكو حتى اقدم الاخير على ضرب رقاب اصحاب الملك السعيد ، وكان عددهم سبعين رجلا من كبار امراء ماردين ، ولم يكن لاى من هوءلاء ذنب يذكر ، ولكنه قصد بقتلهم ان يقص جناح الملك المظفر .[2]

ويتضح من مقارنة هذه الرواية برواية رشيد الدين السابقة ، كثرة نقاط الضعف فيها مما يجعل رواية ابن شداد هي الارجح ، فرواية رشيد الدين ترد بأسلوب قصصي مسبوغ بطابع المبالغة ، حيث تشير الى ان الابن سم اباه في وقت كان ابوه مريضا بسبب الوباء الذى عم القلعة ، ومما يجعل أمر تعجيل وفاته بالسم امرا غير مقبول من قبل ابنه الذى برر عمله امام هولاكو بأنه اراد الحفاظ على ارواح مائة الف نسمة ، كما اشارت الرواية الى ان هولاكو اعترض على الابن لقتله اباه ،في الوقت الذى كان هدف الابن من الاغتيال فتح ابواب القلعة

---

١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ،ج٣ ،ق٢ ،ص ٥٦٩ ، ٥٧٠ ؛ انظر ايضا عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

٢) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ص ٥٧٠ ؛ انظر ايضا اليونيني ذيل مرآة الزمان ،م١ ،ص ٤٥٧ ؛ عماد الدين خليل ، المرجع نفسه ، ص ٣٣٤ .

للقوات المغولية ، كما لايعقل ان يقوم الابن بتسليم القلعة بما هي عليه من الحصانة والامكانيات الدفاعية للمغول دون اية شروط او تحفظات يستفيذ منها في المستقبل . وقد اجمعت الروايات على ان هولاكو قام باحتجاز الابن فترة من الزمن جرت خلالها اتصالات عديدة بين هولاكو والملك السعيد صاحب ماردين ، ولابد وأن هذه الاتصالات قد استغرقت فترة من الوقت ، بينما تشير رواية رشيد الدين الى ان هولاكو أمر قواته بحصار ماردين وضربها بعد سقوط مدينة ميافارقين مباشرة ، وقبل التوجه الى حلب . وذلك مخالف لسير الحوادث التي ذكرتها مصادر معاصرة توءكد ماذكره ابن شداد عنها .(١) بالاضافة الى ان رواية رشيد الدين تصف الملك السعيد بالظلم والتعسف كي تبرر قتله من قبل ابنه المظفر ، في الوقت الذى يوءكد معظم مترجميه بأنه كان عادلا حسن السيرة .(٢) كمايشير كل من ابن العبرى ، وابن الفوطي ، الى ان الاب حين احس بميل ابنه لاتباع الطريق السهل والاستسلام للمغول ، أمر باعتقاله . فكيف تسنى للاخير سم ابيه ؟ .(٣)

وعليه يمكن القول ان ماذكره ابن شداد يعتبر اكثر وثوقا ، لكونه عاصر هذه الحوادث وكان طرفا في الاتصالات والمفاوضات الدائرة آنذاك بين مختلف القوى الاسلامية والمغول ، وعلى صلة بمعظم الشخصيات السياسية . فضلا عن ان حلب كانت مقر اقامته وهي القريبه من مسرح الحوادث ، فلايعقل ان يذكر رشيد الدين

---

١) انظر ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٦ ، ورقة ٣٩٤ ، انظر ايضا عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٣٣٦ .

٢) انظر ، عماد الدين خليل ، المرجع نفسه ، ص ٣٣٦ .

٣) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ابن الفوطي الحوادث الجامعة ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢ ــ عماد الدين خليل ، المرجع نفسه ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

بأنها سقطت قبل ماردين ، ثم يأتي موءرخ اخر بعده بفترة طويلة فيقرر العكس ، ولابد من الاشارة اخيرا الى ان رشيد الدين عاش بعد فترة طويلة من هذه الحوادث ، وانه كان الموءرخ الرسمي للمغول . ولذلك نجد في كثير من رواياته تحيزا واضحا لهم .(١)

ومما يوءيد رواية ابن شداد ايضا ، انه لايستبعد ان يكون هولاكو عندما شاهد حصانة قلعة ماردين وماهي عليه من امكانات دفاعية هائلة ، فضلا عن تطلع الملك السعيد صاحبها للحصول على النجدة والمساعدات من الملك الناصر يوسف الايوبي ، صاحب حلب ودمشق . كل ذلك جعله يفكر في التوجه الى بلاد الشام والسيطرة على أهم مدنها حلب ، لكي يقطع على الملك السعيد كل أمل في الحصول على المساعدات من امراء الشام ، كما لايستبعد ايضا ان يكون هولاكو قصد بذلك التأثير على الجموع المسيحية التي كانت تتواجد باعداد ضخمة داخل بلاد الشام ، لاستقطابهم اليه والانضمام الى جيوشه في حصار قلعة ماردين الحصينة . هذا بالاضافة الى ان هولاكو ربما يكون قد حصل على وعود سرية مسبقه من الملك المظفر ابن السعيد لتسليم ماردين بعد وفاة والده ، وانه هولاكو اثر الانتظار وعدم التورط في حرب طويلة مع قلعة ماردين ، التي ذكر ابن العبرى انه لولا الوباء ووفاة الملك السعيد ، لما استطاع المغول الاستيلاء عليها "لا في سنتين ولا في ثلاثة " .(٢) وان هولاكو كسبا للوقت توجه للاستيلاء على حلب ، ريثما يتحقق أمله بانتهاء عهد الملك السعيد .

---

١) عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ،ص ٣٣٧ .

٢) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٨٨ .

ومهما يكن من أمر فقد غذت مدينة ماردين ولاية مغولية ، ينفذ حكامها ما يأمرهم به قادة المغول ، ويلتزمون بالخطوط العامه لسياستهم الخارجية وتحركاتهم العسكرية ، ويقدمون لهم المال (١) ، والامدادات العسكرية ، ويضربون السكة باسمهم ، ويخطبون لهم . (٢) كما غذت امارة ماردين ـ شأنها شأن غيرها من الامارات التي استولى عليها المغول ، او دخلت تحت حمايتهم ـ مركزا عسكريا لتجمع قواتهم ، وقيامهم بالتهديد المستمر للجهات الغربية من العالم الاسلامي ، وشن غاراتهم وحروبهم عليه . كما غدت هذه المنطقة ايضا من جهه اخرى بمثابة الخطوط الخلفية التي تحمي قوات المغول في حالة توغلهم في بلاد الشام ، وتمدهم بالمؤن والرجال والعتاد . وهكذا حقق المغول بادخالهم امارة ماردين وغيرها تحت سيطرتهم هدفهم المنشود ، وهو السيطرة على منطقة ديار بكر واتخاذها مركزا لتنظيم الهجمات على الجهات الغربية من العالم الاسلامي .(٣)

وكانت مدينة حلب ـ سواء اكانت سقطت في ايدى المغول قبل ماردين أو بعدها ـ هي أول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية ، باعتبارها مفتاح بلاد الشام ، التي كانت تتقاسمها آنذاك سلطات ثلاث ، هي سلطة الارمن المسيحيين في الاجزاء الشمالية ، والصليبيين الغربيين على الشريط الساحلي ، وسلطة الحكام المسلمين من امراء البيت الايوبي في الاجزاء الداخلية . ولما كان الارمن قد انضموا

---

١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م٢ ،ص ٢٣٦ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ١٤٧ .

٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج٤ ،ص ٣١٧ .

٣) عماد الدين خليل ،الامارات الارتقية ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

بزعامة الملك هيثوم الاول الى صفوف المغول منذ وصولهم الى منطقة الشرق الادنى ، بينما التزم الصليبيون الغربيون مبدأ الحياد في ذلك الصراع الاسلامي المغولي ، لشعورهم بمستقبل مجهول امام تلك القوى المغولية التي لاتبقي ولا تذر ، فان هولاكو قد وجه همته بكاملها نحو البلدان الخاضعة لحكم الامراء الايوبيين – وكما سبق ان رأينا – فان الملك الناصر يوسف ، استاء من سياسة هولاكو التعسفية ، اثناء المفاوضات التي دارت بينهما ، وسارع بطلب النجدة من الملك المظفر قطز حاكم الاراضي المصرية ٠ الامر الذى أثار غضب هولاكو على الملك الناصر ، فأصدر أوامره لقواته بعبور نهر الفرات ومهاجمة بلاد الشام ٠ ووصل الخبر بذلك الى حلب من البيره ، وكان يحكم حلب آنذاك الملك المعظم توران شاه نائبا عن الملك الناصر ، فجفل الناس خوفا من المغول الى دمشق، وعظم الخطب على من بداخلها ٠ وقبيل وصول القوات المغولية الى حلب ، ارسل هولاكو كعادته انذارا الى صاحبها جاء فيه " انكم تضعفون عن لقاء المغول ، ونحن قصدنا الملك الناصر والعساكر ، فاجلعوا لنا عندكم بحلب شحنه ، وبالقلعة شحنه ، ونتوجه نحن الى العسكر ، فان كانت الكسرة على عسكر الاسلام كانت كانت البلاد لنا ، وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين ،وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين بين الشحنتين ، ان شئتم طردتموهما ، وان شئتم قتلتموهما "(١)

---

(١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكر ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٨هـ ؛ اليافعي ،جامع التواريخ المصرية ،ص ١٥٢ ؛ ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ،ج٣ ،ص ٢٠٠ ،٢٠١ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ج٢،ص ٢٩٠ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ، ص ١٦٢ ؛ ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٢٩٠ ؛ محمد كرو علي ، خطط الشام ، ج٢ ، ص ١٠٥ ؛ ابن كثير ، البداية النهاية ، ج١٣ ،ص ٢١٨؛ الذهبي ،العبر، ج ٥ ،ص ٢٤١ ==

ويظهر لنا من هذه الرسالة التي اقتصرت على طلب اقامة شحنه للمغول بالمدينة والقلعة ، ان هولاكو بدأ يراجع حساباته في اندفاعه السريع نحو المدن الاسلامية واسقاطها الواحدة تلو الاخرى. اذ يبدو انه ادرك ان سياسته تلك ، ارغمت الحكام على تناسي خلافاتهم ومابينهم من احقاد ، نبهتهم الى ان وحدة الصف واجتماع الكلمة هما السبيل الوحيد لمواجهة تلك الاخطار الممثلة في العدوان المغولي المدمر الذى بات يهدد ممتلكاتهم ـ ولعل خير دليل على هذا هو اقدام الملك الناصر الايوبي على طلب المساعدة العاجلة من الملك الغيث صاحب الكرك ، بل الى اكثر من ذلك وهو طلب النجدة من اعدائه الالداء المماليك في مصر الذين كان يعتبرهم الامراء الايوبيون متعصبين لممتلكاتهم هناك ـ (١)

ومهما يكن من أمر ، فان الملك المعظم لم يجب هولاكو الى ذلك الطلب ورد عليه بقوله " ليس لكم عندنا الا السيف" (٢) ثم

=== والشحنه تعني رياسة الشرطة ويسمى متوليها صاحب الشحنه ، انظر ابن نظيف الحموى ،التاريخ المنصورى ،ص ١٢٩ ؛ حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجواقي ،ص ٢٠١ ؛
Dosy, supplement Aut Dictonnarics Araber vol,Ip.733
والبيره : قلعه حصينه قرب سميساط بين حلب والثغور الروميه ،(انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤١٩ ؛ اليافعي ،جامع التواريخ المصرية ،ص ١٥٠ .

٢) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ،ج٣ ،ص ٢٠١ ؛ محمد كردعلي ، خطط الشام ، ج٢ ،ص ١٠٥ ؛ انظر ايضا ، المقريزى ، المرجع نفسه ، ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٢ ؛ ابن حبيب ، درة الاسلاك ،ج١ ،ص ٢٢ ؛ ابن كثير البداية والنهاية ،ج١٣ ، ص ٢١٨ .

احترز على حلب حتى صارت في غاية الحصانة والمنعه ، باسوارها المحكمة البناء وقلعتها المنيعه ، وبما نصبه عليها من آلات دفاعية .(١) وفي العشر الاخيرة من ذى الحجة سنة ٦٥٧هـ/ نوفمبر ١٢٨٩م قصد المغول مدينة حلب ، ونزلوا على قرية يقال لها سلمية وامتدوا الى قريتي حيلان والحارى وهما من قرى حلب ، ثم سيروا فرقة من عسكرهم باتجاه حلب ، فخرج عسكر المسلمين ومعهم جمع غفير من العوام والسوقه ، واشرفوا على المغول وهم نازلون على تلك الاماكن ، وقد ركبوا جميعهم لانتظار عسكر حلب ، فلما تحقق المسلمون كثرتهم كروا راجعين الى المدينة ،واصدر الملك المعظم ثورانشاه بعد ذلك اوامره الى قواته بالتحصن داخل حلب وعدم الخروج منها.(٢)

وفي اليوم التالي تحركت القوات المغولية طالبة حلب . وفي الوقت نفسه اجتمع قادة الجيش الاسلامي للمشورة فيما يعتمدونه ازاء الهجوم المغولي المرتقب ، فاشار عليهم الملك المعظم قورانشاه بالا يخرجوا من المدينة لقتال العدو لقوته وكثرة عدد جنده ، وأن من الاصلح البقاء داخل المدينة ، فلم يوافقه جماعة من العسكر وابوا الا الخروج الى ظاهر البلد لئلا يطمع العدو فيهم ، ووافقهم على ذلك الرأى من بالبلد من العوام والسوقه ، واجتمعوا بجبل بانقوسا ، ولما وصلت جموع المغول الى اسفل الجبل نزلت اليهم فرقة من جيش المسلمين لمقاتلتهم ، فلما شاهد المغول ذلك ،تراجعوا امام

---

١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٧٥ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام ،ج٢ ،ص ١٠٦ .

٢) ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ ؛ وسلمية : بلدة صغيرة من اعمال حماه (انظر ياقوت ،معجم البلدان).

الجيش الاسلامي مكرا وخديعة لاجتذابهم بعيدا عن البلد ، فتبعهم عسكر حلب ساعة من النهار ، ثم كر الجيش المغولي وخرج من مكامنه ، فاندفع المسلمون امامه الى جهة البلد والعدو في اثرهم ، ولما حاذوا جبل بانقوسا وعليه بقية الجيش الاسلامي اندفعوا جميعا نحو المدينة والعدو مستمرا في مطاردتهم ، فقتل من المسلمين جمع كثير من الجند والعوام ، ونازل المغول حلب ذلك اليوم الى اخره ، ثم رحلوا عنها الى اعزاز فتسلموها بالامان .(١)

ثم عاود المغول هجومهم على حلب في ثاني صفر من سنة ٦٥٨هـ/ يناير ١٢٦٠م ، واحكموا حصارها ، بحفر خندق حولها عمقه قامه ، وعرضه

---

١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٧٥ — ٧٧ ؛ ابو الفدا المختصر في اخبار البشر ،ج٣ ،ص ٢٠٠ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج٢ ،ص ٢٨٩ ؛ السبكي ،طبقات الشافعية ،ج٨ ،ص ٢٧٥ ؛ ابن خلدون ،العبر ، ج٥ ،ص ٣٩٥ ؛ ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص ٢٧٩ ؛ اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ،ص ١٥٢ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٢٨٨ ؛ بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٨ هـ ؛ واعزاز او عزاز : قلعة حصينة في شمال حلب بينهما مسيرة يومان على الاقدام ،(انظر ياقوت — معجم البلدان) ؛ وجبل بانقوسا ،جبل في ظاهر حلب (انظر ابن تغرى بردى) ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ حاشية).

اربعة اذرع ، وبنوا حائطا بارتفاع خمسة اذرع ،ثم نصبوا عليها عشرين منجنيقا ، وشرعوا في رميها بالحجارة ونقب اسوارها ، ومهاجمتها من كل الجهات ، حتى اضطرت الى التسليم في تاسع صفر من سنة ٦٥٨هـ/ يناير ١٢٦٠م . ولما ملكوها غدروا باهلها وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ونهبوا الدور ، وسبوا النساء والاطفال ،ثم استباحوا المدينة خمسة ايام عاثوا فيها فسادا حتى امتلاءت الطرقات بجثث القتلى ، ويقال انه اسر من حلب زيادة على مائة الف من النساء والصبيان ، ولم يسلم من اهل حلب الا من التجأ الى دار شهاب الدين ابن عمرون ، ودار نجم الدين اخي مردكين ، ودار البازياد ودار علم الدين قيصر الموصلي ، والخانقاه التي لزين الدين الصوفي وكنيسة اليهود . لفرمانات كانت بايديهم ، وقيل انه سلم بهذه الاماكن من القتل مايزيد على خمسين الف نفس .(١)

اما الملك المعظم ثورانشاه ، فقد لجأ الى القلعة ومعه جمع كثير من عسكر حلب واستمر الحصار على القلعة وشدد المغول مضايقتهم لها نحو شهر .(٢) ويبدو ان خيانة حدثت في جيش الملك

---

١) ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٧٥ – ٧٧ ؛ المقريزى السلوك ، ج١ ،ق٢ ص ٤٢٢ ؛ ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ج٣ ،ص ٢٠١ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ؛ اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ،ص ١٥٢ ؛ ابن ايبك الدوادار الدرة الزكية في اخبار الدولة التركية ،ج٨ ،ص ٤٦ ؛ بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٨ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام ،ج٥ ،ص ١٠٦ ، الذهبي ،العبر ،ج٥ ،ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

٢) ابو الفدا ،المصدر نفسه ،ص ٢٠١ ،ابن الوردى ،المصدر نفسه ، ص ٢٩١ ، المقريزى ،المصدر نفسه ،ص ٤٢٢ ، السبكي ، طبقات الشافعية ،ج٨ ،ص ٢٧٥ ،محمد كرد على،المرجع نفسه ،ج٢ ،ص ١٠٥.

المعظم سهلت للمغول مهمتهم في تشديد حصارهم للقلعة ومعرفة مواطن الضعف فيها ، ومن ثم تثبيط همم المقاتلين داخلها . الامر الذى ترتب عليه تسليم القلعة الى المغول رغم حصانتها بكل سهولة ، يدلنا على ذلك ماذكره ابو الفدا وابن الوردى من انه وثب جماعة من اهل القلعة اثناء حصار المغول لها على صفي الدين بن طرزه رئيس حلب وعلى نجم الدين احمد بن عبد الغزيز بن احمد بن القاضي نجم الدين بن ابي عصرون فقتلوهما ، لانهم اتهموهما بمواطأة المغول اثناء اشتداد الازمة .(١) هذا بالاضافة الى ان المسيحيين الذين كانوا داخل حلب لابد وانهم قد قدموا سرا المساعدات للمغول ، ودلوهم على المعابر السهلة الى المدينة والقلعة . يؤيد ذلك ماذكر من ان المؤرخ ابن العبرى الذى كان يشغل في ذلك الوقت منصب رئيس اساقفة حلب ، سارع بعد سقوط القلعة مباشرة الى تقديم ولاءه وطاعته لهولاكو .(٢) ولايستبعد انه كان يعمل في الخفاء لخدمة المغول.

ودخل هولاكو بعد ذلك الى القلعة وخربها ، وهدم اسوار المدينة وجوامعها ومساجدها وبساتينها وعفى آثارها ، حتى غدت بلدة موحشة ، بعد ان كانت تعد من ازهى مدن الشام . ثم خرج اليهم الملك المعظم ثورانشاه . وهنا يذكر المقريزى ان هولاكو لم يتعرضه بسوء لكبر سنه .(٣) ولكن يبدو ان ذلك لم يكن تقديرا وعطفا من هولاكو للملك المعظم ، بل لايستبعد ان يكون الملك المعظم قد اصيب خلال حصار المغول للمدينة والقلعة بجراح بالغة او بمرض لم يعد يرجى برءه ،

---

١) انظر ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ج٣ ،ص ٢٠٢ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٢٩٢ .

٢) انظر عبدالسلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في ايران ،ص ١٤١.

٣) المقريزى ، السلوك ، ج١ ،ق ٢ ،ص ٤٢٢ .

أو ان هولاكو قد دبر قتله سرا ، بدليل ماذكره المقريزى نفسه من ان الملك المعظم توفي بعد ذلك بأيام قلائل .(١)

ولم يشأ هولاكو ان تمر فرصة استيلائه على حلب دون ان يكافيء حليفيه ، هيثوم الاول ملك ارمينيه الصغرى ، وبوهيمند السادس الصليبي امير انطاكية الذين ساعداه في ذلك العمل . حيث قام باعطاء ملك الارمن جزءا من الانفال ، واعاد اليه الاقاليم والقصور التي كان مسلموا حلب قد استولوا عليها منهم . كما رد الى بوهيمند جميع الاراضي التي كان المسلمون قد اقتطعوها من امارته . وعبر هيثوم عن ابتهاجه بذلك باحراق الجامع الكبير في حلب بنفسه انتقاما من المسلمين .(٢)

وهكذا سقطت مدينة حلب في يد المغول ، وحقق هولاكو بذلك مالم يستطع تحقيقه الامراء الصليبيون والاباطرة البيزنطيون ، وحطم حصنا عظيما من حصون الاسلام . وغدت هذه المدينة التي كانت تعتبر بحق من اروع وازهي مدن الشام خربة بائسة وعين عليها هولاكو حاكما من قبله .(٣)

وقد اثار سقوط هذه المدينة التي كانت موطن حركة الجهاد ضد الصليبيين . الفزع والوجل في نفوس المسلمين ببلاد الشام ، فوصل الى هولاكو بحلب كثير من امراء المسلمين ليعلنوا ولائهم وخضوعهم ،

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٢ .

٢) سبط ابن العجمي ،كنوز الذهب في تاريخ حلب ،لوحة ٦٩ ؛ عبد السلام فهمي ،تاريخ الدولة المغولية في ايران ، ص ١٦٩ ؛ الصياد المغول في التاريخ ،ج١ ،ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ؛ العريني ، المغول ، ص ٢٤٥ .

٣) العريني ،المرجع نفسه .

ومنهم الملك الاشرف موسى الايوبي ،صاحب حمص ، الذى سبق ان انتزع منه الناصر امارته ، فاعادها اليه هولاكو ، على ان تكون اقطاعا وراثيا له من قبل هولاكو ، ولما رفض رجال حامية مدينة حارم الاستسلام الا لقائد حامية حلب ، اعتبر هولاكو ذلك اهانه له وانتقاصا من مكانته ، فأمر بقتل اهل حارم عن اخرهم وسبى نساءهم واطفالهم ثم الحق بهم رجال الحامية جميعا .(١)

وبعد سقوط حلب جاء دور دمشق التي قام حاكمها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بحشد ما استطاع جمعه من القوات وما انضم اليه من المتطوعه والعربان وخيم عند بلدة برزه شمالي دمشق ،ثم ارسل الى الملك المغيث صاحب الكرك السلطان المظفر سيف الدين قطز صاحب الاراضي المصرية يطلب منهما النجدة السريعة لصد الهجوم المغولي عن دمشق . ولكن الاراجيف مالبثت ان كثرت بدمشق عند اقتراب جيش

---

١) المقريزى، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٣ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ،ص ٢٧٩ ؛ ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ،ج٣ ، ص ٢٠٣ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٢٩٠ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ص ٣٦٦ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ج٢،ص ٢٩٢ ؛ العريني ، المغول ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ؛ والملك الاشرف هو موسى بن ابراهيم ابن شيركوه الثاني تولى الحكم بحمص سنة ٦٤٤هـ وتوفى بها سنة ٦٦٢ هـ (انظر الزبيدى ،ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب ، ص ٣٨ .

المغول منها ، فضعفت قوة من بها من المسلمين وانهارت روحهم المعنوية واصبح الملك الناصر في وضع حرج لايستطيع معه انتظار النجدة القادمة من الكرك ومصر ، فخرج كثير من اهل دمشق وممن وفد اليها وتفرقوا في البراری والجبال والحصون . وصادف ذلك أيام الشتاء ذات البرد الشديد فمات كثير منهم ، ونهب اخرون .(١)

ويبدوا ان هذا الوجل والخوف الذى حل بأهل دمشق ، دفع هولاكو الى تجنب الصدام مع قوات المسلمين في دمشق - ليس رحمة بهم واشفاقا عليهم - وانما لادراكه بأنه لو اقتحم المدينة بالقوة فانه سيتعرض لا محاله لخسائر جسيمة ، خاصة اذا علمنا بأن مدينة دمشق كانت آنذاك من احصن وامنع مدن الشام ، لارتفاع اسوارها واحكام بناء قلعتها . لذلك ارسل هولاكو رسلا من قبله الى دمشق دخلوها ليلة الاثنين السابع عشر من صفر سنة ٦٥٨هـ/فبراير ١٢٦٠م وهم يحملون«فرمانا»منه بتأمين المدينة واهلها مقابل تسليمها ، وقرىء هذا المرسوم على الناس بدمشق بعد صلاة الظهر .(٢)

وفي هذا الموقف الحرج أشار بعض كبار اهل دمشق وعلى رأسهم الامير زين الدين الحافظي .(٣) بمداراة المغول والدخول في

---

١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ،ج٨ ،ق٢ ،ص ٨١٢ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص٤٢، ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، السبكي ،طبقات الشافعية ،ج٨ ،ص ٢٧٥ ؛ محمد كرد على، خطط الشام ، ج٢ ،ص ١٠٦.

٢) ابن حبيب ، درة الاسلاك ، ج١ ،ص ٢٣ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٥ ،ص ٢٩٠ ؛ السبكي ،المرجع نفسه ،ص ٢٧٥ ؛ ابو شامه ،الذيل على الروضتين ،ص ٢٠٣ .

٣) هو الامير زين الدين سليمان بن المؤيد بن خطيب عقرباء ===

طاعة هولاكو ، لتجنيب دمشق واهلها ماحل بحلب من الهلاك والدمار والخراب . ولكن ذلك الرأى لم يجد التأييد الكامل من اهل دمشق ، حيث رفضه البعض وعلى رأسهم بيبرس البندقدارى[1] ، الذى كان متواجدا انذاك بدمشق ومعه جمع كبير من طائفة المماليك البحرية ، اذ صاح بيبرس في وجه زين الدين قائلا " انتم سبب هلاك المسلمين" ويبدو ان الملك الناصر كان على رأى زين الدين الحافظي ، فحاول بعض اتباع بيبرس من المماليك ، قتل الملك الناصر ، وتولية حاكم اخر عالي الهمه ، نافذ الرأى ، يستطيع جمع الناس للجهاد في سبيل الله ، وقيادتهم في ميدان القتال لصد العدوان المغولي والدفاع عن الاسلام واهله . ولما علم الملك الناصر بتلك الموءامره ، لجأ الى قلعة دمشق . فبادر الامراء والاكابر بالدخول الى القلعة واشاروا على الملك الناصر بالخروج الى المخيم ، وصادف خروجه منها تخلي بيبرس عن دمشق ، وخروجه منها ومعه جماعة من المماليك البحرية

=== (كورة بدمشق) اشتغل بصناعة الطب ، وخدم بها الملك الحافظ نور الدين ارسلان شاه بن ابي بكر بن ايوب ، وكان يومئذ صاحب قلعة جعبر ، ولما توفى الملك الحافظ وتسلم قلعة جعبر الملك الناصر يوسف صاحب حلب ، انتقل زين الدين الحافظي الى حلب ، وصارت له يد عند الملك الناصر ، ولما ملك الناصر دمشق انتقل معه زين الدين وصار مكينا في دولته معاينا للصناعة الطبية (انظر ابن أبي اصيبعه ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ٦٦٨ ، ٦٦٩)

١) نسبة الى البندقدار ،وهو لفظ فارسي معناه حامل جراوه أى كيس البندق خلف الامير او السلطان ،وقد سمي بيبرس بهذا الاسم ،لانه كان في اول امره مملوكا للأمير ايديكين البندقدار ،ثم انتقل الى الملك الصالح نجم الدين ايوب ،وصار من مماليكه البحرية (انظر القلقشندى ،صبح الاعشي ،ج٥ ،ص ٤٥٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٩٤ حاشية).

الى غزة ، حيث استقبله اميرها احسن استقبال ، وفيها سيّر بيبرسّ رسولا من قبله الى السلطان المظفر قطز ليحلّفه على اعطائه الامان ، فكتب اليه المظفر أن يقدم عليه ووعده الوعود الجميلة ، ففارق بيبرس الناصرية ، ووصل ومعه جماعة المماليك الى مصر ، فانزله السلطان المظفر بدار الوزارة "واقبل عليه" واقطعه قليوب وأعمالها .(١)

واذا دققنا النظر في موقف بيبرس البندقدارى هذا ، فانه يبدو لنا انه حاول في بداية الامر اثناء الامراء الدمشقيين عن الاستسلام للمغول ، وبعث روح الجهاد الاسلامي المقدس فينفوسهم للدفاع عن حوزة الاسلام والمسلمين . الا انه عندما شاهد تخاذلهم، وميل حاكم دمشق الملكالناصر الى الاخذ برأى من نادى بمداراة المغول والدخول في طاعة هولاكو . وان انقسام المسلمين داخل دمشق بين موءيد ومعارض لذلك الامر سيجعل موقف الفريق المعارض لمداراة المغول والذى يتزعمه بيبرس نفسه غير مجد في تبني الدفاع عن دمشق منفردا، وان الحل الامثل الذى سيمكن المسلمين من ايقاف الزحف المغولي وانقاذ بقية الممتلكات الاسلامية ، هو الاتحاد مع دولة المماليك الفتيه في مصر . لذا رأى بيبرس ترك دمشق وحاكمها وامراءها ، والعودة الى بني جنسه في مصر وانهاء الخلافات معهم ، ومن ثم احياء فكرة الجهاد الاسلامي المقدس في ذلك البلد الغني بموارده الطبيعية والبشرية ، استعدادا لمواجهة

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤١٩ ، ٤٢٠ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ٢٩٠ ؛ ابو الفدا ، المختصر ،ج٣ ، ص ٣٠٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص ٢٢٠ ؛ ابن خلدون العبر ، ج٥ ،ص ٣٦٥ ؛ ابن دقماق ،نزهة الانام ، حوادث سنة ٦٥٧ هـ .

الخطر المغولي صفا واحدا وانقاذ مقدسات الاسلام من همجية هولاكو واتباعه . ولعل مما يوئيد هذا ماحدث بعد ذلك من اشتراك بيبرس البندقداري مع الملك المظفر سلطان مصر في التخطيط لمعركة عين جالوت ، وقيادة الجيوش الاسلامية، وتحقيق ذلك النصر الموءزر الذى بدد احلام المغول بكاملها - كما سنرى فيما بعد -

أما الملك الناصر ، فيبدوا أن أطماعه في وعود هولاكو السابقه بابقائه علي ممتلكاته ، إنْ هو دخل في طاعته . قد عاودته في ذلك الحين ، الامر الذى دفعه الى الميل للأخذ برأى من قال بمداراة المغول والدخول في طاعة هولاكو ، علّه يحظى منه بابقائه على مدينة دمشق واعمالها بعد ان تبددت آماله في صد المغول عنها بالقوة .

ولكن الامر المحيّر هو ان الملك الناصر بالرغم منذلك لم يدخل في طاعة هولاكو مباشرة ، بل أقدم بعد ان شاهد تخاذل عسكره وتفرق كلمة أهل دمشق ، على الرحيل من برزه يوم الجمعة منتصف شهر صفر سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م ومعه جمع من اتباعه يريد غزه وترك دمشق في حالة يرثى لها.(١) ولعل ذلك كان بسبب عدم ثقته في آمان هولاكو ووعوده .

ولما شعر من بقيمن المسلمين في دمشق بالاهوال التي ارتكبها جيش هولاكو ،بحق من سبقهم ، وان معظم اطراف الشام ونواحيها قد دخلت في حوزة المغول ، قصد جمع من اكابرهم واعيانهم حضرة هولاكو ، ومعهم التحف والهدايا ومفاتيح بوابات دمشق ، واظهروا

---

١) المقريزى ، السلوك ،جا ،ق ٢ ،ص ٤٢٣ ؛ اليافعي ،جامع التواريخ المصرية ص ١٥٣ .

الطاعة والخضوع له وسلموا المدينة . وهنا يبدوا انهولاكو لم يثق في ذلك الوفد ثقة كاملة ، فأمر بأن يذهب قائده كيتوبوقا الى دمشق لاختبار اهلها ، فاستقبله اهل المدينة وطلبوا منه الامان ثم ارسل اعيانهم الى بلاط هولاكو " فرق لهم ،واشفق عليهم واجاب ملتمساتهم "-على حد تعبير المؤرخ رشيد الدين-. وهكذا دخل المغول دمشق بلا حصار ولا قتال ،وولى هولاكو عليها جماعة من المغول وعين ثلاثة من اهلها لمساعدتهم في تصريف الامور بها .(١)

أما قلعة دمشق فقد استعصت على المغول ورفض من بداخلها التسليم لهم وفي هذا الوقت وصل الى دمشق الملك الاشرف صاحب حمص من عند هولاكو ومعه مرسوم بأن يكون نائب السلطة بدمشق والشام كلها ، فامتثل لذلك القائد المغولي كيتوبوقا ،وصارت الدواوين وغيرها تحضر اليه بدمشق . (٢) ويبدو ان هولاكو قصد بهذا العمل ، التأثير على من بداخل القلعة. الا ان محاولته تلك باءت بالفشل ، حيث اصر من بداخل القلعة على عدم تسليمها . ثم اصدر هولاكو اوامره الى قائده كيتوبوقا الذي بدأ حصارها بمن معه من عسكر المغول ليلة السادس من ربيع الاول سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠ م، وشدد حصارها من كل الجهات وصادف آنذاك ان هبت ريح شديدة وهطلت امطار غزيرة مصحوبة "برعود وبروق" فسقط من القلعة عدة أماكن ، وبات الناس "خوف ارضي وخوف سمائي " وهم صامدون بالداخل واستمر حصار المغول للقلعة وضربها بالمنجنيقات التي كانت تزيد عن عشرين منجنيقا الى الثاني والعشرين جمادى الاولى من السنة نفسها . وعند ذلك اشتد الرمي وخرب من القلعة مواضع ، فطلب من بداخلها الامان ، ودخلها المغول ونهبوا ماكان فيها من الكنوز والدفائن ، واحرقوا مواضع كثيرة منها ، وهدموا عددا كثيرا من

---

١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣٠٧، ٣٠٨ .

٢) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٦ .

ابراجها ، واتلفوا سائر مابها من الالات والعدد .(١)

أما مدينة حماه ، فان صاحبها الملك المنصور الثاني كان قد حضر الى برزه ليتجهز مع الملك الناصر ،فلما سمع اهل البلد في غيبته بأخذ حلب ارسلوا رسولا من قبلهم الى هولاكو ، يسألونه العطف ، وسلموا له البلد ،فاعطاهم الامان. وجعل عندهم شحنه من قبله ، اما قلعة حماه ،فيبدوا ان ماحل بحلب واهلها وقلعتها من الاهوال ، فضلا عن هروب الملك المنصور صاحبها قد دفع متوليها الى المسارعة بالتسليم للمغول .(٢)

وبعد ان تم للمغول السيطرة على حلب ودمشق وحماه وغيرها من البلدان المجاورة ، وأصبح استيلاءهم على بقية مدن الشام ، مسألة وقت كان على القائد المغولي ان يختاره متى شاء ، وذلك بسبب ماحل ببلاد الشام من الاهوال والفزع والخوف ، فضلا عن تفرق كلمة الامراء الايوبيين .ففي الاسابيع القليلة التالية ، أتم القائد المغولي كيتوبوقا الذى اوكل اليه هولاكو مهمة اتمام الاستيلاء على بلاد الشام بعد عودته من حلب الى مدينة مراغة للمشاركة في انتخاب الخان الجديد .(٣) السيطرة على بلاد الشام حيث

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٦ ؛ الذهبي،دول الاسلام ، ص ١٦٢ ؛ ابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٢٩٠ ؛ ابن حبيب ، ذرة الاسلاك ،ج١ ،ص ٢٣ ؛ بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ، حوادث سنة ٦٥٨هـ .

٢) ابو الفدا ، المختصر ،ج٣ ،ص ٢٠١ ؛ السبكي ،طبقات الشافعية ج٨ ،ص ٢٧٥ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٢٨٩ ، ٢٩٠، ابن خلدون ، العبر ،ج٥،ص ٣٦٦ .

٣) انظر مايلي ،ص

توجه الى نابلس ، وحينما حاول اهلها المقاومة جرى قتل عدد كبير منهم ، ثم اغارت جموع المغول على سائر بلاد الشام حتى وصلت الى اطراف بلاد غزة ، وبيت جبرين ، والخليل ، والصلت وبعلبك وبانياس وغيرها ، واستولوا عليها وقتلوا وسبوا ماقدروا عليه ، ثم عادوا الى دمشق فباعوا بها ماغنموه من هذه المدن.(١)

والملاحظ ان المغول لم يهاجموا بيت المقدس في ذلك الوقت بالرغم من أنها لم تكن احسن حالا آنذاك من غيرها . ويبدو أن السبب في ذلك هو خوف المغول من استثارة حماس المسلمين واستفزازهم بالاعتداء على اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين

---

١) ابو الفدا ،المختصر في اخبار البشر ،ج٣ ،ص ٢٠٢ ؛ ابن الوردى تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٢٩١ ؛ ابن خلدون ،العبر ،ج٥ ،ص ٣٦٦ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،ج٥ ، ص ٢٩٠ ؛ الذهبي دول الاسلام ،ص ١٦٢ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٥ ،ص ٤٢٦ ؛

ونابلس مدينة مشهورة بارض فلسطين بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ ؛ وغزة مدينة في اقصى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان أو اقل ،وبيت جبرين أو بيت جبريل بليد بين بيت المقدس وغزة ، والخليل اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس بينهما مسيرة يوم ،فيه قبر الخليل ابراهيم عليه السلام ، والصلت : بلدة لطيفة من جند الاردن)وبعلبك: مدينة قديمة فيها ابنية عجيبة وآثار عظيمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وبانياس : بلدة صغيرة قريبة من جبل لبنان ،وتعد من اعمال دمشق (انظر ياقوت ،معجم البلدان) ؛ ابو الفدا ،تقويم البلدان ،ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ؛

lestrange , Plastine under The Moslems.p416 .

المسجد الاقصى الذى لن يؤدى اعتداء المغول عليه الى غضب المسلمين بالشام فحسب بل سيتعدى ذلك الى كافة انحاء العالم الاسلامي ، الامر الذى سوف يترتب عليه مجيئهم زرافات ووحدانا لانقاذه . بالاضافة الى انه لايستبعد ان يكون المغول قد حرصوا في الوقت نفسه على عدم زعزعة الوجود الصليبي على الساحل الذى التزم الحياد إبان الصراع الاسلامي المغولي . اذ أن جيش المغول كان يسير في ركابه اعداد ضخمة من المسيحيين الشرقيين من الارمن وغيرهم الذين كانوا يدينون بالتبعية الكاملة للكنيسة الشرقية . بينما كان هؤلاء الصليبيون الغربيون ،حريصين كل الحرص على أن تبقى الهيمنه في كنائس بيت المقدس [1] - التي يؤمها كثير من الحجاج - للكنيسة الغربية في روما . خاصة اذا علمنا انه كان على هولاكو بعد ان تتسلمها جيوشه ان يسلمها الى خليفه هيثوم الاول ملك ارمينية الصغرى . [2]

ولما بلغ الملك الناصر وهو بغزة ماجرى من كبس المغول لنابلس رحل من غزة الى العريش ، وسير القاضي برهان الدين الناصر ، والملك المنصور [3] صاحب حماه ،ومعهما العسكر الى قطية ، وهنا خاف الملك الناصر ان يدخل مصر فيقضى عليه الملك المظفر قطز ، فآثر البقاء

---

١) كانت كنيسة القيامة اشهر الكنائس المسيحية في بيت المقدس . بنتها الملكة هيلانه ام الامبراطور قسطنطين عاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ومؤسس مدينة القسطنطينية وكان الفراغ من بناء هذه الكنيسة سنة ٣٣٥م ومن ذلك التاريخ هي الكنيسة التي يحج اليها المسيحيون من كافة اصقاع الارض . (انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٦٢ حاشية المحقق رقم (١).

٢) انظر مايلي ،ص ١٤٦ .

٣) هو الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر =====

بقطيه ومعه جماعة يسيره من اتباعه . وفارقه الملك المنصور صاحب حماه ومعه العسكر الى مصر ، حيث التقاهم الملك المظفر قطز بالصالحية ، فاحسن استقبالهم وطيب قلوبهم ، واهدى للملك المنصور "سنجقا" ودخل معه القاهرة .(١)

اما الملك الناصر الذى يبدو انه قصد بارسال الملك المنصور الى مصر ، جس نبض المظفر قطز لمعرفة موقفه منه . فانه لايستبعد ان استجابة المظفر قطز للرسل التي وصلت اليه قبل ذلك من العريش " تسأله النصر على عدوهم ، واجتماع الايدى للمدافعة "(٢) فضلا عن ترحيبه الكامل بالملك المنصور ومن معه من عسكر الشام. جعلت الملك الناصر الذى "استراب بأهل دمشق"(٣) وظن ان ذلك مجرد استدراج له .

==== تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين بن محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب . ملك حماه يوم السبت ثامن جمادى الاولى سنة ٦٤٢هـ فكانت مدة مملكته بحماه الى ان توفى في حادى عشر شوال سنة ٦٨٣هـ . (انظر ابن الفرات ، ج٨ ، ص ١٣ ؛ الزبيدى ،ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب ، ص ، ٤٦ ،٤٧ ؛ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون . ص ٢٩٨ .

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ حوادث سنة ٦٥٨ هـ ؛ ابو الفدا ،المختصر ،ج٣ ،ص ٢٠٢ ؛ابن خلدون ،العبر ،ج٥ ،ص ٣٦٦ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٢٩١ ؛ وقطيه : قرية في طريق مصر قرب الفرما (انظر ياقوت ،معجم البلدان).

٢) ابن خلدون ، المصدر السابق،ج٥ ،ص ٣٦٥ .

٣) ابن خلدون ،المصدر نفسه ،ج٥ ،ص ٣٦٦.

فرفض الدخول الى مصر وسار هو واخوه الظاهر ومعهما الملك الصالح بن الاشرف موسى بن شيركوه الى التيه [1]. ثم ظفر به المغول وسلم نفسه لهم، فمروا على دمشق في طريقهم الى بلاط هولاكو الذى احسن استقباله ورعى له مجيئه اليه وابقاه في خدمته. [2]

وهكذا غدت بلاد الشام - باستثناء الاجزاء الساحلية التي يسيطر عليها الصليبيون - ولاية مغولية، ينفذ فيها قواد المغول اوامرهم. وحقق هولاكو بذلك، الجزء الاول من المرحلة الثانية من وصية اخيه منكو خان التي كانت تقضي بالسيطرة على الشام ومصر. وبدأ القائد المغولي كيتوبوقا الذى استخلفه هولاكو على بلاد الشام بعد عودته الى عاصمته مراغه، يعد عدته لاتمام السيطرة على الجزء الثاني من هذه المرحلة وذلك بالاستعداد لمهاجمة الاراضي المصرية بهدف السيطرة عليها.

طبيعة الغزو المغولي واهدافه

جاءت سيطرة المغول شديدة الوطأة على المسلمين في بلاد الشام، اذ أنهم بادروا قبل كل شيء الى تدمير الاستحكامات والاسوار والقلاع في البلاد التي خضعت لهم مثل حلب ودمشق وحمص وحماه وبعلبك وبانياس وغيرها. وحققوا بذلك مالم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل. [3]

---

١) ابو الفدا، المختصر، ج٣، ص ٢٠٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ج٥، ص ٣٦٦. المسبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص ٢٧٥. والتيه: صحراء سيناء وهي التي تاه فيها بنو اسرائيل اربعين سنة.

٢) الذهبي، دول الاسلام، ج١، ص ١٦٣ ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ج٥، ص ٢٩٠. الذى يجدر ذكره هنا ان هولاكو لم يبق على الملك الناصر يوسف حبا فيه، وانما لاستخدامه كورقة رابحه في حربه التي كان ينوى شنها ضد المماليك في مصر.

٣) العريني، المغول، ص ٢٤٨.

وكان الخطر المغولي اشد هولا ،لان جموعهم كانت اكبر عددا ، وحبهم للقتال واراقة الدماء لاحد له ، وما اكثر ما عاثوا في الارض يهدمون المدن ويزهقون الارواح .[1] ويبدو ان السبب الذى دفع هؤلاء الغزاة الى اتباع سياسة التدمير والنهب والتخريب هذه كونهم رعاة لاحضارة لهم .

اما من الناحية المذهبية فالملاحظ ان المغول مالوا منذ اللحظة الاولى لغزوهم للشرق الادنى الى العنصر المسيحي النسطورى ، و لعل وصية منكوخان لاخيه هولاكو التي نصت على استشارة هولاكو لزوجته دوقوز خاتون التي كانت مسيحية نسطورية خير دليل على ذلك . وقد ادى وجودها في ركاب زوجها هولاكو الى التفاف المسيحيين الشرقيين حول المغول ، اذ المعروف ان النساطرة ازداد عددهم في الجيش المغولي ووصلوا الى حد قيادة الجيوش المغولية ،فكيتوبوقا كان من عنصر النايمان النساطرة . وكان من الطبيعي ان يتآخى هؤلاء النساطرة مع الجماعات الارمنية واليعاقبة وغيرهم التي تكاثر عددها في كبرى مدن الشام .[2]

وقد ادى هذا التلاحم الى مشاركة العنصر المسيحي على مستوى قيادة الجيوش في اقتحام مدن الشام ، فهولاكو عندما اقتحمت جيوشه مدينة حلب كان بصحبته ملك ارمينية هيثوم الاول وصهره بوهيمند السادس

---

١) نقولا زيادة ،دمشق في عصر المماليك ،ص ٢٦ .

٢) العريني ،المغول ،ص ٢٤٨ . والنساطرة نسبه الى نسطور وكان بطريركا القسطنطينية . واليعاقبة نسبه الى يعقوب البرذعاني وكان راهبا بالقسطنطينية . (عن مذهب هاتين الطائفتين المسيحيتين (انظر ابن حزم الظاهرى ، الفصل في الملك والاهواء والنحل ،ج١ ، ص ٤٩) .

أمير انطاكية . كما شهدت عاصمة الخلافة الاموية دمشق لاول مرة منذ ستة قرون ثلاثة امراء مسيحيين هم كيتوبوقا وهيثوم وبوهيمند يشقون بمواكبهم شوارعها .(١) وهنا يصح ان نؤكد ان غزو المغول لبلاد المسلمين في الشام اتخذ طابعا صليبيا ، ولعل خير دليل على ذلك ما اكدته بعض المراجع من ان الخطة الخاصة بغزو بلاد الشام تقررت في اجتماع هام انعقد بين هولاكو وحليفه الارمني هيثوم الاول وان هولاكو طلب من حليفه الارمني ان يلتقي به على رأس القوات الارمنيه عند الرها . حتى يذهب معه الى بيت المقدس ويخلص الاراضي المقدسة من قبضة المسلمين ، ويسلمها للمسيحيين .(٢) هذا بالاضافة الى ماذكر من ان هولاكو عندما غزا بلاد الجزيرة قدم عليه جاثليق الارمن ومنحه البركات، ولما كان هيثوم الاول ملك ارمينيه الصغرى في اتصاله مع المغول يتحدث باسمه واسم صهره بوهيمند السادس امير انطاكيه الصليبي ، فان هذه الحملة قد اتخذت صفة حملة صليبية ارمنية مغولية .(٣)

والواقع ان سقوط المدن الثلاث الكبرى . بغداد وحلب ودمشق في ايدى المغول يعتبر من الكوارث الفاجعه التي هزت العالم الاسلامي في ذلك الوقت . وترتب على سقوط دمشق في ايدى المغول ان اعلن المسيحيون بها التمرد والشموخ ، ولم يخفوا فرحتهم بما حل بالمسلمين من نكبة ،ولم يخف القائد المغولي كيتوبوقا نفسه مايكنه من الميل نحو هؤلاء المسيحيين وترددوا الى كنائسهم ، وذهب بعضهم الى هولاكو ، واحضروا من عنده " فرمانا" ينص على الاعتناء بأمرهم ، ودخلوا به البلد وصلبانهم مرتفعه وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم

---

١) العريني ،المغول ،ص ٢٤٨ .

٢) سعيد عاشور ،الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١٠٧٠ ،١٠٧١ ؛ العصر المماليكي في مصر والشام ،ص ٢٩ ،٣٠ ؛ العريني ،المصدر نفسه ص ٢٤٢.

٣) العريني ،المصدر نفسه ،ص ٢٤٢ .

واتضاع دين الاسلام ، ورشوا الخمر على ثياب المسلمين ، وابواب المساجد ،والزموا المسلمين في حوانيتهم بالقيام للصليب ، ومن لم يفعل ذلك أهانوه واقاموه غصباً وطافوا وهم يحملون الصلبان ويدقون النواقيس في الشوارع الى كنيسة مريم ، وقام بعضهم اثناء المسيرة بالقاء الخطب فبجل دين المسيح وانتقص دين الاسلام . وضجر المسلمون منذلك ، وصعدوا مع قضاتهم وشهودهم الى نائب هولاكو بالقلعة فلم يستجب لشكواهم واخرجهم من القلعة بالضرب والاهانه . واخذت نائب هولاكو موجه من التقوى فجعل يزور الكنائس ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم . فاشتدت ثائرة المسلمين للانتقام لمقدساتهم ، فقاموا باحراق كنيسة مريم (١) ، وخربوا جزءاً من كنيسة اليعاقبة .

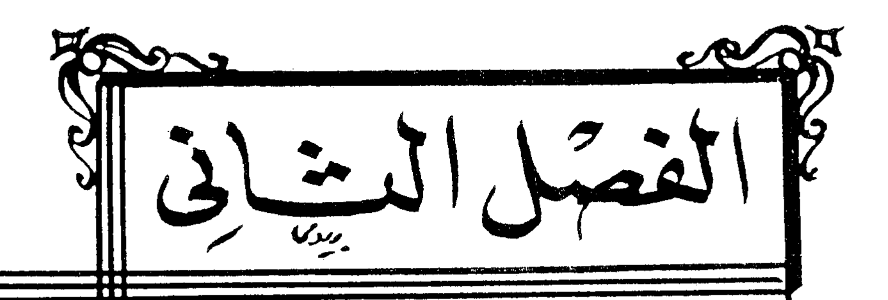
---

١) ابو شامه ،الذيل على الروضتين ،ص ٢٠٨ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٨٠ ؛ اليافعي ،جامع التواريخ المصرية ،ص ١٥٥ ،١٥٦ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢١٩ ؛ الذهبي ،العبر ،ج٥ ،ص ٢٤٢ ؛ ابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ١٩١ ؛ ابو الفدا ،المختصر ،ج٣ ، ص ٢٠٤ ،العريني ،المغول ،ص ٢٤٩ ،الصياد ،المغول ،ج١ ،ص ٢٩٦ . ؛ عبدالسلام فهمي ،تاريخ الدولة المغولية ،ص ١٤٢ . ؛ وكنيسة مريم: كانت كنيسة عظيمة في جانب دمشق ظلت بايدى النصارى منذ فتح المسلمين دمشق حتى عهد الخليفه الاموى الوليد بن عبدالملك الذى قام بهدمها واضافتها الى الجامع الذى بني بجوارها فلما ولي عمر بن عبد العزيز عوضهم عنها فعمروها عمارة عظيمة وبقيت كذلك حتى خربها المسلمون في هذه السنه (انظر بن تغرى بردى، المصدر نفسه ،ص ٨١ ،حاشية رقم ٣)

واخيرا يمكن القول ان هذا التلاحم بين القوى المغولية والقوى المسيحية الشرقية ، الذى اثمر استيلائهم على بلاد الشام وتحطيم استحكاماتها ، ومن ثم التطاول على المسلمين بها والاعتداء على مقدساتهم . كان احد العوامل التي دفعت المسلمين في الاراضي المصرية الى تدارك الامر واستنفار كامل قواهم ، ومن ثم اعلان حركة الجهاد الاسلامي المقدس ضد المغول وحلفائهم ، حتي تحقق لهم ذلك النصر العظيم في معركة عين جالوت .

الفصل الثاني

معركة عين جالوت



معركة عين جالوت
(رمضان ٦٥٨هـ)

- مقدماتها.
- حوادثها.
- نتائجها.

أ- طرد المغول من بلاد الشام.

ب- إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة.

جـ- انهيار بقايا الصليبيين فى بلاد الشام.

أولا : مقدمـــات المعركـــه

كان من نتائج سقود بلاد الشام في ايدى المغول وحلفائهم ان عم الرعب والخوف سائر ارجائها ، فهرب الناس باتجاه الاراضي المصرية . وقدانغرس داخل نفوسهم - نتيجة ماشاهدوه من الاهوال وبسبب ماحل بهم وببلادهم من الدمار والخراب والهلاك ، ان الشيء الوحيد الذى سينقذ المسلمين وممتلكاتهم من الزحف المغولي المدمر هو البحث عن قيادة حكيمة قوية ،تترجم نواياهم تلك، بانهاء خلافاتهم وتوحيد كلمتهم ، واعادة تنظيم جموعهم ،ومن ثم بعث روح الجهاد الاسلامي في نفوسهم لرد ذلك العدوان الذى استشرى خطره وبات يهدد ماتبقى من العالم الاسلامي بالدمار والهلاك .

والواقع ان مصر في ذلك الوقت كان كل شيء فيها ينبيء بظهور قوة جديدة فنحن نعلم ان السلطان المظفر سيف الدين قطز اعتلى عرش الدولة المملوكية الفتيه بمشوره من كبار الامراء في الاراضي المصرية . الذين اجمعوا على ان الملك المنصور على بن المعز ايبك [1] الذى كان صغير السن ضعيف الشخصية، لم يكن لديه من الطاقة والقدرة مايستطيع به مواجهة الاخطار والتحديات التي باتت تهدد دولة المماليك في مصر، لذا قرروا عزل السلطان الصغير، وتعيين شخص عالي الهمه نافذ الشخصية هو الملك المظفر قطز ، ليتولى تسيير دفة الامور في الدولة المملوكية ، وينقذها من ذلك الخطر، فخُلِع الملك المنصور من السلطنة وتُوج الملك المظفر ، واستقر له الامر ، واقسم له الامراء يمين الولاء والتبعيه ،وذلك يوم السبت السابع عشر من شهر ذى القعدة

---

١) أَيبك بفتح الهمزه وسكون الياء وتفخيمها ،لفظ تركي مركب من كلمتين "أى" معناه القمر ، و "بك" بمعنى امير والمعنى " أمير قمر" (انظر ابن تغرى بردى ،المنهل الصافي ،ج١ ،ص٦ حاشية)

سنة ٦٥٧هـ/ نوفمبر ١٢٥٩م .[1] كما اقنع السلطان المظفر قطز خصومه من امراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا الى بلاد الشام . وعلى رأسهم بيبرس البندقدارى ، بالعودة الى الاراضي المصرية والانضواء تحت لوائه متناسين مابينهم من الخلافات . بعد أن ثبت لهم عجز امراء الشام من البيت الايوبي عن مقاومة المغول [2] والاهم من ذلك ان جموع المسلمين التي تعرضت لويلات الغزو المغولي المدمر ابتداء من الدولة الخوارزمية ،ومرورا بالخلافة العباسية في بغداد ثم الامراء الايوبيين في شمال العراق وبلاد الشام . قد تجمع اعداد كبيرة منها بالاراضي المصرية ومعهم كبار امرائهم ، حيث استقبلهم السلطان قطز احسن استقبال وطيب خاطرهم وعطف عليهم ، ومنحهم العطايا والاموال فاستقروا بالاراضي المصرية واصبحوا يكونون جزءا هاما من جيشه . [3]

ومن هذا يمكننا ان نخلص الى حقيقة هامه ،وهي ان فلول الممالك الاسلامية في الشرق الاسلامي التي تعرضت للغزو المغولي،اضحوا على يقين

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٧ ؛ اليافعي، جامع التواريخ المصرية ،ص١٥ ؛ ابن ايبك الدوادارى ،الدرة التركية في اخبار الدولة التركية ،ج٨ ،ص ٣٩ ؛ ابن اياس ،بدائع الزهور ج١ ،ق ١ ،ص ٣٠١ ؛ الكتبي ،عيون التواريخ ،ج١٤ ،ص ١٧٣ ؛ فوات الوفيات ،ج٢ ،ص ٢٦٨ .

٢) راجع ماسبق ص ١٠٦ ، ١٠٨ .

٣) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣١٠ ، ٣١١ ؛ ابن طولون ، الصالحي ، اعلام الورى ،ص ٣ ؛ ابن شداد ،تاريخ الظاهر بيبرس ،ج ٢ ، ص ٢٤٢ ،٢٤٥ .

تام بأن دولة المماليك الفتيه في مصر هي الدولة الوحيدة القادرة على حمل لواء الجهاد للنهوض بالعالم الاسلامي وانتشاله من وهدته العميقة ، وذلك لتوفر العنصر البشرى ، فضلا عن مواردها الطبيعية الضخمه ، وابتعاد من بها من الحكام عن الاثره وحب الذات . ولعل خير دليل على ذلك ماذكره المؤرخ رشيد الدين ، من ان جموع الخوارزمية الفاره من وجه المغول اتجهت في بداية الامر الى بلاد الشام ، وحينما عزم هولاكو على المسير الى بلاد الشام " تواروا في شتى الاطراف " ولكنهم عادوا فتجمعوا بعد عودته الى عاصمته مراغه - تاركا الامر في بلاد الشام لقائده كيتوبوقا - واتجهوا الى السلطان المظفر قطز في القاهره ، وشرحوا له قصتهم فرحب بهم.(١) هذا بالاضافة الى ماسبق ان ذكرناه من مسير الملك المنصور صاحب حماه بعد وصول قوات المغول الى نابلس ، ومعه جموع كثيره من عساكر الشام التي فضلت على مايبدو مرافقة الملك المنصور في الوقت الذى امتنع فيه الملك الناصر يوسف عن الدخول الى مصر (القاهرة) لمقابلة المظفر قطز الى ان ظفر به المغول وحملوه الى هولاكو . (٢)

والواقع ان الملك المظفر قطز بات هو الاخر يدرك ادراكا تاما ان بقاء دولته الفتيه يتوقف على اجتياز ذلك الامتحان الصعب المتمثل في الغزو المغولي للممالك الاسلامية الذي استشرى خطره ، وان يثبت انه بحق اهل للثقه التي اولاها اياه الامراء في مصر ورجل الساعة بالفعل بعد اجماعهم على عزل الملك المنصور علي بن المعز ابيك وتنصيبه سلطانا على دولة المماليك .

والحقيقة فقد كانت تواجه الملك المظفر معضلة في سبيل تجميع القوى الاسلامية ، وحثها على رفع راية الجهاد الاسلامي والتصدى

---

١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص٣١٠ ،٣١١ .

٢) راجع ماسبق في الفصل الاول.

للعدوان المغولي ، تلك المعضله هي افتقار الشرق الاسلامي آنذاك الى الخلافة الشرعية بعد سقوط الخلافه العباسية في بغداد ، اذ لو كانت الخلافة قائمه لكان من السهل على الملك المظفر قطز الاتصال بها ، والحصول على تقليد من الخليفه يخوله تزعم ماتبقى من الشرق الاسلامي ويُسْبغ على دولته الفتيه صفة الشرعية الكاملة. وهنا لايخفى ماكان للسلطة الروحية الممثلة في الخلافه من دور ايجابي في استثارة حماس المسلمين وحثهم على التوافد الى ميادين الشرف والبطولة والانضواء تحت لواء القادة العظام للدفاع عن دينهم ومقدساتهم وممتلكاتهم .

وبناء عليه فانه كان على السلطان المظفر قطز ان يراعي ذلك النقص المتمثل في شغور منصب الخلافه في الشرق الاسلامي آنذاك . وان يتولى بنفسه ، وباساليب مختلفه حشد اكبر عدد من عساكر المسلمين عند لانقاذ دولته ، وماتبقى من العالم الاسلامي من خطر المغول المدمر . وهنا تذكر المصادر التي بين ايدينا انه لجأ الى اساليب عدة دلت على رجاحة عقله ، واثبت معها بالفعل انه الرجل المناسب في المكان المناسب .فبالاضافه الى ماسبق ان اشرنا اليه من استقباله لجموع الخوارزميه وعسكر بلاد الشام الفارين من وجه المغول ، فقد امر داعي الجهاد بالنداء في كافة الديار المصرية واعلن النفير العام الى الجهاد في سبيل الله " وارسل خلف عربان الشرقية والغربية" فاجتمع عنده من عساكر مصر اربعين الفا .(١)

كما قام المظفر قطز في الوقت نفسه بالاتصال بالامراء الايوبيين في بلاد الشام الذين انضووا تحت لواء المغول ، طالبا منهم التخلي

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٨هـ ؛ ابن اياس بدائع الزهور ،ج١ ،ق ١ ،ص ٣٠٥ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٩.

عن تبعيتهم للمغول الذين زعزعوا كيان المسلمين . وفي هذا الشأن يذكر اليونيني صاحب ذيل مرآة الزمان ان الملك المظفر قطز لما عزم على لقاء المغول ، كتب الى الاشرف موسى صاحب حمص كتابا يسفه رأيه على ما اعتمده من ميله الى المغول وانحيازه اليهم ، وتفضيلهم على المسلمين ، ويعده انه متى ترك المغول ومال اليه " بشرط أن لايقاتل معهم اذا كان بينه وبينهم مصافا" ابقى عليه مافي يده من البلاد ، فاجابه الاشرف الى ذلك . (١)

ولايستبعد ان يكون الملك المظفر اراد قبل الشروع في مواجهة المغول ان يختبر الصليبيين على ساحل بلاد الشام ، لمعرفة موقفهم من ذلك الصراع الذى اصبح محاذيا لهم ، لتخوفه من انضمام هوءلاء الصليبيين الى المغول عند نشوب الحرب . وبناء عليه توجهت سفارة مصرية الى عكا تطلب من الصليبيين السماح للجيوش الاسلامية باجتياز بلادهم وبشراء ماتحتاجه من الموءن. واجتمع البارونات الصليبيين في عكا للتشاور في هذا الطلب . والواقع ان الصليبيين لم يخفوا مرارتهم وكراهيتهم وحقدهم للمغول بعد ان قام المغول بمهاجمة مدينة صيدا ونهبها ، كما انه لم تتوافر عندهم الثقه فيهم لما ارتكبوه من المذابح الجماعية ، على حين ان الصليبيين اتصلوا بالحضارة الاسلامية والفوها . بل ان معظمهم كانوا يوءثرون المسلمين على المسيحيين الوطنيين الذين ظفروا بعطف المغول . ونتيجة لذلك أبدوا أول الامر استعدادهم لبذل المساعدة العسكرية للسلطان قطز ، غير ان مقدم طائفة الرهبان

---

١) يبدو ان الملك المظفر لم يطلب من الملك الاشرف الانضمام الى القوات المصرية في ذلك الوقت واكتفى بطلب التزامه الصمت بعدم مشاركة المغول هجومهم على الاراضي لخوفه عليه منهم ويوءيد ذلك ماذكره المصدر نفسه من ان كيتوبوقا عندما طلب من الاشرف المسير معه الى قتال المماليك ،" اعتذر وتمارض" انظر اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ٣١٢ .

التيتون ،أنو سانجرهاوسن Anno of Aangerhousen • انذرهم أنه متى انتصر المسلمون على المغول ، لم يأمنوا جانبهم • على ان السلطان قطز ، سارع فتلافى ذلك الخلاف بينهم ، فشكرهم حينما عرضوا عليه ان يسيروا معه نجده ، واستحلفهم ان يكونوا لا له ولا عليه.(١) والواقع ان مصالح الرهبان تحكمت في سياسة الفرنج ، فالمعروف انه كان لطائفة التيتون ، املاك كثيرة في مملكة ارمينية الصغرى ، وان مقدمهم كان على مايبدو يقدر سياسة هيثوم الاول ملك مملكة ارمينية الصغرى(٢) وكيفما كان الامر فالذى يهمنا هو ان استجابة الامراء الصليبيين لطلب السلطان قطز بالسماح لقواته باجتياز الاراضي الساحلية التي تحت ايديهم • جعلته في مأمن من ذلك الجانب ، وجنبته خطر اشتباكه في اكثر من جهه في تلك اللحظات الحرجه •

وبعد ان تمكن السلطان المظفر قطز من حشد تلك الاعداد الوافرة من القوات الاسلامية ، وأمن جانبه من ناحية الصليبيين ، كان عليه ان يشرع في جمع الاموال اللازمه لتجهيز تلك القوات بما يلزمها من العدة والعتاد ، وهنا اتبع المظفر طريقة هادفة لجباية هذه الاموال من المسلمين ، قائمه على اساس تحكيم الشريعة الاسلامية لكي لاينزعج المسلمون من ذلك العمل ، خاصة اذا علمنا بان دولة المماليك لازالت دولة حديثه ، تواجهها معارضة ايوبية ، فحرص

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق١ ،ص ٤٣٠ •

٢) انظر العريني ، المغول ،ص ٢٥٨ ،٢٥٩ ، [illegible] :

المظفر وكبار رجاله على استدعاء شيخ الاسلام العز بن عبدالسلام (١)
واخذ رأيه في جمع الاموال اللازمه من المسلمين لتجهيز الجيش
المملوكي ، الخارج لصد العدوان المغولي ، فأصدر الشيخ فتوى مفادها
انه اذا طرق العدو البلاد وجب على الناس الخروج لقتاله ، وجاز
للسلطان ان يأخذ من اموال التجار ، واغنياء الناس ، مايستعين به
على تجهيز العساكر لدفع العدو، بشرط ان لايبقى في بيت المال شيء
من السلاح والسروج والذهب والفضه والسيوف المحلاه بالذهب ، وان يتساوى
العامه مع غيرهم سوى الات الحرب ، ويقتصر الجندى على فرسه ورمحه
وسيفه . واما اخذ الاموال من العامه مع بقاء ما في ايدى الجند من
الاموال والالات الفاخرة فلا .(٢)

---

١) العز بن عبدالسلام: هو عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام بن ابي القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب السلمي الدمشقي الشافعي شيخ الاسلام والمسلمين ،واحد اثمة الاعلام ،سلطان العلماء ،امام عصره بلا مدافعه ، القائم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه ،المطلع على حقائق الشريعه وغوامضها ، العارف بمقاصدها . ولد سنة ٥٧٧هـ ،وصنف الكثير من الكتب في الشريعه وعلومها توفى سنة ٦٦٠هـ (انظر ترجمته مفصلة في السبكي ،طبقات الشافعية ، ج٨ ،ص ٢٠٩ – ٢٥٥) وانظر ايضا ،ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج١ ،ص ٣٢٣ حاشية ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٢ ،ص ١٧٢ ؛ الزركلي ، الاعلام ،ج ٤ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ؛ عبدالقدوس الانصارى ،بنو سليم ،ص ٣٣٩ – ٣٤١ ؛ عبدالله الوهيبي ، العز بن عبدالسلام ؛ علي عوده الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،ص ٤٧٥ – ٤٧٧ ؛ عمر رضا كحاله ، معجم المؤلفين ،ج٥ ،ص ٢٤٩

٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٠٢ ؛ المقريزى ، السلوك ،===

والى جانب ذلك فان هذا التصرف ،يوحي بأن السلطان المظفر قطز قد ذهب الى ماهو ابعد من ذلك ، وهو ان استشارته للعز بن عبد السلام كان بمثابة دفعه معنوية قوية شحذت همم الناس للجهاد وبذل الغالي والنفيس في سبيل الله ٠ اذ يمكن القول ان تلك الفتوى التي اصدرها العز بن عبدالسلام ــ في ذلك الوقت الذى كان الشرق الاسلامي بلاخلافه شرعيةـ أدت الدور نفسه الذى كانت الخلافه ستوءديه فيما لوكانت قائمه ٠ اذ كانت فتواه تلك بمثابة سلطة روحية ساعدت الملك المظفر في الحصول على استجابة عامة المسلمين بدفع ماقرر عليهم من اموال ، مستشعرين بأن ذلك واجب يفرضه عليهم دينهم الحنيف ٠ وفي هذا الشأن يذكر ابن اياس ان قطز " قرر على كل رأس من اهل مصر والقاهرة من كبير وصغير دينارا واحدا ، واخذ من اجرة الاملاك شهرا واحدا ،واخذ من اغنياء الناس والتجار زكاة اموالهم معجلا ، واخذ من الترك الاهلية ثلث المال ، واخذ من الغيطان والسواقي اجرة شهرا واحدا•وبلغ جملة ما جمعه من الاموال اكثر من ستمائة الف دينار•٠ (١)

=== ج١ ،ق١ ،ص٤١٦ ،٤١٧ ،اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ،ص١٥٠ ؛ السبكي ،طبقات الشافعية ،ج٨ ،ص٢١٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص٧٢ ،٧٣ ٠

١) ابن اياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص٣٠٥ ،٣٠٦ ؛ والترك الاهلية التي اوردها ابن اياس بكسر التاء وفتح الرا ٠ يبدوا ان المقصود بهاتركات الاهالي ،اى تركات المتوفين ٠ أما ماذكره كل من محمد مصطفى زياده في المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص٤٣٧ حاشية رقم (٥) واحمد مختار العبادى ،في كتابه قيام دولة المماليك الاولى ،ص١٦٠ ، حاشية رقم (٣) من ان المقصود بالترك الاهلية هنا عناصر الترك المقيمه بمصر منذ زمن طويل (Turcs domiciles .) فان ذلك كان على مايبدوا ــ بسبب اعتمادها على طبعة متقدمه للمصدر نفسه ،هي طبقة بولاق سنة ١٣١١ ــ ١٣١٢ هـ وان اللفظ ورد بها من غير ضبط ٠

علما بأن قطز لم يشرع في جمع الاموال من المصريين الا بعد ان نفذ فتوى الشيخ عزالدين بن عبدالسلام بأن احضر هو والامراء ماعندهم من حلى واموال ووضعها بين يدى الشيخ . (١)

وعليه يمكن القول ، ان السلطان المظفر قطز ،استطاع ان يتغلب على كل الصعاب التي كانت تواجه دولة المماليك الفتيه المسلمه والمتمثله في شغور منصب الخلافه الذى ادى الى افتقار دولته الى صفة الشرعية الكاملة ، فضلا عن العداء المتأصل ضد دولته من جانب امراء البيت الايوبي ، الذى كان امراوءه بالرغم من انهزامهم امام المغول يعتبرون المماليك مغتصبين لاملاكهم بالاراضي المصرية ، اذ المعروف ان الملك الناصر يوسف الذى كان حتى في ذلك الوقت معتقلا لدى المغول ، لا زال يطمع في ملك مصر والشام التي وعده بها هولاكو اذا تمكنمن السيطرة على الاراضي المصرية. هذا بالاضافة الى ماحل بالجموع الاسلامية الهاربه الى الاراضي المصرية من وجه المغول من الخوف والفزع ، بسبب ما شاهدوه من الاهوال ، وما نزل بمدنهم من الخراب والدمار.والتي تمكن السلطان المظفر بفضل مايملكه من براعة في ميادين السياسة والحرب من النجاح في اعادة الثقه والعزم الى نفوسها ، وأحيا في هذه الجموع المسلمة روح الجهاد الاسلامي المقدس وكوّن منها جيشا وفير العدد كامل العدة ضمن له - بعد اتصاله بالصليبيين وتحليفهم على التزام مبدأ الحياد - القتال في جبهه واحدة .

اما بالنسبه للمغول ، فانه يمكن القول انهم اذا كانوا قد أفادوا من الاحوال السيئة التي احاطت ببلاد فارس والشام واسيا الصغرى ومصر)

---

١) السبكي ،طبقات الشافعية ، ج٥ ،ص ٨٣ ؛ ابن واصل ،مفرج الكروب ج٢ ،ص ٣٩٢ .

فضلا عن الحروب الداخلية التي نشبت بين الامارات الصليبية ، وتحقق لهم بفضل ذلك ما ارادوا من تدمير قلاع الاسماعليلية ،والقضاء على الخلافه العباسية في بغداد ، وفرض سلطانهم على اقليم الجزيرة واذربيجان حتى جبال القوقاز ، ثم لم يجدوا من الامراء الايوبيين من المقاومه مايردهم عن المضي في سياستهم التوسعية حتى سيطروا على بلاد الشام واضحوا يهددون ممتلكات المماليك في الاراضي المصرية .(١) فان امرهم مالبث ان تبدل بعد ان ترك هولاكو قيادة هذه الجيوش ، وعاد ادراجه الى عاصمته مراغه . بعد ان وصلته الاخبار بوفاة اخيه الاكبر منكوخان سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٩م . وتنازع اخويه الاخرين "قويبلاى" و " اريق بوقا" على ولاية عرش المغول ، اذ وجد نفسه مضطرا الى العوده الى مقره الرئيسي مدينة مراغه ليكون قريبا من مجرى الحوادث في منغوليا ،ليسهل عليه التحرك الى منغوليا اذا دعته الحاجة الى ذلك . وبالرغم من أن هولاكو هو الابن الرابع لتولوى خان من حقه ان ينافس اخويه في تولي ذلك المنصب ، غير انه لم يولى ذلك المنصب اهتماما. ولعل ذلك راجع الى ما تهيأ له من النجاح والظفر في ايراق والعراق والشام(٢) ، فضلا عن خوفه من ازدياد هوة الخلاف وتعقيد الامور. ولكنه في الوقت نفسه كان يرى ان اخاه قوبيلاى أجدر بتولي العرش من اخيه الاخر اريق بوقا ، وحرص على ان يحضر الانتخابات ليزكي ترشيح اخاه قوبيلاى خانا اعظما للمغول . (٣)

ومن ناحية اخرى لاننسى ما كان من ازدياد العلاقات سوءا بين هولاكو ،

---

١) العريني ،المغول ،ص ٢٥٣ .

٢) الصياد ، المغول في التاريخ ،ج١ ،ص ٢٩٨ .

٣) لمزيد من التفاصيل انظر ،العريني ، المصدر نفسه ،ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ؛ الصياد ، المرجع نفسه ،ص ٢٩٨ ؛ عبدالسلام فهمي ،تاريخ الدولة المغولية في ايران ،ص ١٤٤ ؛ فايد حماد عاشور ،العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ٤٦ .

وابناء عمومته خانات القبيلة الذهبية (القبجاق)[1] الذين باتوا يهددون ممتلكاته ، اذ ان بركه خان رعيم القبيلة الذهبية كان يميل الى المسلمين في الوقت الذى كان هولاكو وحاشيته يعملون جاهدين على ارضاء المسيحيين واستمالتهم اليهم ، وتطور الامر ببركه ان اعتنق الدين الاسلامي ، وتعرض هولاكو للتقريع والتأنيب من قبله ، وصار بركه يتهدده بالانتقام منه بسبب ما اقترفه من مذابح راح ضحيتها الوف من المسلمين ، وما انزل بهم من دمار وخراب ، فضلا عما تعرض له الخليفه العباسي من الهوان ، وتجرئه على قتله .[2] لذلك كثيرا ماوقع الاحتكاك بينهما عند جبال القوقاز التي تفصل بين نفوذهما ،بل ذهب بركه خان الى ماهو ابعد من ذلك ،حيث قام باضطهاد القبائل المسيحية التي كانت تسكن تلك المناطق وذلك ردا على ماسلكه هولاكو من سياسة تعسفيه تجاه المسلمين بقصد اذلالهم . ويبدو ان هولاكو اراد ان يضع حدا لتصرفات التهكم والانتقام التي مارسها بركه ضده ، فحاول ان يفرض سلطانه على الجانب الشمالي لجبال القوقاز . ولكن بركه اعد لذلك الامر عدته ، واستطاعت جيوشه ان تنزل بجيوش هولاكو هزيمة ساحقة .[3]

---

١) القبجاق : فرع من الترك مساكنهم الاصلية حوض نهر ارتش ، وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر ارتل (الفلجا) في جنوبي روسيا الحالية ، فعرفت تلك الجهه باسم القبجاق ، كما عرفت به ايضا دولة المغول المسماه القبيلة الذهبية (انظر القلقشندى ، ج٤ ،ص ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق ١ ،ص ٦٦٣)

٢) توجد اقوال كثيرة عن اسباب العداوة بين هولاكو وابن عمه بركه منها : ماذكر بالمتن من ان بركه لم يرض بمافعله هولاكو بالمسلمين عند اقتحام بغداد وقتله الخليفه المستعصم . ومنها ====

== ان تأسيس دولة هولاكو بفارس لم يرق في عين بركه ، ولاسيما بعد ادماج بلاد آران واذربيجان داخل حدودها مع انهما كانتا من نصيب ارش والد بركه حسب وصية جنكيزخان ، والقول الثالث ان العداوة بينهما نشأت بسبب عدم مظاهرة بركه خان للخان الاعظم قوبيلاى ،وانتصاره لاخ صغير له اسمه اريقابوقا ،اذ من المعروف ان بركه اعترف بهذا الاخ الصغير خانا اعظما للمغول. ورأى رابع يرى ان سبب ذلك هو ان هولاكو كان منذ صار بركه ملكا على المغول القبجاق ،قد منع عن ذلك الفرع المغولي نصيبه من مغانم الحروب • (لمزيد من التفصيل ،انظر المقريزى ،السلوك ج١ ،ق٢ ،ص ٤٧٣ ،٤٧٤ حاشيه رقم ٥ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ، م٢ ،ص ١٦١ ،١٦٢ ؛ ابن ايبك الدوادارى ،الدرة الزكيه ،ج٨ ،ص ٦٢. ومما يضاف الى ذلك ماذكره البازى العريني في كتابه المغول ، ص ٢٢٢ حاشيه ، من انه في حديث لهولاكو مع جماعه من رجال الدين من الارمن والكرج سنة ١٢٦٤م ، اشار الى ان عواطفه وميوله نحو المسيحية ،آقامت فجوه عميقة بينه وبين بني عمومته من الخانات في جنوب روسيا وتركستان(خانيتي القبجاق ،وجغتاى) نظرا لميلهم نحو المسلمين •

٣) انظر مايلي ص

ويبدو لنا ان عودة هولاكو الى بلاد فارس لم تقتصر على هذين السببين ، بل يمكن القول ان هناك اسبابا اخرى تضافرت معها فاجبرته على العوده، منها ان هولاكو الذى بات محاذيا لممتلكات الصليبيين على الساحل الشامي ،وكان يطمح الى تحالفهم معه ضد المسلمين . أدرك انه لاجدوى من قيام ذلك الحلف لكونه وثنيا يدين بالديانة البوذيه . وعليه فانه لايستبعد انه فكر في طريقة اخرى ملتوية يستميل بها هؤلاء الصليبيين الى صفه ، فوجد ان الطريق لضمان ذلك هو جعل صراعه ضد المسلمين صراعا مسيحيا بحتا . علّه بذلك يكسب عطف المتحمسين للدين المسيحي من الصليبيين والغربيين ، فيتناسون ما بينهم من خلافات مذهبية مع المسيحيين الشرقيين ،ويوحدون صفوفهم لمحاربة المسلمين . ولعل اختيار هولاكو لقائده كيتوبوقا الذى كان يدين بالمسيحية ليخلفه على بلاد الشام ، وتفضيله على غيره من امراء المغول الكبار الذين كانوا يسيرون في ركابه ولهم اليد الطولى في تدمير قلاع الاسماعيلية واقتحام بغداد ،ومدن اقليم الجزيره والشام ، خير دليل على ذلك . كما يمكن ان نضيف الى ذلك ان هولاكو ادرك أن تدهور الوضع في منغوليا وتطوره الى خلاف حول ولاية العرش داخل قراقورم، سينعكس على القوات التي تعمل تحت يده مما قد يعرض هولاكو لخسارة جسيمة امام المماليك المسلمين في مصر . الامر الذى يفقده مكانته العاليه بين المغول بعد تلك الانتصارات العظيمة التي حققها ضد المسلمين ابتداء من ايران حتى اقاصي بلاد الشام . لذا فضل العودة الى المشرق وترك الامر لغيره هناك لكي يكسب احدى الحسنيين ، اما النصر على المماليك فيزيد ذلك من رصيده بحكم ان هذه القوات تعمل باسمه ، او الاحتفاظ في حالة الخساره بمكانته تلك،لكونه بعيدا عن مسرح الحوادث .

ومهما يكن من أمر ، فبالرغم من انه يمكن القول ان هذه

الاسباب الاربعة قد تضافرت جميعها في دفع هولاكو الى العوده الى عاصمته بالمشرق ، فان الذى يهمنا قوله هو ان ذلك الحدث المفاجيء كان تحولا خطيرا ،غير مجرى سياسة المغول التوسعية التي كانت تتم على حساب العالم الاسلامي . اذ المعروف ان هولاكو لم يعد الى فارس بمفرده ، بل عاد ومعه جموع من عساكره .(١) ولعل ذلك كان لتبرير قراره ذلك ، بأنه يريد مواجهة تفاقم تهديد خانات القبيلة الذهبية (القبجاق) له . كما ان خطة هولاكو التي قضت بأن يخلفه على بلاد الشام القائد كيتوبوقا المسيحي ، لسبغ ذلك الصراع - على مايبدو - بالسبغه المسيحية ، لم ينجح في استمالة الجموع الصليبية في ساحل بلاد الشام اليهم لتكوين حلف صليبي مغولي ضد المسلمين ، ذلك ان بارونات عكا ظلوا ينظرون الى المغول على انهم برابره لايمكن الاطمئنان اليهم، كما انهم في الوقت نفسه كانوا يدركون بان المغول لن يسمحوا لهم باقامة امارة صليبية مستقله ، وانما يريدونهم تابعين للخان الكبير. لذا فان هوءلاء الصليبيين كانوا يوءثرون المسلمين ويفضلونهم على هذا العنصر الغريب الهمجي المتغطرس القادم من الصحارى النائية ، والذى كان سجله في شرق اوربا داعيا للنفور(٢) وقد تطور هذا النفور وعدم الارتياح الى قيام احد البارونات ،يسمى الكونت جوليان الصيداوى (Julien de Sidon) بمهاجمة دورية مغولية وقتل ابن اخي كيتوبوقا . فسخط المغول ، وعزموا على الانتقام ،فهاجموا مدينة صيدا وانزلوا بها خسائر جسيمة . فكان هذا العمل ايذانا بقطع كل الامال في قيام حلف صليبي مغولي .(٣)

---

١) انظر العريني ، المغول ،ص ٢٥٧ .

٢) انظر ،رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٥١٣ ; الصياد ، المغول في التاريخ ،ج١ ،ص ٢٩٩ .

٣) الصياد ،المصدر نفسه ج١ ،ص ٢٩٩ .

وفي ظل هذا التنافر الذى نمّ عن خيبة أمل مغولية ،بعد فشلهم في استمالة الصليبيين الغربيين الى صفوفهم ، لمساعدتهم في التغلب على دولة المماليك المسلمين في مصر. كان الملك المظفر قطز قد نجح قبل الاصطدام بهم في خلق جو من التجانس والوئام بين عناصر جيشه المختلفه ، وغرس في نفوس رجاله روحا جهادية خالصة لمواجهة العدوان المغولي المرتقب على دولتهم والذي لم يكن يخفى عليهم ما احدثه المغول من صنوف الدمار والخراب والهلاك في بلاد الشام. ويؤيد هذا قول رنسيمان " من سوء حظ المغول ،ان توغلهم في فلسطين آثار دولة اسلامية كبيرة لم تتعرض للهزيمة ، وهي دولة المماليك في مصر اذ اضحى المماليك وقتئذ من الصلاحية والسلامة ، ما يجعلهم يقبلون تحدى المغول" (١)

لم يعد امام المظفر قطز بعد اتمام تلك الاستعدادات سوى اختيار مكان وزمان المعركة التي كان ينوى منازلة المغول فيها . وهنا تبدو لنا استراتيجية جديدة اتبعها قطز في هذه المواجهه الحاسمة ، ذلك انه اذا كان حكام المسلمين ابتداء من الدولة الخوارزمية حتى ارض فلسطين قد التزموا مبدأ التحصن داخل مدنهم انتظارا لهجوم المغول عليهم ومحاولة صده فقط ،فان السلطان قطز ادرك عدم جدوى الاساليب الدفاعية ورأى ان من الافضل منازلة المغول قبل وصولهم الى الاراضي المصريه واختار لذلك النزال مكانا مناسبا خارج دولته هو منطقة عين جالوت بارض فلسطين ، الذى يمتاز بقربه من المناطق الساحلية التي كان يسيطر عليها الصليبيون ، الذين ابدوا بدورهم استعدادهم الكامل لتسهيل مرور القوات الاسلامية اليه . هذا بالاضافة الى كون هذا الجزء من ارض فلسطين منطقة فسيحه يعلوها جبل.(٢) الامر الذى

---

١) رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٥٣٢ .

٢) انظر ،ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٦٤ .

سيمكن قواته من مواجهة العدو في كل الظروف ، ففي حالة الاشتباك المباشر مع العدو في معارك مكشوفه يكون القتال في منطقة منبسطة ، وفي حالة مناوشته من بعيد يكون الجبل مساعداً للرماه لاداء واجبهم على الوجه الاكمل ، كما ان اختيار هذا المكان في بلاد الشام لمنازلة المغول ،يعطي في حد ذاته دفعة قوية لتلك الجموع الشامية الهاربه منهم الى مصر والتي انضمت الى جيش المماليك ، للاستبسال والتفاني في الجهاد طمعا في العودة مرة اخرى الى بلادها ، خاصة وان هناك امراء ايوبيين في ركاب هذه الجيوش ، كان الملك المظفر قطز قد وعدهم باعادتهم الى اماراتهم بعد طرد المغول من بلاد الشام ، كما اختار قطز لهذه المعركة الفاصلة شهر اغسطس الذى تكون فيه الحرارة مرتفعه ، للتأثير على تلك الجموع المغولية القادمة من صحارى منغوليا البارده ،(١) للتقليل من نشاطهم القتالي لكونهم لم يعتادوا على المناخ الحار الذى عادة مايسود مناطق فلسطين في ذلك الوقت .

حوادث المعركه

في الوقت الذى انصرف فيه هولاكو من بلاد الشام. كان قد أُرسل رسله الى سلطان مصر برسالة كلها تهديد ووعيد قال فيها " من ملك الملوك شرقا وغربا القان الاعظم ،باسمك اللهم باسط الارض ورافع السماء ،يعلم الملك المظفر قطز ، الذى هو من جنس المماليك

---

١) يعد مناخ هضبة منغوليا من اشد مناطق العالم برودة ،اذ هي الغالبه في معظم ايام السنه . بسبب طول فصل الشتاء، فالماء يتجمد في المنخفضات في شهر مايو من كل عام ، ويمكن ان يرى الجليد على اواني الشرب في شهر اغسطس . أما الصيف فلا يكاد يبدأ حتى ينتهي ،وتصل درجة الحرارة في فصل الشتاء في بعض الجهات الى ٥٨ درجة تحت الصفر (انظر عبدالسلام فهمي ،تاريخ الدولة المغولية في ايران ص ١٢) .

الذين هربوا من سيوفنا الى هذا الاقليم يتنعمون بانعامه ،ويقتلون
من كان بسلطانه بعد ذلك ، يعلم الملك المظفر قطز وسائر امراء دولته
واهل مملكته بالديار المصرية وماحولها من الاعمال انا نحن جند
الله في ارضه ،خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ،
فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر ،فاتعظوا بغيركم
واسلموا الينا امركم ،قبل ان ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود
عليكم الخطأ، فنحن مانرحم من بكى ، ولا نرفق لمن شكى ، قد سمعتم
اننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الارض من الفساد ، وقتلنا معظم
العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ، فأى ارض تأويكم ،
واى طريق تنجيكم ، واى البلاد تحميكم ،فما من سيوفنا خلاص ، ولا من
مهابتنا مناص ، فخيو لنا سوابق ،وسها منا خوارق وسيوفنا صواعق
وقلوبنا كالجبال ،وعددنا كالرمال ،فالحصون لدينا لاتمنع والعساكر
لقتالنا لاتنفع ، ودعاؤكم علينا لايسمع ، فانكم اكلتم الحرام ،
ولا تعفون عند الكلام ، وخنتم العهود والايمان ، وفشا فيكم العقوق
والعصيان فابشروا بالمذلة والهوان • فاليوم تجزون عذاب الهون
بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون، وسيعلم
الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون • فمن طلب حربنا ندم ومن قصد
اماننا سلم • فان انتم لشرطنا ولامرنا اطعتم ،فلكم مالنا وعليكم
ماعلينا ، وان خالفتم هلكتم ،فلا تهلكو نفوسكم بايديكم ، فقد حذر
من انذر ،وقد ثبت عندكم ان نحن الكفره ، وقد ثبت عندنا انكم الفجره
وقد سلطنا عليكم من له الامور المقدره والاحكام المدبره ،فكثيركم
عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ،وبغير الاهنه ما لملوككم عندنا
سبيل ، فلا تطيلوا الخطاب ،واسرعوا برد الجواب قبل ان تضرم الحرب
نارها ،وترمي نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزا • ولا كافيا
ولا حرازا ،وتدهون منا باعظم داهيه ، وتصبح بلادكم منكم خاليه ،
فقد انصفناكم اذ راسلناكم ،وايقظناكم اذ حذرناكم ،فما بقي لنا

مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم وعلى من اطاع الهدى وخشي عواقب الردى ، واطاع الملك الاعلى .

الا قل لمصر ها هلاون قد اتى بحد سيوف تنتضي وبواتر
يصير اعز القوم منها اذلة ويلحق اطفالا لهم بالاكابر (١)

ولما تسلم قطز هذه الرسالة ،احضر الامراء واستشارهم في الامر وقال " لقد توجه هولاكوخان من توران الى ايران بجيش جرار ، ولم يكن لاى مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء الى دمشق ، ولو لم يبلغه نعي اخيه ، لألحق مصر بالبلاد الاخرى ، ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كيتوبوقا نويان الذى هو كالأسد الهصور ، والتنين القوى في الكمين واذا قصد مصر ،فلن يكون لاحد قدرة على مقاومته . فيجب تدبر الامر قبل فوات الفرصه " (٢) .

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ ؛ اما رشيد الدين فقد أورد هذه الرسالة بصفه مغايره ،حيث ذكر ان هولاكو ارسل رسولا مغوليا وبصحبته اربعون من الاتباع الى سلطان مصر يقول" ان الله تعالى قد رفع شأن جنكيز خان واسرته ومنحنا ممالك الارض برمتها وكل من يتمرد علينا ،ويعصى امرنا يقضى عليه مع نسائه وابنائه واقاربه والمتصلين به ، وبلاده ورعاياه ، كما بلغ ذلك اسماع الجميع ، أما صيت جيشنا الذى لاحصر له فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفندبار ،فاذا كنت مطيعا كخدم حضرتنا ، فارسل الينا الجزيه واقدم بنفسك ،واطلب الشحنه ،والا فكن مستعدا للقتال" ؛ انظر رشيد الدين جامع التواريخ ،ج م٢ ،ج١ ،ص ٣١٠ .

٢) رشيد الدين ، المرجع نفسه ،م٢ ،ج١ ،ص ٣١١ .

ويبدو ان كلام قطز هذا قد ولّدَ الخوف والفزع لدى بعض امرائه فابدوا تحفظا في مواجهة المغول ، ورد احدهم على قطز قائلا "ان هولاكوخان فضلا عن انه حفيد جنكيز خان وابن تولوى واخو منكوقان ،فان شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والبيان ،وان البلاد الممتده من تخوم الصين الى باب مصر كلها في قبضته الان، وقد أُختص بالتأييد السماوى . فلو ذهبنا اليه لطلب الامان ،فليس في ذلك عيب وعار ، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل . انه ليس بالانسان الذى يطمأن اليه فهو لايتورع عن احتراز الرؤوس وهو لايفي بعهده وميثاقه ، فانه قتل خورشاه والخليفه وحسام الدين عكه ، وصاحب اربل بعد ان اعطاهم العهد والميثاق ، فاذا ماسرنا اليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل"(١)

وامام هذا الرأى تجلّت لنا حكمة السلطان قطز وحنكته السياسية ، فلم يشأ ان يعارض هذا الرأى منذ البداية ،رغم عدم اقتناعه به ، بل آثر زيادة التشاور مع جمع اخر من امرائه تلافيا لوقوع الخلاف بينهم وتفرق كلمتهم ، فدار بينه وبينهم حوار بدأه السلطان قطز ردا على المقوله السابقه بقوله " والحال هذه فان كافة ديار بكر وربيعه والشام ممتلئه بالمناحات والفجائع ، واضحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل فخلت من الازواج والابقار والبذور . فلو اننا تقدمنا لقتالهم ، وقمنا بمقاومتهم ، فسوف تخرب مصر خرابا تاما كغيرها

---

١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ،م٢ ، ج١ ،ص ٣١١ ، ٣١٢ ؛ انظر ايضا محمد ماهر حماده ،وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي ،ص ٧٣ ، ٧٤ ؛ رخورشاه : زعيم الاسماعيلية ، اما حسام الدين عكه ، فيبدو ان المقصود به هو المنجم الذى رافق جيش هولاكو وحذره من أن اعتدائه على بغداد سيجر عليه كثير من المصائب .

من البلاد . وينبغي ان نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحدا من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ، ذلك لانه لايمكن ان نجد لنا مفرا الا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيده" فاجابه احد الامراء بقوله: " وليس هناك مصلحة ايضا في مصالحتهم اذ انه لايوثق بعهودهم " وهنا اثمر ذلك الحوار اجماع بقية الامراء على تفويض الامرالى المظفر قطز حيث قالوا له " ليس لنا طاقه ولا قدرة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك " فسارع قطز باعلان الجهاد ضد المغول ،وقال لمن حوله " ان الرأى عندى هو ان نتوجه جميعا الى القتال ،فاذا ظفرنا فهو المراد ، والا فلن نكون ملومين أمام الخلق" (١).

وفي هذه الاثناء اراد المظفر ان يقطع كل مجال للتردد في الخروج لمواجهة المغول ، فاصدر أوامره الى ولاة الاقاليم المصرية بجمع الجيوش وحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله ونصرة دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وطالب الولاة " بازعاج الاجناد في الخروج للسفر ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع " ، وسار بنفسه حتى نزل الصالحية ، ,جيث تكامل عنده وصول العساكر المصرية ومن انضم اليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم وذلك في يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان سنة ٦٥٨هـ/يوليه ١٢٦٠م.(٢) وفي هذه المنطقة طلب قطز الامراء واجتمع بهم وتكلم

---

١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣١٢، ٣١٣ .

٢) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ص ٤٢٩ . والصالحية : بلده بناها الملك الصالح ايوب سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م في أول الرمل بين مصر والشام ، وانشأ بها جامعا وسوقا لتكون قاعدة لجيوشه اذا خرجت الى الشام ،(انظر المقريزى ، الخطط ،ج١ ،ص ١٨٤) .

معهم في المسير لقتال المغول ـ وهنا يبدو ان بعض هؤلاء الامراء عاودهم الخوف من مواجهة المغول ، وامتنعوا عن الخروج ، الامر الذى اثار حماسة السلطان المظفر قطز فقال لهم " يا آمراء المسلمين لكم زمان تأكلون اموال بيت المال وانتم للغزاه كارهون وانا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته ، فان الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين "(١)

وامام هذا التصميم الذى ابداه قطز لمواجهة المغول ، والذي اعقبه تحليف من وافقه من الامراء على المسير ،ومن ثم إصدار اوامره الى قواته بالمسير لملاقاة العدو مهما كانت الظروف حيث عبر عن ذلك بقوله " أنا ألقى التتار بنفسي" . لم يسع بقية الامراء المعارضين الا الموافقه ، وانفض الجمع على الخروج صفا واحدا لانقاذ الاراضي المصرية من ويلات الغزو المغولي المدمر .(٢)

وكان أول اجراء قام به المظفر قطز ضد المغول هو استدعاء رسل هولاكو واستقبالهم استقبالا جافا ايذانا باعلان الحرب عليهم ، ومن ثم القبض عليهم وضرب عنق كل منهم امام باب من ابواب القاهرة وتعليق رؤوسهم على باب زويله ،وابقى على صبى من الرسل وجعله من مماليكه ، وكانت تلك الرؤوس اول ماعلق على باب زويلة من المغول .(٣)

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٩ .

٢) المقريزى ، المصدر نفسه ،ص ٤٢٩ .

٣) المقريزى ، المصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٩ ؛ عبد السلام فهمي تاريخ الدولة المغولية في ايران ،ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

طلب قطز بعد ذلك الامراء فاجتمعوا عنده ، وحثهم على قتال المغول وذكرهم بما وقع باقاليم الاسلام من القتل والسبي والحريق ،وخوفهم من وقوع مثل ذلك ، ودعاهم الى نصرة الاسلام والمسلمين ،واستنقاذ الشام من المغول ، وحذرهم عقوبة الله ،فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال العدو ودفعه عن البلاد .(١)

تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الامير ركن الدين بيبرس البندقداري ،الذى طلب منه المظفر قطز ، ان يتقدم عسكره ليتعرف اخبار المغول ، ويمهد الطريق للقوات الرئيسية الزاحفه نحو فلسطين. فسار بيبرس حتى نزل غزه في شعبان من سنة ٦٥٨هـ/يوليه ١٢٦٠م ولقى بها جمعا من المغول بقيادة الامير المغولي (بايدر) ،الذى كان قد بعث الى كيتوبوقا بالقرب من بعلبك يخبره بتحرك الجيوش المصرية . ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس لم يستطع بايدر الصمود فيها امام جيوش المسلمين ،فرحل عن غزه وملكها بيبرس منه بالقوة .(٢)

وبهذا تعتبر معركة غزه هذه أُولى المعارك التي انتصر فيها المسلمون على المغول . كمايمكن القول ان هذا الانتصار الذى تحقق للمسلمين فيها كان دافعا قويا لهم للتقدم الى الشمال باتجاه عين جالوت للقاء المغول في موقع افضل . خاصة وان تلك الهزيمة التي منى بها جيش الامير المغولي بايدر لم تقابل باى اهتمام من القائد المغولي كيتوبوقا الذى بقي على جموده الى

---

١) المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ٤٣٠ .

٢) المقريزى ،المصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ ؛ رشيد الدين جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣١٣.

ان وصلت الجيوش الاسلامية عين جالوت ، هذا بالاضافة الى ان هذا الانتصار الذى حققه ركن الدين بيبرس في غزه لايستبعد ان يكون احد العوامل التي دفعت الصليبيين على الساحل الى خطب ود المسلمين بتقديم العون والمساعدة لهم والسماح لجيوش المماليك بعبور اراضيهم الى داخل فلسطين • او يبدو ان ذلك الانتصار قد ولّد مزيدا من الخوف والفزع لدى الصليبيين ،وقضى على آمالهم في ضرب المسلمين بالمغول لانهاك كلا القوتين لضمان بقائهم في ساحل بلاد الشام• يؤيد هذا ماحدث من مسارعة المظفر قطز عقب هذه المعركة بارسال سفارة الى عكا للتفاوض مع الصليبيين في ذلك الامر - كما سبق ان اشرنا - كما ان هذا العمل دلّ في الوقت نفسه على ماكان عليه المظفر قطز وقائده ركن الدين بيبرس من حنكه سياسية وبراعة حربية ، اذ انهما قصدا بذلك العمل - على مايبدو - الوصول الى منطقة العمق في فلسطين ، ومن ثم قطع الاتصال بين القائد المغولي كيتوبوقا الذى كان في ذلك الوقت في بعلبك • وبين القوات المغولية التي كانت تعمل في اقصى جنوب فلسطين تحت امرة الامير بايدر •

والذى يجدر ذكره هنا ، أنه لابد ان نتساءل لماذا رفض السلطان قطز تلك المساعدة التي عرضها الصليبيون عليه ؟ وللاجابة على هذا يمكن القول ان قطز كان حريصا كل الحرص على سبغ حروبه ضد المغول والصليبيين معا بسبغه اسلامية بحته • كما ان هذا يوحي الى ان قطز كان مصرا على دحر العدوان المغولي ،ومن ثم التوجه الى الساحل الشامي لتطهيره من نير الاحتلال الصليبي• وحرص في الوقت نفسه على ان لاتكون للصليبيين عليه منّة عند مهاجمتهم •

قاد السلطان قطز جيشه على امتداد الساحل ،ثم توجه من عكا صوب الجنوب الشرقي ،فاجتاز الناصرة في طريقة الى عين جالوت. وكان قد بعث الامير ركن الدين على رأس فرقه من الكشافة لاستطلاع اخبار العدو وتحديد مكانه . واشتبك بيبرس مع طلائع الجيش المغولي واستمر يناوشهم الى ان وافاه السلطان قطز بالجيش الرئيسي عند عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ/ سبتمبر ١٢٦٠م. حيث التقى الجمعان " وفي قلوب المسلمين وهم من التتر" (١) وذلك بعد طلوع الشمس وقد امتلاء الوادى بالناس وكثر صياح اهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والامراء ايذانا ببدء الهجوم ولما حمي وطيس المعركة تحيز المغول الى الجبل واقتتل الفريقان قتالا شديدا لم ير مثله قبل ذلك حتى قتل من الطائفتين اعداد كثيرة وانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الامر كسرة شنيعة ، فحمل الملك المظفر بنفسه في طائفه من عساكره واردف الميسرة حتى جبر ضعفها ، ثم اقتحم القتال وابلى في ذلك اليوم بلاء حسنا ، وهو يشجع اصحابه ويحسن لهم الموت في سبيل الله ، ويكر بهم كرة بعد كرة ،ثم القى خوذته عن رأسه الى الارض وصرخ باعلى صوته "واسلاماه" فحمل المسلمين على المغول حملة رجل واحد حتى نصر الله الاسلام واهله وانكسر المغول وولوا الادبار هاربين على اقبح وجه ، بعد ان قتل اعيانهم واصيب قائدهم كيتوبوقا الذى ظل يحرضهم على الصمود في القتال حتى لقي مصرعه على يد احد الامراء المسلمين.(٢)

---

١) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٣٠ ، والناصرة قرية بينها وبين طبريه ثلاثة عشر ميلا ،فيها كان مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ،ومنها اشتق اسم النصارى . (انظر ياقوت ،معجم البلدان).

٢) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ؛ انظر ايضا ،بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ، ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٨هـ ؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٧٨ ، ٧٩ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ===

وبمقتله انهارت الجموع المغولية وولت لاتلوى على شيء وهنا سارع المسلمون بالقبض على الملك السعيد حسن بن العزيز عماد الدين بن الملك العادل ، الذى كان معتقلا بقلعة البيره ، فلما ملكها المغول اطلقوا سراحه واعطوه بانياس وقلعة الصبيبه وظل مواليا لهم وقاتل المسلمين قتالا شديدا يوم المصاف في معركة عين جالوت، فلما مثل بين يدى السلطان قطز أمر بضرب عنقه .(١)

تقهقر المغول بعد تلك الهزيمة ،ولاذ من سلم منهم برؤوس الجبال(٢) وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى قرب بيسان ،حيث احتشد المغول " وصافوا مصافا ثانيا اعظم من الاول" فهاجمهم المسلمون واشتد القتال بين الطرفين ،فصرخ السلطان المظفر قطز صرخه عظيمه سمعه معظم العسكر وهو يقول " واسلاماه" ثلاث مرات " يا الله انصر عبدك قطز على التتار" فقويت عزائم المسلمين وحملوا على عدوهم حملة منكره فهزموه هزيمة ثانية ،فنزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الارض وقبلها وصلى ركعتين شكرا لله تعالي ،ثم ركب مرة ثانية وغنم المسلمون في هذه المعركة غنائم كثيرة .(٣) ويبدو ان هذه

=== ج٢،ص ٣٥ ، ٣٦ ؛ ابن حبيب ،درة الاسلاك ،ج١ ،ص٢٣ (مخطوط) ؛ اليافعي جامع التواريخ المصرية ،ص ١٥٥ ( ) ؛ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ،ج٢ ،ص ٢٦٨ ؛ الصفدى امراء دمشق في الاسلام ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ؛ ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ،ج١٥ ،ص ١٨٣ .

١) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ؛ ابن خلدون ،العبر ، ج٥ ،ص ٣٧٩ ؛ والصبيبه : اسم لقلعة بانياس وهي من الحصون المنيعه ،(انظر ابو الفدا ،تقيوم البلدان،ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،) Lestrange, palestine under the moslems p. 419 .

٢) ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٢٩٥ .

٣) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

الهزيمة ليست الاخيرة للمغول في هذه الحمله ،حيث يذكر المؤرخ ابن عبد الظاهر ان الامير ركن الدين بيبرس لم يشغله ماقاساه من التعب في معركة عين جالوت بل ساق خلف المغول حتى أفاميه فوجدهم قد تجمعوا بها ووحدوا صفوفهم للمرة الثالثة استعدادا لمواجهته ، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة وغنم منهم اموالا طائلة وخيولا كثيرة .(١)

ورغم الهزيمة القاسية التي مني بها المغول في هذه المعركة فان احد المؤرخين المسلمين وهو رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، لم ينكر ماكان للقائد المغولي كيتوبوقا من صفات بطولية في هذه المعركة . فذكر ان هذا القائد عندما لاحت له بوادر الهزيمة امام قطز ،اشار عليه جماعه من اتباعه بالهرب . فلم يستمع لهم ورد عليهم قائلا " لامفر من الموت هنا ، فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان ،وسيصل رجل واحد ،صغيرا أو كبيرا من افراد هذا الجيش الى حضرة الملك ويعرض عليه كلامي قائلا : ان كيتوبوقا لم يشأ ان يتراجع وقد كلله الحجل فضحى بحياته الغالية في سبيل واجبه . ينبغي الا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول ، وليتصور الملك ان نساء جنوده لم يحملن عاما واحدا ،وان جياد قطعانه لم تلد المهور . ، فليدم اقبال الملك ، مادامت نفسه الشريفه آمنه وسالمه ،فانها تكون عوضا لكل مفقود ، اذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والاتباع امر سهل يسير "(٢)

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض ،ص ٦٥ ،انظر ايضا ،عبدالعزيز الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ،ص ٢٥ ، ٢٦ ؛ وافاميه : مدينة حصينة من سواحل الشام وكوره من كور حمص (انظر ياقوت ،معجم البلدان).

٢) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ح١ ،ص ٣١٤ .

كما يذكر رشيد الدين نفسه رأيا مخالفا في كيفيه قتل القائد المغولي كيتوبوقا حيث يشير الى انه وقع في بداية الامر في الاسر ،ثم احضره قطز الى مجلسه مكبلا ،ودار بينهما حوار بدأه قطز مخاطبا كيتوبوقا بقوله " ايها الرجل الناكث العهد ها انت بعد ان سفكت كثيرا من الدماء البريئه ،وقضيت على الابطال والعظماء بالوعود الكاذبة ، وهدمت البيوتات العريقة بالاقوال الزائفة المزوره قد وقعت اخيرا في الشرك " وعندما سمع كيتوبوقا كلامه انتفض وهو مكبل اليدين كانه الفيل الهائج ، فأجاب قائلا " ايها الفخور المغتر لاتتباه كثيرا بيوم النصرهذا ،فانا اذا قتلت على يدك فاني أعلم ان ذلك من الله لا منك . فلا تخدع بهذه المصادفة العاجلة ، ولا بهذا الغرور العابر ،فانه حين يبلغ حضرة هولاكو خان نبأ وفاتي سوف يغلي بحر غضبه وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من آذربيجان حتى ديار مصر ، وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم الى هناك . ان لهولاكو خان ثلاثمائة الف فارس مثل كيتوبوقا ، فافرض انه نقص واحد منهم " فقال له قطز "لاتفخر الى هذا الحد بفرسان ثوران ، فانهم يزاولون اعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة " .

فرد عليه كيتوبوقا " اني كنت عبدا للملك ماحييت ولست مثلك ماكرا وغادرا .... بادر بالقضاء على باسرع مايمكن حتى لا أسمع تأنيبك " فأمر قطز بقتله ففصلوا رأسه عن جسده . ولما بلغ هولاكوخان نبأ نعي كيتوبوقا ،وعلم بحديثه في ذلك الموقف أسف آسفا شديدا على وفاته ،واشتعلت نيران غضبه وقال :- "أين اجد خادما آخر مثله يبدى مثل هذه النوايا الطيبه ، ومثل هذه العبودية ساعة هلاكه ...."(١)

---

١) انظر رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣١٥، ٣١٦ .

وبالرغم مما عرف به رشيد الدين من محاباه للمغول ، فانــــه لايمكن ان ننكر ماكان عليه كيتوبوقا من مكانة عند المغــــول ، يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره وكان بطلا شجاعا مقداما ، وخبيــرا بالحروب وافتتاح الحصون ، وكان هولاكو يثق به ولايخالفه فيما يشــير به ، وبموته استراح الاسلام منه ، حيث كان شر عصابة على الاســلام واهلــه .(١)

نتائــــج المعركـــــــه :

غدا السلطان المظفر قطز ،عقب معركة عين جالوت سيد الموقـــف في بلاد الشام ، ففي يوم الاحد السابع والعشرين من رمضان ســـنة ٦٥٨هـ/سبتمبر ١٢٦٠م تقدم الى طبريه ومنها كتب الى آهل دمشـــق يبشرهم بما حققه من نصر عظيم على المغول ، فسر من بها من المسلمين سرورا عظيما ، ووثبوا على نواب المغول فهربوا من دمشق وتبعهـــم اصحابهم ، وكانت مدة احتلالهم لها سبعة اشهر وعشرة آيـــام .(٢) وفي يوم الاربعاء اخر شهر رمضان من السنة نفسها وصل الملك المظفـــر قطز ومعه عساكره الى ظاهر دمشق وعسكر بهم حتى ثاني شهر شوال ثـــم دخل دمشق ونزل بالقلعة ، وبدخوله دمشق اعلنت سائر بلاد الشـــام من الفرات الى حد مصر خضوعها له. ماعدا امارة الكرك(٣) التي كانـــت حتى ذلك الوقت في يد الملك المغيث الايوبي ، واقيمت للملك المظفـــر

---

١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٩١ ؛ العريني ، المغول ،ص

٢) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٣٢ ؛ ابوشامه ، الذيل على الروضتين ،ص ٢٠٩ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ،ج٧ ،ص ٨٠ ؛ اليافعـــي ، جامع التواريخ المصرية ،ص ١٥٧ ؛ ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ،ج١٥ ، ص ١٨٣ .

٣) عن الكرك ، انظر مايلي،ص

في دمشق احتفالات عظيمة ، احتفاء بمقدمه ، ثم أخذ يرتب امور الشام وعين عليها النواب ، ووزع الاقطاعات على الامراء ،واستناب عليها الامير علم الدين سنجر وجعل معه الامير مجير الدين ابو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الازكشي الكردى . ووصلته رسالة من الملك الاشرف موسى صاحب حمص الذى كان نائبا لهولاكو ببلاد الشام يلتمس فيها منه الأمان فأمنه . واقام المظفر علاء الدين على بن بدر الدين لوءلوء صاحب سنجار نائبا على حلب ، واقر الملك المنصور على حماه وبارين ، وأعاد عليه المعره ، واخذ منه سلميه واعطاها للامير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع امير العرب ، ورتب الامير شمس الدين أقوش البرلي العزيزى اميرا على الساحل وغزه .(1) ثم أمر السلطان بأن يدفع النصارى جزيه قدرها مائه وخمسون الف درهم فجمعوها وتسلمها الامير فارس الدين اقطاى المستعرب ، اتابك العسكر وسلمها للسلطان .(2)

---

١) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٣٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٨١ ؛ ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ج٣ ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ؛ ابن خلدون العبر ، ج٥ ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٢٢٢ ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٦٦ ؛ ابوشامه ، الذيل ، ص ٢١ وبارين أو بعرين بلد بين حمص والساحل ؛ والمعره : هي معرة النعمان ، نسبه الى النعمان بن بشير الذى دفن بها وهي مدينة قديمة وكبيرة من اعمال حمص بين حلب وحماه (انظر ياقوت ، معجم البلدان) ، وعلم الدين هو: سنجر بن عبدالله التركي الشجاعي ، لقب بعلم الدين وتنقلت به الاحوال الى ان تولى وزارة الديار المصرية مرات ، وتولى نيابة دمشق عن الملك الاشرف خليل ، ثم عزل عنها وعاد الى الديار المصرية ، توفى مقتولا سنة ٦٩٣هـ (انظر ابن الفرات م٨ ، ص ١٨٨ ؛ ابن عبدالظاهر تشريف الايام والعصور ، ص ٢٧٤ .

٢) المقريزى ، المصدر نفسه ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٣٣ ؛ ابن تغرى بردى =====

وبعد ان اطمأن الملك المظفر قطز الى تطهير بلاد الشام من المغول ، عزم على العوده الى الاراضي المصرية لمشاركة اهلها احتفالاتهم بالنصر العظيم في عين جالوت ، حيث اخذت مدينة القاهرة زخرفها وزينت استعدادا لاستقباله ، فغادر دمشق يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شوال ٦٥٨هـ/اكتوبر ١٢٦٠م في طريقة الى مصر وفي تلك الاثناء بلغه تنكر الامير ركن الدين بيبرس ، لعدم حصوله على حلب التي كان المظفر

=== النجوم ،ج٧ ،ص ٠٤٣ ؛ فائد عاشور ،العلاقات السياسية ،ص ٥٥ ؛

واتابك : لقب يتكون من لفظين ،أتا بمعنى اب ،وبك بمعنى أمير وكانت نظرية السلاجقة في الحكم ترتكز على ان يتولى افراد من الاسرة السلجوقية حكم الاقاليم ، وارتبط بكل فرد من هؤلاء الامراء السلاجقة قائد تركي يحمل لقب اتابك . أى الامير الوالد ،الذى يعتبر مسؤولا عن تربية ابن الامير ،وتلقينه اصول الحكم والادارة ، وقد درج امراء السلاجقة على تزويج الاتابك من احدى مطلقاتهم ، أو قيام الاتابك نفسه بالزواج من والدة الامير الصغير بعد وفاة والده ، ويتزوج الامير بدوره من ابنه الاتابك ،وبالتالي اصبحت العلاقة بينهما شبه ابويه واضحى للاتابك الكثير من النفوذ والسلطان . واول من تلقب بهذا اللقب الوزير السلجوقي نظام الملك حين فوض اليه ملكشاه تدبير شئوون دولته . وفي العصر الزنكي اصبح لفظ اتابك يدل على الحاكم . أما في العصرين الايوبي والمملوكي ،فان مدلوله يعنى ايضا قائد العسكر . (انظر القلقشندى ،صبح الاعشى ،ج٤ ،ص ٣٦٥ ؛ حسن الباشا الالقاب الاسلامية ،ص ١٢٢ ،١٢٣ ؛ على محمد الغامدى ،بلاد الشام قبيل الغزو المغولي رسالة دكتوراه لم تطبع ،ص ٢٨ ،٢٩ ؛ حاشية (١) ؛ مسفر الغامدى ،الجاد ضد الصليبيين في الشرق ،ص ٤٥ ؛ كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ،ص ٢٤٢ ،٢٤٣ ؛

Dozy. Supple ment Dicionnaires . vol .1, p.8;
Gibb : The Damascus Chronicle. of The Crusades. pp. 24 - 25 .

قد وعده بها بعد طرد المغول منها. واوجس قطز خيفه منه ، واخذ كل منهما يضمر للاخر سوءا ، واتفق بيبرس مع جماعة من اصحابة على قتل المظفر غيلهوهو في طريقة الى مصر . ولما وصل المظفر الى القصير ، ولم يبق بينه وبين الصالحية الا مسافة بسيطة سمح لعساكره بالتقدم الى الصالحية ، وبقي هو في بعض خواصه بالقصير وخرج للصيد ، فتبعه بيبرس ومعه جماعه من اتباعه فقتلوه في السابع عشر من ذى القعده ٦٥٨هـ/٢٢ اكتوبر ١٢٦٠م.(١)

وبموت المظفر قطز اعتلى بيبرس عرش السلطنه المملوكية لمصر ، وتلقب بالملك الظاهر ، ولما بلغ المغول نبأ قتل قطز بتلك الصوره توقعوا حدوث انقسام داخل دولة المماليك . ووجدوا في ذلك فرصة سانحة لهم لمحاولة فرض سيطرتهم على بلاد الشام مرة اخرى. فتجمع المغول الذين كانوا بحران وغيرها من مدن اقليم الجزيره ، وانضم

---

(١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ، ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٨هـ ؛ المقريزى السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٣٥ ؛ ابو الفدا ،المختصر ،ج٣ ،ص ٢٠٧ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٢٢ ،٢٢٣ ؛ ابو شامه الذيل على الروضتين ،ص ٢١٠ ؛ ابن خلدون ،العبر ، ج٥ ،ص ٣٨٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٨٣ ،٨٤ ،ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ص ٦٨ ؛ أما اسباب مصرع السلطان قطز فيبدو ا انها اعمق بكثير من قصة رفضه اعطاء بيبرس نيابة حلب ، وان هذا السبب لايعدو كونه سببا مباشرا لمقتله عند الحدود المصرية ،اما الاسباب الرئيسية فهي قديمة ترجع الى ايام السلطان ايبك وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحية وقتله زعيمهم اقطاى . انظر المقريزى ،المصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٣٧ ؛ ابن اياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق٢ ،ص ٩٩ - ١٠٠ ؛ العبادى ،قيام دولة المماليك في مصر ،ص ١٧٣ ،١٧٤). والقصير: هي القرية التي تعرف اليوم باسم الجعافره احدى قرى مركز فاقوس بمديرية الشرقية (انظر ابن تغرى بردى،المصدر نفسه ،ص٨٣ حاشية المحقق)

اليهم من سلم من معركة عين جالوت ،وساروا حتى قاربوا البيرة التي كانوا قبل ذلك قد هدموا اسوارها وابراج قلعتها واضحت مدينة مكشوفه ، فادرك الملك السعيد بن بدر الدين لوءلوء الذى كان واليا على حلب خطورة الموقف فيها ، وارسل نجده من عنده لمساعدة اهل البيره في الدفاع عن مدينتهم . الا ان هذه القوة الاسلامية لم تستطع الصمود امام الجموع المغولية وتراجعت الى داخل المدينة حيث بعث قوادها الى الملك السعيد يخبرونه بتفاقم خطر المغول وانهم اتجهوا الى منبج . ويبدو ان المغول ارادوا عدم اضاعة الوقت في الهجوم على المدن الصغيرة ، وعقدوا العزم على مهاجمة مدينة حلب التي وصلوها في يوم الخميس السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٥٨هـ/نوفمبر ١٢٦٠م وبدأوا في مهاجمتها بقيادة الامير المغولي بايدر الذى استطاع اقتحام المدينة واخراج من بها من المسلمين الى قرية قرنبيا شرقي حلب ، وفيها حاول المسلمون توحيد صفوفهم مرة اخرى للوقوف في وجه المغول وايقاف زحفهم الا ان ذلك التجمع لم يجد نفعا امام كثافة الجموع المغولية . واضطر المسلمون بقيادة حسام الدين الجوكندار الذى خلف الملك السعيد على حلب(١) الى التراجع الى الخلف لاستدراج المغول الى

---

١) تذكر المصادر ان الملك السعيد بن بدر الدين لوءلوء صاحب الملك الذى كان السلطان المظفر قطز على حلب" فحصلت منه امور انكرت عليه" فاتفق اهل حلب على القبض عليه وتنحيته ، واقاموا عليهم الامير حسام الدين الجوكندار ؛ العزيزى ،(انظر ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٩٦ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٠٢ ، ومنبج مدينة كبيرة بين الفرات وحلب في فضاء من الارض (انظر ياقوت ،معجم البلدان).

مكان افضل لمنازلتهم ، فتراجع الى حماه التي فيها الملك المنصور صاحبها ، وفيها رأى -على مايبدو- توسيع الرقعة على المغول بالتراجع الى حمص متظاهرا بالضعف امامهم . بهدف اعطاء نفسه فرصة كافية لحشد اكبر عدد من الجيوش الاسلامية ، فوصله بحمص الملك المنصور صاحب حماه ، ومعه اخوه الملك الافضل علي ومعهما عساكر حماه ، كما انضم اليه في الوقت نفسه الملك الاشرف صاحب حمص . وفي حمص اعاد الجوكندار تنظيم جيوش الاسلام مرة اخرى وجهزها بالعدة والعتاد استعدادا لمنازلة المغول ، الذين وصلوا الى حمص في المحرم من سنة ٦٥٩هـ/ديسمبر ١٢٦٠م . حيث دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس عند قبر خالد بن الوليد -رضي الله عنه- بالقرب من الرستن ، ابلى فيها المسلمون بلاء حسنا رغم قلة عددهم وكثرة عدد المغول ، حتى كتب الله لهم النصر على عدوهم ، وفر بايدر من المعركة فيمن سلم من جنده وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وسارع الملك المنصور عقب ذلك الانتصار بالاتجاه الى حلب . الامر الذى اضطر فلول المغول الى الاتجاه الى سلميه حيث انضموا الى جموع مغولية كانت نازلة بها . وحاولوا عبثا مهاجمة حماه مرة ثانية واقاموا عليها يوما واحدا ،ثم رحلوا عنها الى أفاميه ، التي كان قد سبقهم اليها فرقة من جيش المسلمين اقامت بالقعلة ،وقامت بتنظيم الهجمات على المغول داخل المدينة حتى اضطر العدو الى ترك افاميه والاتجاه الى حلب التي ظلوا يحاصرونها مدة من الزمن ، حتى تمكن الملك الظاهر بيبرس من تثبيت نفسه على عرش الدولة المملوكية في مصر والشام ، حيث سارع بارسال جيش كبير أوكل اليه مهمة طرد المغول من بلاد الشام ، ولما سمع المغول بمقدم ذلك الجيش داخلهم الهلع والخوف فولوا الادبار هاربين باتجاه الشرق وطُهرت بلاد الشام مرة اخرى من نير الاحتلال المغولي .(١)

---

١) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٣ -٧ ؛ ابو شامه ، الذيل على الروضتين ،ص ٢١١ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ =======

وعليه يمكن القول ان ذلك الانتصار العظيم الذى حققه المماليك في عين جالوت ، وما اعقبه من طرد المغول نهائيا من بلاد الشام ، يعتبر بحق من الاحداث الحاسمة ليس في تاريخ مصر والشام فحسب ولا في تاريخ الامم الاسلامية بمفردها ، وانما في تاريخ العالم بأسره ، اذ ان ذلك الانتصار لم ينقذ العالم الاسلامي وحده ، بل انقذ العالم الاوروبي ، والمدنيه الاوربيه من شر لم يكن لاحد من ملوك اوربا وقتئذ قبل بدفعه .[1] فلو تم للمغول اكتساح الاراضي المصرية والنفاذ الى شمال افريقيا حيث الصحراء الكبرى التي هي الطريق التقليدى المعروف لدى الغزاة والفاتحين الذين قاموا بغزو اوربا من الجنوب في العصور المختلفه . لتمكنوا من سلوكه الى اوربا عبر جزيرة صقليه وجبل طارق .[2]

==== ص ٤٤٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٠٤ - ١٠٦ ؛ ابو الفدا ، المختصر ،ج٣ ،ص ٢١٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٢٢٣ ؛ ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٩٦ ، ٩٧ ؛ الذهبي ، دول الاسلام ،ص ١٦٤ ، ١٦٥ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ، ج٢ ،ص ٣٠٠ - ٣٠١ ؛ ابن العماد الحنبلي ،ج٥ ،ص ٢٩١ ؛ الذهبي ، العبر في خبر من غبر ،ج٥ ،ص ٢٥٢ ؛ بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة حوادث سنة ٦٥٨هـ ، ٦٥٩ (مخطوط) ، والرستن ،بليده بين حماه وحمص ، وسلميه : بليده صغيره من اعمال حماه (انظر ياقوت ، معجم البلدان).

١) العبادى ،قيام دولة المماليك الاولى ،ص ١٦٩ ،نقلا عن :
Camb med Hist . vol iv , pp , 628, 643 - 644 .
انظر ايضا ، العدوى ، العرب والتتار ،ص ١٢٦ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ،ج١ ،ص ٣١٧ .

٢) العبادى ، المرجع نفسه ،ص ١٦٩ ، الصياد ، المرجع نفسه ،ص ٢١٣ ، ٢١٤ ؛ العدوى ، المرجع نفسه ،ص ١٢٥ .

كما ان هذه المعركة تفوق في اهميتها المعارك الحربية الحاسمة في العصور الحديثه ،لانها لم تكن حربا بين شعوب راقية متحضره تحكمها القوانين والقواعد والاعراف ،بل كان احد طرفيها وهم المغول عباره عن شعب بدائي بربرى متوحش سفاك للدماء مخرب لكل معالم الحضارة ، ومن هذا المنطلق نستطيع ان نوءكد بأن موقعة عين جالوت قد تركت في تاريخ البشرية اثرا اشد وقعا واقوى تأثيرا مما تركته وقعتي المارن في الحرب العالمية الاولى ،والعلمين في الحرب العالمية الثانية .(١)

واذا ما قُصِرَ ذلك على العالم الاسلامي ،فان انتصار المماليك في هذه المعركة ، كان بمثابة السد المنيع الذى حال دون تقدم المغول الى الاراضي المصرية وبقية العالم الاسلامي ،وقضوا بذلك على خرافة الجيش المغولي الذى لايقهر . ورغم ان هذه الهزيمة لم تلحق بشخص هولاكو نفسه فان تلك الهزيمه الثقيلة التي مني بها جيشه وقتل فيها قائده العظيم كيتوبوقا ، تعد صدمة عنيفه هزت كيانه وهو بعيد عن مسرح الحوادث ، فتأثر لذلك ، وحاول ان يمحوا ذلك العار الذى لحق بجيوشه بارسال حملة جديدة الى الشام في محاولة يائسه للانتقام من المسلمين . غير ان الظروف في ذلك الوقت لم تمكنه من ذلك .(٢) اذ لم يستطع التقدم غربا لمساعدة جيوشه المهزومه في عين جالوت لانشغاله في حروبه مع منافسيه من أهل بيته وعلى رأسهم ابن عمه بركه خان زعيم القبيلة الذهبية . واكتفى هولاكو بان عمل على مراسلة الخان الاعظم في قراقوم أُخبره بما حل بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر.

---

١) العبادى ،قيام دولة المماليك الاولى ،ص ١٦٩ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ،ج١ ،ص ٢١٣ .

٢) الصياد ،المرجع نفسه ،ص ٣١٤ .

فما كان من الخان الاعظم الا أن أصدر مرسوما يقضي باعطاء هولاكو البلاد الواقعة بين نهر جيجون حتى بلاد الشام ، قاصدا بذلك – على مايبدو-رفع الروح المعنويه لهولاكو وتشجيعه على معاودة حرب المماليك . فبدأ هولاكو يستعد لحرب المسلمين لكن الموت عاجله في سنة ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٥م فتوفى دون تحقيق حلمه بضم مصر والشام الى ممتلكاته .(١)

وانقذ ذلك الانتصار الذى احرزه المماليك الاسلام والمسلمين من اشد ماتعرضوا له من اخطار ،فلو ان المغول توغلوا في الاراضي المصرية لما بقي في العالم الاسلامي من مشرقه الى مغربه دولة قوية تستطيع ايقاف الزحف المغولي ، خصوصا وان المغول لم يكونوا وحدهم يهددون ماتبقى من العالم الاسلامي ، بل حالفتهم بقية القوى المعادية للاسلام بعد ان وجدت في الزحف المغولي على ممتلكات المسلمين فرصة سانحه لتحقيق اطماعها . فلو انتصر القائد المغولي كيتوبوقا الذى اعتنق الديانة المسيحية لازداد عطف المغول على المسيحيين " ولاصبح للمسيحيين في اسيا السلطة لاول مرة منذ سيادة النحل الكبيرة في العصر السابق على الاسلام" على حد تعبير رنسيمان(٢).

يؤيد ذلك ان بلاد العراق وايران التي كانت اكبر معقل للاسلام في مواجهة الصليبيين ، اضحت بعد سقوط بغداد مركزا لبلاط مغولي شديد العطف على المسيحيين ، وصار البطريرك النسطورى بعد زوال الخلافة العباسية يشار اليه بالبنان في الدولة المغولية . كما اضحت بلاد الشام بعد سقوطها في ايدى المغول مقسمه بين المغول والمسيحيين الشرقيين والصليبيين ،فلو تم للمغول وحلفائهم النصر في هذه

---

١) انظر ،رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣٣٦ .

٢) رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ، ص ٥٣٧، ٥٣٨ . انظر ايضاً الصياد، المغول في التاريخ ج(١) ص ٢١٥

الوقعه ،ونفذوا الى الاراضي المصرية لواصلوا زحفهم الى ليبيا وبلاد النوبه ولاسترد الصليبيون بيت المقدس من المسلمين.[١]

وثمة اهمية اخرى كبيرة لانتصار المماليك في هذه المعركة ،فقد تم لهم القضاء نهائيا على المعارضه الايوبية لهم، واعادوا الوحدة بين مصر والشام بعد ان ادى ضعف ابناء البيت الايوبي وتنازعهم الى تمزيق رباط الوحدة التي اجهد كل من نور الدين محمود وصلاح الدين نفسه في بنائها قبل ذلك والتي كان لابد من استمرارها لمواجهة الاخطار التي احدقت بالمسلمين في الشرق الادنى ، ولكن تقاعس امراء البيت الايوبي عن صد المغول وحلفائهم ، بل تواطوء بعضهم مع المغول واشتراكهم معهم في عين جالوت ضد اخوانهم المسلمين ، كل ذلك افقد بني ايوب اى حق شرعي في الملك وجعلهم يبدون في نظر الناس في صورة قوة متداعيه غير جديرة بحكم المسلمين.[٢] في الوقت الذى أبدى فيه المماليك ثباتا وصلاحية للبقاء،[٣] وحصلوا على ماكان ينقصهم من مجد لابد منه لتثبيت اركان دولتهم ، فنسى الناس اصلهم غير الحر ، وتناسوا انهم اغتصبوا العرش من سادتهم الايوبيين . ولم يعد المسلمون يذكرون الا شيئاواحدا هو ان المماليك انقذوهم من المغول وان بقاءهم في الحكم بات ضرورة لا بد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الادنى .[٤]

---

١) العريني ،المغول ،ص ٢٦٢، ٢٦٣ ؛ الصياد ،المغول في التاريخ ،ج١ ، ص ٣١٤، ٣١٥ .

٢) سعيد عاشور ،العسر المماليكي ،ص ٣٦ ؛ الصياد ،المصدر نفسه ، ج١ ،ص ٣١٥، ٣١٦ .

٣) العبادى ،قيام دولة المماليك الاولى ،ص ٣١٦ .

٤) سعيد عاشور ،المرجع نفسه ،ص ٣٧ .

والواقع ان الامراء الايوبيين ادركوا – على مايبدو – تلك الحقيقة فانضووا تحت لواء المماليك – كماسبق ان ذكرنا – ولم يبق منهم سوى الملك الناصر يوسف الذى اعتقله هولاكو ، ثم احتفظ به عنده ، ووعده بتوليته حكم الشام ومصر بعد القضاء على دولة المماليك المسلمين في مصر • وهنا يتضح لنا جليا ان هولاكو لم يحتفظ بالملك الناصر حبا فيه ، وانما قصد بذلك استخدامه كورقة رابحة في تأليب بقية الامراء الايوبيين واتباعهم في بلاد الشام ضد المماليك في مصر ومساعدته في حربه ضدهم • يدلنا على ذلك اصدار هولاكو اوامره عقب هزيمة جيوشه في عين جالوت مباشرة بالقبض على الملك الناصر الذى كان قد سيره الى بلاد الشام ،واعادته اليه وقتله في ثامن عشر شوال من سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م • وقتل معه آخاه الملك الظاهر غازى ، والملك الصالح بن شيركوه وغيرهم ، ولم يسلم من القتل سوى الملك العزيز بن الناصر الذى شفعت فيه دوقوز خاتون زوجة هولاكو •(١)

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٣٤ • ويتضح لنا من رواية المقريزى هذه في كيفية قتل الملك الناصر • ان هولاكو بعثه الى بلاد الشام فيالوقت الذى كانت الجيوش المغوليه تستعد لمهاجمة المماليك في مصر • وانه قصد بارساله في ذلك الوقت الحاسم ، رفع الروح المعنويه للجيش المغولي الذى كان يعمل تحت قيادة القائد المغولي الشهير كيتوبوقا • لادراكه بان وصول الملك الناصر الى الشام وانضمامه الى صفوف المغول – خاصة اذا علمنا بان هولاكو قد كتب له فرمانا وقلده مملكتي مصر والشام ، واخلع عليه الخلع واعطاه خيولا كثيرة واموالا طائلة – سيعطي بقايا الامراء الايوبيين واتباعهم في بلاد الشام باعتباره اكبرهم• دفعة قوية لمساعدة المغول ضد المماليك طمعا في استعادة سلطتهم على الاراضي المصرية •

كما ان هذا الانتصار العظيم بعث روحا جديده في المسلمين لاسيما مسلمي فارس الذين ارتفعت روحهم المعنويه ،واخذوا يصمدون امام مناورات المسيحيين ، وينافسونهم في تبوء مركز الصداره في دولة المغول بايران • وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الاسلامي، حتى كللت مساعيهم بنجاح باهر ، اثمر اعتناق المغول في غرب آسيا للدين الاسلامي •[١] والذى يمكن اضافته هو ان المغول رغم كونهم شعب بدائي لايفقه للحضاره بشيء ، ادركوا ما كان عليه الدين المسيحي من تحريف والمسيحيين من تشتت واختلاف تمثل في ذلك الصراع المرير الذى تمخض عن ظهور هوة كبيرة بين اتباع الكنيستين الشرقية والغربية • والذى ظهرت آثاره واضحه للمغول بين المسيحيين الشرقيين اتباع الكنيسة الشرقية والصليبيين الغربيين اتباع الكنيسة الغربية داخل بلاد الشام نفسها • فعزفوا عن اعتناق الديانه المسيحية رغم تحالف المسيحيين الشرقيين معهم ومساعدتهم لهم ، وآثروا اعتناق الدين الاسلامي ، بعد ان ثبت لهم صلاحيته لكل زمان ومكان وشموله لكل نواحي الحياة من خلال معاشرتهم لاهله، ولبعده كل البعد عن تلك الخلافات الجوهرية التي ابتلى بها الدين المسيحي ، وذلك لكون الاسلام خاتم الاديان تكفل الله بحفظه الى ان يرث الارض ومن عليها •

ومن الناحية الحضارية ،جُنِّبتْ مصر ويلات الغزو المغولي المدمر، واحتفظت مصر بما لها من مكانه حضارية ومدنية • ولم تتعرض

---

١) رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٥٣٨ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ،ج١ ،ص ٣١٧، ٣١٨ •

لما تعرضت له بغداد ودمشق وغيرهما من مدن إيران والعراق والشام من الخراب والدمار الذى عطّل ماكانت تزخر به هذه المدن الإسلامية من الفنون والعلوم والأداب ، والمعالم الحضارية وبقيت القاهرة مكانا هادئا آمنا يهرع اليها العلماء والادباء والفنانون ،حتى اكتسبت عاصمة الدولة المملوكية مكانة ممتازة من الناحية الادبية والعليمة الى جانب مكانتها السياسية (١) التي برهنت عما اكتسبه المماليك المسلمون من هيبة ومقدره في شئون السياسة والحرب اتضحت في علاقاتهم الخارجية الدولية الواسعة الانتشار ، وفي اصلاحاتهم وادارتهم الداخلية الحازمة التي فرضت احترامهم على كافة الحكام المسلمين ، يدلنا على ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما رواه الخزرجي في كتابة العقود اللوءلوءية من ان المظفر شمس الدين(٢) سلطان دولة بني رسول في اليمن حج بجيش كبير في العام التالي لمعركة عين جالوت اى في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م • وفي ارض الحجاز طلعت اعلامه الشريفه ، واعلام سلطان مصر • فقال له احد الامراء " هلا أطلعت أعلامك يامولانا قبل اعلام المصريين؟" فرد عليه سلطان اليمن قائلا " اترانى أوءخر اعلام ملك كسر التتار بالامس ،وأقدم اعلامي لحضورى "(٣) •

---

١) انظر العريني ، المغول ، ص ٢٦٣ ؛ انظر ايضا ، محمد عبد المنعم ، خفاجي ، الحياة الادبية في مصر ، ص ١٢، ١٣ •

٢) المظفر شمس الدين ابو المحاسن يوسف بن السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول المتوفي سنة ٦٩٤ هـ (انظر يحيى بن الحسين ، غاية الاماني ، ج١ ، ص ٤٣٤، ٤٧٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٢٠١ حاشية •

٣) انظر الخزرجي ، العقود اللوءلوءية في تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٦٩ ؛ العبادى ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٦٨ •

على ان الاهمية الكبرى لهذه المعركة هي انها تعتبر بحق نصرا حسيا ومعنويا لدولة لازالت في دور التأسيس تتلمس مختلف الوسائل التي تدعم بها اركانها[١] ومن هذه الوسائل التي فطن بيبرس الى دعم سلطته بها "إحياء الخلافة العباسية التي ظلت غائبة" عن الوجود ثلاث سنين ، ولعل السبب المباشر الذى دفعه الى ذلك هو انه بالرغم مما حققه من نجاح في صد المغول في بلاد الشام ، واعادة الوحدة مرة اخرى بين الاراضي المصرية والبلاد الشامية ، فان إقدامه على قتل السلطان قطز عقب ذلك الانتصار ،أدى إلى استياء بعض الامراء من ذلك . وظهرت ضده ثورتان داخليتان في وقت واحد تقريبا وذلك في اواخر سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . احداهما بدمشق ، حيث قام بها الامير علم الدين سنجر الحلبي الذى كان قطز قد استنابه بها . ونادى بنفسه سلطانا على دمشق في ذى الحجة من سنة ٦٥٨هـ/ نوفمبر ١٢٦٠م . وتلقب بالملك المجاهد ، وتقلد شعار السلطنة وخُطِب له على المنابر ، وضربت السكة باسمه . واخذ في تحصين قلعة دمشق استعدادا لمواجهة بيبرس ، وحاول في الوقت نفسه استمالة الملك المنصور صاحب حماه ، والملك الاشرف موسى صاحب حمص ، الا انهما رفضا اجابته الى ذلك . ولما لم تُجْدِ محاولات بيبرس السلمية" في اقناعه بالعدول عن ثورته" . جرّد جيشا قويا للقضاء عليه قبل ان تستفحل ثورته . وتمكن ذلك الجيش من اخماد تلك الثورة وعاد الى القاهرة بنائب دمشق مقرنا في الاصفاد ، في ١٦ صفر ٦٥٩هـ/ يناير ١٢٦١م . وولى بيبرس استاذه علاء الدين البندقدارى نائبا على دمشق" .[٢] وبذا قضى بيبرس في سرعة وحزم على إحدى الحركات

---

١) العبادى ،قيام دولة المماليك الاولى ،ص ١٦٨ .

٢) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٩هـ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٣٨ ،٤٣٩ ؛ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ،ج٣ ،ص ٢١٠ ؛ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣٠٣ ====

الانفصالية التي هددت السلطة المملوكية بالتفكك ، مما برهن على سلامة دولة المماليك وصلاحيتها للبقاء .[1]

اما الثورة الثانية فقد ظهرت بالقاهرة وتزعمها رجل شيعي عرف بالكوراني[2] ، اظهر الزهد والورع ، وسكن قبة بقلعة الجبل [3] حيث تردد عليه جماعة من اتباعه ، واتفق معهم على تنظيم ثورة داخلية لاستبدال الحكم السني بحكم شيعي فشق الثوار شوارع القاهرة ليلا في اواخر سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وهم ينادون "يا آل علي" وقاموا بعمليات سلب ونهب حيث اقتحموا حوانيت بيع السلاح واصطبلات الخيول واخذوا منها السلاح والخيول ، لاستخدامها ضد قوات السلطان الظاهر بيبرس ، التي سارعت بدورها بمحاصرة الثوار ، والقاء القبض على زعمائهم حتى خمدت الثورة ، ثم أمر بيبرس بصلب الكوراني وغيره من زعماء هذه الثورة الشيعية على باب زويله .[4] وبهذا تمكن السلطان الظاهر بيبرس من اضافة وسيلة جديدة عززت مكانة دولة المماليك في مصر والشام ، اذ تمكن بذلك من القضاء التام على الحركات الشيعية التي ظلت تعمل على هدم نظام الحكم السني في مصر وغيرها منذ عهد صلاح الدين . بدليل خلو المراجع العربية من اخبار

=== ؛ ابو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص ٢١١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٢٠١ .

١) العبادى قيام دولة المماليك ، ص ١٧٣ ، ١٧٨ .

٢) نسبه الى كوران من قرى اسفرائين ، واسفرائين ، بلدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، العبادى ، ، المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ، حاشية رقم ٢) .

٣) قلعة الجبل: هي القلعة التي شيدها السلطان العظيم صلاح الدين الايوبي على طرف جبل المقطم في مصر ، وتعد من افخم القلاع الحربية التي شيدت في القرون الوسيطه (انظر عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وماحولها من الاثار ، ص ٣١ – ٣٣ .

٤) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٤٠ .

اية حركة مشابهه في مصر والشام طول العهد المملوكي الاول والثاني .(١)

ويمكن اعتبار هاتين الثورتين سببا مباشرا لقيام السلطان بيبرس بتنفيذ فكرة احياء الخلافة العباسية ، ونقل مقرها إلى الديار المصرية لتكسب بذلك دولة المماليك الفتيه وعاصمتها صفة شرعية تؤهلها لزعامة المسلمين في المشرق . حين تصبح القاهرة تضم بين جنباتها دار الخلافة العباسية والسلطنة معاً .

والذى يجدر ذكره هنا ، ان بيبرس لم يكن أول من فكر في مشروع إحياء الخلافة العباسية ، التي انتهت بسقوط بغداد في أيدى المغول إذ يذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء ، أن شخصا عباسيا اسمه أبو العباس أحمد ، كان قد إختفى عن أعين المغول وقت دخولهم بغداد ، ونجا منهم إلى بلاد الشام ، وأقام عند الأمير عيسى بن مهنا(٢) أمير العرب ، فلما سمع به الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، أرسل اليه يستدعيه " فبغته مجيء التتار"(٣) وعليه

---

١) العبادى ،قيام دولة المماليك ،ص ١٧٩ .

٢) هو الامير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حذيقه ، فوض اليه السلطان الظاهر بيبرس امرة العرب بعد وفاة ابن عمه على بن حذيفه بن مانع ، فخالف ابن عمه بالامتناع عن سفك الدماء الا بحكم الله ، فأصلح أمور العرب ،صلحت سيرتهم ،وقلّ فسادهم ، بل كاد يعدم في أيامه ، وكان رجلا دينا خيرا ،حسن السياسة لين الجانب انتفع الاسلام والمسلمون به في مواطن كثيرة ،ولم يزل على ذلك الى أنْ توفى وصُلِّى عليه صلاة الغائب بجامع دمشق في يوم الجمعة تاسع عشر ربيع الاول سنة ٦٨٣هـ/٢٦ مايو ١٢٨٤ م. (انظر ابن الفرات م٨ ، ص ١٢ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٢٦ ======

فانه لايستبعد أن الملك الناصر كان يقصد باستدعائه ذلك إحياء الخلافة العباسية ، ونقل مقرها إلى دمشق أو حلب وذلك قبل وصول المغول إلى بلاد الشام .

كما يذكر ايضا ان السلطان قطز حاول القيام بنفس العمل ،بعد انتصاره على المغول في معركة عين جالوت ، اذ يقال أنه عندما وصل الى دمشق استدعى أبا العباس أحمد المذكور ، وبايعه بالخلافه ، وقال للأمير عيسى بن مهنا " اذا رجعنا الى مصر انفذه الينا لنعيده ان شاء الله "[1] ولكن قطز قتل قبل تحقيق ذلك .

ومهما يكن من أمر فإن السلطان الظاهر بيبرس هو الذى نجح في تحقيق مشروع إحياء الخلافة العباسية وإبرازه الى حيز الوجود وزاد على ذلك بأن أقدم على نقل الخلافة العباسية الى مقرها الجديد بالقاهرة.[2] وذلك عندما سمع بوصول الأمير أبو القاسم

=== ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ،الملاحق ص ٢٩٠) .

٣) السيوطي ،تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٨ ، ٤٧٩ ؛ وابو العباس هذا: هو احمد بن ابى على الحسن بن ابي بكر بن الحسن بن على القبي - بضم القاف وتشديد الياء الموحده -ابن الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله . الذى ولي الخلافة بالقاهرة بعد وفاة الخليفه المستنصر بالله ، وتلقب بالحاكم بأمر الله .

١) العبادى ، قيام دولة المماليك ،ص ١٨١ ،نقلا عن مفضل بن ابي الفضائل ، النهج السديد ،ج١ ،ص ٤٣٥ .

٢) يبدو ان السلطان الظاهر بيبرس لم يكن أول من فكر في نقل الخلافة العباسية الى مصر . وإنما هو الذى نجح في تحقيق ذلك فقط يدلنا على ذلك ماذكر من أن أحمد بن طولون ======

أحمد ابن الخليفه الظاهر مع جماعة من العربان فارين من المغول الى دمشق اذ بعث الى نوابه بدمشق يطلب منهم القيام بخدمته وتعظيم حرمته، وتسييره إلى مصر، حيث خرج السلطان الظاهر بيبرس من قلعة الجبل يوم الخميس تاسع شهر رجب سنة ٦٥٩هـ/يونيو ١٢٦١م للقائه، ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا (١)، وقاضي

=== حاول في سنة ٢٦٩هـ/٨٨٢م، إجتذاب الخليفه المعتمد - الذى لم يكن له من الخلافه غير الإسم مع أخيه أحمد الموفق طلحه - إلى مصر. إلا أن الموفق قبض على المعتمد في الموصل، وأعاده الى بغداد. (لمزيد من التفاصيل انظر الطبرى، تاريخ الامم والملوك، ج٩، ص ٦٢٠؛ ابن الاثير، الكامل، ج٦، ص ٤٩؛ أحمد البلوى، سيرة ابن طولون، ص ٢٨١). وكذلك حاول محمد الاخشيد سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م إغاثة الخليفه المتقي من جور الحمدانيين بحلب، ومن استبداد الأمراء الأتراك ببغداد، فلقيه بالرقه في شمال الفرات، وطلب منه ان يصحبه الى مصر، ولكن الخليفه عزّ عليه اخر الأمر أن يترك عاصمته ومقر أسرته فرفض هذا العرض. وعاد الاخشيد الى مصر على حين عاد الخليفه الى بغداد (انظر المسعودى، مروج الذهب، ج٤، ص ٣٤١؛ ابن الأثير المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٤٨؛ إبن سعيد، العيون الدعج في حلى دولة بني طغج، ص ١٤٠، والذى لاشك فيه ان كلا من ابن طولون والاخشيد رأى ان في اجتذاب الخلافه العباسية الى مصر مايقوى دولتيها اللتان أسساهما في مصر. (العبادى، قيام دولة المماليك، ص ١٨٠، ١٨١).

١) على بن محمد بن سليم بن حنا (انظر، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص ٢٦٤.

القضاه تاج الدين بن بنت الأعز[1] ، وسائر الامراء ،ومقدموا العسكر ، وجمهور من أعيان القاهرة ، ومعظم الناس من الشهود والموءذنون ،وحتى اليهود بالتوراه والنصارى بالإنجيل. فسار به السلطان إلى باب النصر ، ودخل القاهرة وقد لبس الشعار العباسي وخرج الناس لروءيته ، وكان يوما من أعظم أيام القاهره ،شق فيه القصبه إلى باب زويله ، وصعد قلعة الجبل وهو راكب ونزل في مكان جليل هيئ له بها ، وبالغ السلطان الظاهر بيبرس في إكرامه واحترامه. وفي يوم الاثنين الثالث عشر من الشهر نفسه ،حضر قاضي القضاه ، ونواب الحكم وعلماء البلد وفقهاوءها ، وأكابر المشائخ ، وأعيان الصوفيه ، والامراء ، ومقدمو العسكر ، والتجار ووجوه الناس وحضر ايضا شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام فمثلوا كلهم بحضرة الأمير العباسي أحمد ، وجلس السلطان متأدبا معه " بغير كرسي ولا طراحة ولا مسند" وشهد جماعة من العربان والبغادده الذين

---

١) تاج الدين بن بنت الأعز هو : عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي ، المعروف بابن بنت الاعز ، والعلامي ،نسبه الى علامه وهي قبيلة من نحم ، أما الاعز فهو جده لامه الصاحب الاعز ،فخر الدين وزير الملك الكامل الايوبي ، ولقد درس تاج الدين بالاسكندرية الحساب فمهر فيه وولاه السلطان الكامل شاهدا لبيت المال وفي عهد الملك الصالح أيوب تولى نظر الدواوين ثم قضاء مصر سنة ٦٥٤هـ ، ثم ولي الوزارة سنة ٦٥٥هـ ، ثم عزله السلطان قطز في نفس السنة ، وظل بعيدا عن مناصب الدولة حتى أعاده بيبرس إلى منصب قاضي القضاة بالديار المصرية سنة ٦٥٩هـ وظل به حتى وفاته سنة ٦٦٥هـ (انظر السبكي ،طبقات الشافعية ، ج٥ ،ص ١٣٣ ،١٣٦ . ابن حجر العسقلاني : رفع الاصر عن قضاة مصر ،ص ١٧٦ - ١٧٨ ؛ السخاوى ،الذيل على رفع الاصر ،ص ٢٠١ ، العبادى ، قيام دولة المماليك ،ص ١٨٣ حاشيه .

قدموا معه بأن الأمير أحمد هو ابن الخليفه الظاهر بن الناصر ، وشهد بالإستفاضه عدد من القضاه ، فقبل قاضي القضاه تاج الدين بن بنت الاعز الشهاده ، وقام على قدميه وأعلن ثبوت نسب ابى القاسم احمد وانه ابن الخليفه الظاهر ،ثمتقدم وبايع ابا القاسم بالخلافه ، تقدم بعده السلطان الظاهر بيبرس (1) فبايعه على العمل بكتاب الله تعالي ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الأمربالمعروف ،والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها في مستحقها ، ثم بايعه بعد السلطان الشيخ العز بن عبدالسلام ، ثم الامراء وكبار رجال الدولة . فلما تمت البيعة قلّد الخليفه – الذى لقب بالمنتصر بالله – السلطان الظاهر بيبرس البلاد الاسلامية ، وما يضاف اليها وما سيفتحه الله على يديه من البلاد ،ثم قام الناس ، وبايعوا الخليفه المستنصر بالله على اختلاف طبقاتهم ، وكتب بيبرس في الوقت نفسه الى الملوك والنواب بسائر الممالك الاسلامية ، ان يأخذوا البيعه من قبلهم للخليفه المستنصر بالله أبى القاسم أحمد ، وأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعي للسلطان الظاهر بعده ، وأن تنقش السكه باسمها . فلما كان يوم الجمعة السابع عشر من رجب خطب الخليفه المستنصر في جامع القلعة ،واستفتح خطبته بقراءة صدر صورة الأنعام ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم وترضى عن الصحابه ، وذكر شرف بني العباس ، ودعا للملك الظاهر.

---

1) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٩هـ ، ورد في بعض المصادر أول من بايع الخليفه هو السلطان الظاهر نفسه (انظر ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ١٢٣ ؛ السيوطي ،تاريخ الخلفاء ص ٤٧٧ .

ولما قضى من الخطبه نزل وصلى بالناس الجمعه ، فاستحسن المسلمون منه ذلك واهتم السلطان بأمره (1) ورغم الإحتياطات التي قام بها الظاهر بيبرس ،للتأكد من صحة نسب الخليفه المستنصر بالله . فان بعض الناس قد ساوره الشك في صحة نسب الخليفه ، ويبدوا هذا التشكك واضحا في الطريقة التي أشار بها بعض المؤرخين إلى الخليفه الجديد ، وهي طريقة لاتخلو من الغمز الواضح ، مثال ذلك ، ماروواه المؤرخ أبو الفدا في حوادث سنة ٦٥٩هـ في هذا الشأن حيث قال " في هذه السنة قدم إلى مصر جماعةمن العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه إبن الإمام الظاهر بالله " ويكرر ابو الفدا اسلوبه في الاشارة الى الخليفه الجديد فيقول في

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة٦٥٩هـ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٤٨ – ٤٥٠ ؛ اليوبيني ،ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ،ص ١٢٣ – ١٢٤ ؛ إبن عبدالظاهر ،الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر ،ص ٩٩ – ١٠١ ؛ أبو شامه ،الذيل ،ص ٢١٣ ،٢١٥ ، إبن إياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣١٢ – ٣١٥ ؛ أبو الفدا، المختصر ،ج٣ ،ص ٢١٢ ،٢١٣ ؛ النويرى ،نهاية الأرب ،ج٢٨ ،٥٠ ،٦٠، (مخطوط) ؛ إبن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ج٧ ،ص ١٠٩ ،١١٠ ؛ الحنبلي ،الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ،ص ٨٦ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب السرية ،ص ٣٧ ،٣٨ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ، ص ١٦٥ ،١٦٦ ؛ إبن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٢٩٧ ؛ ألقلقشندى ،صبح الأعشى ،ج٣ ،ص ٢٧٤ ،٢٧٥ ؛ السيوطي ،تاريخ الخلفاء ،ص ٤٧٧ ،٤٧٨ ؛ إبن الوردى ،تتمه المختصر ،ج٢ ،ص ٣٠٤ ؛ إبن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٣٢١ ؛ اليافعي ،جامع التواريخ المصرية ،ص ١٤٦ (مخطوط)، الجبرتي ،عجائب الاثار ====

موضع اخر "وبرز الظاهر والخليفه الأسود"(١) . كما يسمى مفضل بن أبى الفضائل هذا الخليفه باسم " المستنصر بالله الأسود"(٢).

على أن الأهم من ذلك هو موقف السلطان بيبرس من الخليفه نفسه حيث تذكر المصادر ، بأن بيبرس شرع في تجهيز الخليفه لاسترداد بغداد وإرجاع الخلافه اليها ، ويقال أن مبلغ ماأنفقه بيبرس في هذا المشروع " الف الف دينار وستون الف دينارا عينا"(٣) وان الظاهر بيبرس خرج بنفسه مع الخليفه إلى دمشق التي وصلها في ذى القعده سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م . وفي دمشق وسوس له احد الأمراء وخوفه من منافسة الخليفه له . وهنا ترك بيبرس الخليفه واكتفى بان جهزه بثلاثمائة

=== ج١ ،ص ٥٥ ،٥٦ ؛ الذهبي ،العبر في خبر من غبر ،ج٥ ،ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ؛ إبن خلدون ،العبر،ج٥ ،ص ٣٨٢ ؛ إبن ابيك الدوادارى ، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ،ج٨،ص ٧٢،٧٣ ؛ إبن شداد ،تاريخ الظاهر بيبرس ،ج٢ ،ص ٢٣٤ ،٢٣٥ ؛ إبن دقمان ، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ،حوادث سنة ٦٥٩هـ .

١) أبو الفدا ،المختصر في اخبار البشر ،ج٣ ،ص ٢١٢ ،٢١٣ ؛ والملاحظ أن أبا الفدا ولد سنة ٦٣٢هـ اى بعد مجيء المستنصر الى القاهرة بثلاث عشر سنه ،ويكون بذلك قد سمع هذا الشك من المعاصرين له والمتقد مين عليه في السن (العبادى ،قيام دولة المماليك الاولى ص ١٨٤، ١٨٥ حاشيه رقم ٤) ،انظر ايضا ،سعيد عاشور ،الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص٢٢٨ ؛ كارل بروكلمان ،تاريخ الشعوب الاسلامية ،ص ٣٩٠ .

٢) العبادى ،المرجع نفسه ،ص ١٨٤ ،١٨٥ ؛ عاشور ،المرجع نفسه ،نقلا عن النهج السديد ،ص ١٠٥.

٣) انظر ،ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ١١٢.

فارس ، وسار الخليفه بهذا العدد القليل من العسكر إلى العراق وفي الطريق إنضم إليه أربعمائه من عرب العراق ، كما انضاف إليه ستون مملوكا من مماليك الموصل ، وثلاثون فارسا من عسكر حماه ، وتقدم الخليفه المستنصر بهذا الجيش وعلى الحدود العراقية التقى بمنافسه على الخلافه أبى العباس أحمد - الحاكم بامر الله [١] في سبعمائه فارس من التركمان ، واتفقا على العمل معا لاعاده الخلافه العباسية في بغداد ويعبر أبو شامه عن ذلك بقوله "فانصاع الحاكم للمستنصر بسبب أنه الأصغر وذاك الأكبر ، ووقع الاتفاق وزال الشقاق ولله الحمد" [٢] ثم سار الخليفه إلى عانه ومنها الى الحديثه ، وخرج يريد بلدة هيت ،فلما وصل اليها أغلق اهل المدينة أبوابها

---

١) ورد في بعض المصادر ان الظاهر بيبرس كان قد ارسل أول الأمر في طلب أبى العباس أحمد هذا وهو لايزال في العراق ،فقدم أبو العباس إلى دمشق حيث جهزه نائبها الى القاهرة ،غير أن أبا العباس هذا كان قليل الحظ ، إذ سبقه إلى حضرة بيبرس شخص آخر من ابناء البيت العباسي هو أبو القاسم أحمد (الخليفه المستنصر) ففضل أبو العباس الرجوع إلى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها الثائر على بيبرس شمس الدين آقوش البرلي - ألذى لم تستمر ثورته طويلا اذ تمكنت جيوش السلطان بيبرس من اخماد ثورته بحلب سنة ٦٦٠هـ - ولقبه الحاكم بامرالله . ثم أمده بسبعمائه فارس من التركمان ،فسار بهم الحاكم الى الحدود العراقية لمناوشة المغول مرة اخرى (الجبرتي ،عجائب الاثار ،ج١ ،ص٥٦ ؛ العبادى ،قيام دولة المماليك الاولى، ص ١٨٢ .

٢) ابو شامه ،الذيل على الروضتين ،ص ٢١٥ ؛ انظر ايضا ،المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٦٣ .

دونه ،فحاصرها حتى افتتحها آخر ذوالحجة سنة ٦٥٩هـ/ اكتوبر ١٢٦١م ، ثم رحل عنها وعسكر بالقرب من الأنبار ٠ وهناك التقت جيوش المغول بقيادة قرابغا وبهادر بجيوش الخليفه في ٢ محرم سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م ودارت بين الطرفين معركة كبيرة انتهت بانتصار المغول على العباسيين الذين قتل معظمهم ، ولم يفلت منهم سوى الأمير أبو العباس أحمدوبضعه من الامراء ٠ اما الخليفه أبو القاسم فيقال أنه قتل في المعركه ،ويقال أنه نجا مجروحا في طائفه من العرب ومات عندهم متأثراً بجراحه ٠ (١)

وبعد هذا الحدث بقى لنا أن نتساءل عن السبب الحقيقي الذى دفع الظاهر بيبرس إلى تسيير الخليفه إلى محاربة المغول ، وتعريضه الى ما آل اليه٠؟ وفي هذا يذكر أحد المؤرخين المحدثين بأن

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٥٩هـ ؛ المقريزى السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٦٠ ـ ٤٦٣ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٣ ،ص ٢١٣ ؛ أبو شامه ،الذيل على الروضتين ،ج٥ ،ص ٢١٥ ؛ إبن عبدالظاهر الروض الزاهر ،ص ٢١١ ،٢١٢ ؛ إبن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، ج٧ ،ص ٢٠١ ؛ السيوطي ،تاريخ الخلفاء ،ص ٤٧٨ ؛ إبن الوردى ، تتمة المختصر ، ج٢ ،ص ٣٠٥ ،٣٠٦ ؛ الجبرتي ،عجائب الأثار، ص ٥٦ ؛ العبادى ،قيام دولة المماليك الاولى ،ص ١٨٥ ـ ١٨٧ ؛إبن إياس ، بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣١٨ ٣١٩ ؛ إبن أيبك الدوادارى، الدرة الزكيه ،ج٨ ، ص ٨٣ ؛وعانه : بلدة مشهورة بين الرقه وهيت وهي من اعمال الجزيرة ؛ والحديثه : قلعه حصينه في وسط الفرات يحيط بها الماء ؛ وهيت ،بلده على الفرات من نواحي بغداد فوق الانبار ؛ والأنبار : مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ (انظر ياقوت : معجم البلدان)٠

السلطان الظاهر بيبرس بعد ان حقق غرضه وحصل على تقليد بالسلطنه من الخلافه العباسيه ،واضفى على نفسه وعلى ملكه صفة شرعية عاد واحس بأنه اوجد لنفسه شريكا في الملك ، ذلك ان النقود صارت تضرب باسم السلطان والخليفه معا ، كما صار يدعى للخلافه على منابر الجوامع يوم الجمعة قبل الدعاء للسلطان . ولم يغب عن بال الظاهر بيبرس انه اذا حدث صدام بينه وبين الخليفه ،فان الرأى العام في العالم الاسلامي سيقف الى جانب الخلافة بوصفها السلطة الشرعية الاولى في حكم المسلمين منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . لذا بدأ بيبرس يفكر وبسرعه في التخلص من الخليفه المستنصر ، بعد ان قضى وطره من الخلافه ، وحصل منها على ماكان يطمع فيه من تفويض بالسلطنه . ودلل على ذلك بان السلطان بيبرس لوكان جادا في استرداد بغداد من المغول واعادة الخلافه العباسية الى قاعدتها الاولى ،لمشى بنفسه صحبة الخليفه المستنصر الى العراق . ولأعد للأمر عدته لأنه خير من يعرف قوة المغول .(١)

والواقع لانستطيع أن نجرد السلطان بيبرس عن النية الخالصة في استرداد بغداد وإعادة الخلافة إليها ، ولكن يبدوا أن الظاهر بيبرس لما وصل دمشق أدرك بأن مواصلة السير الى العراق وتوسيع جبهة الصراع مع المغول في تلك المنطقة ،يُعَرض دولته للخطر ، خاصة اذا علمنا بان هناك عناصر داخل بلاد الشام لازالت تكن الحقد للظاهر بيبرس . حيث تزامن ذلك ـ على مايبدو ـ مع ثورة آقوش البرلي نائب حلب الذى نافس بيبرس حتى في إحياء الخلافه العباسية ، هذا بالإضافه إلى تخوف الظاهر بيبرس من تجدد خطر الصليبيين على الساحل .

---

١) سعيد عاشور ،الايوبيون والمماليك ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ؛ مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ،ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

على أن هذا الأمر يدعونا إلى التساؤل مرة أخرى ، لماذا أقدم السلطان الظاهر بيبرس على تسيير الخليفة لوحده رغم ضعف إمكاناته ؟ ألم يكن من الأجدر به إثنائه عن المسير إلى العراق وتجنيبه ذلك المصير السيء؟. وهنا يمكن القول أنه لايستبعد أن يكون نبأ تجهيز أقوش البرلى نائب حلب الثائر للخليفه المنافس أبو العباس أحمد - الحاكم بأمر الله- ومعه سبعمائه فارس من التركمان الى الحدود العراقية لمناوشة المغول ،هو السبب المباشر الذى دفع السلطان بيبرس إلى ذلك العمل . إذ يبدو أن بيبرس قد ساوره الشك في أن يؤدى مسير الحاكم بأمر الله إلى الحدود العراقية ومناوشته للمغول إلى التفاف المسلمين في تلك المناطق حوله ، وتحقيق نجاحا ولو بسيطا مما يعرض مشروع إحياء الظاهر بيبرس للخلافه العباسية الممثله في شخص الخليفه المستنصر إلى الاهتزاز الذى قد يؤدى الى الفشل . وتنعكس آثاره على دولته التي قد حصلت على تقليد بالسلطنه منه أضفى عليها صفة الشرعية الكاملة .

ومهما يكن من أمر ، فان ذلك العمل لايمكن إعتباره من جانب السلطان بيبرس تخلّص من الخليفة ، اذ أن مشروع إحياء الخلافه العباسية كان - على مايبدو- موضوع الساعة والشغل الشاغل لكل من أراد زعامة المشرق الاسلامي في ذلك الحين ،يدلنا على ذلك أن الظاهر بيبرس نفسه ما إن علم باستشهاد الخليفه المستنصر حتى سارع إلى استدعاء الأمير العباسي أبو العباس أحمد[1] إلى مصر ، واستقبله استقبالا حسنا ،وفعل معه ما فعله مع الخليفة المستنصر من قبل من حيث اثبات النسب ، حيث جلس بالإيوان الكبير بقلعة الجبل إلى جانب السلطان وذلك في ثامن المحرم سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م وقرئ نسبه على الناس

---

١) هو الحاكم بامر الله سالف الذكر ،التقى بالخليفه المستنصر على الحدود العراقية وانصاع لأوامره ،وقاتل معه المغول ،ولكنه نجا من القتل في الوقت الذى استشهد فيه الخليفه المستنصر - كما سبق ان رأينا (راجع ماسبق ص) .

بعدما ثبت لدى قاضي القضاه تاج الدين بن بنت الأعز، ولُقبَ بالحاكم بأمر الله . ولما ثبت ذلك تقدم السلطان بيبرس ومد يده وبايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أعداء الله ، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها ، والوفاء بالعهود ، وإقامة الحدود ، ومايجب على الائمه فعله في أمور الدين وحراسة المسلمين ، ولما تمت البيعه أقبل الخليفه على السلطان وقلّده أمور البلاد والعباد ، وفوض اليه سائر الامور ، ثم أخذ الناس في مبايعته على اختلاف طبقاتهم ، ونقشت السكه باسم السلطان واسمه ، وخطب لهما على منابر الشام ومصر ، وقدّم إسم الخليفه على اسم السلطان في الدعاء .(١)

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،حوادث سنة ٦٦١هـ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٧٧ ،٤٧٨ ؛ إبن عبد الظاهر ،الروض الزاهر ، ص ١٤٢ ؛ إبن إياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٢٠ ؛ اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٧٦ ،١٧٧ ( ) ؛ الذهبي ،العبر، ج٥ ،ص ٢٦٣ ؛ اليوينبي ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ١٨٦ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص ٢٣٧ ؛ ابن حبيب ،درة الاسلاك ،ج١ ، ص ٣١ ( ) ؛ الحنبلي ،شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٣٠٤ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ،ج٨ ،ص ٢١٥ ؛ابو شامه ،الذيل على الروضتين ، ص ٢٢١ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص ١٦٧ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب السرية ،ص ٥٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ؛ ابن شداد ،تاريخ الظاهر بيبرس ،ج٢ ،ص ٢٣٥ ؛ ابن أيبك الدواداری ، الدرة الزكيه ،ج٨ ،ص ٩٤ ،٩٥ .

وهكذا أُعيدت الخلافة العباسية مرة إخرى الى البلاد المصرية. ولاشك أن إبقاء الخليفة في هذه المرة في الاراضي المصرية وعدم تسييره إلى العراق ،يدلنا على الرغبة الاكيدة التي جالت في نفس الظاهر بيبرس ، والتي أُراد تحقيقها من وراء إحياء الخلافة العباسية . وهي رغبة سياسية اكثر منها دينية ، اذ أن بيبرس كان يريد زيادة ملكه واتساع سلطانه بمساعدة الخليفه له باعتباره الزعيم الديني ذلك أن "فكرة الزعامة الدينية تعمل في الرؤوس مالا تعمله اساليب السياسه أيا كان نوعها ، ومالا تناله أسنة السيوف مهما كانت أُراقت من دماء"(١)

وصفوة القول ، فإن الظاهر بيبرس قد حقق للإمم الاسلامية في الشرق الاسلامي ماكانت تصبوا إليه ، اذ كانت في ذلك الوقت لاتزال متعلقه بأهداب الخلافه ، ناظرة الى الخليفة نظرة إكبار وإجلال ، كما كان المسلمون في الوقت نفسه ينظرون إلى من يحقق فكرة اقامة الخليفة بنفس العين التي كانوا ينظرون بها إلى الخليفة نفسه.(٢) بالرغم من أن الخلافه العباسية التي عاشت في القاهرة طيلة حكم المماليك البحرية والبرجية إلى أن جاء السلاطين العثمانيون وقضوا على دولة المماليك ، لم يكن لها حول ولا طول ، ولا رأى في سياسة الامور ، وانما كان عملها مقصور على مباركة سلطة من حصل على السلطنه منهم.(٣) ولعل خير وصف لما كان عليه حال الخلافه العباسية بمصر هو قول أحدهم " وبمقتل المستعصم إنقرضت دولة بني العباس من العراق ،وانتقل بقيتهم الى مصر . ولم يكن لهم في مصر من الخلافه إلا الإسم ومن

---

١) انظر جمال الدين سرور ،دولة الظاهر بيبرس ،ص ٦١ .

٢) جمال الدين سرور ، المرجع نفسه ،ص ٦١ .

٣) احمد شلبي ،موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ،ج٥ ، ص ١٩٦ .

الملك إلا الرسم . بل كان الموجود منهم مع سلطان مصر كالصفر المثبت في أحد مراتب الأعداد"(١)

وبقي لنا ان نتحدث عن تأثير انتصار المسلمين في واقعة عين حالوت على بقايا الصليبيين في ساحل الشام ، ودوره في انهيار وجودهم في تلك المناطق . والذى لاشك فيه أن الصليبيين ،أصيبوا بخيبة أمل كبيرة ، وباتوا موءمنين بأن يومهم آت لامحاله ،فسارع زعماوءهم بالتقرب الى السلطان الظاهر بيبرس ، الذى قام بدوره بالاجتماع برسل عكا في دمشق واستعرض معهم تاريخ موءامراتهم ومكائدهم واعتداءاتهم المتكرره ونقضهم للعهود ، والتآمر مع الغزاه ضد المسلمين ،ثم وبخهم وأهانهم وحقر من شأنهم بقوله " ولايفزع من أخبار التتار الا مثلكم ،وان هذه عساكرى اولها في الفرات واخرها في عيذاب " كما تحدث ايضا بنفس الاسلوب مع رسل بقية الامارات والفرق الصليبية ،قائلا "ماتقولون ،قالوا نتمسك بالهدنه التي بيننا وبينك ولانفسخها" كما أبرم الظاهر بيبرس ،سلسلة من المعاهدات والاتفاقات الودية مع الملوك المسلمين وغير المسلمين ، مثل الامبراطور البيزنطي مخيائيل باليولوجس ،وبركه خان زعيم مغول القبجاق ،وسلاطين سلاجقة الروم باسيا الصغرى .(٢) كما أسفر في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م أي بعد

---

١) يحيى بن الحسين ،غاية الاماني ،ج١ ،ص٤٤٧ ؛ أما القلقشندى فقد وصف ذلك بقوله " والذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الامور العامه إلى السلطان ، ويكتب له عنه عهد بالسطلنة ،ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا في مصلى السلطان خاصه في جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة ، ويستبد السلطان بما عدا ذلك من الولاية والعزل ،وإقطاع الإقطاعات حتى للخليفه نفسه ويستأثر بالكتابه في جميع ذلك" (انظر صبح الاعشى ،ج٣ ،٢٧٥) .

٢) ابن واصل ،مفرج الكروب ،ج٦ ،ص٤٠٩ ، ٤١٠ ،انظر ايضا ،نظير ===

انتصاره في عين جالوت ، المؤرخ جمال الدين إبن واصل قاضي القضاه بحماه آنذاك الى "مانفرد هو هنشاوفن" ملك صقلية ومملكة بيت المقدس الرمزية ، وصاحب الامبراطورية الرومانيه الغربية ، بعد وفاة ابيه الامبراطور فردريك الثاني سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وكانت مهمة ابن واصل أن يوطد العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس ومانفرد وفي هذا المعنى يقول إبن واصل " فلما وصلت إلى الامبراطور مانفريد المذكور أكرمني ، واجتمعت به مرارا ، ووجدته متميزا ومحبا للعلوم العقليه ، يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس"(١) ومكث ابن واصل طويلا في بلاد منفريد ، ووجد اكبر اصحاب الامبراطور فيه مسلمين ، ويعلن بالأذان والإقامة في معسكره ، وتوطدت صلة ابن واصل بالامبراطور إلى حد الإعجاب فصنف له كتابا في المنطق.(٢)

والمهم في الأمر أن السطان الظاهر بيبرس تمكن بفضل تلك المعاهدات والاتفاقات السياسية والودية فرض عزلة على الصليبيين في بلاد الشام وحرمانهم من اى معونة خارجية يمكن ان تصلهم من الشرق أو الغرب.(٣)

وختاما يمكن القول أنه بفضل انتصار المماليك في معركة عين جالوت أصبحت سلطنة المماليك المسلمين في بلاد الشام ومصر أقوى دولة في الشرق الادنى لمدة تزيد على قرنين من الزمان . اذ أن هذا الانتصار بدد أحلام المغول في السيطرة على بلاد الشام ومصر، وعجل بزوال ماتبقى من الإمارات الصليبية في المشرق - كماسنرى - .

= سعداوى ، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، ص ١٣٥ - ١٣٧ ؛ وعيذاب بالفتح ثم السكون وذال معجمة ، بليدة على ضفة البحر الاحمر (القلزم) مرسى المراكب التي تقدم من عدن الى الصعيد. (انظر ياقوت ، معجم البلدان).

١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٦ ، ص ٢٥٢ .

٢) نظير سعداوى ، المرجع نفسه ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

٣) سعيد عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك ، ص ٦١ ؛ سعداوى ، المرجع نفسه .

الفصل الثالث

جهاد السلطان بيبرس ضد المغول والصليبيين

الفصل الثالث

جهاد السلطان بيبرس ضد الصليبيين والمغول

- محاولات عقد حلف صليبي مغولي.
- استيلاء بيبرس على أنطاكيه سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م.
- جهاد بيبرس في أرمينيه الصغرى.
- انتصارات بيبرس على أبغا بن هولاكو في أعالي الشام والأناضول (معركة إبلستين ونتائجها)

محاولات عقد حلف صليبي مغولـــي

سبق الاشارة الى أن الصليبيين التزموا الحياد إزاء الصـــراع الاسلامي المغولي ، طمعا في إنهاك كلا الطائفتين . إلا أن هزيمـــة المغول في معركة عين جالوت جاء بنتائج عكسية لدى الصليبيين فـــي بلاد الشام خاصة ، والغرب المسيحي عامة ، إذ أدركوا أن نهايـــة سيطرتهم على ساحل بلاد الشام آتيه لامحاله . فعاودهم الأمل فـــي الاتصال بالمغول رغم سوء موقفهم بعد هزيمتهم في عين جالـــوت وطردهم من بلاد الشام نهائيا وطلب التحالف معهم ضد المسلمين ،طمعا - على مايبدوا- في أحد أمرين ، إماتشجيع المغول على الاســـتمرار في نزاعهم ضد المسلمين لإ شغال المسلمين عنهم ، وإما الحصـــول على معونه منهم في حالة تعرض الصليبيين على ساحل بلاد الشـــام للهجمات الاسلامية التي بات شنها مؤكدا ضدهم .

والواقع أن العلاقة بين المغول والغرب المسيحي قد بـــدأت جذورها منذ بداية القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميـــلادى. وذلك عندما اجتاح المغول آوربا الشرقية حتى دقت جيوشهم أبـــواب المانيا . إذ أدرك الغرب المسيحي خطر هذا الجنس الغريـــب، فكان من نتيجة ذلك مادبره البابا جريجورى التاسع (٦٢٤- ٦٣٩هـــ) (١٢٢٧ - ١٢٤١م) من محاولة تكتيل الغرب الأوروبي في حملة صليبيـــة لا ضد المسلمين في هذه المرة وإنما ضد المغول . إلا أن صراعـــه مع الامبراطور الألماني فردريك حال دون تنفيذ ذلك العمل الانتقامي ألذى كانت البابويه تزمعه ضد المغول . كماتبين لجريجورى أنـــه لاجدوى عملية تُنْتَظر من الإنجليز الذين اكتفوا بالعطف على حركتـــه تلك دون أن يتجاوزوا هذا الحد . لذلك أخذت هذه الحركة بعـــد أن فشل البابا في حسمها بالقوة ، إتجاها جديدا قائما على محاولـــة

التقريب بين المغول والغرب المسيحي ، وقد ساعد على هذا الاتجاه الجديد عاملان ، أولهما ماكان من عدم معارضة المغول لحركة التبشير بين رعاياهم وحرص المسيحيين على ذلك . وثانيهما الرغبة الأكيدة في تكوين تآلف حربي بين المغول والمسيحيين لمواجهة المسلمين عدوهم المشترك .(١)

وكان من أكبر المحبذين لفكرة التحالف مع المغول البابا أنوسنت الرابع (٦٤١ -٦٥٢هـ) (١٢٤٣ - ١٢٥٤م) معاصر لويس التاسع ملك فرنسا زعيم الحملة الصليبية السابعة التي كانت في طريقها إلى المشرق الإسلامي . فقد أرسل البابا أنوسنت سفارتين من قبلة قبل سنوات قلائل من حملة لويس التاسع على مصر إلى كيوك خان المغول في قراقورم ، وذلك في سنة ٦٤٣هـ - ١٢٤٥م ، كانت الاولى برئاسة الأخ ، الفرنسيسكاني (Pandil carpire) ألتي وصلت إلى بلاد كيوك بعد خمسة عشر شهراً وذلك في ربيع الاول ٦٤٤هـ أغسطس من سنة ١٢٤٦م . وبالغ خان المغول في إكرام رسل البابا. ويبدو أنه أبدى تجاوبا مع الرسل ، إلا أنه اشترط أن يعترف أمراء الغرب المسيحي بسلطانه عليهم. ثم عادت هذه السفاره إلى أوربا حاملة معها رد المغول كما صحبت معها رسولين مغوليين إلى البابا في روما . وتلقاهما أنوسنت الرابع في مستهل عام ٦٤٨هـ/١٢٥١م . ولم يحمل هذا الاتجاه المغولي البابا على اليأس من الاستعانه بالمغول بعقد حلف معهم ضد المسلمين ، فانفذ سفاره ثانية رئاسة الاخ الدومنيكاني اسلين (Ascelin) اللمباردى الذى التقى في تبريز بالقائد المغولي بيتشو (Baichu) الذى أبدى استعدادا مغوليا للتحالف مع الغرب المسيحي ضد المسلمين ،وأعاد

---

١) جوانڤيل ، القديس لويس ، مقدمه المترجم ، ص ١٧.

الرسول ومعه اثنين من بلاطه ليؤكدا للبابا حسن نوايا المغول فيما يطمع فيه .(١)

والذى يجدر ذكره هنا أن هذه الاتصالات بين المغول والغرب المسيحي جرت أثناء مسير لويس التاسع ملك فرنسا على رأس حملته إلى المشرق الإسلامي . وهنا يبدو أن المغول قد فطنوا آنذاك إلى أنه من الأفضل لهم الاتصال بلويس الذى أصبح يمثل الجانب العملي في الصراع مع المسلمين . فأوفدوا إليه في قبرص وهو في طريقة إلى مصر رسولين مغوليين يعرضان عليه رغبة الخان الاعظم في محالفته واستعداده لمساعدته على تحقيق هدفه الأسمى استخلاص بيت المقدس من المسلمين .(٢)

---

١) جوانڤيل ، القديس لويس ،مقدمة المترجم ،ص ١٧ - ١٨ ،وتبريز من أشهر مدن أذربيجان (انظر ياقوت ،معجم البلدان).

٢) جوانڤيل ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ؛ وفي هذا الشأن تساءل الدكتور حسن حبشي عمّا إذا ذلك العرض المغولي كان لمصلحة شخصية أم لا ؟ فذكر أن المغول كانوا في هذه اللحظه يتأهبون لمحاربة الخلافة العباسية في بغداد ، أى أنهم يهيئون سبيلهم لتكوين تحالف مع الصليبيين .أمّا لويس التاسع فقد نظر إلى المسأله من ناحية أخرى دخل فيها عامل نشأته الأولى ، ونعني بذلك تربيته الدينية وطمعه في أن يحقق للمسيحيين نصرا تطمئن له روحه ، وذلك بحمله التتار على التنصر ،وإذ ذاك يكونون حربا على المسملين في الشرق ، ولعلّه فاته أن التتار من جانبهم كانوا يريدون تكوين قوة إرتكاز لهم في هذه المنطقة الحيوية ، كما فاته أيضا أن عطفهم على المسيحيين كان يماثله عطفهم على بقية الأديان والمذاهب الأخرى التي تعيش في رحابهم: خطة حكيمة ابتدعوها لانفسهم ،وكانوا بناة دولة (انظر جوانڤيل مقدمة المترجم ص ١٨ ، ١٩) .

وفي مقابل ذلك بالغ الملك لويس في إكرام وفادة رسل المغول وأنفذ بالتالي سفارة من لدنه إلى خان المغول عادت بعد عامين ، وأرسلمعهم هدية ثمينة إلى الخان المغولي ذكر جوانڤيل أنها عبارة عن خيمة على هيئة كنيسة ، وقال بأنها خيمة غاليه لأنها مصنوعة باكملها من القماش القرمزى الجميل الرائع ، أراد الملك (لويس) أن يرى ما إذا كان في قدرته اجتذاب أولئك التتار للإيمان بديننا (يقصد الدين المسيحي) فأمر بنقش الخيمة بصورة تمثل بشارة سيدتنا العذراء بالمسيح ، وجميع أسس عقيدتنا ، وأرسل الملك هذه الانباء جميعها بصحبة أخوين من الجماعه المبشرين يعرفان لغة التتار ويستطيعان هداية المغول وتعليمهم السبيل إلى الايمان .(١)

على أنه ليس من المعروف على وجه الدقة أبلغت هذه السفارة بلاط كيوك خان أم أنها اكتفت بالوصول إلى معسكر جغطاى خاله ، فذلك مالم ينص عليه جوانڤيل في مذكراته - حسب قول الدكتور حبشي - والذى رجح في الوقت نفسه أن رسل الملك لويس واصلوا رحلتهم حتى بلغوا بلاط الخان الأعظم الذى كان قد مات فتلقاهم أخيرا الخان الجديد منكو ألذى لم يمنعه ترحيبه بالسفاره من إعتبار هديتها دليلا كافيا على تبعية لويس التاسع له . وحذرهم في الوقت نفسه بأن عدم مبادرتهم إلى هذه الطاعة سيدفعه إلى محاربتهم . فلما عادت السفارة الصليبية من البلاط المغولي وأفضت بكل ماجرى من خان المغول لام لويس نفسه على إيفاد تلك البعثة .(٢)

---

١) انظر جوانڤيل ، القديس لويس ، ص ٨٥ ؛ انظر ايضا حسن حبشي ، الشرق العربي بين شقي رحى ، ص ٣٦ ، ٣٧ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ١٠٤٨ .

٢) جوانڤيل ، المرجع نفسه ، المقدمه ، ص ١٩ ، ٢٠ .

على أن نهاية تلك السفاره المذلة للويس التاسع لم تصرفه عن معاودة الإتصال بالمغول مرة أخرى ،لاسيما بعد أن وردت إليه بعض الشا ئعات تقول أن سارتاك أحد خانات المغول اعتنق المسيحية . ورغم أن هذه الشائعات لم يكن لها نصيب من الصحة ، فإن الملك لويس أنفذ وفادة ثانية على رأسها وليم روبروك - أحد الرهبان الفرنسيين الذى غادر قيساريه علم ٦٥٠هـ/١٢٥٢م حاملا معه رسالة خاصه من لويس يرجوا فيها الإذن للمبشرين الكاثوليك بالدعوة للمسيحية في بلاد المغول .(١)

والملاحظ في هذه الوفاده الأخيره ، أن لويس لم يشر إلى مشروع التحالف مع المغول ، واكتفى بالحرص على نشر المسيحية بين صفوف المغول وأن يكون في هذه الوهله ، بقرار من الخان الأعظم نفسه يأذن فيه للمبشرين الكاثوليك بنشر المسيحية في البلاد التي يسيطر عليها المغول ، وبناء عليه يبدو أن الملك لويس قطع كل أمل له في الاستعانه بالمغول في صراعه مع المسلمين في الشرق . فالمصادر المعاصره ألتي بين أيدينا لم تشر إلى شيء من هذا القبيل . والواقع أن كلا من لويس التاسع والمغول لم يكن في مقدورهم - فيما لونجحت مساعيهم بعقد حلف مغولي صليبي- إبراز هذا التعاون بينهما إلى حيّزه العملي . ذلك أن مجيء لويس إلى المشرق صادف الوقت ألذى كان المغول قد وصلوا إلى الأراضي الإيرانية . ولا يزال أمامهم الخلافه العباسية في بغداد والامراء الايوبيين في شمال العراق وبلاد الشام . وزاد من ذلك أيضا أن لويس اتجه بقواته إلى الأراضي المصرية

---

(١) جوانفيل ، القديس لويس ، المقدمه ، ص ١٩ ، ٢٠ .

مباشرة لمواجهة فرع البيت الايوبي هناك • وهذا معناه إتساع هوة المسافه بين المغول ولويس التاسع •

ومهما يكن من أمر فإن الملك لويس التاسع لم يتمكن من التوصل إلى أي عمل مقنع للتعاون مع المغول طيلة مقامه في الشرق• أما بالنسبه للصليبيين الغربيين في بلاد الشام بعده ، فإنهم – كما سبق الاشاره اليه – بالرغم من إنضمام إخوانهم المسيحيين الشرقيين من أرمن ونساطره ويعاقبه إلى صفوف المغول ومحاولة هيثوم ملك أرمينيه الصغرى الاتصال بأمراء الصليبيين بالشام داعيا إياهم للمشاركه في مشروعه الكبير ، ولكنه لم يجد إستجابه سوى بوهيمند السادس صاحب أنطاكيه•[1] قد التزموا مبدأ الحياد تجاه الصراع الاسلامي المغولي ، بل أنهم مالوا بعض الشيء إلى الجانب الاسلامي عندما عرضوا على السلطان قطز المساعدة ضد المغول عند إستعداده لمعركة عين جالوت • وذلك لخوفهم من مستقبل مجهول أمام الغزو المغولي المدمر ألذى اتسم بالخيانه والغدر وعدم إحترام العهود والمواثيق • دل على ذلك ماقام به المغول في رمضان من سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م من الإغارة على مدينة صيدا ونهبها وأسر عدد كبير من سكانها •[2]

كان ذلك كله قبل أن تحل الهزيمه بالمغول في موقعة عين جالوت التي يبدو أن هزيمتهم فيها غيرت نوايا الصليبيين تجاه المسلمين

---

١) سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ومملكة أرمينيه الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ،ص ٢٤٤ •

٢) أبو شامه ، الذيل على الروضتين ،ص ٢٠٧ •

رأسا على عقب وباتوا في خوف شديد من تحول جهاد المسلمين ضدهم . ومن الواضح أن الصليبيين في بلاد الشام منذ بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى . كانوا قد بلغوا درجة كبيرة من الجمود ، بعد أن ذبلت الحماسة الصليبية في الغرب الاوربي ، وترتب عليه أن تضاءلت الامدادات البشرية والمادية التي تصلهم من وطنهم الأم في الغرب الأوربي. وهي الامدادات التي كانت تستثير حماستهم بين حين واخر ، وتجدد نشاطهم ، وتحيي فيهم الروح الصليبية بكل معانيها .[١] وهنا بدأ الصليبيون -الذين كان عليهم ان يواجهوا المسلمين لوحدهم في ذلك الوقت - البحث عن حليف لهم يخفف عنهم وطأة الخطر الإسلامي ألذى بات يهدد وجودهم على ساحل بلاد الشام بالزوال . فأخذوا يخطبون ود المغول ، ويتوسلون إليهم طمعا في إحياء مشروع التحالف معهم . وفي هذا الشأن يذكر اليونيني صاحب ذيل مرآة الزمان ،أن السلطان الظاهر بيبرس عندما جرد جيوشه سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م لترحيل التتار عن حلب . سارع الصليبيون عند وصول الجيوش إلى غزه إلى مكاتبة المغول يخبرونهم بذلك.[٢] كما حدث أيضا في سنة ٦٦٣هـ/١١٦٥م أن كتب الصليبيون إلى المغول يخبرونهم بأن الوقت ربيع وخيول الإسلام مربوطة ،والعساكر متفرقة في الاقطاعات ، وحرضوهم على انتهاز تلك الفرصة ومهاجمة البلاد الإسلامية ،فاستجابوا لذلك وهاجموا البيره .[٣]

ومحاولة التقارب هذه التي أوردناها على سبيل المثال لا الحصر تؤكد ماسبق أن ذكرناه من أن الصليبيين قصدوا بذلك - على مايبدو-

---

١) سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ومملكة أرمينيه ألصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ،ص ٢٤٤ .

٢) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٩٣ ; أنظر إبن أيبك الدوادارى الدرة الزكيه ،ج٨ ،ص ٧١ .

٣) شافع بن على ،حسن المناقب السريه ،ص ٨٧ ،٨٨.

أحد أمرين : إما جر المغول إلى الاستمرار في ميدان الصراع لتخفيف الوطأة على أنفسهم ، أو محاولة إحياء مشروع التحالف الصليبي المغولي ألذى بات ضرورة قصوى تقتضيها الأوضاع السيئه التي آل اليها الصليبيون والمغول على السواء ، عشية ذلك ألنصر ألعظيم ألذى حققه المماليك المسلمون بكسر المغول وطردهم من بلاد الشام. ومن ثم تضييق الخناق على الصليبيين في ساحل بلاد الشام . بعد أن أصبحت دولة المماليك تضم الاراضي المصرية وبلاد الشام .

والواقع أنه بالرغم من حرص الصليبيين على إحياء فكرة مشروع التحالف مع المغول إلا أنهم كانوا - على مايبدو - يدركون بأن وضع المغول السيء بعد معركة عين جالوت ، وألذى حدا بهم إلى التقهقر أمام المسلمين وعبور نهر الفرات باتجاه الشرق ،لم يكن ليفيدهم بشيء ، خاصة بعد أن أحكمت القوات المملوكية قبضتها على الأجزاء الشرقية من بلاد الشام. يدلنا على ذلك أن الصليبيين الذين كانوا قد حرضوا المغول على مهاجمة الدولة المملوكية من الشرق ، وأستجاب المغول لتحريضهم بالاعتداء على بلدة البيره. سارعوا عندما علموا بانسحاب المغول عنها بمجرد سماعهم بمسير العساكر الإسلامية اليهم . إلى إرسال وسيط من قبلهم إلى السلطان بيبرس لطلب الصلح معه . إذ وصله وهو في طريقه الى بلاد الشام قسطلان يافا ، وسأله في أن يكون واسطه في الصلح بينه وبين ملوك الفرنج(١) ، فأجابه السلطان بيبرس بقوله "إذا كان هذا من عندك أنا ما أقبله ، وإن كان من عند ملوك الفرنج فعرفني" فرد عليه

---

١) يبدو أن الصليبيين قد نما إليهم أن السلطان الظاهر بيبرس قد بلغه نبأ مكاتبتهم للمغول فخافوا عاقبة تصرفهم هذا . وحاولوا بهذه الوساطة إمتصاص غضبه عليهم وتهدئة الأمور .

"بل بسؤال ملوك الفرنج" فقال له السلطان "هؤلاء لهم عندى ذنوب كثيرة منها كتابتهم إلى التتار بقصد بلادى .... ولي ولهم حديث" (١)

ومهما يكن من أمر فان الظاهر بيبرس رأى أنه لابد من مواجهة ذلك التقارب بين المغول والصليبيين ، الذى قد يؤدى نجاحه وقيام حلف بينهما إلى تورطه في القتال على جهتين متباعدتين ، لذا عقد العزم على مواجهة ذلك الخطر بعقد تحالف مع قوى خارجية تساعده على الوقوف في وجه المغول في المشرق ، والصليبيين على ساحل بلاد الشام . فاتجه نحو بركه خان زعيم مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية ، ألذى كان قد اعتنق الإسلام واشتهر بعدائه لمغول فارس وزعيمهم هولاكوخان . ففي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م كتب السلطان الظاهر بيبرس إلى بركه خان ، يعلمه بأنه مادام قد اعتنق الإسلام فإن جهاد الكفار واجب عليه . لإغرائه بقتال هولاكوخان.(٢) فرد عليه برسالة مضمونها "أنت تعلم أني محب لهذا الدين ، وهولاكو قد تعدى على المسلمين ، واستولى على بلادهم ، وقد رأيت أن تقصده من جهتك ،وأقصده من جهتي ، ونصدمه صدمة واحدة فنقتله أو نطرده عن البلاد ألتى استولى عليها "(٣)

---

١) أنظر ،شافع بن على ،حسن المناقب السرية ،ص ٨٧ ،٨٨ .

٢) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٦٥ ؛ اليافعي ،جامع التواريخ المصرية ،ص ١٦٥ ؛ إبن عبد الظاهر ،ألروض الزاهر ،ص ٨٨ ،٨٩ ؛ شافع بن على ،المصدر نفسه ،ص ٥١ ؛ ألنويرى ،نهاية الأرب ، ج٨ ٢ ،ص ١٧( ) ؛ وبركه خان هو: بركه بن جوجي،تولى الملك سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م ومات سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م (أنظر إبن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ،ص ١٧ حاشية رقم (١) .

٣) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ١٩٥ ؛ أنظر أيضا ،إبن كثير، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٣٨.

وبذلك حقق السلطان الظاهر بيبرس هدفه المنشود ، بإشغال هولاكو عن التحالف مع الصليبيين ، حيث أخذت الرسل تتردد بين بيبرس وبركه إلى أن قام بركه إستجابة لدعوة الجهاد الإسلامي ألتي وجهها له الظاهر بيبرس وهاجم هولاكو وأشتبك معه في معارك حربية ضارية وفي هذا يذكر بركه في إحدى رسائله إلى بيبرس قوله " وأنني قمت أنا واخوتي الاربعة لحربه (يقصد هولا كو) من سائر الجهات ،لإقامة منار الإسلام ، وإعادة مواطن الهدى إلى ماكانت عليه من العماره وذكر الله والأذان والقراءة والصلاة ، وأخذ ثأر الائمة والامة " والتمس بركه في الوقت نفسه من السلطان الظاهر بيبرس ، إيفاد جماعه من عسكره الى جهة الفرات لقطع الطريق على هولاكو. كما أوصى بركه السلطان بالاتصال بعز الدين سلطان سلاجقة الروم لطلب المساعدة على هولاكو(١).

كما ترتب على اتصال بيبرس ببركه خان ،وتفاقم الخلاف بين بركه وهولاكو ، نتيجة أخرى ،هي أن ذلك الاضطراب ألذى عمّ بلاد المغول بسبب ذلك الصراع المرير،أدى إلى هروب جماعات مغولية إلى بلاد الشام ومصر ، وذلك راجع إلى ماسمعوه عن تسامح المسلمين هناك وحسن معاملتهم للوافدين - الذين كان السلطان الظاهر بيبرس

---

١) إبن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ١٧١ ،شافع بن على ،حسن المناقب السرية ،ص ٦٣ ؛ النوري ،نهاية الأرب ،ج٢٨ ،ص ٢٥ ( ) لمعرفة تفصيل الصراع ألذى دارت رحاه بين هولاكو وبركه انظر (رشيد الدين جامع التواريخ ،م٢ ،ج١ ،ص ٣٣٢ - ٣٣٦ ؛ أبو شامه ، الذيل على الروضتين ،ص ٢٢٠ ؛ إبن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ، ٢٣٩ ؛ الذهبي ، العبر ،ج٥ ،ص ٦٤ ؛ دول الإسلام ،ص ١٦٦ .

قد أصدر تعليماته إلى نوابه بالشام ومصر إلى إكرامهم ،وتقديم كل مايحتاجون إليه وإنزالهم في دور بنيت لهم.[١] ومن ثم تقطع لهم الاقطاعات.[٢]

وإلى جانب ذلك يمكن القول أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس قد حقق بتعاونه مع بركه خان القفجاق ،نصراً آخر على هولاكو ظهر واضحا في تلك الجموع المغولية الوافده على دولة المماليك. فالمصادر ألتي أوردت نبأ وصول هذه الوفود ألتي كانت ترد الى الظاهر بيبرس على فترات متقطعة وبأعداد ضخمة ، لم تشر الى أنهم من عند الخان المسلم بركه ،بل وصفتهم "بالمستأمنين المغول".[٣] وهذا الوصف يوكد لنا أن هذه الجموع المغولية الوافده ألتي جاءت مستأمنه إلى دولة المماليك هي من مغول فارس أتباع هولاكو لامن مغول القبيلة الذهبية "القفجاق" المسلمين أتباع بركه ،وإلا لما كانوا وصفوا بالمستأمنين.

وماقيل عن تحالف الظاهر بيبرس مع بركه خان ،يمكن أن يقال أيضا عن اتصاله بالامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس الثامن ،ألذى كان هو الآخر حريصا على محالفة بيبرس ، وتقديم المساعدة له ، يدلنا على ذلك ماذكره إبن عبدالظاهر موءلف السيرة

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ .

٢) إبن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ١٧١ .

٣) أنظر ابن عبدالظاهر ،المصدر نفسه ،ص ١٣٧ ، ١٧٨ ; النويرى ، نهاية الأرب ،ج٢٨ ،ص ٢٥ ( ) ; المقريزى ،المرجع نفسه ، ج١ ، ص ٥٠١ ، ٥١٠ – ٥١١ ، ٥١٥ .

الظاهرية ، أنه في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٠م وصل كتاب من الامبراطور البيزنطي إلى الظاهر يقسم فيه بقوله " أنه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة ،ساعدته بكل ماتقدر سلطتي عليه "(١)

والواقع أن كلا من السلطان الظاهر بيبرس ،والامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس كان حريصا على التقرب من الآخر . فالسلطان المملوكي بيبرس الذى تمكن بتحالفه مع خان القفجاق بركه من الحد من خطورة قيام حلف مغولي صليبي ضد دولته ، كان يخاف نيتجة ذلك أن يقدم الصليبيون في ساحل بلاد الشام على إسترضاء الامبراطور البيزنطي وعقد تحالف معه ضده . لذا كان عليه أن يبادر إلى إجراء إتصالات مع البيزنطيين لمنع إحتمال قيام ذلك الحلف الجديد. وفي الوقت نفسه كان الامبراطور البيزنطي يحرص هو الآخر أشد الحرص على مصادقة السلطان الظاهر بيبرس ،لاشتراكهما معا في عداوة الصليبيين ببلاد الشام ، فضلا عن أن الامبراطور البيزنطي الذى كان يتعرض بين آونه وأخرى لغارات مغول القبيلة الذهبية (القفجاق" كان يرى أن مصادقته للسلطان المملوكي بيبرس حليف بركه خان هو السبيل الوحيد لكف مغول القفجاق عن مهاجمة بلاده . يدلنا على ذلك إقدام الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م على اعتراض رسل السلطان الظاهر بيبرس ألذين كانوا في طريقهم الى الملك بركه ، وذلك لمالحقه من الإغاره والأذى ،وسيّر ميخائيل إلى الظاهر بيبرس رسالة يخبره بذلك ويذكّره بمابينهما من تحالف على الصفاء والصداقة . فكتب بيبرس إلى بركة يوصيه بكف الأذى عن

---

١) إبن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٨٨.

البيزنطيين ، فبادر الامبراطور البيزنطي إلى إطلاق رسل السلطان والإحسان إليهم [1] كذلك أرسل الامبراطور البيزنطي في سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م رسولا من قبله إلى السلطان الظاهر بيبرس يخبره أن غارات بركة قد أضرت ببلاده ،وسأله رده عنه .[2]

وأياً كان السبب الذى دعا الامبراطور البيزنطي إلى ذلك ،فإن السلطان الظاهر بيبرس - وكماسبق أن أشرنا - أبرم في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م إتفاقية صداقة مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس وكذلك الحال بالنسبة لملك صقلية مانفرد بن فردريك الثاني هوهنشاوفن .[3] كمايُذكَر أيضاً أنه في شهر رمضان من سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣ م وصل رسول من الملك شارل ، صاحب مرسيليه ، والذى هو في الوقت نفسه أخو لويس التاسع ملك فرنسا ،وصحبته هدية إلى السلطان الظاهر بيبرس ،وكتاب مضمونه "المحبة والمشايعة" [4] كما أن تلك الاتفاقات الودية مع الغرب شملت كذلك ملك قشتاله الفونسو العاشر ،المعروف بالعَالِم الذى أرسل الى السلطان الظاهر بيبرس هدية ثمينة ،عبارة عن خيول عربية أصيلة ، وذلك في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م وَرَدّ عليه بيبرس بهدية مماثلة من بينها زرافة ، وسن فيل ،وتمساح محنط لازال حتى اليوم معلقا على مدخل الباب الشرقي لكتدرائيه اشبيليه ، وتضيف الرواية أن السلطان بيبرس طلب الزواج من إبنة الملك الاسباني الفونسو

---

١) شافع بن على ،حسن المناقب السرية ،ص ٧٩.

٢) شافع بن على ،المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .

٣) راجع ماسبق ، في الفصل الثاني .

٤) النويرى ،نهاية الأرب ،ج٨ ،ص ٢٨ ،(   ) ؛ أنظر أيضا ،ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٢٠١ .

Selctions from Tarik ibn Alfurat . p 83 ;

العاشر ،ولكن طلبه ذلك لم يتحقق .(١)

ويجدر بنا هنا أن نتساءل عن السبب الذى دفع أباطرة ملوك الغرب الاوربي ،وبهذا العدد إلى خطب ود السلطان المملوكي الظاهر بيبرس الذى عرف بعدائه لابناء جلدتهم الصليبيين في بلاد الشام؟ . والذى يبدو لنا هو أن الغرب الاوربي الذى كان يعاني وضعا سيئا بسبب المشاكل والخلافات التي كانت سائدة بين حكامه . هي التي دفعتهم الى ذلك العمل قاصدين بذلك وبطريقة غير مباشرة استرضاء بيبرس لإثنائه عن مهاجمة بقايا الأمارات الصليبية ببلاد الشام بعد أن أدركوا عجزهم عن تقديم أية مساعدة لإخوانهم هناك . وعليه يمكن القول أن تلك المعاهدات التي أبرمت ،والسفارات التي تبودلت بين السلطان الظاهر بيبرس ، وبين ملوك وأباطرة الدول المحيطة بدولته من الشرق والغرب ،جنبت دولة المماليك المسلمين ، خطرا كان يتهددها من جراء تلك المحاولات التي بذلت لعقد حلف مغولي صليبي ضدها . وأضحى

---

١) راجع ،العبادى ،قيام دولة المماليك ،ص ٢٠٤، ٢٠٥

Selctios from Tarik Ibn Alfurat , p. 106 .

ويذكر أن سبب تسمية ألفونسو ألعاشر بالعالم أو الحكيم لأنه أشرف على كتابة الحولية التاريخية الكبرى في تاريخ اسبانيا

Primera Gronica Gereral de Espan .

واستعان على تأليفها بعدد من العلماء المسلمين واليهود والمستعربين والمسيحيين وأعتمد هوءلاء على عدد كبير من المصادر العربية واللاتينية والبيزنطيه وعلى جميع الحوليات الاسبانية السابقة كذلك نشطت حركة الترجمة في طليطلة في عهد هذا الملك الذى اشتهر بحبه للعلم والعلماء . (انظر ،العبادى المرجع نفسه).

السلطان بيبرس في وضع طيب بعد أن استطاع تجميد النشاط المغولي ضد دولة في الشرق باشغالهم في حروب داخلية ، وحرمان الصليبيين في بلاد الشام من أية مساعدة خارجية وتمكن بفضل ذلك العمل من توزيع نشاطه على الجبهتين الصليبية والمغولية معا .

استيلاء بيبرس على أنطاكيه الصليبيــة سنة ٦٦٦هـ

ترجع عداوة السلطان الظاهر بيبرس للصليبيين إلى أيام خدمته للملك الصالح أيوب لتحالفهم أكثر من مرة مع بعض الامراء الأيوبيين في بلاد الشام ضد سيده الصالح أيوب في مصر ، حتى أنه في وقت لاحق أنَّبهم على تصرفهم هذا (١) ، وزاد من عدائه لهم ، الحملة الصليبية التي قام بها القديس لويس على مصر بعد ذلك ، والتي ساهم بيبرس بنفسه مساهمة فعالة في عدم نجاحها . ولاشك أن هذه الحملة الصليبية جعلت الظاهر بيبرس يدرك نوايا الصليبيين ، وطموحاتهم في فرض سيطرتهم على المراكز الاسلامية الهامه في الشام ومصر ، الأمر الذى جعله عندما أصبح رئيسا للدولة المملوكية التي خلفت الدولة الأيوبية في مصر والشام ، يفكر جديا منذ اللحظه الأولى لحكمه في استئصال شأفة الصليبيين من بلاد الشام ، باعتبارهم دخلاء عليها ، إذ لاسلامة للدولة الإسلامية مع وجودهم . فوضع لذلك مخططا ، نفذه بحزم وقوة مماجعل عهده يصبح نقطة تحول في الحروب الصليبية (٢).

وعليه فإن اهتمام الظاهر بيبرس بأمر الصليبيين بدأ منذ اللحظة الاولى لتوليه مقاليد السلطة في الدولة المملوكية ، وذلك أنه في سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م بلغه وهو بالاسكندرية أن جماعة من الصليبيين الغربيين ، ومقدمهم الملك شارل أخو ملك فرنسا ، قصدوا ساحل بلاد الشام . فأصدر بيبرس أوامره إلى جيوشه بالتوجه إلى بلاد الشام

---

١) أنظر إبن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ص١٥٦ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٨٦ ، ٤٨٧ ؛ عبدالعزيز الخويطر ، الظاهر بيبرس ، ص ٧٨ .

٢) الخويطر ، المرجع نفسه ، ص ٧٨ .

لملاقاة تلك الحملة الصليبية الجديدة ألتي كانت وجهتها - على مايبدو- عكا. كما بلغه أيضا في السنة نفسها أن اثنى عشر مركبا للصليبيين وصلت إلى الاسكندرية ، ونزل من بها في الميناء وأخذوا مركبا للتجار وأستولوا على مافيه ثم أحرقوه ، وذلك في غيبة رئيس الاسطول في مهمة استدعاه السلطان الظاهر بيبرس بسببها، ولما بلغ بيبرس ذلك بعث بأمر بألا يفتح أحد حانوتا بعد المغرب ، ولاتوقد نارا في البلد ليلا . ثم تجهز بسرعة وخرج صوب دمياط لاحتمال مهاجمة الصليبيين لها في يوم الخميس خامس ذى القعدة وفي ذى الحجة من السنة نفسها ، أمر بعمل جسرين أحدهما من مصر إلى الجزيرة والآخر من الجزيرة إلى الجيزة على مراكب لتجوز العساكر عليها، ثم عاد السلطان الظاهر من دمياط ولم يلق حربا[1] إذ يبدو أن الصليبيين عندما سمعوا بمسيره إليهم عادوا أدراجهم هاربين .

وفي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م أغار جيش السلطان الظاهر بيبرس الذى كان قد خرج من دمشق إلى حلب لتأديب الأمير آقوش البرلي الذى رفض الانصياع لأوامر بيبرس ،بالحضور إلى مصر - على بلاد أنطاكية وهاجم عساكرها في البر والبحر ،وعاد محملا بالغنائم[2] كماحدث أيضا

---

١) أنظر أبن تغرى بردى ،ألنجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٤٨، ١٤٩ ؛ والمقصود بالجزيرة هنا جزيرة الروضه ،ألتي أنشأ بها الملك الصالح أيوب في سنة ٦٣٨هـ قلعة عرفت بقلعة الروضه ،وبقلعة الجزيرة،وبقلعة جزيرة الفسطاط ،وبقلعة المقياس ، وبالقلعة الصالحية ،وقد أنفق الصالح في عمارتها أموالا كثيرة ، حيث بني فيها الدور والقصور ،وعمل لها ستين برجا ،وبنى بها جامعا ،ثم اتخذها دار ملك وسكن فيها بأهله وأسكن معه بها مماليكه ،ألذين عرفوا بالمماليك البحرية نسبة إليها (انظر المقريزى ،المخطط ،ج٢ ،ص ١٧٧ - ١٧٩، ١٨٣ ؛ أبن تغرى بردى ،المصدر نفسه ،ج٦ ،ص ٣٢٠ .

٢) إبن عبد الظاهر ،ألروض الزاهر ،ص ١١٣ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ، ص ٤٦٣ ؛ أبو الفدا ،ألمختصر ،ج٣ ،ص ٢١٤ ؛ إبن خلدون ،العبر ====

في السنة نفسها أن خرجت العساكر الإسلامية من جهة بعلبك للإغارة على الصليبيين ، فسألوا رجوعها ،وبعثوا رسلهم ومعهم الإقامات إلى السلطان الظاهر بيبرس ،وسألوه الصلح ،فتوقف وطلب منهم أمورا لم يجيبوا إليها فأهانهم ، ثم اتفق أن حل الغلاء ببلاد الشام فتقرر الصلح وتم الاتفاق على إطلاق سراح الأسارى من حين انقضت الايام الناصرية وسارت رسل الصليبيين إلى السلطان لأخذ العهود وتقرير الهدنه ، لكونت يافا (Gout of Jaffa) ومتملك بيروت أما بالنسبة للأسرى فيبدو أن السلطان بيبرس اشترط شروطا رفضها الصليبيون ، فرد عليهم بأن آمر بنقل أسراهم من نابلس إلى دمشق ، واستعملهم في العمائر هناك ، وتعلل الصليبيون بالعوض عن زرعين فأجيبوا "بانكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية مرج عيون وقايضتم صاحب تبنين والمقايضه في أيديكم ، فكيف تطلبون العوض مرتين فإن بقيتم على العهد ، وإلا مالنا شغل إلا الجهاد"[1]

ويبدو أن هذا الاختلاف بين السلطان الظاهر بيبرس ،ورسل الصليبيين حول إطلاق سراح الأسرى ، ومطالبته بالعوض عن زرعين ،جعل السلطان يشك في صدق مهادنتهم ، فجرد فرقة من جيشه بقيادة أحد أمرائه في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م أغارت على بلاد الصليبين،وعادت سالمة غانمة وبلغ السلطان بيبرس في الوقت نفسه أن جماعة من عرب زبيد قد كثر

== ج٥،ص ٣٨٢ ،شافع بن علي ،حسن المناقب السرية ،ص ٥٠ -٥١ ؛ زرعين قرية تقع قرب مدينة الناصره بفلسطين Lastrange : Palestine urder the moslems.p.441. ، ومرج عيون ،بلدة بسواحل الشام ، وتبنين بلدة في جبال بني عامر ، المطلة على بانياس بين دمشق وصور (أنظر ياقوت ،معجم البلدان).

١) ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه ، ص ١١٨ ، ١١٩ ؛المقريزي ، المصدر نفسه ، ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ص ٣٨٣ .

فسادهم ،وأنهم خالطوا الصليبيين ، ودلوهم على عورات المسلمين فساق جماعة من البحرية كان قد كتم خبرهم إليهم لتاديبهم.[١]
كما عمل في السنة نفسها على تاديب صاحب أنطاكية الأمير بوهيمند السادس. (Bohemond vl of Antioch)
الذى وصفه إبن عبدالظاهر موءلف السيرة بانه "كان مستمرا على ماهو عليه من التخوف من المهابة السلطانية " حيث جرد اليه العساكر الإسلامية صحبة الأمير شمس الدين سنقر الرومي ، وسير معه الملك الأشرف صاحب حمص ، والملك المنصور صاحب حماه ، ونازلوا أنطاكية وهاجموا ميناءها وأحرقوا المراكب بعد أن غنموا مابها ، ثم حاصروا السويداء واستولوا عليها ، وعادت الجيوش الاسلامية إلى مصر ومعها سنقر الرومي حيث دخلت القاهرة في يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م ، فاستقبلهم السلطان أحسن استقبال ، وسير الخلع إلى الملكين الاشرف والمنصور في بلديهما.[٢]

والملاحظ هنا أن السلطان الظاهر بيبرس قد اتبع حتى هذا الوقت في جهاده ضد الصليبيين أسلوب المباغتة والهجمات الخاطفة إذ أنه ببراعته الحربية وحنكته السياسية لم يرد الدخول مع الصليبيين في معارك كبيرة ،لأنه لم يكن قد أمن جانب المغول بعد ، بدليل محاولة المغول أكثر من مرة عبور نهر الفرات ومهاجمة دولته من الشرق.[٣] هذا بالاضافة إلى أنه كان على السلطان الظاهر

---

١) إبن عبدالظاهر ،ألروض الزاهر ،ص ١٢٠ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ٢٦٤ ، ٤٦٥ .

٢) إبن عبدالظاهر ،ألمرجع نفسه ،ص ١٣٢ ، ١٣٣ ؛ المقريزى ،ألمصدرنفسه ج١ ،ق٢ ،ص ٤٧٢ ؛ والسويداء : قرية بحوران من نواحي دمشق ، والسويداء ايضا بلد بديار مضر قرب حران ،بينها وبين بلاد الروم (انظر ياقوت، معجم البلدان) .

٣) راجع ماسبق في الفصل الثاني .

بيبرس أن يخضع حصني الكرك (١) ،والشوبك(٢) اللذين كانا حتى ذلك الوقت مستقلين عن دولة المماليك . فبادر بعد تلك الهجمات السريعة التي كالها للصليبيين، إلى الالتفات لإخضاع هذين الحصنين الهامين وهنا تبدوا لنا براعة السلطان بيبرس ، والتي تمثلت في حرصه الشديد على حقن دماء المسلمين وادخارها لجهاد أعداء الإسلام المغول والصليبيين حيث حرص في مشروعه هذا على استمالة من بداخل حصني الشوبك والكرك من المسلمين بالطرق السلمية ، فبذل في الأول الأموال والخلع حتى تسلمه

---

١) حصن على مرتفع تحيط بها أودية الأمن من جهة الريض . وقد حصنه فولك (Fulk) صاحب بيت المقدس حوالي سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م شرق البحر الميت ليكون قوة لبيت المقدس . وقد حاصر نور الدين محمود هذه الحصن بعد حوالي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م. كماحاصرة أيضا صلاح الدين الأيوبي في هذه السنة وكذلك في سنتي ٥٧٩ - ٥٨٠هـ/١١٨٣ - ١١٨٤ م ثم استسلم للملك ألعادل سنة ٥٨٤هـ/١١٨٩م قبيل صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الاسد (أنظر ياقوت معجم البلدان ؛ أبو شامه كتاب الروضتين ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٢٥ حاشية ،؛

Lonepol , Saladin . p 249 - 250 .

٢) حصن آخر بناه الملك بلدوين (Baldwin) صاحب بيت المقدس سنة ٥٠٩هـ/١١١٥ م جنوب البحر الميت على منطقة عالية ليسهل عليه مهاجمة القوافل ألتى تتردد على مصر مارة بهذا الطريق (أنظر معجم البلدان ؛ أبو شامه ،المرجع نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٢٦ حاشية).

وولى عليه أميراً من قبله .(١) وكذلك الحال بالنسبه للملك ألمغيث الأيوبي صاحب الكرك ، ألذى كانت أمه قد قدمت على السلطان بيبرس بغزة فأكرمها ، وتحدث معها في حضور ابنها إليه ، وسيّر له معها الإقامات والهدايا وبعث إليه يستدعيه ويعده ألوعود ألحسنه. وهنا يُذكَر أن المغيث عندما وصل إلى القاهرة ، أحضر السلطان بيبرس الملوك والأمراء وقاضي القضاه ، وأُطلعهم على كتب الملك المغيث إلى المغول وكُتُب المغول إليه ، وأخرج أيضا فتاوى الفقهاء بقتاله ثم أحضر القصاد ألذين كانوا يسفرون بينه وبين هولاكو ، ولما ثبت ذلك أمر بسجنه في قلعة الجبل وأُطلق سراح حريمه وحواشيه وأُجرى لهم الرواتب .(٢)

والواقع أن إخضاع السلطان الظاهر بيبرس لحصني الشوبك والكرك قد تزامن على مايبدو مع تحالفه مع بركه خان زعيم مغول القفجاق وكذلك الحال بالنسبه للصليبيين ألذين حكم عليهم بالعزلة التامة بعد توصله إلى عقد معاهدة صداقة مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس ، فضلا عن اتصاله بمنفرد بن فردريك الثاني وملك

---

١) إبن عبدالظاهر ، ألروض الزاهر ،ص ٢٢١ ؛ شافع بن على ، حسن المناقب السرية ، ص ٤٨ .

٢) ~~[illegible]~~ ؛ بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٦٠هـ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق ٢ ، ص ٤٨١ – ٤٨٣ ؛ أُنظر أيضا ،إبن عبدالظاهر ،ألمصدر نفسه ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ؛ شافع بن على ، ألصمدر نفسه ،ص ٤٨ ، ٥٦ ؛ إبن أيبك الدوادارى ، الدرة ألزكية ،ج٨ ،ص ٩٥ ، ٩٦ ؛ ألقلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٣ ،ص ٤٣٠ .

صقلية وغيره من ملوك الغرب الاوربي .

إلا أن الصليبيين بالرغم من ذلك ، استغلوا انشغال السلطان الظاهر بيبرس بأمر حصن الكرك ، وحاولوا التنصل من الهدنه بمعاودة الحديث في أمر الأسرى وزرعين ، ووصلت إلى السلطان بيبرس كتب النواب يشكون من الصليبيين،وأنهم اعتمدوا أمورا تفسخ الهدنه ، وأن رسلهم ترد بندمهم على الهدنه وطلب فسخها .(١)

ولما فرغ السلطان الظاهر بيبرس من أمر الملك المغيث صاحب الكرك ، أمر باحضار رسل البيوت الصليبية وقال لهم "ماتقولون؟" قالوا "نتمسك بالهدنه ألتي بيننا" فرد عليهم رداً غليظا وذكر لهم بأن ذلك كان ممكنا قبل مسيره إليهم وإنفاق الأموال ألتي وصفها بانها "لوجرت لكانت بحارا" في سبيل الوصول إليهم، إضافة إلى تذكيره إياهم بإقدامهم على بناء سور على ربض أرسوف ، ألذى كان من شروط الهدنه عدم تجديدة ، فضلا عن إمساكهم رسل السلطان بيبرس المسيرين إلى جهة سلاجقة الروم وإرسالهم إلى جزيرة قبرص ، ومنعهم الميره والجلب(٢) عن عساكر المسلمين عند توجهها إلى بلاد الشام ، وكذلك

---

١) إبن عبدالظاهر ، ألروض الزاهر ،ص ١٥١ ، ١٥٢ ؛ ألمقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب السرية ، ص٥٧ .

٢) ألمقصود بالجلب هنا :هو ماتجلبه البلاد من الأطعمة للجيوش النازلة بقربها ويتضح هذا المعنى من عبارة استقاها الدكتور/ محمد مصطفى زياده ،من كتاب النهج السديد لمفضل ابن أبي الفضائل ص ١٠٨ نصها " فأرسل الله سبحانه من الأمطار ما منعت الجلب فغلت الأسعار ولحق ألعسكر مشقة عظيمة . (راجع المقريزى ، المرجع نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٨٥ حاشية رقم (١) .) وأرسوف مدينة على ساحل الشام بين يافا وقيساريه (انظر ياقوت ، معجم البلدان).

عدم إنفاذهم أسرى المسلمين في الوقت ألذى كان السلطان بيبرس قد أنفذ أسراهم من نابلس إلى دمشق ، كماذكَّرهم بماتَمَّ الاتفاق عليه بينهم وبين الملك الصالح إسماعيل من أن يسلم لهم صفد والشقيف مقابل مساعدتهم على الملك الصالح أيوب ، وحيث أن تلك المملكة قد تلاشت وبيبرس ليس في حاجة إلى مساعدتهم ، فقد طالبهم برد تلك البلاد إلى المسلمين كماأنبهم في الوقت نفسه على ماقدموه من مساعدة للويس التاسع عند مهاجمته الأراضي المصرية .(١)

وبالرغم من أن رسل الصليبيين عندما سمعوا كلام السلطان بهتوا وقالوا "نحن لاننقض الهدنه ، ونطلب مراحم السلطان في استدامتها ، ونحن نزيل شكوى النواب جميعها ، ونفك الأسرى ،ونستأنف الخدمة"(٢) إلا أن السلطان الظاهر بيبرس عاد مرة أخرى ورفض تضرعهم إليه باستمرار الهدنه ،لعلمه – على مايبدو – أنهم إنما قالوا ذلك عندما شعروا بمسيره إليهم . وأنه في حالة ابتعاده عنهم يستأنفون تنصلهم وخداعهم . فوجد في مخالفاتهم تلك تبريرا كاملا لمهاجمتهم ،فعزم على ضربهم في الصميم بمهاجمة مدينةعكا ، حيث سار يوم السبت رابع جمادى الآخره من سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م ونزل على المدينة وأحاط بها من ناحية البر ، وندب فرقة من عسكره لمحاصرة أحد أبراجها

---

١) أنظر إبن عبدالظاهر ،ألروض الزاهر ،ص ١٥٣ – ١٥٦ ؛ ألمقريزى، ألسلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٨٤ – ٤٨٧ ؛شافع بن على ،حسن المناقب السرية ، ص ٥٧ . وصفد: مدينة في جبال عامله المطله على حمص والشام وهي من جبال لبنان ، وألشقيف : بلدة تعرف بشقيف أرنون عبارة عن قلعة قرب بانياس من أرض دمشق (انظر ياقوت،معجم البلدان)

٢) إبن‌عبدالظاهر ،ألمصدر نفسه ، ص ١٥٦ ؛ ألمقريزى ، ألمصدر نفسه ، ج١ ،ق٢ ،ص ٤٨٧ .

الهامه فشرعوا في نقبه ، واستمر السلطان في حصار المدينة إلى قريب المغرب ، وكان قصده من ذلك الهجوم ، كشف المدينة التي كان الصليبيون يزعمون أن أحدا لايستطيع الاقتراب منها لحصانتها وفي صباح اليوم الثاني نظّم السلطان هجوما آخر أقوى على مدينة عكا ، فوجد أن الصليبيين قد حفروا خندقا حول تله الفضول وأقاموا معاثر (١) في الطريق ، ووقفوا صفا واحدا على التل ، فلما أشرف عليهم السلطان بيبرس رتب عسكره ، وأخذ المسلمون في التهليل والتكبير ، والسلطان يحثهم على الاكثار من ذلك حتى ارتفعت أصواتهم . ثم أمر غلمان العساكر ،ومن حضر معه من الفقراء المجاهدين بردم الخنادق ، وصعد المسلمون فوق تل الفضول ، وأنهزم الصليبيون أمامهم إلى داخل المدينة ، ثم امتدت أيدى المسلمين إلى ماحول عكا ، فهدموا الابراج وأحرقوا الاشجار حتى انعقد الجو من دخانها ثم استغلوا ذلك وتقدموا إلى الأبواب وهاجموا بضراوة من وجدوا عليها من الصليبيين ، والسلطان بيبرس واقف على رأس التل يصْدِر توجيهاته لامراء عسكره الذين حملوا على أبواب المدينة واحدا بعد الآخر ،حتى آخر النهار حيث ساق السلطان بنفسه على البرج الذى كان المسلمون قد نقبوه وحتى تعلق وانهدم ، وأسر منه أربعة من الفرسان ،ونيف وثلاثين رجلا . وبات المسلمون ليلتهم على ذلك ، ولما أصبحوا عاودوا الهجوم على المدينة حتى كشفوها يتقدمهم السلطان بيبرس ألذى عَبَرَ على الناصرة حتى شاهد خراب كنيستها

---

١) يبدو أن كلمة معاثر جمع عاثور ،وهو مايعد في الأرض من حفرة ونحوها ليقع فيها ألماره ، وتأتي أيضا بمعنى ألمهلكه من الأرض ، وبمعنى البئر . (أنظر ، ألمقريزى ،ألسلوك ،ج١ ،ق٢ ، ص ٤٨٨ ، حاشية رقم (٢) .

وقد سُوّي بها الأرض ثم عاد بجيشه إلى الصفة التي كان قد بناها على الطور ، واستراح بها إلى يوم الإثنين الثالث عشر من الشهر نفسه ، ثم سار إلى القدس وتفقد أحوالها ومايحتاج إليه المسجد من العماره ، ونظر في الأوقاف وكتب بحمايتها ورتّبَ برسم مصالح المسجد في كل سنة خمسة آلاف درهم .(١)

وحدث في جمادى الآخره من سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م أن أغار هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى على الأجزاء الشمالية من بلاد الشام ، ولما علم السلطان الظاهر بيبرس بذلك ، أمر عساكره في دمشق وحمص بالخروج إليه ، فانهزم هيثوم وولى الأرمن الادبار . وأغار المسلمون في طريق عودتهم على أنطاكيه وساحل بلاد الشام حتى وصلوا إلى أبواب عكا ، وغنموا غنائم كثيره .(٢)

وفي رمضان من السنه نفسها بلغ السلطان بيبرس أن الصليبيين توجهوا إلى جهة يافا ينوون الإغاره على البلاد الإسلامية المجاورة ،

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكره ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٦١هـ ؛ إبن شداد، تاريخ الظاهر بيبرس ،ج٢ ،ص ٢٥٧ ،٢٥٨ ؛ إبن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ١٥٨ – ١٦٢ ؛ ألمقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٨٨ ،٤٨٩ ، ٤٩٠ ؛ ألنويري ،نهاية الأرب ،ج٢٨ ،ص ٧٩ (   ) ؛أبو الفدا ، المختصر ،ج٣ ،ص ٢١٧ ،٢١٨ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب السرية ، ص ٥٧ ؛ ألحنبلي ،الأنس الجليل بتاريخ ألقدس والخليل ،ص ٨٦ .
Selctions from Tarik Ibn Alfurat . p. 78 .

٢) إبن عبدالظاهر ، ألروض الزاهر ،ص ١٥٦ ؛ ألمقريزى ،ألمصدر نفسه ، ج١ ،ق٢ ،ص ٥١١ .

فأصدر أوامره بمهاجمة قيسارية وعثليث ، فلما سمع الصليبيون بذلك خافوا وعدلوا عما كانوا ينوون عليه .(١)

ويبدو أن السلطان الظاهر بيبرس لم يشأ أن يطيل هجومه على هذه المناطق في هذه السنة ، ولعل ذلك كان بسبب سماعه بهجوم المغول في بداية سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م على البيره ، حيث وجه همه نحو المناطق الشرقية من دولته فأصدر أوامره إلى جيوشه في الشام بالمسير إلى البيرة وصد المغول عنها.(٢) ولما تم له ذلك عاود مهاجمة قيساريه مرة أخرى وذلك في تاسع جمادى الأولى من السنة نفسها ، حيث أمر بإحضار المنجنيقات والسلالم ، وأمر جيوشه بالتقدم من عيون الأساور باتجاه مدينة قيسارية ،لفرض الحصار عليها وردم خنادقها وخرب اسوارها بالمنجنيقات ، ومن ثم نصب السلالم على الأسوار ، وصعد إلى داخل المدينة ، وفي الوقت نفسه تمكنت المنجنيقات من خرق الابواب فاندفع المسلمون إلى الداخل ، ولجأ من بداخل المدينة من الصليبيين إلى قلعتها ألتي كانت تعرف بالخضراء

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ، حوادث سنة ٦٦٢هـ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٢٠٠ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ، ص ٥١٣ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص ١٦٨ ؛ ألحريرى ، الإعلام والتبيين بخروج الفرنج ألملاعين ،ورقة ١٤١ ب ؛ شافع بن على ، حسن المناقب السرية ، ص ٧٨ ؛ ألقلقشندى ،صبح الأعشى ، ج٣ ،ص ٤٣٠ ؛

Selctions . op. cit. p 82 .

وقيساريه : بلد على ساحل بحر ألشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبريه ثلاثة أيام ، وعثليث ،اسم حصن بسواحل الشام كمايعرف بالحصن الأحمر (أنظر ياقوت ،معجم البلدان).

٢) إبن عبدالظاهر ،ألمصدر نفسه ،ص ٢٢٤ ،٢٢٥ ؛ ألمقريزى ،ألمصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٢٣ – ٥٢٥ .

وهي من أحصن القلاع وأحسنها ، وزحف المسلمون عليها بالمنجنيقات والدبابات ،والزحافات[1] ورشقوها بالسهام ، واستمروا في حصارها وضربها إلى ليلة الخميس منتصف شهر جمادى الأولى ، حيث شعر من بداخل القلعة من الصليبيين بعجزهم عن الاستمرار في الدفاع عنها ، فسلموها للسلطان الظاهر بيبرس بمافيها من الموئن والعتاد ،فدخلها المسلمون من أعلاها وأسفلها بتسلق أسوارها وخرق أبوابها وأذّنوا لصلاة الصبح عليها ، ثم صعد إليها السلطان بيبرس بنفسه ومعه كبار الأمراء ،وأمر بهدم القلعة كلها وشارك في هدمها بنفسه ، ولما قارب الفراغ من هدمها ، بعث الأمير سنقر الرومي ، والأمير سيف الدين المستعرب على رأس فرقه من عسكر المسلمين فهدموا قلعة كانت للصليبيين عند الملوحه بالقرب من دمشق .[2]

وفي غمرة ذلك الانتصار العظيم أمر السلطان الظاهر بيبرس جيوشه في السادس والعشرين من جمادى الأولى بالتوجه إلى عثليث ،وسير في الوقت نفسه فرقة من جيشه لمهاجمة مدينة حيفا ، ألتي ما إن سمع

---

١) عن هذه الأسلحة أنظر مايلي في الفصل الخامس .

٢) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٦٣هـ ; إبن عبد الظاهر ،ألروض الزاهر ، ص ٢٣٠ ،٢٣١ ، ٢٣٤ ; المقريزى ، السلوك، ج١ ،ق٢ ،ص ٥٢٦ ،٥٢٧ ; أليونيي ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٣١٨ ، ٣١٩ ; شافع بن على ،حسن المناقب السرية ،ص ٨٨ ; إبن خلدون، العبر ،ج٥ ،ص ٣٨٥ ; إبن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب ،ج٥ ، ص ٣١٢ ; أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ٢ ; الذهبي ،العبر ،ج٥ ، ص ٢٧٢ ; إبن حبيب ،درة الأسلاك ،ج١ ،ص ٣٤ (مخطوط) ; إبن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ، ص ٢٤٤ ; إبن أيبك الدوادارى ،الدرة الزكية ،ج٨ ،ص ١٠٧. Selctions From Tarik Ibn Alfurat . P.89 .

من بها من الصليبيين بذلك حتى هجروا المدينة إلى المراكب في البحر ، فدخلها المسلمون وهدموا أسوارها وقلعتها وعادوا محملين بالغنائم • أما السلطان بيبرس فقد وصل بالجيش الرئيسي إلى عثليث حيث فرض عليها حصارا شديدا ، وقطع أشجارها وخرب أبنيتها في يوم واحد ، ثم عاد إلى قيساريه وأكمل هدمها حتى لم يبق لها أثر •(١)

وفي التاسع والعشرين من جمادى الأولى رحل السلطان من قيساريه وسار إلى أرسوف ، ونزل عليها في مستهل جمادى الآخرة ، وفرض حصارها ثم أمر بجمع الأخشاب والأحطاب حول سورها ،فعملت منه الستائر والسلالم كما أمر بحفر "سرابين" من خندق المدينة إلى خندق القلعة ،وسقفت هذه السرابين بالأخشاب ، ولما فرغ من ذلك سلم السرابين إلى عدد من أمرائه • إلا أن الصليبيين كشفوا ذلك وتمكنوا من إشعال النيران في الأخشاب ،ولما رأى السلطان ذلك أمر بالحفر من باب السرابين إلى البحر ، وعمل سروبا تحت الأرض يكون حائط خندق الصليبيين ساترا لها وعمل في الحائط أبوابا لكي يُرْمي التراب منها فينزل من السروب حتى يساوى أرضها أرض الخندق ، وأحضر المهندسين لتقرير ذلك العمل الذى أشرف السلطان بنفسه عليه ، وشارك جيشه في الحفر وجر المنجنيقات ، ورمي التراب ، ونقل الأحجار ، كماحضر للمشاركة العبّاد والزهاد والفقهاء ، حتى النساء الصالحات كن يسقين الماء في وسط القتال • ولما أتم المسلمون ذلك العمل بدأوا الزحف على مدينة أرسوف وذلك في ثان رجب ، ولم يشعر الصليبيون إلا بالمسلمين

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٦٣هـ ؛ إبن عبد الظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٢٣٤ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ص٥٢٧•

Selctions from Tarik IbN Alfurat . p 86 .

قد تسلقوا الأسوار ونزلوا إلى داخل المدينة ، وأُحرقت أبوابها ، وتدافع المسلمون إلى داخل البلد وصعدوا إلى القلعة ، ورفعوا الأعلام الإسلامية على الباشورة إيذانا بسقوط أرسوف في أيديهم .(١)

ويبدو أن تلك الانتصارات العظيمة ألتي حققها السلطان بيبرس ضد الصليبيين ، قد أثارت حفيظة البرنس بوهيمند السادس أمير أنطاكية/ طرابلس ، ألذى بدأ يشعر بأن الدور آت عليه لامحالة ، و أن أعمال بيبرس تلك إنما هي لتمهيد الطريق للوصول إلى إمارته . فقام في أوائل سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م بشن هجوم مباغت على مدينة حمص في شمال الشام ، ساعده فيه الداويه والاسبتاريه ، ألذين طلب منهم مساعدته . ولكن حاكم مدينة حمص علم بتحركه ، فاستعد له ، ووقع اشتباك بين الطرفين في الرابع من صفر من هذه السنه (نوفمبر ١٢٦٥م) انتهى بهزيمة بوهيمند ، ألذى قنع من الغنيمه بالإياب ، فتبعه المسلمون إلى أن توغل في البلاد التي تحت يده ، وعادوا بعد أن غنموا من جيشه

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكره ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٦٣هـ ؛ إبن عبدالظاهر ، ألروض ، ص ٢٣٥ — ٢٣٩ ؛ ألمقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٢٨ — ٥٣٠ ؛ شافع بن على ، حسن المناقب السرية ، ص ٨٩ ، ٩٠ ؛ إبن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ؛ إبن حبيب ،درة الأسلاك ،ج١ ،ص ٣٤ (مخطوط) ؛ الذهبي ، العبر ، ج٥ ص ٢٧٢ ؛ أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص ٢٠ ؛ إبن العماد الحنبلي شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٣١٢ ؛ إبن أيبك الدوادارى ،الدرة الزكية ، ج٨ ،ص ١٠٧. Selctions . From Tarik Ibn Alfurat .p91-97. والباشورة جمعها بواشير : وهي حصن أو مقدم مافي الحصن أو بناية متقدمة على الحصن لايقاف زحف العدو : وبمعنى أشمل هي الحائط الظاهرى للحصون (أنظر إشداد ،الأعلان الخطيره ، ج٢ ، ص ١١٦ حاشية).

غنائم كثيرة .(١)

أدى انكسار بوهيمند السادس أمام جيش حمص بهذه السرعة إلى تشجيع الظاهر بيبرس على محاولة تحقيق المزيد من الانتصارات على الصليبيين في ساحل بلاد الشام . فوجه همته في السنه نفسها إلى الاستيلاء على صفد ألتي وصفها إبن عبدالظاهر بأنها "الغصة في حلق الشام والشجا في صدر الإسلام"(٢) وبدأ بيبرس استعداده لهذا ألعمل ، بإصدار أوامره إلى عماله على مصر بإحضار العساكر من إقطاعاتهم ، وتجهزهم بعددهم وعتادهم للخروج إلى بلاد الشام. حيث خرج السلطان الظاهر بيبرس على رأس هذه الجيوش في أوائل رجب من سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م ومضى في طريقه على غزة والخليل والقدس ، حيث صلى ألجمعه بالحرم الشريف ورحل إلى عين جالوت ، وأمر عساكره بالتوجه إلى حمص ، وحرص بيبرس على إخفاء حركته ، فلم يخبر عساكره بالوجهه ألتي يقصدها ، حتى وصلوا إلى حمص ، فورد إليهم كتابه يأمرهم بالتوجه إلى طرابلس ، فهاجموا الصليبيين بها على غره وجاسوا خلال ديارهم وأوديتهم ، وأغاروا على حصن الأكراد ، واستولوا على قلعة عرقة ، وحلباء ، والقليعات ، وهدموها بعد أن غنموا مابها من العدد والعتاد . ولما ورد الخبر بذلك إلى السلطان بيبرس ألذى كان قد وصل إلى جهة عكا . جرّد عدداً من أمرائه بجماعة من العسكر إلى صور ، فأغاروا عليها ، وغنموا منها كثير من الجمال والبقر والغنم

---

١) إبن عبدالظاهر ،ألروض ،ص ٢٤٥ ؛ ألمقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق ٢ ،ص٥٤٣ ؛ ألنويرى ، نهاية الأرب ،ج٢٨ ،ص ٨٦ ، ٨٧ (مخطوط) ؛ شافع بن على حسن المناقب السرية ،ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

Selctions . From Tarik Ibn Alfurat . p 107 .

٢) إبن عبدالظاهر ،ألمصدر نفسه ، ص ٢٥٤

ثم انفصل عنهم أحد الأمراء بفرقة من ذلك الجيش وأغار على صيدا أما السلطان فقد أغار بمن معه من الجيش على عكا وأستولى على إحدى القلاع القريبة منها • وقام في الوقت نفسه بإرسال الأمراء إلى كافة الجوانب الصليبية ، وعمّت تلك الغارات البلاد ألتي بأيدى الصليبيين من حدود طرابلس إلى قريب أرسوف •(١)

وبعد ذلك أمر السلطان بيبرس عساكره ، فاجتمعت عنده على عكا ، وأعلن المسيرة إلى صفد ألتي كان قد بعث إليها سراً قوة من جيشه ، لاستطلاع أخبارها ، وتطويق الحصار عليها ، حتى لاتستطيع طلب النجدة من أحد ، وظل السلطان منتظرا في مكانه في نواحي عكا حتى تكامل وصول جيوشه المغيرة ألتي كانت موزعة بهدف الإغاره على الصليبيين الى منطقة صفد(٢) ولعل ذلك كان بسبب خوفه من هجوم صليبي من عكا على جيشه العائد من صيدا(٣) واكتمل عقد القوات الإسلامية على صفد

---

١) إبن عبدالظاهر ، ألروض الزاهر ،ص ٢٥٠ – ٢٥٣ ؛ ألمقريزى ، السلوك ، ج١ ،ق٢ ، ص ٥٤٤ ،٥٤٥ ؛ أليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٣٣٧ ؛ إبن تغرى بردى ، ألنجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٣٨ ؛ أبو الفدا ،ألمختصر، ج٤ ،ص ٣ ؛ إبن العماد الحنبلي ؛ شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٣١٤ ؛ ألذهبي ألعبر ، ج٥ ،ص ٢٧٥ ؛ إبن حبيب ،درة الأسلاك ،ج١ ،ص ٣٦ (   ) أليافعي ،جامع التواريخ المصرية ،ص ١٩١ (   ) ؛ شافع بن على ، حسن المناقب السرية ،ص ١٠٨ ، ألحريرى ، الاعلام والتبيين بخروج الفرنج ألملاعين ،ورقة ١٤١ (ب) ؛ ألذهبي ،دول الإسلام ،ص ١٦٩ ؛ ألنويرى ، نهاية الأرب ،ج٨ ،ص ٨٧

Selctions . From Tarik Ibn Alfurat . p 107 .

وحصن الأكراد هو حصن منيع على ألجبل ألذى يقابل حمص من جهة الغرب ويقع بين بعلبك وحمص ،وعرقة بلد في شرق طرابلس على سفح أحد الجبال ألمطلة على البحر ؛ (أنظر ياقوت ،معجم البلدان)، ويبدو أن حلفاء والقليعات قلعتان قريبتان من عرقه •

٢) Selctions . From Tarik Ibn Alfurat . p113 - 114 .

٣) عبدالعزيز الخويطر ،ألملك الظاهر بيبرس ،ص ٩١ •

في ثامن رمضان من سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م . حيث تحرك السلطان بيبرس من ناحية عكا ونزل على صفد ، وبدأ في حصارها وضربها بالمنجنيقات ألتي أحضرها من مدن الشام ونصبها المسلمون حول ألمدينة ، واستمر ألحال على ذلك حتى ثاني أيام عيد الفطر المبارك . وهنا يبدو أن السلطان الظاهر بيبرس أيقن أن ذلك الحصار لن يوءثر على صفد بسبب مناعة أسوارها وتوفر الموءن بداخلها ، فأصدر أوامره لقواته بالزحف عليها والاشتباك مع العدو ، وكان قد أمر بأن يعمل من النفط أشياء من السهام المطيبه والرماح ، وفرقت على الزراقين الذين دفعوا بها إلى داخل البلد في الوقت ألذى كان النقابون قد أوغلوا في نقب الأسوار ، فتهدمت منه مواضع ،فقام المسلمون بتوسيعها والدخول من خلالها إلى البلد ، ودارت بينهم وبين الصليبيين معارك عنيفة. وحاول المسلمون الصعود إلى الباشورة ، وواجههم الصليبيون بإحراق الستائر ألتي عليها ليمنعوا المسلمين من تسلقها . ولم يهن المسلمون لذلك بل ضربوا "سكك الخيل" في سفحها ، ولما أصبح الصبح كانت السناجق على سور الباشورة من كل جهة ، فاندفع الصليبيون إلى داخل القلعة وسلموا الباشورة للمسلمين وذلك في يوم الثلاثاء الخامس عشر من شوال ٦٦٤هـ/ ٢يوليو ١٢٦٥م . وأخذ المسلمون في نقب أسوارها . فخاف من بداخلها من الصليبيين ، وسيروا رسلهم إلى السلطان الظاهر بيبرس في طلب الأمان . فاجابهم إلى ذلك بشرط ألاّ يخرجوا منها بسلاح أو نقود ، ولايتلفون شيئا من مرافقها بنار أو هدم ، وأن يقوم المسلمون بتفتيشهم عند خروجهم ، فإن وجد مع أحد منهم شيئا من ذلك انتقض العهد(١).

---

١) إبن عبدالظاهر ،ألروض الزاهر ،ص ٢٥٤ - ٢٦٠ ؛ ألمقريزى ، السلوك، ج١ ،ق٢ ،ص ٥٤٦، ٥٤٧ ؛ إبن تغرى بردى ، ألنجوم ،ج٧ ،ص ١٣٨ ، ١٣٩ ؛ إبن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٤٦، ٢٤٧ ؛ ألحريرى، الإعلام والتبيين ،ورقة ١٤١ (ب) ؛ أليافعي ،جامع التواريخ المصرية ، ص ١٩١ ؛ إبن إياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٢٥ ====

على أن الصليبيين لم يلبثوا أن أخلوا بشروط السلطان بيبرس ونكثوا العهد ، فقد وجد السلطان أنهم عندما خرجوا من القلعة حملوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم . كما كشف معهم بعض الأسرى المسلمين أخرجوهم متظاهرين بأنهم من النصارى فأخذ بيبرس مامعهم ، وأنبهم على نقض العهد وضرب أعناقهم على تل بالقرب من صفد وهو المكان الذى كانوا يضربون فيه رقاب المسلمين ، ولم ينج منهم سوى رجلين أحدهما الرسول الذى أسلم وظل في خدمة بيبرس ، وثانيهما أطلق بيبرس سراحه ، وسمح له بالذهاب إلى عكا ليخبر الصليبيين بها بما شاهده .(١)

والذى يجدر ذكره هنا أن بعض المؤرخين الغربيين عدّوا ذلك العمل غدراً من جانب السلطان الظاهر بيبرس ، من ذلك قول ميور (Muir) "إن هذا الجرم الفظيع عزاه فريق إلى أن الأسرى حين خروجهم حملوا أسلحتهم ، وأمتعتهم ، كما أن فريقا آخر يرى إنه يرجع إلى أن بعض المسلمين وجدوا مسجونين بالقلعة . على ان هذه الاسباب لاتمحو عن ذلك الفاتح تلك النقط السوداء التي لصقت بإنسانيته بل بإيمانه "(٢)

=== ابن حبيب ،درة الاسلاك ،ج١ ،ص٣٦ (مخطوط) ؛ ابو الفدا ، المختصر ، ج٤ ،ص ٣ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص ١٦٩ ؛ العبر في خبر من غبر ، ج٥ ،ص ٢٧٥ ؛ ابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٣١٤ ؛
Selctions , Opcit . pp. 113 - 119 .
وعن الستائر انظر مايلي في الفصل الخامس .

١) ابن عبدالظاهر ، الروض ،ص ٢٦٢ ؛ السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٤٧ ، ٥٤٨ ؛ يذكر ان الشخص الذى اسلم ودخل في خدمة السلطان بيبرس كان فارسا من الداوية ؛ اما الثاني الذى ذهب الى عكا فكان من فرسان الاسبتاريه (جمال الدين سرور ،دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ٧٣ عن The Momeluke orsluve dynsty of Egypt. p 22).

٢) انظر مانقله الدكتور جمال الدين سرور ، المرجع نفسه ،ص ٧٣ ،عن Muir op cit.

كما حاول رنسيمان أيضا وسْم بيبرس بالخيانة وعدم الوفاء بالعهد حيث لم يذكر في معرض حديثه عن استيلاء السلطان بيبرس على صفد ، تلك الشروط ألتي شرطها بيبرس على الصليبيين مقابل تأمينهم وخروجهم منها • واكتفى بذكر ان الصليبيين عندما عجزوا عن حماية القلعة أرسلوا جنديا سوريا من عندهم اسمه ليو اعتقدوا في ولائه وإخلاصه إلى معسكر السلطان بيبرس ليعرض عليه تسليم الحصن • وعاد ليو بوعد من السلطان بان تنسجب الحاميه الى عكا دون ان تتعرض للاذى ، غير انه لما سلم الداويه القلعة إلى بيبرس وفقا لهذه الشروط أمر بقتلهم عن آخرهم • وهنا يعود رنسيمان فيتهم ليو الذى اعتنق الإسلام بعد ذلك بالخيانة ، وانه ربما نقل اليهم كلاما غير كلام السلطان فيقول في ذلك " وليس محققا ما إذا كان ليوقد تعمد الخيانة ، غير أن تحوله السريع إلى الإسلام ليس إلا دليلا على ذلك "(١)

والواقع ان مافعله السلطان بيبرس لايخرج عن كونه جزاءا طبيعيا لمن حل بهم ذلك العمل • إذ لم يتعد بيبرس بفعله هذا حدود ما أمّنهم عليه وشرطوه على أنفسهم • وهذا العمل كان يعتبر غدرا لو انه قتلهم بعد التأمين في وقت لم ينقضوا فيه العهد• أما وقد نقضوا العهد فليس فعله إذن من الغدر أو الخيانه في شيء(٢) كمايمكن الاستدلال مما ذكره ابن عبدالظاهر ألذى كان معاصرا للحدث نفسه بأن السلطان بيبرس ضرب رقاب الصليبيين بعد نقضهم العهد وعدم الوفاء بشروطه

---

١) رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٥٥١ •

٢) جمال الدين سرور ،دولة الظاهر بيبرس ،ص ٧٣ ؛ سعيد عاشور، الظاهر بيبرس ،ص ٦٦ ،٦٧ •

في نفس المكان الذى كانوا يضربون فيه رقاب المسلمين. انه لايستبعد علاوة على ذلك أن يكون السلطان الظاهر بيبرس قد وجد في ذلك المكان دليلا ماديا على قيام الصليبيين بقتل أسرى المسلمين عند عزمهم على الخروج من صفد. ولعل مما يوءيد ذلك ماذكر من ان صليبي عكا أرسلوا عقب ذلك إلى السلطان بيبرس يطلبون منه السماح لهم بنقل جثث القتلى إلى عكا لدفنها عندهم والتبرك بها على اعتبار انهم شهداء - على حد زعمهم - فرد عليهم السلطان الظاهر بيبرس بأن أمسك الرسول عنده ، وتوجه بنفسه على رأس فرقة من جيشه وهاجم مدينة عكا على حين غرة من أهلها ، ثم عاد إلى صفد ، وطلب الرسول وقال " عد اليهم فقد عملنا عندهم شهداء وكفيناهم مؤونة النقل والكلفة "(١) إذ يبدو ان هجوم السلطان بيبرس على عكا كان ردا على تجرئهم بطلب نقل جثث أولئك القتلة ناكثي العهد . كما ان هذا الطلب من أهالي عكا يدل في الوقت نفسه على مدى ماوصل اليه الصليبيون في بلاد الشام من ذل وتخاذل وهوان جعلهم يحاولون تقديم المساعدة لاخوانهم امواتا بعد أن عجزوا عن تقديمها لهم وهم أحياء .

ومهما يكن من أمر ، فإن السلطان الظاهر بيبرس ،بعد أن تم له الاستيلاء على صفد أمر بتخريب قلعتها . ثم عاد في السنة التالية وأعاد بناءها ليتخذها نقطة انطلاق للقوات الاسلامية في اعماله الحربية المقبله ضد المواقع الصليبية(٢)

---

١) ابن ايبك الدواداري ،الدرة الزكيه ،ص ١٤٨ .

٢) أنظر ابن شداد ،تاريخ الظاهر بيبرس ، ج٢ ،ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ ؛ سعيد عاشور ،الظاهر بيبرس ، ص ٦٧ ؛ حامدغنيم ، الجبهه الاسلامية ، ج٣ ،ص ١٤٢ .

وحول هذا النجاح العظيم الذى تحقق للسلطان بيبرس يقول رنسيمان "الواقع ان الاستيلاء على صفد هيأ لبيبرس السيطرة على منطقة الجليل"(١) هذا بالاضافة الى ان صفد بعد استيلاء بيبرس عليها غدت تشكل مركزا خطيرا للضغط العنيف على المواقع الصليبية القريبة ، ومن بين هذه المواقع مدينة عكا نفسها • وانه لم يكن لصفد ان تلعب هذا الدور الا بفضل ما هيأه لها السلطان الظاهر بيبرس من قوة واستعدادات • (٢) ظهرت واضحه في العبارات التي كتبها السلطان بيبرس على اسوار قلعة صفد عندما أعاد بناءها ، ومما جاء فيها قوله " أمر بتجديد هذه القلعه المحروسه وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها من خلّصها من أيدى الفرنج الملاعين وردها الى أيدى المسلمين ونقلها من مسكن إخوة الداوية إلى سكن إخوة المؤمنين ، فأعادها للايمان كما بدأها أول مرة ، وجعلها الكفار خسارة وحسرة ، ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكنائس بالجوامع والبيع بالمساجد ، وبدل الكفر بالايمان ، والناقوس بالآذان والانجيل بالقرآن ، ووقف بنفسه التي هي أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرؤوس • سلطان الاسلام والمسلمين ••• سيد التتار فاتح القلاع والحصون والامصار ، وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك ، اسكندر الزمان ، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين• " (٣)

---

١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٥٥١ ؛ والجليل جبل في ساحل الشام ممتد الى قرب حمص (أنظر ياقوت ، معجم البلدان)•

٢) حامد غنيم ، الجهه الاسلامية ، ج٣ ، ص ١٤٢ •

٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص ١٣٦ - ١٣٨ ؛ جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، في مصر ، ص ٧٤ ؛ أُنظر أيضا ، سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٦٧ ؛ يعتبر السلطان الظاهر بيبرس أول من تلقب بلقب قسيم أمير المؤمنين ، اذ كان الملوك المسلمون قبل ذلك يلقبون بألقاب تقل عن هذا اللقب مكانة ، مثل مولى =====

كمايذكر أيضا ان السلطان الظاهر بيبرس صعد إلى قلعة صفد ، وأمر بنقل الأسلحة إليها من الزردخاناه ، وشارك بنفسه المسلمين في حمل السلاح إلى داخلها ، ثم استدعى الناس من دمشق للاقامة بصفد ،وأقام في القلعه رجالا وقرر لهم نفقه قدرها ثمانين ألف درهم في الشهر .(١)

وهذا الاهتمام من السلطان بيبرس لم يكن مقصورا على صفد بمفردها بل انه شبيه بماسبق وأن أبداه في قيساريه وأرسوف ، وهو يلقى الضوء على أبعاد السياسة الحكيمة التي كان يسير عليها السلطان بيبرس بالنسبه للمناطق التي كانت تشكل نقطة انطلاق للقوات الاسلامية لتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام .(٢)

وللبرهنة على فعالية ذلك العمل ، فقد حرص بيبرس على تحقيق المزيد من الانتصارات على الصليبيين ، فاستولى في ذى القعده من العام نفسه على كل من هونين وتبنين والرملة ، فعمرها لتكون - على مايبدو- قاعدة انطلاق أخرى حيث سيّر إليها الرجال وولى عليها النوابة(٣) كما

=== أمير الموءمنين (أي عتيقه) أو خادم أمير الموءمنين فإن زيد في تعظيمه لقب ولي أمير الموءمنين ، ثم صاحب أمير الموءمنين ثم خليل أمير الموءمنين ، وهو أعلى مالقب به ملوك بني أيوب أما لقب السلطان بيبرس "قسيم أمير الموءمنين" فهو أجل من تلك الالقاب . (راجع السيوطي ،حسن المحاضره ،ج٢ ،ص ٦٦ ، أحمد مختار العبادى ،قيام دولة المماليك ،ص ١٨٨ ،١٨٩ حاشية رقم ٣.

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٤٨ ; Selctions . Opcit.p122

٢) حامد غنيم ، الجبهه الاسلامية ، ج٣ ،ص ١٤٣ .

٣) المقريزى ، المرجع نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٥٠ ; Selctions. Opcit123

وهونين : بلد في جبال عامله مطل على نواحي مصر ،والرملة : مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها (أنظر ياقوت ،معجم البلدان)

بلغه قبل نهاية السنه نفسها أن أهل قرية قارا وهم من النصارى ، كانوا يتعدون على أهل الضياع ويبيعون من يسرقونه من المسلمين الى الفرنج بحصن عكا . فأمر بيبرس قواته التي كانت قد عادت من غزوسيس بالتوجه إلى قارا لتأديب أهلها ومعاقبتهم على تلك الاعمال الفظيعه التي ارتكبوها ضد المسلمين. فانزلت بهم قواته خسائر فادحة وأخذت صبيانهم مماليك حيث سيروا إلى مصر ، فتربوا هناك"وصار منهم الاجناد والامراء"[(١)]

وبتأثير تلك الضربات الموجعة التي أنزلها السلطان الظاهر بيبرس بالصليبيين في هذه السنة ،بادر الاسبتارية إلى إرسال رسلهم الى السلطان يلتمسون منه اقرار الصلح على بلادهم من جهة حمص وبلاد الاسماعيلية ، فرد عليهم السلطان قائلا " ما أجيبكم إلى هذا إلا بشرط ابطال مالكم من القطائع على مملكة حماة ، وهي أربعة آلاف دينار ، ومالكم من القطيعه على بلاد بوقبيس ، وهي ثمانمئه دينار ، وقطيعتكم على بلاد الدعوة (طائفة الاسماعيلية) وهي ألف ومائتا دينار ، ومائه ألف مد حنطة وشعيرا نصفين" فرضخ الاسبتاريه لشروط السلطان وكتبت الهدنه بينهما ، بعد أن أضاف السلطان شرطا آخر خو أن فسخ الهدنه يكون بيده ومتى أراد على أن يعلمهم بذلك قبل مدة .[(٢)] وهنا يمكننا

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٥٣ ؛ أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص ٤ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣١٣ ؛ ابن ايبك الدوادارى ، ج٨ الدره الزكيه ،ص ١١٩ ، ١٢٠ ، Selctions from Ibn Alfurat . p. 126 .
وقارا أو قاره : قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص للقاصد الى دمشق (انظر ياقوت ،معجم البلدان).

٢) ابن عبدالظاهر ، الروض ،ص ٢٦٦ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب السرية ، ص ٩١ Selctions From Tarik Ibn Alfurat . p 124 .
بلاد بوقبيس : ذكره ياقوت على أنه أبوقبيس وهو حسن مقابل شيزر (انظر ياقوت ،معجم البلدان).

القول أن بيبرس ، حقق إضافه إلى هذا هدفا آخر اكثر أهمية وهو إدخال الفرقة والانقسام داخل صفوف الصليبيين في بلاد الشام . ذلك أن عقده صلحا منفردا مع طائفة الاسبتارية كان بلا شك سيغضب بقية العناصر الصليبية وعلى رأسها جماعة الداويه .

كما حقق بيبرس بهذا الصلح مكسبا ماديا لدولته ،فقد وصلت اليه رسل طائفة الإسماعيلية في جمادى الآخره من السنة التالية وصحبتهم جملة من الذهب وقالوا له "هذا المال الذى كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين لينفق في المجاهدين"(١)

ويبدو من هذا ان تحولا كبيرا طرأ على موقف طائفة الاسماعيلية من حركة الجهاد ضد أعداء الإسلام في القرون الوسيطة . فهذه الطائفة وبالاخص فروعها في بلاد الشام التي كانت تمثل عامل هدم في جدار حركة الجهاد ضد أعداء الاسلام في الشرق الأدنى ، والتي حاول أفرادها أكثر من مرة اغتيال السلطان العظيم صلاح الدين الايوبي أثناء جهاده ضد الصليبيين . تحول أفرادها في عهد دولة سلاطين المماليك إلى قوة تحرص على تقديم المساعدة ولو ماديا لهم للاسهام معهم في جهاد أعداء الاسلام المغول والصليبيين ، و مرد ذلك هو أن شعور الاحترام والاعتراف بزعامة دولة سلاطين المماليك للعالم الاسلامي آنذاك قد تطرق بلا شك الى صفوف هذه الطائفة .

---

١) انظر ابن عبدالطاهر ،الروض ، ص ٢٧٤ ؛ انظر ايضا Selctions. From Tarik Ibn Alfurat . p 127 .

وبهذا فقد تمكن السلطان الظاهر بيبرس في هذه السنة من تحقيق انجازات عملية عظيمة ضد الصليبيين ، تمثلت في اقتطاع أجزاء هامة من البلاد الاسلامية التي كانت تحت أيديهم ، ولكن هذا المسار مالبث أن اختلف بعض الشيء في سنة ٦٦٥هـ ، إذ أن طابع العنف والقتال الذى ساد سنة ٦٦٤هـ قلّ في هذه السنة الجديدة ، حيث هدأت حدة الصراع وواكب ذلك اكثر من محاولة في طريق المفاوضات والمهادنات ، والتي كان من الطبيعي أن تبدأ من جانب الصليبيين الذين ذاقوا مرارة الهزائم المتلاحقه في السنة الماضيه .(١) والتي قطع بيبرس من خلالها شوطا كبيرا في مشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام الذى تبناه منذ اللحظة التي تخلص فيها من الخطر المغولي .

وعلى كل فان السلطان الظاهر بيبرس لم يكن يفكر في شيء من محاولات الهدنه تلك لولا توسل الصليبيين أنفسهم إليه بذلك . يدلنا على ذلك ان نشاط السلطان بيبرس ضد الصليبيين لم ينقطع بنهاية سنة ٦٦٤هـ ، بل ظل مستمرا ، وبدأ منذ أوائل المحرم من سنة ٦٦٥هـ بارسال فرقة من جيشه الى جبلية حيث هاجمها المسلمون وجاسوا خلال أوديتها ثم عاودوا الى صفد .(٢) كما قام عسكره في الشهر نفسه بمهاجمة عكا ، وتكبيد الصليبيين بها خسائر فادحه ، وذلك ردا على تجروء الفرنج بعد أن وصلت اليهم نجدة من قبرص قدرت بنحو الف ومائة فارس على الاغارة على طبريه .(٣)

---

١) حامد غنيم أبو سعيد ، الجبهه الاسلامية ، ج٣ ، ص ١٤٤ .

٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٥٤ ؛ وجبلية يبدو انها قرية بالقرب من صفد .

٣) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٦٨ ، المقريزى ، المصدر نفسه ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٥٤ ، ٥٥٥ ؛ Selctions from Tarik Ibn AL-Furat . p 127 .

ومن هذا الهجوم الأخير ، يتضح لنا مدى ماوصل اليه السلطان الظاهر بيبرس من قوة وارتفاع في الروح المعنويه ، فاذا كان الصليبيون قد هاجموا مدينة صغيرة هي طبرية ، فإنه كافأهم بارسال قواته لمهاجمة اكبر وأعظم مدينة عندهم هي عكا . هذا بالاضافة إلى أن وصول النجدة من قبرص الى الصليبيين في الساحل كان - على مايبدو - ردا على اقدام طائفة الاسبتارية على عقد هدنة مع بيبرس في محاولة من قبرص للرفع من معنويات اخوانهم في بلاد الشام وعدم الاكثرات بما اقدم عليه الاسبتارية ولكن دون جدوى .

وفي جمادى الاخره من هذه السنة خرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر بعد أن أمضى بها مدة وجيزة ، ومعه الملك المنصور صاحب حماة على رأس عدد كبير من الجيش المصرى ، ونزل السلطان في غزة ، وسار الملك المنصور الى مملكته بعد أن مضى في طريقه وزار القدس . فخاف الصليبيون عاقبة ذلك التحرك الاسلامي ، وسارعوا بارسال رسلهم الى السلطان بغزة ، ومعهم الهدايا وعدد كبير من اسرى المسلمين .(١)

وبالرغم من ذلك التذلل والخضوع الذى ابداه الصليبيون للسلطان بيبرس طمعا في توقفه عن مهاجمة البلاد التي تحت أيديهم ، فإن هذا القائد المسلم ،بدافع حرصه الشديد على تصفية الوجود الصليبي

== وطبرية : بليدة مطلة علي البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية في طرف جبل وجبل الطور مطل عليها ، وهي من اعمال الاردن في طرف الغور (أنظر ياقوت ،معجم البلدان) ويقال إن بها قبر نبي الله شعيب ،وقبر ابنته زوج الكليم موسى ، وقبر ينسب إلى نبي الله سليمان بن داود) بجامعها المعروف بجامع الانبياء، ويقال أيضا انه بالقرب منها جب يوسف ،واسمها مشتق من اسم طيباريوس(Tibeius أحد قياصرة الروم الاوائل ،(انظر ابن عبدالطاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص ٣٧ ،حاشيه رقم (٣) .

١) ابن عبدالظاهر ، الروض ،ص ٢٨٠ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ، =====

من بلاد الشام ، كان يرقب بكل دقة أى تحرك للصليبيين مهما كان نوعه لاستغلاله في تأديبهم وإنهاك قواهم ، وفي هذا يذكر المقريزى ، انه في تلك الايام التي تلقى السلطان بيبرس فيها رسل الصليبيين ، بلغه ان جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة وتبقى في ظاهر البلد الى ضحوة النهار ، فسرى بيبرس ببعض عسكره الذين أمرهم بالركوب خفية ، فلم يشعر الصليبيون بعكا الا وهم على بابها . فأدبهم بيبرس على ذلك الخروج وبات تلك الليلة وأصبح على حاله ثم عاد الى صفد . (١)

وفي صفد قدم على السلطان بيبرس رسل من صاحب سيس ، ومعهم هدية له . وصادف وصولهم ، وجود رسل الصليبيين في صفد في تكرار طلب الهدنة من السلطان بيبرس . والذين ردهم بعد أن رفض إجابتهم الى الصلح بسبب إغارتهم على بلاد الشقيف . (٢)

ولم يكتف السلطان بيبرس مقابل اغارة الصليبيين على بلد الشقيف برد رسلهم ورفض طلبهم الصلح ، بل ركب في شعبان من السنة نفسها (مايو ١٢٦٧م) وخرج معه المسلمون من صفد الى عكا ، ولم يعلم به أحد

Selctions . From Tarik Ibn Alfurat. p128 ؛ ق٢ ، ص ٥٥٨ ===

١) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٢٨١ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ ؛ شافع بن على ؛ حسن المناقب السرية ، ص ١٢١ .

٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٢٨١ ؛ المقريزى ، المصدر نفسه ، ص ٥٥٩ . Selctions From Tarik Ibn Alfurat . p 129
وسيس عاصمة أرمينية الصغرى ، كانت مدينة كبيرة ذات أسوار منيعة ، على جبل مستطيل ولها بساتين ونهر صغير وهي الان بلدة في جنوب آسيا الصغرى (أنظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ١٣٩ حاشية رقم (٣) .

إلا وهو على أبوابها فهاجم المدينة ، وأنزل بها خسائر جسيمة في العتاد والارواح ، ثم أمر رجاله فخربوا الأبنيه ، وردموا الآبار وقطعوا الاشجار نكالا بأهلها وعاد بعدها بقواته الى صفد .[١]

وأمام تلك الضربات المتتالية التي وجهها المسلمون للصليبيين في عكا سارعت معظم القوى الصليبية بإرسال رسلها الى السلطان الظاهر بيبرس ، تعتذر وتعلن التوبة والندم ، وتطلب الصلح معه . وهنا استغل بيبرس ذلك الحال ، وانتهج سياسة ماكرة وناجحة إزاء تلك القوى ، فلم يرفض طلبها جميعا في الصلح حتى لا تتكتل ضده ، وفي الوقت نفسه لم يجبها جميعا الى ذلك وإنما اختار أن يعقد الصلح من بعضها دون البعض الآخر حتى يتمكن من القضاء عليها واحدة بعد أخرى .[٢]

إضافة إلى أن بيبرس كان - على مايبدو - قد سمع بنية المغول الاغارة على حلب وهذا ماحدث بالفعل في أوائل سنة ٦٦٦هـ.[٣] قاصدا بذلك أن يتفادى الاشتباك مع عدوين قويين في وقت واحد . فوافق على عقد الصلح مع رسل مدينة صور في رمضان من سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م بعد أن وافقوا على دفع دية لغلام له سبق وأن قتلوه . وكذلك بينه وبين الاسبتارية على حصن الاكراد والمرقب ، ثم مع ملكة بيروت التي قامت عندما أمن أخوها جماعة من التجار في طريقهم الى قبرص حين احتاج مركبهم الى

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض ،ص ٢٨١ ، ٢٨٢ ؛ المقريزى ، السلوك ،ص ٥٥٩ ؛ رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٥٥٥ ؛
Selctions . Opcit . p 130 .

٢) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ،ص ٦٩ ؛ أنظر جمال الدين سرور ،دولة الظاهر بيبرس ،ص ٧٥ .

٣) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ،ص ٢٩١ ؛ Selctions From Tarik - Ibn Alfurat . p 133 .

إصلاح ،ثم عاد فغدر بهم وأمسكهم. بإرسال مندوبين من قبلها الى السلطان بيبرس على صفد ، فطلب منهم السلطان أن يحضروا إليه مال هوءلاء التجار وثمن مركبهم ويطلقوا سراحهم ، فاجابوا طلبه وعقد الصلح معهم .(١)

والواقع ان هذه المهادنات تبين ماكانت عليه القوات الاسلامية آنذاك من رفعة وسوءدد ، في الوقت الذى آلت فيه القوات الصليبية الى الاستكانه والضعف .(٢) ويبدو ذلك واضحا من نصوص هذه الهدنة التي يظهر لنا أن بنودها أعدت كاملة من قبل السلطان الظاهر بيبرس ،بينما اكتفى الجانب الصليبي بالاقرار عليها فقط . وقد نصت أهم بنود الهدنة على أن يكون أمدها بين الطرفين عشر سنين وعشرة أيام وعشر ساعات تبتدئ من يوم الاثنين الرابع من رمضان سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ، والا تنقض بموت أحد الطرفين ، وأن يتولى أمر سكان هذه البلاد فيما يختص "بالحبس والاطلاق والجباية" نائب من قبل السلطان بيبرس ونائب من قبل الاسبتار فان كانوا مسلمين حكم فيهم بحكم الشريعة الاسلامية ،وان كانوا مسيحيين عوملوا بمقتضى الشريعة المسيحية ، أما فيما يختص بالبلدان فقد نصت هذه المهادنة على أن يكون الكثير منها مناصفة بين المسلمين والصليبيين .(٣)

---

١) ابن عبدالظاهر ،الروض ،ص ٢٨٣ ،٢٨٤ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج٢٠ ،ورقة ٥٣٤ ؛ أنظر أيضا ،المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٥٩ ، ٦٦٠ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب ،ص ١٢١ Selctions From - Tarik Ibn Alfurat . p 131 - 132 .

٢) جمال الدين سرور ،دولة الظاهر بيبرس ،ص ٧٦.

٣) لمزيد من التفصيل ،راجع القلقشندى ،صبح الاعشى ،ج١٤ ،ص ٣١ – ٣٩ ؛ وأنظر كذلك جمال الدين سرور ،المرجع نفسه ،ص ٧٦ .

ولعل أهم نتيجة ترتبت على هذه المهادنه ألتي عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع بعض المعاقل الصليبية في بلاد الشام دون البعض الاخر هي إدخال الفرقة والانقسام داخل صفوف الصليبيين هناك. ذلك أن بيبرس إذا كان قد هادن الاسبتارية ، فانه رفض أن يهادن الداوية مما جعله مطلق اليد في مهاجمة الداوية في حصونهم ، وهو آمن من جانب أية مساعدة يقدمها اليهم إخوانهم الاسبتارية ، وكذلك الحال بالنسبة لبيروت وصور ألتي وافق على مهادنتها ، وحرص في الوقت نفسه على عدم مهادنة عكا وطرابلس وانطاكية. مما أتاح له فرصة كبيرة للعمل ضد الصليبيين في سواحل بلاد الشام والشمالية والجنوبية.[1] حيث اضحت بعض المراكز الصليبية ميدانا لجهاد المسلمين ضدها ، في الوقت الذى ظلت البقية الباقية تقف موقف المتفرج بعد أن قيدها السلطان بيبرس بتلك المعاهدات ألتي تعتبر - في حد ذاتها - نصرا سياسيا أحرزه عليها.

ولما كانت مدينة يافا واحدة من هذه المراكز التي رفض بيبرس عقد الهدنة معها - رغم محاولة اهلها ذلك -[2] فقد كانت أولى المدن الصليبية التي هاجمها المسلمون في السنة التالية. ذلك ان السلطان الظاهر بيبرس ما إن سمع بأن أهل يافا من الصليبيين يحملون الميرة الى عكا التي كان حريصا على منع أى معونه تصلها ، كما انهم استحدثوا حانة واستخدموا فيها بعض النساء المسلمات قسرا. حتى أمر قواته في العشرين من جمادى الاخرة من سنة ٦٦٦هـ/٧ مارس ١٢٦٨م بالمسير إليها

---

١) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ،ص ٦٨ ، ٦٩ .

٢) ذكر ابن عبدالظاهر ، ان قسطلان يافا حضر الى السلطان بيبرس في صفد وسأله استمرارالهدنه مع ولد صاحب يافا بعد وفاةوالده ،فامتنع السلطان عن ذلك وقال له " الذى كان معي صلحا قد مات" أنظر الروض الزاهر ،ص ٢٩٣ .

ومهاجمتها على حين غفلة من أهلها . فوصلها المسلمون وأحاطوا بها من كل جانب ، وتمكنوا من فتح ابواب المدينة ودخلوها ثم زحفوا على قلعتها واستولوا عليها في اليوم نفسه . وحل بها ماحل بسابقتها من الهدم والتخريب ، ثم أمر السلطان بجمع اخشابها ورخامها ونقله عن طريق البحر الى القاهرة ، حيث استعمل الخشب في بناء مقصورة الجامع الظاهرى [١] بالحسينية ، والرخام لمحرابه . ثم أمر ببناء الجوامع والمساجد ، وإظهار شعائر الاسلام بها ، وازالة المنكرات منها ،

---

١) انشأه السلطان الظاهر بيبرس في ميدان قراقوش خارج باب الفتوح من القاهرة في سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م (أنظر المقريزى ، الخطط ،ج٢ ،ص ٢٩٩ وما بعدها) . يقع هذا الجامع بين شارعي الظاهر والعباسية ،وكان من اكبر الجوامع بالقاهرة . يبلغ مسطحه ١١٨٨٠ مترا مربعا وهو مايقارب ثلاثة افدنه ، ويذكر ان هذا الجامع تعطلت منه اقامة الشعائر من أول القرن العاشر الهجرى وذلك بسبب سعته وتعذر الصرف عليه ، ثم تخرب وسقطت قبته الكبيرة التي كانت فوق ايوان المحراب ثم سقطت مئذنته ولم يبق منه الا جدرانه الخارجية المبنيه بالحجر النحيت ، وقد جعل في العهد العثماني مخزنا للمهمات الحربية كالخيام والسروج وغيرها ثم جعل قلعة وتكنة للجنود زمن الحملة الفرنسية ثم جعل مخبزا للجرايه ومعملا للصابون في زمن محمد على باشا الكبيرثم مذبحا للجيش في عهد الاحتلال الانجليزى ، وبطل الذبح فيه من سنة ١٩١٥م وظل يعرف باسم المذبح ، وفي سنة ١٩١٨ م غرست مصلحة التنظيم ارض صحن الجامع وجعلته متنزها عاما ، وفي سنة ١٩٢٨ عمرت لجنة حفظ الاثار العربية الجزء الواقع عند المحراب وجعلته مصلى (أنظر ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ،ج٧ ، ص ١٦١ حاشية المحقق رقم (٢)).

ورتب الخفراء على سواحلها ، والزمهم بحمايتها ، وأمر بأن يصرف المال المتحصل منها على مصالحها ، ثم قسم المدينة واقطعها لعدد من امرائه .(١)

ولما كان شقيف أرنون – أحد حصون الفرسان الداوية – ذا موقع هام يشبه صفد في اهميتها لدى السلطان الظاهر بيبرس ،بحكم ان موقعه يجعله يسيطر على جميع المناطق المحيطة به والقريبة منه .(٢) فقد أمر السلطان عساكره بعد استيلائه على يافا بالتوجه اليه للانضمام الى القوة الاسلامية التي كان بيبرس قد وجهها في السر منذ خروجه من مصر في السنة الماضية لمحاصرة الشقيف ومنع وصول الامدادات الخارجية اليه مع تفادى الاشتباك مع من به من الصليبيين .(٣)

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٢٩٢ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ، ق٢، ص ٥٦٤ ،٥٦٥ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٣٧٤ ،٣٧٥ ؛ أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص ٤ ،٥ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص ٢٥١ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ،،ج٢ ،ص ٣١٣ ؛ ابن حبيب ،درة الاسلاك ،ج١ ،ص ٣٨ ،٣٩ ؛ الحريرى ،الاعلام والتبيين ،ورقة ١٤١ ب ،١٤٢ أ ؛ ابن اياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق٢ ،ص ٣٣٠ ؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر ،ج٥ ،ص ٢٨٣ ؛ دول الاسلام ، ص ١٧٠ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٣٢١ ،٣٢٢ ؛ الحنبلي ،الانس الجليل ص ٨٦ ؛ الدواداری ،الدرة الزكيه ،ج٨ ، ص ١٢٤ .

Selctions . Opcit . pp 135 - 136 .

٢) عبدالعزيز الخويطر ،الظاهر بيبرس ،ص ٩٨ .

٣) ابن‌عبدالظاهر ،المصدر نفسه ،ص ٢٩٢ ،٢٩٤ .

ويبدو ان تلك القوات المرابطة على حصن الشقيف قد اخبرت السلطان بيبرس بعد عودته من يافا الى صفد لتفقد عمارتها . بماهو عليه من الحصانة والمنعة، فأمر بيبرس وهو على صفد بأن تحمل المنجنيقات منها الى الشقيف وفي التاسع عشر من رجب من سنة ٦٦٦هـ انضم السلطان بنفسه الى جيشه الذى كان على الشقيف ، وأخذ المسلمون في ضرب اسوار الحصن بالمنجنيقات . من كل جانب ،واتفق في ذلك الوقت ان الصليبيين بهذا الحصن كانوا قد سيّروا مندوبا من قبلهم الى من بعكا من الصليبيين يعلمونهم بحالهم ، ويذكرون لهم عورات الشقيف . وحدث أن تمكن السلطان بيبرس من الاطلاع على مضمون جواب أهل عكا ، وعلم منه أسماء الصليبيين المقدمين في حصن الشقيف . فكتب لهم "أمانات بأسمائهم"[1] وجعلت في السهام ، ورمي بها الى داخل الحصن . وطلب في الوقت نفسه أحد التراجمة العارفين بلغة الفرنج وطلب منه ان يكتب عوضا عن أجوبة اهل عكا " وعكس عليهم القضايا" ورمي بها كذلك الى الداخل ، فوقع الاختلاف بين الصليبيين داخل حصن الشقيف ،وانقسموا على انفسهم .[2] وتمكن المسلمون خلال تلك المدة من إكمال نصب المنجنيقات

---

١) يبدو أن ابن عبد الظاهر يقصد بالامانات هنا رسائل وعلامات تدل على اعطاء الامان للقادة الصليبيين داخل الحصن .

٢) انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ،ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ . ذكر الدواداري رواية اخرى تختلف بعض الشيء عن رواية ابن عبد الظاهر ، مفادها ان السلطان بيبرس عندما اطلع على كتاب اهل عكا استفاد منه "امارات بينهم" فاستدعى من كتب له بلغتهم وضمن كتابه بعض تلك الامارات ليوهم الصليبيين داخل الحصن ان الكتاب من اهل عكا . ثم كتب يحذر الكمندور بالشقيف من الوزير المقيم عنده ، ومن جماعة كانت اسماءهم في الكتاب ، وكتب كتابا اخر الى الوزير يحذره من الكمندور ،ويأمره ان احتاج الى مال ان يأخذه من ملك كان اسمه في ذلك الكتاب (انظر الدرة الزكية ،ص ١٢٥٠) ; Selctins From Tarik Ibn Alfurat . p. 139 .

والتي بلغت ستة وعشرين منجنيقا واخذت في ضرب الحصن واشتد زحف المسلمين عليه ، فادرك من بداخل الحصن الذى كان به قلعتان ان عددهم لايكفي للدفاع عنها ، فاحرقوا احداهما ، واتلفوا مابها ، فتسلمها المسلمون وتقدموا بمنجنيقاتهم لمهاجمة القلعة الثانية ، فادرك الصليبيون عجزهم عن المقاومة ، وسألوا السلطان الظاهر بيبرس الأمان على انفسهم ، وان يكونوا اسارى لديه ، فاجابهم السلطان الى ذلك ،ورفعت اعلام المسلمين على الحصن في يوم الاحد آخر شهر رجب (١٥ ابريل) ايذانا بسقوط الشقيف في أيديهم ، وسلم الصليبيون أنفسهم ، وأطلق السلطان سراح النساء والاطفال ، وأرسل معهم من آمنهم الى صور • واستقرت الشقيف بيد السلطان بيبرس ،حيث قام بتوزيع الغنائم على عساكره ، وخلع على الملوك والامراء الذين كانوا معه ، ثم أمر بهدم قلعة استحدثها الصليبيون بالحصن واقام على القلعة القديمة نائبا من قبله ، ثم أمر بتجديد عمارة الشقيف •(١)

وباستيلاء السلطان الظاهر بيبرس على شقيف أرنون والابقاء على قلعته وتجديد عمارته ، بات يملك مركزا هاما يمكنه من الضغط على صيدا في الشمال ، وصور في الجنوب • كما ان هذا الحصن وقدأصبح في أيدى المسلمين ، اصبحت عليه مهمة حماية ظهر صفد ، التي اهتم السلطان بيبرس بها لاتخاذها نقطة انطلاق لمهاجمة القوى الصليبية في بلاد الشام •

---

١) ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٢٩٨ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص ٢٥١ ؛ ابو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ٤ ،٥ ؛ابن حبيب درة الاسلاك ، ج١ ،ص ٣٨ ،٣٩ (مخطوط) ؛ الحريرى ،الاعلام والتبيين ، ورقة ١٤١ب ،١٤٢ أ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٣٠ ؛ الذهبي ، العبر ،ج٥ ،ص ٨٣ ؛ دول الاسلام، ص ١٧٠ ؛ ابن العماد الحنبلي ،شذرات ،ج٥ ،ص ٣٢١ ،٣٢٢ ؛ ابن ايبك الدوادارى ،الدرة الزكية ، ج٨ ، ص ١٢٥ ؛ Selctins from Tarik Ibn Alfurat . p 104 .

والأهم من ذلك ان فرسان الداوية ، فقدوا بسقوط الشقيف واحدا من أهم معاقلهم .[١] في الوقت الذى تمكن بيبرس باستيلائه عليه من اضافة نصر كبير الى مشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام الذى بدأه منذ اعتلائه عرش الدولة المملوكية .

وبعد الاستيلاء على الشقيف اتجه السلطان الظاهر بيبرس الى طرابلس واغار عليها في منتصف شعبان من سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م ولم يجروء بوهيمند السادس على منازلته . فعمد بيبرس الى مهاجمة القرى المحيطة بها وغنم منها غنائم كثيرة[٢] ثم رحل عنها وتلقاه صاحب صافينا وانطرسوس وقدم له فروض الولاء والطاعة ، وأطلق سراح ثلاثمائة أسير كانوا عنده ، فشكره السلطان بيبرس ،ولم يتعرض لبلاده[٣]

---

١) حامد غنيم أبو سعيد ،الجبهة الاسلامية ،ج٣ ،ص ١٤٧ .

٢) ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ٥٦٦ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٢ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ،ج٢٨ ،ص ٩٣ ( ) ؛ الدواداری ،الدرة الزكيه ،ج٨ ،ص ١٢٥ .

٣) ابن عبدالظاهر ،المصدر نفسه ،ص ٣٠٦ ؛ المقريزى ،المصدرنفسه ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٦٦ ؛ أنطر سوس ،بلد من سواحل البحر المتوسط وهي آخر اعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص (انظر ياقوت ،معجم البلدان) وصافينا : من أشهر حصون الداويه في بلاد الشام ،وبه برج يسميه الصليبيون القصر الابيض ،ويقع الى الجنوب الشرقي من أرواد ، وتقع كل تلك المناطق على الجبال التي تسمى حاليا بجبال العلويين المشرفة على ساحل الشام فيما بين اللاذقيه وطرسوس (أنظر جوزيف نسيم ،العدوان الصليبي على بلاد الشام ،ص ٢٣٥ حاشية (٢) ؛ على الغامدى ،بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،ص ٢٦١ حاشية رقم (٤)).

ويبدو ان تلك الغارة السريعة التي نفذها السلطان الظاهر بيبرس على ممتلكات بوهيمند السادس في طرابلس وماحولها، والتي لم يبد بوهيمند اى مقاومة ضدها ،قد اطلعت السلطان بيبرس على ماكان عليه هذا الامير الصليبي من الاستكانة والضعف ، فعزم بيبرس على مهاجمته في مقره الرئيسي انطاكية . ولكن السلطان بيبرس بحنكته السياسية وبراعته الحربية رأى ألا يجاهر بمقصده ذلك لئلا يلجأ بوهيمند الى طلب المساعدة من القوى الصليبية داخل بلاد الشام وخارجها . فعاد بيبرس بقواته بعد ان أغار على طرابلس وماحولها الى حمص ونزل بها في السابع والعشرين من شعبان سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م ، وتفقد احوالها ، ورسم ببناء مسجد بها ، ثم خرج بقواته منها الى حماه . ولا أحد يعرف أى جهة يقصد . وهناك قسم جيشه ثلاث فرق ، فأمر الاولى بالتوجه الى السويدية ، والثانيه الى دربساك ،وسار هو بالثالثة الى أفامية . ويبدو انه أوعز سرا الى قادة هاتين الفرقتين بوجهته الحقيقية فوافاه الجميع بعد ان اغاروا على السويدية ودربساك على انطاكية في مستهل رمضان من السنة نفسها (١٥ مايو ١٢٦٨م.[(١)]

وتعتبر انطاكية من أكثر مدن الشام تحصينا ، فالمرتفعات تحيط بها من جهتي الجنوب والشرق ، ويكتنفها نهر العاصي من جهة الغرب في حين تكثر الغياض والمستنقعات بشمال المدينة ويحرسها سور بالغ التحصين به ثلاثمائه وستون برجا ، وتقع قلعة أنطاكيه على قمة جبل داخل

---

١) ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٣٠٧ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ،ص ٣٨٢ ؛ الدواداري، الدره الزكيه ،ص ١٢٦ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٤٢ ،١٤٣؛ والسويدية ،من بلاد الشام على ساحل البحر الابيض المتوسط وهي ميناء لانطاكية (انظر أبو الفدا ،تقويم البلدان).

أسوار المدينة • وقد زاد البيزنطيون في تحصين انطاكية خلال فترة بقائها تحت حكمهم (٣٥٨ – ٤٧٧هـ/٩٦٩ – ١٠٨٤م) مما جعل اقتحام المدينة عنوه أمرا في غاية الصعوبة.[1] وزاد ذلك ما اضافه الصليبيون فيها من تحصينات بعد فرض سيطرتهم عليها •

ويبدو ان تلك الحصانة التي كانت تتمتع بها أنطاكيه جعلت السلطان بيبرس يأمر طلائعه في بداية الامر بمناوشة المدينة ،لاشغال الصليبيين – على مايبدو – بجهة معينة في الوقت الذى اصدر أوامره الى قواته باحاطة المدينة من كل جوانبها • وحدث اثناء ذلك ان اشتبكت طلائع السلطان مع جماعة من الصليبيين ، وأسر المسلمون آحد الكنود الصليبيين الكبار ثم ارسلوه الى السلطان بيبرس ،فأحسن استقباله وآكرم نزله ، ويبدو ان السلطان كان يرغب في ذلك الوقت وقف تيار القتال حقنا للدماء [2] فأحضر ذلك الرجل الصليبي وطلب منه ان يدخل الى أنطاكيه ويتوسط لاهلها بان يلقوا اسلحتهم ويسلموا المدينة• فوافق الرجل ، وأرسله بيبرس الى المدينة بعد أن أخذ ابنه رهينة عنده • وتحدث معهم في ذلك فامتنع الصليبيون، وابدوا له تصميمهم على الدفاع عن أنطاكية • وحينئذ أنذر السلطان الظاهر بيبرس المدينة ثلاثة أيام • ثم أمر قواته بعد ذلك بالزحف على المدينة من كل جانب وذلك في يوم السبت رابع رمضان من سنة ٦٦٦هـ/١٨مايو ١٢٦٨م • وقاتلها المسلمون قتالا شديدا ، ثم تسلقوا

---

١) ابن الشحنة ،الدّر المنتخب ،ص ٢٠١ ،٢٠٢ ؛ ياقوت،معجم البلدان ،ج ١ ؛ رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج١ ،ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ؛ حسن حسني ، الحروب الصليبية الاولى ،ص ١١٠ – ١١١ ؛ العريني ،الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ص ٢٣٤ ؛ على الغامدى ،بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ،ص ١٧٦ ،

٢) جمال الدين سرور ،دولة الظاهر بيبرس ،ص ٧٨ •

الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة ، ونزلوا داخل المدينة حتى لايفر منها احد . واجتمع بالقلعة عدد كبير من الصليبيين المقاتلين غير النساء والاطفال . وكانت القلعة ضيقة فتزاحم الصليبيون بها ، وشح عليهم الماء وقلت الأزواد ، ولما شاهد ثلاثة أشخاص من كبار رجال القلعه ذلك الحال السيء ،هربوا في الليل من القلعه ولاذوا بالجبال ولما أصبح أهل القلعة لم يجدوا منهم أحدا ، ففت ذلك في عضدهم ، وخارت قواهم ، وبعثوا الى السلطان بيبرس في ذلك اليوم الاحد يعلنون استسلامهم ويطلبون منه الأمان من القتل ، على ان يوءخذوا اسرى . فقبل السلطان ذلك واخليت القلعة من الصليبيين ، وتسلم كل أمير جماعة منهم ، وتسلم السلطان القلعة بنفسه ثم سلمها لاثنين من كبار امرائه وأمر بحصر الغنائم وقسمها بين افراد جيشه .[1] ثم أرسل إلى بوهيمند السادس - وكان اذ ذاك مقيما بطرابلس - رسالة تهكم باسلوب لاذع يخبره بما حل بحاضرة ملكه ورجاله من إذلال،وضمنها عبارات كلها تقريع وسخرية .[2]

---

١) ابن عبدالطاهر ، الروض ،ص ٣٠٧ - ٣٠٩ ، ٣١٣ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان، ج٢ ،ص ٣٨١ ، ٣٨٢ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٦٧ ، ٥٦٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٤٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص ٢٥١ ؛ الدواداري ، الدرة الزكيه ،ص ١٢٦ ، ١٢٧ ؛ شافع بن علي، حسن المناقب ،ص ١٢٧ ، ١٢٨ ؛ ابو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص ٤ - ٥ ؛ ابن حبيب ،درة الاسلاك ،ج١ ،ص ٣٨ ، ٣٩ ( ) ؛ ابن اياس ،بدائع الزهور ، ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٣٠ ؛ النويرى ،نهاية الارب ، ج٢٨ ،ص ٩٤ - ٩٦ مخطوط ؛ البرزالي ، المقتفى لتاريخ ابى شامه ،حوادث سنة ٦٦٦هـ ؛ ابن خلدون ، العبر ،ج٥ ،ص ٣٨٧ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣١٣ ؛ الذهبي ، العبر ،ج٥ ،ص ٢٨٣ ؛دول الاسلام ،ص ١٧٠ ؛ الحنبلي ، الانس الخليل ،ص ٨٦ ؛ ابن العماد الحنبلي ،ج٥ ،شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .

٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٣٠٩ ، ٣١٣ ؛ العيني ،عقد الجمان ، ج٢٠ ورقة ٥٣٩ - ٥٤٢ - (انظر نص الرساله في الملحق رقم ٩)

وكان استيلاء السلطان الظاهر بيبرس على أنطاكيه أعظم فتح حققه المسلمون على حساب الصليبيين في بلاد الشام منذ انتصار صلاح الدين عليهم في معركة حطين واسترداد بيت المقدس منهم في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م . لذلك كان لهذا النصر العظيم رنة فرح عظيمة بين المسلمين ، وكتبت البشائر به الى الاقطار الشامية والمصرية ، حيث أقيمت الزينات والافراح ابتهاجا بذلك الفتح . اما بالنسبة للصليبيين ، فقد كان استعادة انطاكية منهم أعظم من مجرد كارثة حربية . فبصرف النظر عما لهذه المدينة من مكانة كبرى في تاريخ المسيحيين بصفة عامه ، فانه لايخفى علينا أن أنطاكيه كانت من أولى الأمارات ألتي اسسها الصليبيون في الشرق الاسلامي إبان الحملة الصليبية الاولى سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م.[1] وانها منذ ذلك الوقت ظلت بمثابة القلعة الكبرى للصليبيين في بلاد الشام. لذلك جاء سقوطها على يد بيبرس في هذه السنة ايذانا بانهيار البناء الصليبي بالشام .[2]

ولا بد لنا ان نتساءل ، لماذا بدأ السلطان الظاهر بيبرس ،بالاستيلاء على إمارة أنطاكيه الصليبية في أقصى الشمال الغربي لبلاد الشام وترك بقية القوى الصليبية القريبة منه في الوسط والجنوب ؟ وللإجابة على هذا يمكننا القول ان بيبرس قصد بذلك ـ على مايبدو ـ معاقبة الامير الصليبي بوهيمند السادس ، الذى كان قد انضم الى صهره هيثوم الاول ملك ارمينية الصغرى وتحالفا مع المغول ، وساعداهم في اكتساح بلاد الشام . هذا بالاضافة الى أن بيبرس كان بهذا العمل قد قطع

---

١) عن تأسيس هذه الإمارة الصليبية ، انظر ،حسن حبشي ،،الحروب الصليبية الاولى ، ص ١١٠ ومابعدها .

٢) سعيد عاشور ،الظاهر بيبرس ،ص ٧٢ ؛ العصر المماليكي ، ص ٦٤ .

كل أمل للقوى الصليبية في الساحل وبالأخص بوهيمند نفسه الذى كان في ذلك الوقت مقيما بطرابلس من محاولة الحصول على أية مساعدة خارجية من طرف أرمينية الصغرى . كما انه لايستبعد إضافة ذلك ، ان السلطان الظاهر بيبرس بعد أن لمس تخاذل الصليبيين ، واستكانتهم وضعفهم اراد على سبيل التهكم بهم واحتقارهم أن يصفي تلك الامارات الصليبية من المشرق الاسلامي الواحدة تلو الاخرى ، حسب تاريخ تأسيسها . فاذا كانت إمارة الرها هي أول إمارة صليبية قامت في المشرق وقد قضى عليها السلطان المسلم عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م.(١) فإن إمارة أنطاكية التي أُسست بعدها قد لقيت نفس المصير على يد السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م .

ومهما يكن من أمر فقد ترتب على سقوط انطاكية في أيدى المسلمين أن حلّ الوجل والخوف بالمراكز الصليبية القريبة منها فاسرعت بعض القوى المجاورة لانطاكية إلى خطب ود السلطان ،باسترضائه وكسب عفوه ، في حين لجأ البعض الاخر الى الاستسلام له خوفا أن يحل بهم ماحل بانطاكية واهلها . من ذلك انه وفد على السلطان بيبرس بعد استيلائه على انطاكية آهل حصن القصير ، فبذلوا له نصف ممتلكاتهم ، وكتب لهم هدنة بعد ان ملك منهم ذلك .(٢) أما من بحصن بغراس من الداوية فقد حل بهم الذعر ، ففروا عنه وتركوا الحصن خاليا ،فارسل السلطان بيبرس فرقة من جيشه استولت عليه في الثالث عشر من رمضان سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨ م . وغنم المسلمون مابه من الذخائر والاموال ،وتسلم أيضا حصون ديركوش

---

١) لمعرفة تأسيس هذه الامارة الصليبية ،وسقوطها في أيدى المسلمين ، انظر ،عليه الجنزورى ،[illegible] إمارة الرها الصليبية ؛ مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين في المشرق الاسلامي قبيل قيام الدولة الايوبية .

٢) ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٣٢٥ ؛ الدوادارى ،الدرة الزكية ، ص ١٢٧ ؛ البرزالي ،المقتفى لتاريخ ابى شامه ، حوادث سنة ٦٦٦هـ .

وشقيف كفردين وشقيف كفر تلميش . وأضحت جميعها في عداد حصون الاسلام .(١)

ولم يقتصر ذلك على المراكز الصليبية المحيطة بانطاكية ،بل تعداه ، الى أهم مركز للصليبيين في بلاد الشام آنذاك مدينة عكا نفسها ، التي حرص من بها من الصليبيين على الاتصال بالسلطان الظاهر بيبرس وطلب المفاوضة والصلح . وقد تولى أمر هذه المفاوضة هيو الثالث ملك قبرص الذى ولى العرش بها بعد وفاة والده هيو الثاني.(٢) اذ يبدو أن تلك الانتصارات العظيمة التي حققها السلطان بيبرس ضد الصليبيين في بلاد الشام اقلقته ،فأرسل الى صاحب صور ، وطلب منه التوسط في ايجاد جو سلمي بينه وبين السلطان بيبرس . وقد استقبل بيبرس رسل الملك هيو في دمشق فور عودته من انطاكية وكتب الأسس لمعاهدة تعقد بينهما ، وأرسلها مع رسل من عنده ، ليأخذوا موافقة هيو عليها . وكان من بين الامور التي عرضها السلطان بيبرس على هيو هو اعترافه للصليبيين بملكيتهم لعكا ومايتبعها من بلاد وهي احدى وثلاثون ضيعة ،وبقية بلادها

---

١) ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ ؛ أبوالفدا ،المختصر، ج٤ ،ص ٥ ؛ الدواداري ،الدرة الزكيه ،ص ١٢٧ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب السريه ، ص ١٣٥ ؛ ابن كثير ، البدايه والنهايه ،ج١٣ ،ص٢٥١، ٢٥٢ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٣٨٤ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٤٣، ١٤٧ .

٢) كان هيو الثاني ،ملك قبرص ،قد مات في ربيع الاخر عام ٦٦٦هـ/ ديسمبر ١٢٦٧م وعمره أربعون عاما ، وكان الوصي على عرشه هو هيو دولو سنان فخلفه على العرش ،وتوج باسم هيو الثالث في ٢٧ ربيع الثاني عام ٦٦٨هـ/٢٤ ديسمبر ١٢٦٩م . (انظر الروض ،ص ٣٣٢ ؛ رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ، ص ٥٦١ ؛ عبدالعزيز الخويطر ،الظاهر بيبرس ، ص ١٠٢) ولم يلبث هيو الثالث أن توج ايضا فياجتماع هام عقد ======

مناصفه بينهما ،وأبدى استعداده أيضا ان يعترف لهم بحيفا وثلاث ضيعات معها • ونصف بلاد الكرمل ، وعثليث وخمس من قراها ، ومن القرين عشر قرى ،وسهل صيدا ،على أن يترك لبيبرس النصف الثاني من حيفا ، ونصف أراضي عثليث ، والباقي من أراضي القرين ،والاراضي الجبلية من منطقة صيدا • على أن تكون مدة الهدنة بين الطرفين عشر سنوات ، والا ينقضها قادم من خارج المنطقة ، كأن يأتي ملك من وراء البحار • وأشارت الاتفاقية الى وجوب إخلاء سبيل الأسرى وفي الختام اشترط السلطان بيبرس أن تدخل قبرص واراضي الاسماعيلية ضمن هذه الاتفاقية • ولما قدّم رسل بيبرس مشروع هذه الاتفاقية لهيو في الرابع والعشرين من شوال سنة ٦٦٦هـ/٧ يوليه ١٢٦٨م • لم يوافق هيو على بعض ماورد فيها • خاصة وأنه رغب في ان يكون لقبرص اتفاقية منفصلة ، وهذا يعني ان بيبرس سوف يضطر الى التنازل عن امتيازات أخرى • وعن حقه في بعض الممتلكات التي كان يأمل ضمها الى ممتلكاته • وكان هيو يوءمل أيضا في ان يخرج الاسماعيلية من هذه المعاهدة ،ولعل السبب في ذلك هو حرمان بيبرس من هذه الممتلكات أيضا • وقد أصر هيو على وجهة نظره ،واعترض على بعض أمور وردت في مشروع الاتفاقية يعتبرها بيبرس جوهرية ،ولهذا لم توقع الاتفاقية •(١)

== بصور ملكا على مملكة الصليبيين بالشام ، وبذلك ثم توحيد المملكتين الصليبيتين بالشرق تحت تاج واحد (انظر سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ،ص ٤٧ ؛ الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٥٠) •

١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٣٢ ،٣٣٣ ؛ عبدالعزيز الخويطر، الملك الظاهر بيبرس ،ص ١٠٢ ،١٠٣ ؛ أنظر أيضا ،المقريزى السلوك ، ج١ ،ق ٢ ص ٥٧١ ؛ الكرمل ،حصن على الجبل المشرف على حيفا بسواحل البحر المتوسط ،والقرين : اكتفي ياقوت في تعريفه بأنه موضع ذكره الشاعر ذو الرمة بقوله :

بردفن خشباء القرين وقد بدا لهن الى ارض الستار زبالها

(انظر ،معجم البلدان) ويبدو لنا ان القرين مجموعة قرى على ساحل البحر المتوسط•

ويبدو ان من الأسباب التي دفعت هيو الثالث إلى ذلك ماكـان يواجهه من ضغط خارجي مصدره فرنسا . يدلنا على ذلك ماذكره ابن عبد الظاهر الذى أنهى حديثه عن هذه الاتفاقية بأن الملك هيو الثالث كان كلما تكلم في الصلح. يقول "أنا أخاف من الملك جارلا (شارل) اخى ريدا فرنس (لويس التوسع) . ولا أقدر أبت صلحا خوفا منه "(١)

ويبدو أيضا ان اصرار الملك هيو على رفض توقيع هذه الاتفاقيـة التي كان صاحب صور قد توسط فيها بين هيو والسلطان الظاهر بيبرس بالاضافة الى ماذكر من ان السلطان بيبرس عندما خرج من مصر في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م الى بلاد الشام ، وافته امرأة فشكت إليه انها وابنتها كانتا أسيرتين لدى صاحب صور ، وأنهما قد فدتا نفسهما بالمال ولما أطلق سراحهما ، سير أهل صور خلفهما واجبروا الفتاه على العودة الى صور ، ولما طالب بيبرس بهذه الفتاة رد عليه صاحب صور بأنها تنصرت كما أقدم الصليبيون بصور على إمساك بعض الرجال المسلمين ، وقتل نفرين منهم . كل ذلك دفع السلطان بيبرس إلى الاغاره على صور في شهر رمضان من هذه السنة ، فانزل بها خسائرفادحة ، وقطع عنها الميرة نكالا بأهلها ، وأمر بأن تصادر منتجات الاراضي الزراعية المحيطة بها (٢)

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض ،ص ٣٣٣.

٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ،ص ٣٤٧ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ،ص ٤٠٨ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٧٨ ، ٥٧٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٤٦ ؛ يذكر العيني في عقد الجمان ، ج٢٠ ، المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ ، ٥٥٠ ،ان السبب الذى من اجله أغار بيبرس على مدينة صور انه عندما خرج من دمشق بعساكره الى الديار المصرية ،جاءته امرأة في اثناء الطريق واخبرته بأن ابنها لما دخل الى صور غدر به صاحبها ،واخذ ماله فشن بيبرس الغارة على صور وغنم منها غنائم كثيرة (أنظر أيضا ،جمال الدين سرور ،دولة الظاهر بيبرس ،ص ٨١ حاشيه رقم ١).

ويبدو ان ذلك النجاح الباهر الذى حققه السلطان الظاهر بيبرس ضد الصليبيين في بلاد الشام ، قد آثار الروح الصليبية- التي لم تخمد جذوتها نهائيا - في الغرب الاوربي مرة اخرى . ففي المحرم من سنة ٦٦٨هـ/ أول سبتمبر ١٢٦٩م ، أبحر من برشلونة جيمس الأول ملك ارجوان باسطول قوى قاصدا الشرق . وفي الطريق صادف اسطوله عاصفة عاتية أثارت من الرعب والاضطراب ماحمل الملك جيمس والشطر الأكبر من اسطوله على العودة الى وطنه ، بينما واصل الشطر الآخر الرحلة باتجاه الشرق وعلى رأسه ولدان غير شرعيين للملك هما فرناندوسانكير ، وبدورفرنانديز.(١)

وفي ربيع الاول من سنة ٦٦٨هـ/أكتوبر - نوفمبر ١٢٦٩م بلغ السلطان بيبرس نبأ وصول تلك الحملة الصليبية الجديدة إلى عكا ، وان هناك هجوما موحدا سوف يوقم به الفرنج والمغول على اراضي دولته فخرج بيبرس على الفور على رأس عددا قليل من الجيش المصرى قاصدا بلاد الشام ، ودخل دمشق في السابع من ربيع الثاني ٦٦٨هـ/ ديسمبر ١٢٦٩م .(٢)

ويبدو ان وصول هذه الحملة الصليبية الجديدة ،قد رفع الروح المعنوية لدى الصليبيين في عكا ، فخرج أهلها صحبة الفرنج الوافدين وخيموا بظاهرها . ولم يأبهوا بخروج السلطان الظاهر بيبرس من مصر الى الشام ، إذ لم يتوقعوا مهاجمته لهم لقلة من خرج معه من الجيش المصرى .(٣) وهنا يتجلى لنا مظهر جديد من صنوف البراعة الحربية

---

١) رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٥٦٧.

٢) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٣٦٢ ؛ اليونبيني ،ذيل منرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ؛ الخويطر ، الظاهر بيبرس ،ص ١٠٦.

٣) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ،ص ٣٦٢ .

التي كان عليها السلطان بيبرس . إذ يبدو انه تعمد الخروج من مصر بذلك العدد القليل ، ليوهم الصليبيين الذين تجرأوا على نصب معسكرهم خارج عكا بانه لاينوى مهاجمتهم آنذاك . في الوقت الذى كان يضمر داخل نفسه كبسهم على غرة بجيوشه المتفرقة في اقطاعاتها في مدن الشام القريبة من عكا. ففي الوقت الذى تظاهر فيه بالخروج في رحلة صيد في المناطق القريبه من دمشق ، أوكل سرا إلى عدد من امرائه باحضار عدد القتال وتجميع العساكر الشامية من اقطاعاتها وموافاته في مرج برغوث الذى كان يتظاهر بأنه خرج إليه متصيدا. واكتمل عقد هذه القوات عنده في يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شهر ربيع الثاني من السنة نفسها . وتقدم بها حتى وصل المرج. وهناك آكمن بتلك القوات . وكان في الوقت نفسه قد أصدر أوامره إلى كل من مقدم عسكر عين جالوت ،وعسكر صفد بالاغارة الخاطفة على الصليبيين في معسكرهم في اليوم التالي وهو الثاني والعشرين من الشهر نفسه ، ورسم لهم بأن يتظاهروا بعد هجومهم الخاطف بالهزيمة امام الصليبيين .وبالفعل فما ان رأى الصليبيون ذلك حتى اندفعوا بعددهم وعددهم خلف المسلمين يتقدمهم الكونت أوليفر (Count Oliver) الفرنسي المعروف "بزيتون" . فاستغل بيبرس اندفاع الصليبيين خلف عسكر عين جالوت وصفد وانقض بقواته وأحاط بالعدو من كل الجهات . ودارت بين الطرفين معركة حامية انتهت بانكسار الصليبيين ، واقتفى المسلمون أثرهم للاجهاز عليهم ، وكان ممن قتل أخو زيتون نفسه ،وابن أخت ملك أرمن[1]

وبهذا النصر العظيم تمكن السلطان الظاهر بيبرس من كبح جماح الغرب الاوربي ، الذى كان بعض حكامه ينظرون بين آونه وأخرى بعين

---

١) ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٣٣١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ؛ رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٥٦٧ ، ٥٦٨.

العطف لاخوانهم في ساحل بلاد الشام ، وذلك بإرسال المدد والنجدات اليهم لتقوية الروح الصليبية في نفوسهم وتدعيمهم بالدماء الجديدة لتشجيعهم على الصمود امام ضربات المسلمين المتتالية عليهم . إذ يبدو انفشل حملة صاحب أرجوان هذه قد أثرت حتى على ملك فرنسا لويس التاسع الذى اختارته البابويه في سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م للخروج على رأس حملة صليبية الى الشرق ، فاختار في هذه المرة ان تكون وجهته تونس[١] بعد أن أدرك عجز الغرب باكمله عن تحقيق انتصار في الاراضي المصرية أو بلاد الشام .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الانتصار العظيم الذى أحرزه بيبرس ضد الصليبيين الوافدين الى عكا ، جعله يسير قدما نحو تحقيق هدفه الاسمى وهو تصفية ممتلكات بوهيمند السادس الذى كان قد لجأ الى طرابلس عقب استيلاء المسلمين على انطاكية ، فبعد ان اطمئن السلطان الظاهر بيبرس على حدود مصر الغربية بعد فشل حملة لويس التاسع على تونس ، غادر القاهرة في جمادى الاخرة من سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م. قاصدا بلاد الشام حيث دخل دمشق في رجب من السنة نفسها . ومنها خرج للاغارة على طرابلس.[٢] ولعله قصد بهذه الغارة الخاطفة اشغال صاحبها بوهيمند بالدفاع عنها وصرفه عن مساعدة الحصون القريبة منها التي كان بيبرس ينوى السيطرة عليها ،ليسهل عليه بعد ذلك احكام الحصار حول طرابلس نفسها.[٢] وبدأ السلطان بيبرس بالاستيلاء على صافيتا ألتي كانت

---

١) لمعرفة تفصيل حملة لويس التاسع على تونس انظر(جوانفيل ،القديس لويس،ص ١١٢ومابعدها ؛ أنظر أيضا ،محمد محمد أمين ،شمال افريقيه ـ والحركة الصليبية ،مقالة مستخرجة من مجلة الدراسات الافريقية العدد الثالث سنة ١٩٧٤م ص ١٥٨ - ١٦١ ؛ لوثروب ستودارو ،حاضر العالم الاسلامي ،م٢ ،ج٣،ص ٢١٣ ؛ محمود سعيد عمران ،معالم تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ،ص ٢٢٧.

٢) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٩٠.

٣) عبدالعزيز الخويطر ،الظاهر بيبرس ،ص ١١٠ .

تابعة للداوية . كما استولى على بعض الحصون والابراج المجاورة مثل تل خليفة وغيره . وفي رجب من السنة نفسها / فبراير ١٢٧١م شرع بيبرس في مهاجمة حصن الاكراد ، وهو من اقوى الحصون وامنعها ببلاد الشام ، وكان تابعا لفرسان الاسبتارية . وتمكن من أخذ قلعته عنوة في سادس عشر شعبان (اوائل يوليو) ورتب به نائبا من قبله وأمر باعادة عمارته.[1]

ولم يكد بيبرس ينتهي من حصن الاكراد حتى وصله مقدم الداوية بانطرسوس يطلب الصلح منه ، ولما وصلته رسل الاسبتارية بحصن المرقب للغرض نفسه فصالحهم السلطان بيبرس على أساس الاعتراف بحق الداوية في انطرسوس ،والاسبتارية في المرقب مقابل ان يسلموا له بَلْدة وأعمالها وجميع الاراضي التي كان الداوية والاسبتارية قد استولوا عليها في أيام الملك الناصر يوسف ،وان يتخلوا عن حصتهم في خراج تلك الاراضي، وكان قبل ذلك يقسم بينهم وبين المسلمين ، والا تجدد عمارة بالمرقب.[2]

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٦٩هـ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٣٧٤ — ٣٧٦ ؛ المقريزى، السلوك ،ج١ ،ق٢ ، ص ٥٩٠ — ٥٩١ ؛ اليونيني،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٤٤٤، ٤٤٥ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، القسم الثاني ،ص ١١٦ — ١١٨ ؛ ابن تعرى بردى، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٥٠ ، ١٥١ ؛ابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب، ج٥،ص ٣٢٨ ؛ وصافيتا : قلعة من حصن الاكراد ؛ انظر ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٧ ،ص ١٥٠ حاشية رقم (٨) .

٢) ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه ،ص ٣٨٧ ، ٣٧٩ ؛ المقريزى ، المصدر نفسه ، ج١ ،ق٢ ،ص ٥٩١ ، ٥٩٢ ، اليونيني ، المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٤٤٨ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ،ج٧ ،ص ١٥١ ؛ حصن الاكراد ،حصن منيع على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب ،والمرقب بلد وقلعة حصينة ،تشرف على ساحل البحر المتوسط (انظر ياقوت ،معجم البلدان) .

ولكي يشدد السلطان بيبرس الخناق على الصليبيين في طرابلس اتجه بعد ذلك الى حصن عكار شمالي طرابلس ، وهاجمه في رمضان من السنة نفسها (ابريل ١٢٧١م) حتى اضطرت حاميته للتسليم .[١]

ولم يبق بعد ذلك أمام السلطان الظاهر بيبرس سوى مهاجمة طرابلس نفسها . فارسل كتابا إلى الأمير بوهيمند السادس صاحبها يتوعده ويذكره بما حدث لحصن الاكراد وحصن عكار ، ويطلب منه ان يتدبر موقفه ويسلم طرابلس جاء فيه "فنعرّف كنائسك وأسوارك أن المنجنيقات تسلّم عليها الى حين الاجتماع عن قريب ، وتعلم أجساد فرسانك ان السيوف تقول انها عن الضيافة لاتغيب ، لأن أهل عكار ماسدوا لها جوعا ولا قضت من ريّها بدمائهم الوطر ، وما اطلقوا الا لما عاقب شرب دمائهم ،وكيف لا وثلاثة ارباع عكار عكر...؟"[٢]

وبالفعل فقد شرع السلطان الظاهر بيبرس في شوال من سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م في الاستعداد لمهاجمة طرابلس . الا ان نبأ وصول الامير ادوارد الانجليزى الذى صار فيما بعد ادوارد الأول ملك انجلترا[٣] الى عكا

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكره ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٦٩هـ ؛ ابن عبدالظاهر الروض الزاهر ،ص ٣٧٩ ،٣٨٠ ؛ ابن شداد ،الاعلاق الخطيره ،القسم الثاني ،ص ١١٦ – ١١٨ ؛ المقريزى ،المصدرنفسه ،،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٩٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٥١ ،١٥٢ ؛ اليونيني،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٤٤٨ .

٢) النويرى ،نهاية الأرب ،ج٢٨ ،ورقة ٢٥٦ ؛ أنظر أيضا،سعيد عاشور، الظاهر بيبرس ،ص ٧٩ .

٣) كان ادوارد الاول (٦٧٠هـ – ٧٠٧هـ /١٢٧١ – ١٣٠٧م) رجلا طموحا وسياسيا محنكا قوى الاراده صبورا في الحرب . ويعتبر عهده من اكثر العهود نجاحا في تاريخ انجلترا(انظر محمود سعيد عمران ،معالم تاريخ اوربا العصور الوسطى ،ص ٢٦٩ .

في رمضان من السنة نفسها ،وصحبته ثلاثمائة فارس وعدد من المراكب البحرية ، دفع السلطان بيبرس - الذى خاف ان يكون وصول ذلك الامير الى عكا ،مقدمة لحملة صليبية كبيرة على بلاد الشام - إلى قبول العرض الذى تقدم به بوهيمند السادس وتم عقد الصلح بين الطرفين على ان يكون بينهما هدنة لمدة عشر سنين .(١)

والواقع ان هذه الاتفاقية التي عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع بوهيمند السادس صاحب طرابلس ، جاءت بمثابة فصل الختام في حركة الجهاد الكبرى التي بدأها السلطان بيبرس ضد الصليبيين في بلاد الشام (٢) اذ رأى بعد ذلك ان يتجه لمعاقبة القوى الارمينية التي كانت قد انضمت الى جحافل المغول اثناء اكتساحهم للعراق وبلاد الشام . على أمل ان يعود بعد ذلك لاكمال مشروع تصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام. إلا ان القدر لم يمهله حيث توفى بعد أن أدب الأرمن وأسيادهم المغول . ليترك أمر ذلك لمن جاء بعده من سلاطين المماليك - كماسنرى.

جهاد بيبرس في أرمينيه الصغرى

لم يتخل ملوك أرمينية الصغرى عن محالفة اسيادهم المغول حتى بعد هزيمتهم المروعة في عين جالوت، إذ استمر كل من هيثوم الاول ، وليو الثالث في النيل من المسلمين ،كلما سنحت لهما الظروف .

---

١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٣٨٣ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان، ج٢ ،ص ٤٥٠ ، ٤٥١ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١،ق٢ ،ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ص ١٥٢ .

٢) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ،ص ٧٩ ، ٨٠ .

والواقع ان هذا لم يكن السبب الوحيد الذى دفع السلطان بيبرس الى ترك مشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ، والاتجاه لمعاقبة حكام أرمينية الصغرى ،اذ يمكن القول ان السلطان الظاهر بيبرس الذى كان قد كال الضربات المتلاحقة للصليبيين وتوج جهوده بالسيطرة على انطاكية . أدرك ـ على مايبدو ـ أن نجاحه ذلك قد أحيا من جديد الروح الصليبية التي كادت جذوة نارها أن تخمد في الغرب الاوربي. وان وصول الامير الانجليزى ادوارد الأول دليل على ذلك . لذا رأى بيبرس ان يوجه جهوده نحو مملكة ارمينية الصغرى التي تغص بالمسيحيين الشرقيين الذين عرفوا بالميل فقط الى بوهيمند السادس زوج ابنة ملكهم هيثوم . علّه بذلك يمتص الحماس المتجدد الذى نبت من جديد في غرب اوربا .

كما ان هناك عامل ثالث دفع بيبرس إلى الاتجاه للجهاد ضد ارمينية هو العامل الاقتصادى . ذلك انه اذا كانت سلطنة المماليك قد بنت قوتها وعظمتها على أساس فكرة احتكار الجزء الاكبر من النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، فانه كان من الطبيعي ان تتأثر تلك السلطنة من أية قوة أخرى تحاول ان تجتذب ذلك النشاط التجارى الواسع . اذ ان ذلك سوف يوءثر في دخل دولة المماليك وبالتالي في قوتها . فقد لجأت دولة أرمينية الصغرى على مضاربة سلطنة المماليك في نشاطها التجارى حيث لجأت الى تطويق نشاط التجارة البرية الواصلة من آسيا الى مصر عن طريق البر من ذلك مايرويه أبو المحاسن بن تغرى بردى من ان جماعة من التجار خرجوا سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م من بلاد العجم قاصدين مصر ،فلما مروا بسيس ، منعهم صاحبها هيثوم من العبور ،وأرسل بشأنهم الى أبغا حاكم مغول فارس ، فطلب منه أبغا الحوطة عليهم وارسالهم اليه ، وعندما بلغ الخبر السلطان الظاهر بيبرس ، بادر بارسال تعليماته الى نائبه على حلب يطلب منه الاتصال بصاحب سيس وإنذاره بانه اذا تعرض

لهؤلاء التجار بشيء يساوى درهما واحدا فسوف يأخذ عوضه "مرارا" فاطلقهم .(١)

كما يذكر كل من ابن عبدالظاهر ،وابن الفرات انه حدث في سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م أن كثر فساد أهل كينوك وتعديهم على التجار والقصاد المسلمين ، وكتب السلطان بيبرس إلى صاحب سيس بذلك فلم تفد فيه المكاتبة ، وصار الارمن يلبسون زى المغول ،ويخرجون لاعتراض القوافل. الأمر الذى أغضب السلطان بيبرس ،فأصدر أوامره الى صاحب حلب بالخروج لمهاجمة كينوك والانتقام من أهلها.(٢) ويبدو ان هذا الضرر الاقتصادى لم يقتصر على إعتراض الأرمن لقوافل التجارة ،بل تعداه الى شيء أهم كان يمثل جانبا كبيرا من دخل الدولة المملوكيه إلى جانب كونه خضوعا أرمينيا لسلطة هذه الدولة حيث يذكر ابن الفوطي، ان هيثوم الأول الذى كان قد راسل السلطان بيبرس وهادنه على خراج يحمله هيثوم اليه في كل سنة مَطَلَه في سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م الأمر الذى جعل بيبرس يرسل قوة في هذه السنة لتأذيبه .(٣)

كما يمكننا القول انه بعد سيطرة السلطان بيبرس على انطاكية ، وتطويق الامارات الصليبية في بلاد الشام ،أصبحت دولة المماليك تجاور مملكة ارمينية الصغرى التي تقع في جنوب آسيا الصغرى عند الطرف الشمالي الغربي لبلاد الشام ، وأصبحت كثير من الثغور الشامية متداخله بين

---

١) ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٨١ ؛ سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ومملكة ارمينيه الصغرى ، ص ٢٤٨ .

٢) ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٤١٧ ؛ ابن الفرات ،ج٧ ،ص ٢ ؛ ابن شداد ،الاعلاق الخطيرة ،ج ٣ ،ص ٣١٠ .

٣) انظر ابن الفوطي ،الحوادث الجامعة ،ص ٣٥٥ .

الدولتين ، ومن الطبيعي أن يوءدى ذلك التجاور بينهما إلى الاحتكاك المباشر ، سيما وان مملكة ارمينية الصغرى ،قد مارست دوراً صليبيا كبيرا منذ الحروب الصليبية ، وقامت بدورها الصليبي ، ضد المسلمين خير قيام . ولهذا لا نعجب اذا ما اتجه الظاهر بيبرس لمعاقبة مملكة ارمينية الصغرى ، وتقليم أظافرها حتى لاتبقى شوكة في جانبه اثناء جهاده لاقتلاع جذور الوجود الصليبي في بلاد الشام .

ومهما يكن من أمر فان استمرار تعلق الأرمن بمغول فارس ،واستغلال الفرص المناسبه للنيل من دولة المماليك المسلمين ، كان السبب المباشر الذى دفع السلطان الظاهر بيبرس إلى نقل ميدان جهاده الى تلك المنطقة التي لم يهمل أمرها حتى إبان انشغاله بجهاد الصليبيين في الفترة الماضية . فبالرغم من محاولة ملك أرمينيه هيثوم الأول استرضاء السلطان بيبرس بارسال سفرائه اليه.[1] فان بيبرس لم يكتف بتحريض نائبه في حلب على مناوشة أهل سيس لاشغالهم عنه اثناء جهاده ضد الصليبيين في انطاكيه .[2] وإنما رأى ان ينتهز فرصة غياب هيثوم عن بلاده عندما خرج الى المغول في فارس يطلب المساعدة منهم . وقرر مهاجمة ارمينية . حيث توجه بنفسه الى دمشق سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م للاشراف على تجهيز الحملة التي أزمع توجيهها الى أرمينية الصغرى،ويبدو أن الارمن أحسوا بذلك ، فبادروا بارسال رسلهم بهدية الى السلطان الظاهر بيبرس وهو في صفد في محاولة لاثنائه عن مهاجمتهم ، الا انه لم يقبلها وقرر مهاجمتهم .[3] ويحتمل ان اصراره هذا كان بسبب

---

١) شافع بن على ،حسب المناقب ،ص ١٠٢ ؛سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ، ومملكة أرمينية الصغرى ،ص ٢٤٩ .

٢) المقريزى ، السلوك ج١،ق٢ ،ص ٤٧٦ ؛ سعيد عاشور ، المرجع نفسه ،ص ٢٤٩.

٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٣٩ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، في أخبار البشر ،ج٣،ص ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٣٤٣؛ عاشور ،سلطنة المماليك ،ص ٢٤٩ .

ماسبق الإشارة اليه ـ من مماطلة هيثوم للظاهر بيبرس بإرسال الخراج المقرر عليه في هذه السنه .(١)

جهز بيبرس هذه الحملة واسند قيادتها الى الملك المنصور صاحب حماة ، فخرج وبصحبته الامير سيف الدين قلاوون ،وتوجها في خامس ذى القعدة من سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م فوصلا الى الدربساك ومنه دخلا الدربند أرمينيه والتقيا مع الجيش الأرمني، ودارت الدائرة على الأرمن ،وتمكن المسلمون من قتل الامير ثوروس بن هيثوم ، وأسر أخيه ليو واقتفى المسلمون أثر الجيش الأرمني يقتلون ويأسرون حتى دخلوا مدينة سيس نفسها وخربوها وغنموا فيها غنائم كثيرة ، كما أغاروا في الوقت نفسه على جهة قلعة الروم وعلى المصيصة وأذنة واياس وطرسوس .(٢) كما تمكن

---

١) راجع ماسبق ، ص ٤٢ .

٢) ابن شداد ،الاعلاق الخطيرة ج١،ص ٣١٠ ؛ ابن عبدالظاهر ،ص ٢٦٩ - ٢٧١ ؛ النويرى،نهاية الارب ،ج٢٨ ،ورقة ٢٨ ( ) ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٢ ،ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٥١ ، ٥٥٢ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ٤٠٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ،ج١ ، ق ١ ، ص ٣٢٥ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ، ج٢ ،ص ٣١٢ ، ٣١٣ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب السرية ،ص ١١٥ ؛ابن كثير ،البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص ٢٤٧ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص ١٧٥ ؛ العبر،ج٥ ،ص ٣٠١ ؛ ابن خلدون ،ج٥ ،ص ٣٨٦ ؛ ابن الشحنة ،الدر المنتخب من تاريخ حلب، ص ١٨٧ ، الحريرى ،الاعلام والتبيين ،ورقة ١٤٢ ب ؛ الدربساك : يبدو ان المقصود به مابين طرسوس وبلاد الروم ؛ قلعة الروم ،قلعة حصينة في غربي الفرات مقابل البيره بينها وبين سميساط ؛ المصيصه : مدينة على شاطيء صيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب انطرسوس ؛ أذنه : بلد من الثغور أيضا قرب المصيصة ؛ إياس ،كانت مدينة ثغرية واقعة على شاطيء البحر المتوسط (انظر السلوك ج١ق٢ ،ص ٦١٧، ٦١٨ .

السلطان بيبرس خلال المفاوضات التي دارت بينه وبين هيثوم حول اطلاق سراح ابنه المأسورمن الحصول على عدد من القلاع التي كان الأرمن قد أخذوها من المسلمين وهي بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشيح الحديد.(١)

وزاد موقف أرمينيه سوءاً عندما استولى السلطان الظاهر بيبرس على انطاكية . إذ انقطعت بذلك صلة الصليبيين في طرابلس وعكا بالأرمن وتبخرت إلى الأبد فكرة إمكان تحقيق تحالف بين الصليبيين في ساحل بلاد الشام وأرمينية الصغرى والمغول في فارس من أجل ضرب عدوهم المشترك دولة المماليك المسلمين .(٢)

وهكذا ظل الأرمن متشبثين بمغول فارس بوصفهم القوة الوحيدة القريبة منهم التي يمكن أن تحميهم من ضغط دولة المماليك ،فقبل أن يتخلى

---

١) النويرى ،نهاية الارب ،ج٢٨ ، ص ٦٧ (مخطوط) ؛المقريزى ،السلوك ، ج١، ق٢ ،ص ٥٦٩ ،٥٧٠ ؛ شافع بن على ،حسب المناقب ،ص ١٣٦ ،١٣٧ ؛

الدربساك : يبدوا أن المقصود به مابين طرطوس وبلاد الروم .

قلعة الروم : قلعه حصينه في غربي الفرات مقابل البيره بينها وبين سميساط .

الصيصه : مدينه على شاطيء صيحان من ثغور الشام بين انطاكيه وبلاد الروم تقارب انطرسوس .

أدنه : بلد من الثغور ايضا قرب الصيصه .

أياس : كانت مدينه ثغريه واقعه على شاطيء البحر المتوسط (انظر السلوك ج١، ق٢ ،ص ٦١٧ ، ٦٠٨) .

طرسوس : مدينه بثغور الشام بين انطاكيه وحلب وبلاد الروم .

٢) سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ومملكة ارمينيه الصغرى ،ص ٢٥٢ .

~~ورعبان : مدينه بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات .~~

هيثوم الأول عن العرش لإبنه ليو الثالث سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م.(١) ، اصطحبه الى بلاط المغول في فارس . ويبدو أن هيثوم قصد بذلك تقديم ابنه إلى إيلخان المغول أبغا لإطلاعه على مدى قدرته وصلاحيته لولاية عرش مملكة أرمينية الصغرى . يدلنا على ذلك ماذكر من أن ليو الثالث اتجه عقب اعتلائه عرش الأرمن إلى أبغا يطلب منه الاعتراف به ملكا على أرمينية الصغرى .(٢)

وبدأ ليو الثالث حياته السياسية بطموح كبير انصب على محاولة إحياء التحالف الفعلى بين القوى المسيحية في الشرق والغرب ومغول فارس لمواجهة خطر المماليك الذى بات يهدد تلك القوى جميعها . فأرسل عدة نداءات الى الغرب الاوربي يدعو حكامه الى تحقيق هذا التحالف ، ويبدو أن هذه المبادرة قد تمت باتفاق أبرم في الخفاء بين ليو وإيلخان المغول أبغا . حيث قام الاخير بايفاد رسله الى البابوية في روما وإلى الملك الانجليزى ادوارد الأول للغرض نفسه . إلا ان انشغال الغرب الاوربي بمشاكله الداخلية آنذاك حال دون نجاح ذلك المشروع .(٣)

---

١) اعتزل الملك هيثوم الحكم في أرمينية فعلا في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م وقضى بقية حياته منزويا في أحد الأديرة (أنظر ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر، ص ٢٧٠ ؛ سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ،ص ٢٥٣).

٢) سعيد عاشور ،المرجع نفسه ،ص ٢٥٣ ؛ وايلخان : كلمة تركية مركبة من لفظين هما : ايل بمعنى تابع ، وخان بمعنى حاكم أو ملك أو رئيس عشيره ، وبذلك يكون معنى ايلخان ، الملك التابع أى حاكم إحدى الولايات في الدولة المغوليه ويتبع الخان الأعظم في قراقورم الذى يحكم الدولة كلها . وقد أطلق هذا اللقب على بيت هولاكو ابتداءا من أبغا عندما أسند اليهم حكم إيران ، ثم ألصق بحكام المغول في إيران بعد استقلالهم عن الدولة المغولية الأم (أنظر عبدالسلام فهمي ،تاريخ الدولة المغوليه ،ص ٤ ـ ٥ حاشية).

٣) سعيد عاشور ،المرجع نفسه ،ص ٢٥٣ .

على ان هذا العمل العدائي الذى فشل ليو في محاولة توجيهه ضد دولة المماليك في بلاد الشام ، فضلا عن قطع الهدايا التي كان مقررا عليه ايصالها إلى الظاهر بيبرس ، ومخالفته لشروط الهدنة التي نصت على الا يجدد بناء ، ولايحصن قلعة ، والا يسمح للارمن بلبس زى المغول واعتراض القوافل التجارية . وأن يطالع السلطان بيبرس بالأخبار الصحيحة "كما تقرر معه بمتقضى الايمان". [1] كل ذلك أعتبر نقضا للعهد الذى كان مبرما بين الطرفين. وثمة اشارة الى ان معين الدين البرواناه ،كتب الى السلطان الظاهر بيبرس يحرضه على مهاجمة سيس في هذه السنة (٦٧٣هـ/١٢٧٥م) وقال له "اقصد هذه السنة سيس ،وفي السنة الاتية أملكك البلاد . [2]

وفي شعبان من سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م خرج السلطان الظاهر بيبرس على رأس قواته من الاراضي المصرية قاصدا بلاد الشام ، ووصل الى دمشق في نهاية شعبان ، وخرج منها بقواته في رمضان ، ولما وصل حماة خرج الملك المنصور صاحبها بعسكره لخدمة السلطان بيبرس ،فعهد اليه ، ومعه الامير سيف الدين قلاوون الالفي ، وبيليك الخازندار بقيادة العسكر الاسلامي الزاحف على سيس ، وحملوا معهم المراكب مفصلة على ظهور البغال ليجمعوا اجزاءها مرة اخرى في أرمينية لاستخدامها في عبور الانهار. فعبرت قوات المسلمين جسر المصيصة ، واستولت عليها وغنمت مابها من العتاد والدواب ، ثم لحق السلطان بيبرس بعسكره وهو في تلك المنطقة

---

١) ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ٤٣٢ ؛ ابن الفرات ،تاريخ ابن الفرات ،ج٧ ،ص ٢٨ .

٢) أنظر سعيد عاشور ،سلطنة المماليك ،ص ٢٥٥ ،نقلا عن مفضل ابن الفضائل النهج السديد ، ص ٢٢٥ ؛ والبرواناه ،لقب فارسي معناه الحاجب ، وهو هنا لقب معين الدين سليمان ،الوصى على السلطان السلجوقي القاهر غياث الدين ووزيره (أنظر ،الروض ،ص ٣٩٦ حاشيه المحقق رقم ٢ ؛ أنظر أيضا ،ابن تغرى بردى ، الدليل الشافي على المنهل الصافي،ج١ ،ص ٣٩٩؛ سعيد عاشور ،المرجع السابق ، ص ٢٥٥ حاشية رقم ٤)

وسار حتى دخل سيس وعيّد بها فتحصن أهلها بقلعتها . وأمر بيبرس جيوشه بتخريبها وإشعال النيران فيها . ولما فرغ من حرق مدينة سيس وهدم قصور التكفور بها "وتسوية منظرمناظره ، وهتك ستر ستائره"(١). أُرسل فرقا من جيشه لمهاجمة الدربنر ،وطرسوس وانبثت الغارات في الجبال وعاد المسلمون محملين بالغنائم . ثم بعث السلطان بيبرس فرقة من عسكره لمهاجمة ميناء إياس ،فوجدوه خاليا فغنم المسلمون مابه . وكان قد فر من أهله نحو الألفين مابين فرنج وأُرمن في مراكب الى البحر فغرقوا جميعا . وغنم المسلمون من جراء تلك الغارات غنائم كثيرة ، نقلت الى مرج انطاكية فملاته طولا وعرضا . ووقف السلطان بيبرس عليها بنفسه بعد عودته الى انطاكية ففرقها على عساكره "ولم يترك صاحب سيف ولا قلم الا اعطاه ولم يأخذ لنفسه شيئا" وعاد بعده الى دمشق فدخلها في منتصف ذى الحجة من السنة نفسها .(٢)

---

١) ابن عبدالظاهر ،الروض ،ص ٤٣٥ ؛ ابن الفرات ،تاريخ ابن الفرات ، ج٧، ص ٣٠ ؛ أنظر أيضا ،ابن شداد ،تاريخ الظاهر بيبرس ،ج٢ ،ص ٥٧، ٥٨.

٢) ابن عبدالظاهر ،المرجع نفسه ،ص ٤٣٤- ٤٣٥ ؛ابن الفرات ،المرجع نفسه ،ج٧ ،ص ٢٨ ،٢٩ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦١٦ – ٦١٨ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ٩ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٣ ،ص ٨٨ ؛ ابن حبيب ،درة الاسلاك ،ج١ ،ص ٤٨ ؛ الحريرى ،الاعلام والتبيين ، ورقة ١٤٢ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣١٩ ؛ شافع بن على ، حسن المناقب السريه ،ص ١٥٦ ؛ القلقشندى ،ج٣ ،ص ٤٣١ ؛ ابن خلدون ،العبر ،ج٥ ،ص ٣٩١ ؛ ابن العماد ،شذرات الذهب ،ج٥ ،ص ٣٤ ؛ الذهبي ،العبر ،ج٥ ،ص ٣٠١ ؛ دول الاسلام ،ص ١٧٥ .

والذى يجدر ذكره هنا هو أن أبغا - إيلخان مغول فارس لم يهب لمساعدة حلفائه في أرمينية الصغرى وكذلك الحال بالنسبة ليوهيمند السادس حاكم طرابلس . ويبدو ان ذلك كان بسبب تخاذل المغول نتيجة الهزائم المتلاحقة التي لحقت بهم على يد المماليك ،فضلا عن انشغالهم بحروبهم الداخلية ضد مغول القبيلة الذهبية (القفجاق) . كما ان السلطان بيبرس لم يهمل أمرهم حتى عند عزمه مهاجمة سيس في هذه السنة حيث جرد أمير العرب عيسى بن مهنا ، والامير حسام الدين العينتابي الى جهة البيره [1] بقصد مناوشة المغول هناك واشغالهم عن تقديم أية مساعدة لحلفائهم في أرمينية الصغرى . أما بالنسبة ليوهيمند السادس حاكم طرابلس ، فان استيلاء السلطان بيبرس على مدينة أنطاكية وماحولها من المدن والقلاع ، قطع كل الطرق التي كانت تصل بوهيمند بحليفه ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى .

وعلى كل فان السلطان بيبرس تمكن بفضل تلك الضربة القاصمة التي وجهها لمملكة أرمينية الصغرى في هذه السنة . من وأد نشوة الشباب التي كانت تلازم ليو الثالث آنذاك والتي كان يشوبها جو من الحقد والكراهية للمسلمين من جراء وقوعه في أسرهم سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م . والتي حاول من خلالها ضرب ممتلكات دولة المماليك المسلمين في بلاد الشام عن طريق إحياء التحالف الفعلى بين المسيحيين (شرقيين وغربيين) والمغول ليتقوضع ليو بعد ذلك داخل مملكته الجريحة . خاصة بعد أن خذله أقرب حليف له أبغا - ايلخان مغول فارس .

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ، ص ٤٣٣ ؛ ابن الفرات ، ج٧ ، ص ٢٩ .

انتصارات بيبرس على ابغا بن هولاكو في اعالي الشام والاناضول

(معركة ابلستين سنة ٦٧٥ هـ)

أدرك ابغا بن هولاكو - ايلخان مغول فارس - أن استيلاء بيبرس على أنطاكية ، وانتصاره على ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى قد حرمه من المساعدات التي كان يتلقاها من تلك المناطق ، كلما أراد النيل من ممتلكات الدولة المملوكية في بلاد الشام . فأخذ يفتش عن قوة جديدة يقحامها في ذلك الصراع مع دولة المماليك . فوقع اختياره على سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى التي كانت خاضعة للحمايه المغولية منذ وصول حكامها الى هولاكو عقب استيلائه على مدينة بغداد وتقديم فروض الولاء والطاعة له . هذا بالاضافة الى ان ابغا اراد بذلك - على مايبدو - ان يجرب اقتحام حدود بلاد الشام من تلك الناحية ، بعد أن عجز من تحقيق أى نجاح في اقتحام حدودها الشمالية الشرقية عن طريق عبور نهر الفرات .

والواقع ان السلطان الظاهر بيبرس الذى كان يدرك ضعف ايلخانية مغول فارس ، التي لم يجروء حاكمها على تقديم أية مساعدة الى حليفه الارمني ليو الثالث ، قد عزم - على مايبدو - عقب انتصاره على الارمن وتدمير مدينة سيس ان يوجه لطمة أخرى مباشرة الى مغول فارس ، لمعاقبتهم على تلك الاعمال العدائية التي مارسوها ضد ممتلكاته خلال انشغاله في الفترة الماضية بالجهاد ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام .

أضحى في استطاعة السلطان الظاهر بيبرس ان ينفذ مشروعاته ضد المغول للانتقام منهم دون تدخل اى قوة خارجية لمساعدتهم . وقد لاحت

الفرصة للسلطان بيبرس عندما استدعى أبغا - ايلخان مغول فارس - معين الدين البرواناه وزير سلطان سلاجقة الروم ،وممثلي المغول في بلاد الروم ، عقب انتصار بيبرس على أرمينية الصغرى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤ م . ولا بد ان أبغا قد بحث مع البرواناه وممثليه في بلاد الروم ، نجاح السلطان بيبرس في غزو تلك المنطقة وسبل مواجهته ،ويبدو ان الاتفاق وقع بينهما على مهاجمة البيرة . ففي الثامن من شهر جمادى الاخرة من سنة ٦٧٤هـ/نوفمبر ١٢٧٥م وصلت القوات المغولية ومعها عدد كبير من قوات سلاجقة الروم يقودهم البرواناه نفسه الى البيرة فمحاصرتها حيث نصبوا عليها عددا من المنجنيقات . ولكن حصارهم لها لم يدم طويلا اذ خرج أهل البيرة على المغول ومساعديهم في الليل واحرقوا منجنيقاتهم ، وفي الوقت نفسه سمع العدو بمسير السلطان الظاهر بيبرس على رأس عدد كبير من قواته اليهم ، فانسحبوا عنها خائبين في السابع عشر من الشهر نفسه .(١) ويمكن ارجاع هذا الانسحاب المغولي السريع إلى ان المغول واعوانهم أدركوا نتيجة سماعهم بمسير جيش بيبرس اليهم أن أملهم في التغلب على مدينة حصينة كالبيرة كان يتطلب سرعة وجيشا كبيرا يضرب ضربته بسرعة ، قبل وصول النجدات الاسلامية التي عادة ماتصل اليها من المدن الشامية القريبة منها. وهذا بالطبع يستلزم من القوات المغولية المهاجمة أن تحصل على موءونة ضخمة لا تتناسب مع خفة تحركاتهم التي تمكنهم عادة من الانسحاب عند

---

١) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ، ج٣ ،ص ١١٢ - ١١٧ ؛ابن الفرات ، ج٧ ، ص ٤١ ،٤٢ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب ،ص ١٥٨ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق١ ،ص ٦١٨ ؛ العبر (ابن خلدون) ،ج٥ ،ص ٣٩١ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٦٨ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣١٩ ؛ الذهبي ، دول الاسلام ،ص ١٧٥ ؛ ابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب ، ج٥ ،ص ٣٤٢ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ٧ .

اقتراب النجدات الاسلامية السريعة ولعلهم في ذلك الوقت أُدركو أن محاولة السيطرة على البيرة ، يحتاج الى وقت أطول ، وتموين أكثر مما كان باستطاعتهم توفيره آنذاك .(١) هذا بالاضافة الى ان المغول كانوا – على مايبدو – قد اكتشفوا مراسلة البرواناه للسلطان الظاهر بيبرس ، الذى وعد بيبرس بالهجوم على فرق المغول القريبة منه بمجرد ان تبدو طلائع الجيش المملوكي . وهذا كاف لانسحاب المغول عن البيره .(٢)

ويمكننا القول أيضا ، انه لا يستبعد ان أُبغا – إيلخان مغول فارس – لم يكن يهدف بتلك الغارة على البيرة محاولة السيطرة عليها ، وانما قصد من وراء تلك الغارة مجرد اقحام سلطنة سلاجقة الروم في هذا الصراع لتوجيه انظار الظاهر بيبرس الى منطقة الأناضول ، التي بات الطريق اليها ممهدا بعد كسر شوكة الارمن في العام الماضي . وحماية حدود اقليم فارس الغربيه من هجوم المماليك المنتظر .

ولا يمكننا أن نهمل ماكان يقوم به مغول القبيلة الذهبية "القفجاق" من دور فعّال في الضغط على إيلخانية مغول فارس ، خاصة وان علاقتهم بالمماليك ازدادت توثقا بعد أن أُقدم بيبرس على الزواج من ابنة بركة خان القفجاق . ومن ثم حرص خليفته منكوتمر على الاستمرار في محالفة السلطان الظاهر بيبرس .(٣)

---

١) عبدالعزيز الخويطر ، الظاهر بيبرس ، ، ص ٦٩ ، نقلا عن ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر بيبرس ، الجزء الثاني ٧٤ (مخطوط بالمكتبه السليمانيه بادرنه) .

٢) ابن الفرات ، ج٧ ، ص ٤١ ، ٤٢ . الخويطر ، المرجع السابق

٣) انظر الخويطر ، المرجع نفسه ، ص ٦١ ، ٦٢ .

وعلى كل فان هجوم المغول على البيرة في هذه السنة ومساعدة سلاجقة الروم لهم فتح المجال أمام السلطان الظاهر بيبرس لتقليص نفوذ المغول في المشرق . فبعد أن حرم بيبرس المغول من مساعدة حلفائهم المخلصين الأرمن . رأى في غارة المغول على البيرة ، ومراسلة البرواناه له فرصة لضرب الأناضول لزيادة إحكام العزلة على المغول في فارس .

وقد ساعد السلطان بيبرس على تحقيق هذا الهدف أن البرواناه بالرغم من مشاركته المغول في مهاجمة البيرة سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م فإنه أدرك - على مايبدو - بعد أن كشف المغول مراسلته للظاهر بيبرس انه لم يعد يأمن على نفسه منهم . فرأى أن يسير قدما في مشروع استدعاء المماليك وحسّن لهم القدوم الى بلاد الروم في تلك السنة ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس رد عليه معتذرا عن المسير اليه في هذه السنة ووعده أن يكون التوجه الى بلاد الروم في العام المقبل . وذلك بحجة نقص المياة في الابار التي على الطريق .(١)

ويبدو أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذى جعل بيبرس يمارس سياسة الحذر في إجابة طلب البرواناه بالمسير الى بلاد سلاجقة الروم ، بل أن هناك أسبابا أخرى منها . انه لم يشأ أن يقدم على مخاطرة قد تؤدى الى نكبة تكون على حساب السمعة والمكانه الكبيرة التي بناها بحكمته وحسن تدبيره في السنوات الماضية . فاستراتيجيا وجد انه من المستحيل أن يرسل الى بلاد الروم جيشا كبيرا يكون الأرمنيون في موءخرته ويكون هو تحت رحمتهم . وسياسيا بعض قادة السلاجقة في بلاد الروم لم يشاركوا

---

١) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج٧ ، ص ٤٢ ؛ أنظر أيضا اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج٣ ، ص ١٦٥ ؛ شافع بن على ، حسب المناقب السرية ، ص ١٦٣ ؛ ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر بيبرس ، ج٢ ، لوحه ٧٥ .

في قبول اقتراح معين الدين البرواناه ذلك . واقتصادياً ليس من صالح السلطان بيبرس أن يُبقي جيشا كبيرا في تلك المنطقة دون أن يتأكد من ضمان وصول الامدادات اليه، وحتى الطقس في هذا الوقت من السنة لم يكن مشجعا على إرسال جيش إلى مكان ناء كبلاد الروم.(١) ويمكننا أن نضيف ان السلطان الظاهر بيبرس الذى كان له علاقة طيبة مع البيزنطيين تردد في ذلك الوقت من القيام بعمل حربي في منطقة الأناضول . لما قد يؤدى اليه ذلك من تأثير على صداقته بهم . إذ من الطبيعي ان البيزنطيين بالرغم من مصادقتهم للمماليك كانوا يفضلون بقاء دولة سلاجقة الروم مجاورة لهم على أن تجاورهم دولة قوية كدولة سلاطين المماليك المسلمين لما قد يترتب على ذلك من منافسة بين الدولتين القويتين في المجالات السياسية والاقتصادية على وجه الخصوص .

والمهم في الأمر ان معين الدين البرواناه بات في موقف حرج ، فأبغا - إيلخان مغول فارس - كاتبه يستدعيه للحضور إليه ، والسلطان المملوكي بيبرس اعتذر عن المسير اليه في هذه السنة . واضطر البرواناه أخيرا إلى إجابة طلب أبغا ، وسار اليه "يقدم رجلا ويؤخر أخرى" - على حد تعبير ابن الفرات - (٢) ينتظر ما قد يتجدد من جهة السلطان الظاهر بيبرس من اخبار وصوله الى بلاد الروم ، ليعود اليه على وجه السرعة ، وكان قد أوصى أحد الأمراء الروم المقربين إليه بأن تظل الكتب متواتره اليه بخبر السلطان الظاهر بيبرس اذا قصد بلاد الروم ليعود اليهم على وجه السرعة . وهنا سارع كبار الامراء في سلطنة سلاجقة الروم، وعلى رأسهم الامير شرف الدين مسعود بن الخطير - على مايبدو - الى مكاتبة السلطان الظاهر بيبرس وحثه على تسيير قوة من عنده الى بلاد الروم. ويبدو

---

١) عبدالعزيز الخويطر ، الظاهر بيبرس ، ص ٧٠ .

٢) ابن الفرات ، م٧ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

انهم قصدوا بذلك استعادة البرواناه بأى وسيلة كانت،ولايستبعد أن يكون السلطان بيبرس قد استجاب لنداءاتهم ، ووعدهم بارسال قوة من عنده الى بلاد الروم. فسارع هؤلاء الامراء بمكاتبة البرواناه وهو لا يزال في طريقه الى أبغا – إيلخان مغول فارس– وأخبروه بأن السلطان بيبرس قاصد بعساكره البلاد ، وانه إن لم يسرع بالعودة فإن بلاد الروم مأخوذة لامحالة ، فارسل البرواناه تلك الكتب إلى أبغا لاطلاعه على الوضع ،فاعطاه أبغا دستورا بالعودة من الطريق وجرد معه ثلاثين ألفا من أعيان المغول لمساعدته.(١)

ويبدو ان تلك القوة المغولية التي جردها أبغا مع البرواناه لم تكن بقصد مساعدته بقدر ماهي بهدف ضمان عدم انحيازه إلى السلطان بيبرس. لذا فان البرواناه لم يستطع – على مايبدو – تنفيذ ماكان يجول بخاطره نحو التنصل من سلطة المغول والانضمام الى طلائع الجيش المملوكي الوافد على بلاده ، الأمر الذى أدى إلى اختلاف الامراء السلاجقة حول ذلك الامر ، وسار جماعه منهم الى الظاهر بيبرس ، وسألوه أن يرسل معهم عسكرا لإحضار السلطان غياث الدين وبقية الامراء المؤيدين لهم ، ولكن البرواناه وعسكر المغول خالوا بين ذلك الجيش المملوكي الذى بعثه السلطان الظاهر بيبرس وبين السلطان غياث الدين فرجع هؤلاء الأمراء الى السلطان الظاهر بيبرس فأحسن استقبالهم وجهزهم وحريمهم إلى الديار المصرية.(٢)

ومن المحتمل ان محاولة هؤلاء الأمراء إحضار السلطان غياث الدين إلى الظاهر بيبرس في بلاد الشام كان بمساعدة البرواناه نفسه ، ولكن حرج موقفه بحكم وجود قوة مغولية كبيرة معه جعله يحول دون ذلك . كما

---

١) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ص ٤٢ ،٤٣ .

٢) ابن الفرات ، المصدر السابق ،ج٧ ،ص ٤٢ ،٤٣ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ، ص ٦٢٥ ،٦٢٦.

لايستبعد أن تكون محاولة نقل السلطان غياث الدين الى بلاد الشام كانت بموافقة السلطان غياث الدين نفسه . إذ من المحتمل انه كان يفضل الانضواء تحت لواء المماليك المسلمين والتخلص من حماية المغول الوثنيين.

وعلى كل فإن إصرار أمراء سلاجقة الروم على الاتصال بالسلطان بيبرس وحثه على المسير إلى بلادهم ، قضى على كل الشكوك التي كانت تراوده تجاه إخلاص البرواناه له . وبدأ يفكر جديا في تلبية طلبهم بالاستعداد لغزو الأناضول . فارسل في أوائل سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م أحد أمرائه وبصحبته ألف فارس إلى بلاد الروم ومعه كتابا منه إلى أمراء الروم يحثهم على إخلاص النية والانقياد له ولما وصل هذا الأمير إلى الابلستين استقبله جماعة من أمراء الروم أحسن استقبال ، ووعدوه المساعدة على المغول .(١)

أما بالنسبة لمعين الدين البرواناه ، فانه بقي - على مايبدو - مضطرا الى مصانعة المغول وتنفيذ أوامرهم . في الوقت الذى وآلى فيه كبار أمراء الروم مراسلتهم وحضورهم إلى السلطان الظاهر بيبرس فتلقاهم بيبرس بنفسه في بلاد الشام وأكرم نزلهم وكتب إلى ابنه الملك السعيد وجماعة من الأمراء يستشيرهم في إرسال العساكر الى بلاد الروم.(٢)

وفي يوم الخميس ثالث صفر من سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م توجه السلطان بيبرس من دمشق إلى حلب فوافاه عليها ضياء الدين محمود بن الخطير ، وسنان

---

١) ابن الفرات ،تاريخ ابن الفرات ،ج٧،ص ٦٥ ،٦٦ ; اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ، ج٣ ،ص ١٦٥ ; ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٧١ ; وابلستين :مدينة ببلاد الروم اسمها الحالي البستاني وهي قريبة من افسوس (Ephesus) مدينة أهل الكهف (انظر ياقوت ،معجم البلدان) ; جمال الدين سرور ،دولة الظاهر بيبرس ،ص ٩٨ ،حاشية).

٢) ابن الفرات ،المرجع نفسه ، ج٧ ،ص ٦٦ ،٦٧ .

الدين بن الامير سيف الدين طرنطاى ،وسبب وصولهما ان شرف الدين بن الخطير كان لما وردت كتب السلطان الظاهر بيبرس على أمراء سلاجقة الروم شرع في تفريق العسكر السلجوقي ، واذن لهم في نهب من يجدونه من المغول وقتله .(١)

وأمام هذه الانتفاضة التي أحدثها هوءلاء الأمراء داخل بلاد سلاجقة الروم . عمد البرواناه ومقدموا المغول هناك إلى عقد اجتماع عام. وأحضروا السلطان غياث الدين ومن وافقه من الامراء على الانقياد للسلطان الظاهر بيبرس . وقالوا له " ماحملك على مافعلت من خلع طاعة أبغا وركونك الى صاحب مصر " فقال " أنا صبي وماعلمت الصواب ، ولما رأيت أكابر دولتي قد فعلوا ذلك خفت أن يسلموني اذا لم أوافقهم "(٢) فنهض البرواناه إلى أحد الامراء وقتله بيده. ثم احضروا كبار الأمراء وسألوهم عن سبب انفاذهم الى السلطان الظاهر بيبرس ، فأجابوهم بأن ذلك كان بأمر شرف الدين بن الخطير ، فاحضروا شرف الدين ،وسألوه فقال للبرواناه "أنت حرضتني على ذلك" وذكر له المكاتبات التي كاتب بها المظفر ،واتفاقه معه الى التاريخ الذى عزم شرف الدين فيه على قصد السلطان الظاهر بيبرس فأنكر البرواناه ماادعاه شرف الدين ،ثم سأل المغول شرف الدين عن بقية الأمراء هل كانوا موافقين بذلك ، فأنكر وأكد بأنه هو الذى كلفهم وألزمهم بارسال الرسل إلى الظاهر بيبرس ، فأمر مقدم المغول بضربه بالسياط ، فاعترف ببعض من كان معه من الامراء ، وهنا أدرك البرواناه ، بأن اعترافه ذلك سيوءدى إلى قتلهما معا(٣) ، فطلب البرواناه من شرف

---

١) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ، ج٣ ،ص ١٦٧ .

٢) اليونيني ، المصدر السابق،ص ١٧١؛ انظر ايضا ابن الفرات ،تاريخ ابن الفرات ، ج٧ ،ص ٦٧ .

٣) ذكر اليونيني ،أن البرواناه قال لشرف الدين "متى قتلوني لم يبقوك بعدى" .

الدين أن يرجع عن اعترافه ذلك ،بأن يعتذر بأن اعترافه كان من ألم الضرب ، ففعل شرف الدين " وطولع أبغا بصورة الحال" فأمر بأن يضرب كل يوم مائة سوط إلى أن يعاود الاعتراف مرة أخرى ، فلما اعترف أمر بقتله وذلك في آخر ربيع الآخر من سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٧م وقتل معه جماعة من الأمراء الذين أقر بأنهم كانوا معه .(١)

والمهم في الأمر ان هذا الخلاف بين شرف الدين والبرواناه يؤيد ماسبق أن أشرنا إليه من ان البرواناه كان يضمر داخل نفسه الإخلاص بالانقياد للسلطان الظاهر بيبرس ، وان معاداته له في الظاهر كانت - على مايبدو - بسبب خوفه من فتك المغول به . بدليل ماكشفه شرف الدين بن الخطير هنا من مراسلات تمت في السرّ بينه وبين الظاهر بيبرس .

ومهما يكن من أمر فان السلطان الظاهر بيبرس رأى - على مايبدو- بعد قتل شرف الدين ومعه جماعه من الامراء ، ان الاوضاع قد ساءت داخل الأناضول ، وان الفرصة اصبحت مواتية لضرب المغول في تلك المنطقة . فخرج من قلعة الجبل بالقاهرة .(٢) على رأس قواته يوم الخميس العشرين من شهر رمضان من سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م . ودخل دمشق يوم الأربعاء سابع عشر شوال ،ثم خرج منها متوجها إلى حلب يوم السبت العشرين منه ، ودخل حلب يوم الاربعاء مستهل ذى القعدة وخرج منها يوم الخميس إلى جيلان. وفيها

---

١) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٣ ،ص ١٧١ ، ١٧٢ ؛ ابن الفرات ،تاريخ ابن الفرات ،ج٧ ،ص ٦٧ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص ١٧٥، ١٧٦ .

٢) يبدو أن السلطان بيبرس قد عاد إلى القاهرة في أوائل هذه السنة بعد أن استقبل في شهر صفر منها بحلب من وفد إليه من أمراء الروم بزعامة الأمير شرف الدين بن الخطير.

تقدم إلى نائبه على حلب أن يتوجه إلى الساجور ويقيم على الفرات بمن معه من عسكر حلب لحفظ معابر الفرات من هجمات المغول . وهناك انضم إليه الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا أمير العرب . ولما بلغ نواب المغول بالعراق نزول تلك القوة الإسلامية على الفرات جهزوا جماعة من عرب خفاجة لكبسهم ،فركب اليهم نائب حلب والتقى بهم وكسرهم وغنم منهم غنائم كثيرة .(١)

أما السلطان بيبرس فقد ركب من جيلان يوم الجمعة ثالث ذو القعدة وسار إلى عين تاب ،ثم إلى دلوك ، ثم خرج إلى الديباج ومنها إلى كينوك ، ثم عبر النهر الأزرق إلى أنحاء الدربند فوصله يوم الثلاثاء وسيطر بذلك على كل المسالك المؤديه الى بلاد الروم. ثم أمر الامير سنقر الأشقر بأن يتقفم على رأس فرقة من العسكر ، فوقع على كتيبة للمغول عددها ثلاثة آلاف فارس فهزمهم وأسر منهم طائفة، وذلك يوم الخميس تاسع ذو القعدة من السنة نفسها .(٢)

ثم وردت الاخبار إلى الظاهر بيبرس بأن عساكر المغول بقيادة تتاوون والروم بقيادة البرواناه قد اصطفت على نهر جيحان استعدادا

---

١) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٣ ،ص ١٧٥ ،١٧٦ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ٦٢٨ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٦٨ ؛ ابن الفوطي ،الحوادث الجامعة ،ص ٣٨٩ ؛ اليافعي ،مرآة الجنان ، ج٤ ، ص ١٧٤ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٧١ ؛ أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص ٩ ،والساجور ،نهر بمنبج (انظر ياقوت ،معجم البلدان)

٢) اليونيني ،المصدر نفسه ،ص ١٧٦ ؛ بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ، ج٩ ،حوادث سنة ٦٧٥هـ ؛ المقريزى ،المصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٢٨،٦٢٩؛ ابن كثير ،المصدر نفسه ، ج١٣ ،ص ٢٧١ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص ١٧٦ ؛ ابن تغرى بردى ،المصدر نفسه ،ج٧ ،ص ١٦٨ ؛ ابن شداد ،تاريخ الظاهر بيبرس ،ج٢ ،لوحه ١٠٩ ؛ عبدالعزيز الخويطر ،الملك الظاهر بيبرس ، ص ٧٣ . ؛ ابن عبدالظاهر ،الروض ،ص ٤٥٦ ، ٤٥٨ .

لملاقاته ،فتقدم بيبرس بقواته وصعد بها على جبال تشرف على صحراء إبلستين ، فشاهد المغول وقد رتبوا قواتهم أحد عشر كتيبة في كل كتيبة ألف فارس.(١) وعزلوا عسكر الروم وجعلوه كتيبة بمفرده خوفا أن يكون مخامرا عليهم فيفاجئهم أثناء نشوب المعركة بالانضمام الى عسكر المسلمين .(٢) ثم تقدم العدو فانصبت الخيول الاسلامية عليهم من الجبل انصباب السيل ،ووقف المسلمون أمام عدوهم وقفة رجل واحد ، وقدم السلطان بيبرس عددا من مماليكه وخواصه ، وقاتلوا قتالا شديدا، ثم أردفهم بنفسه وحملت العساكر معا حملة واحدة ،فترجل المغول عن خيولهم "وقاتلوا قتال من يطلب الموت" حتى أثخن القتل فيهم ، فخارت قواهم وهربت فرقة منهم واعتصمت بالجبال ،وانهزم البقية وتفرقت جموعهم ووقع عدد كبير منهم في الأسر .(٣)

---

١) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٣ ،ص ١٧٦ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ، ق٢ ،٦٢٨ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٦٨ ؛ أنظر أيضا ابن شداد ،تاريخ الظاهر بيبرس ،ج٢ ،لوحه ١٠٩ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٧١ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص ١٧٦ ؛ جيحان ،نهر بالمصيصة بالثغر الشامي ،ومنبعه من بلاد الروم ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفربيا ،بإزاء المصيصة وعليه عند المصيصة ،قنطرة من حجارة رومية عجيبة قديمة عريضة ،فيدخل منها الى المصيصة وينفذ منها فيمتد أربعة أميال ثم يصب في البحر المتوسط (أنظر ياقوت،معجم البلدان).

٢) المقريزى ، المصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ١٢٨ ؛ ابن تغرى بردى ،المصدر نفسه ، ج٧،ص ١٦٨ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص ١٧٦ ؛ ابن كثير ،المصدر نفسه ،ج١٣ ،ص ٢٧١ .

٣) ابن عبدالظاهر ،الروض ،ص ٤٦٠ ،٤٦١ ؛ اليونيني ،المصدر نفسه ،ج٣ ، ص ١٧٦ ،١٧٧ ؛ المقريزى ،المصدر نفسه ، ج١ ، ق٢ ،ص ١٢٨ ،١٢٩ ؛ابن تغرى بردى ، المصدرنفسه ، ج٧ ،ص ١٦٨ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ، م٢ ،ج٢ ،ص ٦٢ ؛ ابن كثير ،البداية والنهايه ،ج١٣ ،ص ٢٧١ =====

أما بالنسبه للبرواناه زعيم الروم ،فإنه نجا بنفسه ، حيث انهزم باصحابه وسار الى قيصرية فوصلها بكرة الاحد ثاني عشر ذى القعدة وأشار على السلطان غياث الدين كيكاوس بن كيخسروا وجماعة من الامراء بالخروج منها لأن المغول المنهزمين متى دخلوا قيصرية قتلوا من فيها حنقا على المسلمين ،ثم أخذ البرواناه السلطان غياث الدين وجماعة من أعيان البلد وسار بهم الى توقات التي بينها وبين قيصرية مسيرة ثلاثة أيام .(١)

أما السلطان الظاهر بيبرس فقد سار إلى المنزلة التي هزم فيها العدو فوجد من ضمن القتلى قتاوون مقدم المغول ،أما الأسرى فكان عددهم كبير ،وكان من ضمنهم أم البرواناه وابنه مهذب الدين على وابن ابنته.(٢) ثم جرد بيبرس الأمير سنقر الأشقر مع جماعة لمطاردة

== أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص٩ ،١٠ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ، ج٢ ،ص ٣٢٠ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص١٧٦ ؛ابن الفوطي ،الحوادث الجامعة ،ص ٣٨٩ ؛ابن شداد ،تاريخ الظاهر بيبرس ،ج٢ ،لوحه ١١٠ ؛ ابن حبيب ،درة الاسلاك ،ج١ ،ص ٥١ ،٥٢ ( ) ؛ رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص٥٩ .

١) ابن عبدالظاهر ،الروض ،ص ٤٦٣ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ، ج٣ ، ص ١٧٨ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٢٨ ،٦٢٩ ؛بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٧٥هـ ؛ قيساريه أو قيصرية : اسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد امبراطوريتهم بالشرق وشمال افريقيه واسبانيا أيضا ومن هذه قيصرية بفلسطين الواقعة على الشاطيء على مسافة أربعة وعشرين ميلا جنوبي حيفا ،ومنها قيصرية الروم وهي المقصوده هنا وتقع على نهر قاراصو أحد فروع نهر قزل أرمك بآسيا الصغرى (انظر معجم البلدان ؛جمال الدين سرور ،دولة الظاهر بيبرس في مصر ،ص٩٩ حاشيه .

٢) المقريزى ،المصدر السابق،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٢٩ ؛ابن تغرى بردى ، ====

من هرب من المغول والتوجه الى قيصرية ،وكتب معه كتابا بتأمين أهلها والسماح لهمبالخروج إلى الأسواق والتعامل بالدراهم الظاهرية ،ثم رحل السلطان بيبرس بنفسه قاصدا قيصرية وفي طريقه مر بعدد من القرى والقلاع فادعنت لطاعته ، ونزل ليلة الاربعاء خامس عشر الشهر بقرية قريبة من قيصرية ،وأصبح وقد رتب عساكره ، فخرج إليه أهل قيصرية مستبشرين بلقائه وقد أعدوا له الخيام لنزوله بوطأة تعرف بكيخسروا ،فلما اقترب السلطان بيبرس منها ترجل وجوه الناس حسب طبقاتهم ،ومشوا بين يديه الى أن وصلها . وفي يوم الجمعه سابع عشر ذى القعدة خرج بيبرس لصلاة الجمعه ، فدخل قيصرية ، ونزل دار السلطنة السلجوقية ،وجلس على تخت (١) الملك بها ،وحضر بين يديه القضاة والفقهاء والصوفية والقراء ،وجلسوا في مراتبهم على عادة سلاطين سلاجقة الروم ،" فأقبل عليهم ومد لهم سماطا فاكلوا وانصرفوا" ثم حضر الجمعه بجامع قيصرية ،وخُطب له ،ولبس شعار السلطنه السلجوقية ، وأُحضرت بين يديه الدراهم التي ضربت باسمه . وبعث اليه معين الدين البرواناه يهنئه بالجلوس على التخت ، فكافأه السلطان بيبرس بأن كتب اليه يطلب منه الوفود عليه ليوليه مكانه

== النجوم ،ج٧ ،ص ١٧٢ ، ١٧٣ ؛ بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ، ج٩ ، حوادث سنة ٦٧٥ .

١) يقال له السرير وهو مايجلس عليه الملوك في المواكب ،ولم يزل من رسوم الملوك قديما وحديثا ،رفعة لمكان الملك في الجلوس عن غيره حتى لايساويه غيره من جلسائه (انظر ابن شداد ،الاعلاق الخطيرة ،ج٣ ، ق٢ ،ص ٨٨٨ (الملاحق) ويصفه ابن خلدون بانه عباره عن أعواد منصوبة أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها مترفعا عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصعيد" أنظر المقدمه ،ج٢ ،ص ٧٠٠ .

على سلطنة الروم.(١)

وهنا تذكر بعض المصادر والمراجع ، أن معين الدين البرواناه رد على السلطان بيبرس يطلب منه مهلة خمسة عشر يوما. وكان مراده أن يصل إلى أبغا - إيلخان مغول فارس - يحثه على المسير ليدرك الظاهر بيبرس في بلاد الروم ، وان السلطان بيبرس لما علم بذلك ترك قيصرية وخرج منها في الثاني والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٧٥هـ/ ابريل ١٢٧٧م.(٢)

ويبدو لنا ان ذلك لم يكن السبب الوحيد الذى جعل السلطان بيبرس يترك قيصرية ويعود الى بلاد الشام. كما أن البرواناه لم يكن يقصد مماطلة الظاهر بيبرس حتى يصل أبغا إلى بلاد الروم . بدليل ان تلك المدة التي حددها البرواناه لبيبرس لم تكن كافية لوصوله إلى بلاط أبغا في فارس وحثه على الوصول إلى بلاد الروم للإطباق على القوات الإسلامية

---

١) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج٣ ، ص ١٨١ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٣٠ ، ٦٣١ ؛ القلقشندى صبح الاعشى ، ج١٤ ، ص ١٥٤ ؛ ابن حبيب ، درة الاسلاك ، ج١ ، ص ٥١ - ٥٢ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٨٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ؛ الذهبي ، دول الاسلام ، ص ١٧٦ ؛ شافع بن على ، حسن المناقب ، ص ١٦٣ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ج٤ ، ص ٩ - ١٠ ؛ ابن الوردى تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ٣٢٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٧٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٧ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، حوادث سنة ٦٧٥ .

٢) اليونيني ، المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٨٢ ؛ المقريزى ، المصدر نفسه ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٣١ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج٧ ، ص ١٧٣ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج٢ ، ص ٦٢ ؛ فايد حماه عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

بقيصرية ، هذا بالإضافه إلى ماذكره اليونيني بعد ذلك من ان السلطان الظاهر بيبرس عندما نزل بقيرلو في طريق عودته من قيصرية ورد عليه رسول جديد من جهة البرواناه "يستوقفه عن الحركه"(١)

وعليه يمكن القول انه لايستبعد أن يكون المغول قد أخذوا على البرواناه رهينة عندهم ، لضمان عدم انضمامه الى الظاهر بيبرس ٠ وإلا فإن الحوادث التي ذكرت كانت كافية لاظهار نوايا البرواناه بالانضمام إلى جيوش المماليك المسلمين ٠

أما بالنسبة لرحيل السلطان الظاهر بيبرس عن قيصرية ،فان سببه يتضح لنا من رده على رسالة البرواناه الأخيرة ،حيث كان جوابه عليها قوله "إن معين الدين ، وما كانت تأتيني كتبهم شرطوا شروطا لم يفوا بها وقد عرفت الروم وطرقه ، وما كان جلوسنا على التخت رغبة فيه الا لنعلمكم أن لاعائق لنا عن شيء نريده بحول الله وقوته ، ويكفينا أخذنا أمه ،وابنه وابن بنته "(٢)

كما انه لايمكننا ان نهمل ما ذُكر من انه من الاسباب التي منعت بيبرس من البقاء ببلاد الروم ، أن جيشه كان كبير ويحتاج الى موئنة كبيرة لايمكن بيبرس حمله معه من بلاده الى تلك المنطقة بسهولة٠(٣) فلو

---

١) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٣ ،ص ١٨٢ ٠

٢) اليونيني ، المصدر نفسه ،ج٣ ،ص ١٨٢ ؛ أنظر أيضا ،ابن عبد الظاهر ،الروض ص ٤٦٨ ؛ ابن شداد ،تاريخ الظاهر بيبرس ،ج٢ ،لوحه ١١٤ ؛ عبد العزيز الخويطر ،الملك الظاهر بيبرس ،ص ٧٦٠

٣) ابن شداد ، المصدر نفسه ،ج٢ ،لوحه ١١٤ ؛ الخويطر ،المرجع نفسه ، ص ٧٦ ٠

لم ينسحب لشح تموين جيشه . كما ان اخبار هزيمة المغول لابد وانها وصلت إلى أبغا ، مما قد يحمله على أن يأتي ومعه نجدة ،فيواجه السلطان بيبرس صعوبات جديدة لكونه سيخوض معركتين متتاليتين . كما أن بقاء بيبرس هناك قد يشجع المغول على مهاجمة ممتلكاته في الشام عن طريق العراق ، وهناك سبب داخلي ربما كان يشغل بال السلطان بيبرس وهو انه ترك ابنه الملك السعيد في مصر وليس معه سوى خمسة الاف جندى.[1] مع وجود عدد من القادة الطموحين حوله ، وبُعد بيبرس في تلك المناطق قد يغريهم بإثارة فتنة ضده .[2]

وعلى كل ، فان أبغا ـ وكما توقع بيبرس ـ وصل إلى بلاد الروم بعد رحيل السلطان بيبرس عنها ، وحاول أن يرسل خلف الظاهر بيبرس جيشا لعله يدركه قبل أن يصل إلى بلاد الشام ، إلا ان أبغا عندما تبين له ان بيبرس قد عبر بجيشه الحدود أمر جيشه بالعودة ، والجيش الذى أرسله أبغا لتعقب بيبرس كان خفيفا ولعله قصد أن يتمكن ذلك الجيش من العودة بسرعة بعد ان ينزل ضربة سريعة بجيش بيبرس . إلا انه يئس من تحقيق شيء من ذلك بعد أن وصل السلطان بيبرس إلى دياره ،واستقر في معسكره ،حيث المعدات الثقيلة ، والموءن الوافره ، والجند الذى لم يرهقه السفر المتواصل في الوقت الذى كان جيش أبغا مجهدا بعد السفر الطويل ،فاقدا لبعض خيله التي لابد أن تموت بعد هذا الاجهاد من السفر المتواصل.[3] كما أن

---

١) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٣ ،ص ١٧٥ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١،ق٢ ، ص ٦٢٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٦٨ .

٢) الخويطر ، الظاهر بيبرس ،ص ٧٥ ،٧٦ .

٣) ابن شداد ،تاريخ الظاهر بيبرس ،ج٢ ،لوحة ١١٧ ؛ أنظر أيضا اليونيني ، المصدر نفسه ،ص ١٨٥ ،١٨٦ ؛ ابن الفرات ،تاريخ ابن الفرات ،ج٧ ،ص ٨٠ ، ٨١ ؛ النويرى ،نهاية الأرب ،ج٢٨ ،ص ١١٤ ( ).

السلطان بيبرس لما بلغه خبر هذه القوة المغولية ، استعد لها ، ولم يهمل التصدى لها إلا بعد أن علم ان أبغا أمر بعودتها .(١)

وانتشر جنود أبغا بعد ذلك في بلاد الروم ، وقتلوا خلقا كثيرا من المسلمين انتقاما ، واعتبر أبغا أن البرواناه قد غرر به عندما لم يخبره بحقيقة حجم جيش السلطان الظاهر بيبرس ، ولم يقبل عذره في انه نفسه لم يكن يعرف ذلك ، فلم ينج البرواناه هذه المرة من سخط أبغا ، فلاقى حتفه بعد أن عاد مع أبغا إلى بلاطه .(٢)

ولقد كان لمعركة ابلستين نتائج عظيمة الاهمية أهمها ان سلطنة سلاجقة الروم ، لم تعد دولة مستقلة ، وإنما أصبحت ولاية تابعة للمغول يتولاها أحد قادتهم كنائب عن الإيلخان في فارس ، فقد أرسل أبغا الخواجه شمس الدين إلى بلاد الروم لإدارة الأمور باسمه هناك.(٣) وبذلك انتقلت الادارة الداخلية لبلاد الروم الى يد المغول وسرح الجيش السلجوقي وأصبح الامراء والجند الذين فقدوا وظائفهم مصدر قلاقل وشغب ، وزاد ذلك ان المغول فرضوا على الشعب كثيرا من الضرائب

---

١) ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج٢ ، لوحه ١١٧ ؛ الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، ص ٦٠ .

٢) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ج٢ ، لوحه ١١٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٣٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ١٧٤ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج٢ ، ص ٦٢ ، ٦٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٢٧٢ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ٣٢٠ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، ج٤ ، ص ٩ ، ١٠ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، ج١ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٥ .

٣) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، حوادث سنة ٦٧٦هـ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج٢ ، ص ٦٥ ؛ زبيدة عطا ، الترك في العصور الوسطى ، ص ١٤٠ .

التي لم تكن موجودة من قبل كضريبة "التمغه " مثلا .(١)

وبالرغم من السيطرة المغولية على بلاد الروم ،فإنه يمكن القول ان ماحل بالجيش المغولي من القتل والأسر ،لدرجة ان أبغا بكى عندما شاهد قتلى المغول مكدسين في مكان المعركة.(٢) كان له الاثر البالغ على إضعاف دولة مغول فارس نفسها . هذا بالاضافة إلى تهور أبغا وإقدامه فور وصوله إلى مكان المعركة على الانتقام من سكان بلاد الروم بقتل أعداد كبيرة منهم ، حيث يقال انه قتل من الفقهاء،والقضاة والرعايا مايزيد على مائتي ألف نفس ، ولم يقتل أحدا من النصارى.(٣) أدى إلى حرمانه من المساعدة التي كان سيحصل عليها عند الحاجة من تلك الجهة .

---

١) رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج٢ ،ص ٦٥ ؛زبيدة عطا ، الترك في العصور الوسطى ،ص ١٤٢ ؛ والتمغه أو الطمغه : كلمة مغولية معناها خاتم ،ودخلت التركية في صيغة (تمغه) ومنها أخذت العربية تمغه أو دمغه . وكان هذا الخاتم مربع الشكل ،يحمل كتابة صينية يستخدم في مكاتبات حاكم الصين الى حاكم الفرس ، وكانت الرسائل ، تتكون من ورق يلصق بعضه ببعض ويتمغ عند كل التحام باللون الاحمر وهو اللون الامبراطورى في الصين. (انظر ابن عبدالظاهر ، تشريف الايام والعصور ،ص ٦ ،حاشية رقم (٢) .

٢) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ج٣ ،ص ١٨٥ ؛ ابن الفرات ،تاريخ ابن الفرات ،ج٧ ،ص ٨٠ ؛النويرى ،نهاية الأرب ،ج٢٨ ،ص ١١٤ (د) ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ،ج١ ،ص ١٨٦ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ٦٣٣ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص ١٧٦ .

٣) المقريزى ، المصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٣٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٧٢ .

والاهم من ذلك ان السلطان بيبرس بانتصاره على المغول في الأناضول قضى على الآمال التي كانت تراودهم -- على مايبدو - باقتحام بلاد الشام من تلك الناحية ، بعد أن فشلوا في اقتحامها من جهة معابر نهر الفرات .

كمايمكن القول أيضا ان هذا النصرالعظيم قد زاد من إخماد جذوة نار الروح الصليبية في الغرب الاوربي . إذ لايستبعد ان ملوك الغرب الاوربي بعد عجز المغول وحلفائهم الأرمن المسيحيين عن صد هجوم المماليك عن أرمينية والأناضول قد فقدوا الأمل في نجاح أى محاولة أخرى من جانبهم فيما لو حاولوا إرسال المساعدة إلى المشرق. لذا التزموا الصمت تجاه انتصار بيبرس في أرمينية الصغرى والأناضول بالرغم منمعرفتهم التامة بأن عاقبة ذلك النصر سيكون وبالا على من بساحل الشام من الصليبيين أبناء جلدتهم .

وأخيرا فإن السلطان الظاهر بيبرس الذى تمكن منخلال نجاح تنفيذ خططه الرامية إلى ضرب المغول وحلفائهم في أرمينية الصغرى والأناضول من تأمين جانبه من اخطار تلك الجهات. لم يهمله القدر ليواصل مابدأه من جهود ضد الصليبيين في بلاد الشام ،حيث توفى في سنة ٦٧٦هـ ١٢٧٧م ،بعد أن وضع الاسس الصحيحة لمن أتى بعدهمن سلاطين المماليك الذين ساروا على نهجه ، فأخلصوا النية لله تعالى ، وأنزلوا بالصليبيين ضربات متلاحقة لم يفيقوا منها حتى تم طردهم نهائيا من بلاد الشام سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م - كماسنرى - .

الفصـــل الرابـــــع

جهاد اســرة قلاوون ضـــد المغـول والصليبيين

الفصل الرابع

جهاد أسرة قلاوون ضد المغول والصليبيين

أ - ضد المغول

- فشل محاولات أبغا الاستيلاء على حلب وحماه وحمص.
- اعتناق المغول الإسلام ونتائجه.

ب - ضد الصليبيين

- سقوط إمارة طرابلس الصليبية سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م
- استيلاء الأشرف خليل على عكّا ونهاية الوجود الصليبي في بلاد الشام.

محاولات ابغا الاستيلاء على حلب وحمص وحماه

توفى السلطان الظاهر بيبرس بدمشق يوم الخميس الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦هـ/ يوليه ١٢٧٧م ، اثر انتهائه من معركة ابلستين التي هزم فيها جيوش المغول ، وخلف من الأولاد الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة ، والملك نجم الدين خضر ،والملك بدر الدين سلامش فنصب الامراء ابنه الاكبر الملك السعيد بركة مكانه ، وكان لايتجاوز التاسعة عشرة من عمره .(١)

والواقع أن السلطان بيبرس ، حرص بعد أن وطد سلطته في مصر والشام على أن يكون الحكم فيها وراثيا في ابنائه ، وقد مهد لذلك أن جعل الامراء يقسمون يمين الطاعة والولاء لابنه الملك السعيد سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م ، ثم ما لبث آن ولاه عهدا بالسلطنة عندما وافته الاخبار بقدوم المغول الى بلاد الشام سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م ، لينوب

---

١) أنظر ،بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٧٦هـ ؛ ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٤٧٣ ،٤٧٤ ؛ تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٤٣ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ق٢ ،ص ٦٤٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٧ ،ص ٢٥٩ ؛ أبو الفدا ، المختصر ،،ج٤ ،ص ١٠ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر، ج٢ ،ص ٣٢١ ،٣٢٢ ؛ ابن الفرات ،تاريخ ابن الفرات ،م٧ ،ص ٩٢ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٧٤ ؛ ابن خلدون ، ج٥ ،ص ٣٩٣ .

عنه في الاراضي المصرية اثناء اشتغاله بمحاربة المغول ، واقام لذلك ، احتفالا كبيرا ،قرىء فيه عهد تفويض السلطنة للملك السعيد بركة .(١)

ولما توفى والده جدد الامراء البيعة له بالسلطنة ، كما سارع سائر الناس وعلى رأسهم أمراء الجند والقضاة والاعيان الى مبايعته ، ودعا له الخطباء على المنابر في السابع والعشرين من صفر سنة ٦٧٦هـ/ يوليه ١٢٧٧م .(٢)

ولكن الملك السعيد مالبث ان تغير على هوءلاء الأمراء وقرب اليه جماعة من المماليك" الاحداث" الذين سرعان ما ازداد نفوذهم عليه ، وتحكموا في دولته وصاروا يتدخلون في تعيين نواب السلطنة وعزلهم ، ولم يقف الامر بهم عند هذا الحد ، بل تدخل هوءلاء المماليك حتى في توزيع الاقطاعات.

---

١) النويرى ،نهاية الأرب ،ج٨ ،ص ١٦٠ ؛ جمال الدين سرور، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ؛ ص ١٢٨ ؛ دولة بني قلاوون في مصر ،ص ١٩ ؛ فايد حماد عاشور ،العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١١٠ - ١١١ .

٢) ابن الفرات ،م٧ ،ص ٩٣ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٤٢ ، ٦٤٣ ؛ أبو الفدا ،المختصر ، ج٤ ،ص ١٠ - ١١ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٧٥ ؛ ابن خلدون ،العبر ،ج٥ ، ص ٣٩٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ؛ابن أيبك الدوادارى ،الدرة الزكية ،ص ٢١٩ ؛ جمال الدين سرور ، دولة بني، قلاوون ، ،ص ١٩ ؛فايد حماد عاشور ،العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١١١ .

الأمر الذى أدى إلى قيام نزاع بين السلطان الملك السعيد ، ونائب السلطنة سيف الدين كوندك الساقي [١] ، الذى تمكن بدوره من ضم جماعة من كبار الامراء إلى جانبه لمواجهة السعيد وأعوانه . ولم يقتصر الامر على هذا ،بل أدى تحيز السلطان السعيد لمماليكه المقربين ، واطلاق يدهم في إدارة شئون الدولة ، واغداق الأموال الوفيرة عليهم إلى استياء الامراء الصالحية منه وخاصة الامير سيف الدين قلاوون ، والأمير شمس الدين سنقر الاشقر ،والأمير علم الدين سنجر الحلبي وغيرهم ، وكان هؤلاء جميعا يرون أنهم أحق بالسلطنة ليس من الملك السعيد فحسب ، بل من والده السلطان الظاهر بيبرس .[٢]

ويبدو أن الملك السعيد ، أدرك نواياهم تلك ، فازداد نفوره منهم ، وعوّل على التخلص منهم قبل أن يستفحل خطرهم عليه ، فقبض على بعضهم وأودعهم السجون فكان لهذا العمل أسوأ الأثر في نفوس بقية الامراء الموالين لهم وعلى رأسهم خاله بدر الدين محمد بن بركة خان الذى دخل على اخته أم السلطان الملك السعيد وقال لها " قد أساء ابنك التدبير بقبضه على مثل هؤلاء الامراء الأكابر ،والمصلحة أن ترديه إلى الصواب ،لئلا يفسد نظامه ،وتقصر أيامه" .

---

١) كان الامير سيف الدين كوندك الساقي قد ولى نيابة ~~على السلطان~~ السلطنة بعد وفاة الأمير بدر الدين بيليك الحازندار وذلك في سنة ٦٧٦هـ (أنظر ابن الفرات ،م٧ ،ص ٩٤).

٢) ابن الفرات ،م٧ ،ص ٩٥ ،٩٦ ؛ ابن ايبك الدواداري ،الدرة الزكية ، ص ٢١٩ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ١١ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون في مصر ،ص ١٩ ،٢٠ ، فايد حماد عاشور ،العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١١١ .

فلما حدثته أمه في ذلك الأمر ، اعتقل خاله ،ثم أفرج عنه ومعه الأمراء المسجونين ، بعد تدخل والدته مرة ثانية ولكن يبدو أن عداوة الملك السعيد قد تمكنت من قلوب الامراء ، ولم يعودوا يثقون في تصرفاته ، فاجتمعوا واتباعهم ومن انضم اليهم من العساكر بإيوان القلعة ،وبعثوا إليه رسالة هددوه بأن استمرار سياسته تلك ستؤدى بهم إلى الانتقام منه ، ومما قالوا له " إنك قد أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فإما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن" وظلت الرسل تتردد بين السلطان والامراء حتى انتهى الأمر باقرار الصلح بينهم ، بعد أن أقسم السعيد لهم بأنه لايريد بهم شرا .(1)

على أن خواص الملك السعيد و "مماليكه الشباب" على حد تعبير ابن الفرات ماليثوا أن عادوا الى اثارته مرة أخرى ضد أكابر أمراء دولته ،فاشاروا عليه عندما خرج من القاهرة في ذى القعدة من سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٩م ودخل دمشق في ذى الحجة من السنة نفسها ، بإقصاء الأمراء الصالحية عنه ، وذلك بإرسال العساكر صحبتهم لغزو سيس وبلاد سلاجقة الروم ،فاستجاب لهم وسير فرقة من الجيش صحبة الأمير سيف الدين قلاوون ،وفرقة صحبة الأمير بدر

---

1) ابن الفرات ،م٧ ،ص ٩٧ ؛ انظر ايضا ،المقريزى ،السلوك، ج١ ،ق٢ ،ص ٦٤٥ ؛ ابن ايبك الدوادار ،الدرة الزكية ،ص ٢٢٠ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص ٢٠ ؛فايد حماد عاشور ،تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١١١.

الدين بيسري .(١) ،" والضغائن في الملك السعيد كامنة في النفوس ، والحقائد قد أثمرت منها الغروس"(٢) ولم يكتف أمراء السعيدبذلكبل أوعزوا إليه بالقبض على هؤلاء الأمراء الصالحية عند عودتهم من الغزو ، وتوزيع اقطاعاتهم على فريق منهم .(٣) هذا والأمير سيف الدين كوندك مطلع عليهم ، ولم يأبه الملك السعيد بذلك بل استمر "في خلواته مستغرقا في لذاته" وأحتوت مماليكه الخاصكية على عقله ،وصار يطلق لهم إطلاقات مفرطة بخلاف

---

١) هو الامير بيسري بن عبدالله الشمسي الصالحي ،كان من أعيان الامراء بالديار المصرية ،وكان أحد المرشحين للسلطنة بعد مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، توفى سنة ٦٩٨هـ . وبيسرى اسم مركب من لفظة تركيه وأخرى أعجمية وصوابه "باى سري" فباى بالتركيه بمعنى السعيد ،وسرى بالأعجمية الرأس ،ومعناه "الرأس السعيد" أنظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٩٥ حاشيه .)

٢) ابن الفرات ،م٧ ،ص ١١٧ ؛ أنظر ايضا ،ابن شداد ،الأعلاق الخطيرة ،،ص ٣١٢ .

٣) ابن الفرات ، ألمصدر نفسه ،م٧ ،ص ١٤٠ ؛ المقريزى ،السلوك ج١ ،ق٢ ،ص ٦٥٠ ؛ ابن تغرى بردى ،،المصدر نفسه ،ج٧ ،ص ٢٦٥ ؛أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ١١ ؛ ابن أيبك الدوادارى ،الدرة الزكية ، ،ص ٢٢٤ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣٢٣ ؛ابن خلدون ،العبر ،ج٥ ،ص ٣٩٣ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص ٢٠ ؛ فايد حماد عاشور ،تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١١١ .

ماكان يفعله أبوه .[1]

ثم وقع بين المماليك الخاصكية الملازمين لخدمة الملك السعيد ، وبين الأمير سيف الدين كوندك نائب السلطنة منافرة ، فلما عاد الأمراء الصالحية من سيس خرج الامير كوندك إلى لقائهم ، وأخبرهم بموقف الخاصكية العدائي إزاءهم ، فحرك ذلك كوامن الغضب من نفوس هؤلاء الامراء ، وأقاموا بالمرج ، ولم يدخلوا دمشق ،واحضروا المصاحف وتحالفوا لبعضهم البعض ، ودارت مفاوضات بينهم وبين السلطان الملك السعيد ،فاقترحوا عليه ابعاد الامراء الخاصكية عنه ،فلم يستطع السلطان إجابة طلبهم ،وعاد الى مصر واستقر بقلعة الجبل ، فسار الامراء بجموعهم خلفه ،وحاصروه في القلعة ، ولما اشتد حصارهم للقلعة أرسل السلطان الى الامراء يعرض عليهم نزوله لهم عن بلاد الشام ،فأبوا الا ان يخلع نفسه من السلطنة ،فالتمس منهم أن يعطوه الكرك ، فاجابوه الى ذلك ،وخلع نفسه من السلطنة في السابع من ربيع الاخر سنة ٦٧٨هـ/ أغسطس ١٢٧٨م ،

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٧٧هـ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ،م٧ ،ص ١٤٠ ؛ أما الخاصكية فيذكر الدكتور محمد جمال الدين سرور نقلا عن الخالدى (المقصد الرفيع المنشأ في صناعة الانشا) تعريفا لها نصه " جعل ذلك (الاسم) علما عليهم لأنهم يحضرون على الملك اوقات خلواته وفراغه ، وينالون من ذلك مالا يناله اكابر المقدمين ،ويحضرون طرفي كل نهار في خدمة القصر ،والاسطبل ،ويركبون ركوب الملك ليلا ونهارا ،ولايتخلفون في قرب ولا بعد ،ويتميزون عن غيرهم في الخدمة يحملهم سيوفهم ،ولباسهم الطرز الزركشي ،ويدخلون على الملك في خلواته بغير إذن ،ويتوجهون في المهمات الشريفة ،ويتأنقون في ركوبهم وملبوسهم) (أنظر دولة بني قلاوون في مصر ،ص ١٩ ،٢٠ حاشيه).

وسافر إلى الكرك ومعه اخوه نجم الدين خضر ،بعد أن اتفق الامراء على أن يأخذ الأخير الشوبك ،ثم أجلس المماليك اخاهما بدر الدين سلامش على العرش خلفا للملك السعيد وجعلوا الأمير سيف الدين قلاوون اتابكا له ومدبرا للمملكة .(١)

والجدير بالذكر أن بعض المصادر تذكر انه عندما تم خلع الملك السعيد بركة عرض كبار الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون ،فامتنع عن قبولها رغبة منه في الاحتفاظ بها لذرية السلطان الظاهر بيبرس،(٢) والواقع أن سيف الدين قلاوون لم يقصد بذلك احترام مبدأ وراثة العرش ،بل رأى ان اغلبية الجيش كان من الظاهرية ،انصار الظاهر بيبرس ،فخشي ثورتهم ضده ،لو قبل ولاية السلطنة في ذلك الوقت ، كما أن أكثر البلاد كان يتولى ادارتها أمراء موالون لاسرة بيبرس ،لذا عوّل على عدم قبول السلطنة إلا بعد

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ حوادث سنة ٦٧٧هـ ؛ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ،م٧ ،ص ١٤١ ،١٤٤ - ١٤٥ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ٦٥٢ ، ٦٥٣ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٢٦٦ ،٢٧٠ ؛ النويرى ،نهاية الأرب ،ج ٢٨ ،ص ١٢٦ ([illegible]) ؛أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ١١ ،١٢ ؛ ابن خلدون ،العبر ،ج٥ ،ص ٣٩٤ ، ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣٢٤ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكيه ،ص ٢٢٧ ،٢٢٩ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون في مصر ،ص ٢١ ،فايد حماد عاشور ،تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١١١ ،١١٢ .

٢) بيبرس الدوادار ،المصدر نفسه ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٧٨هـ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ،م٧ ،ص ١٢٧ ؛ المقريزى ،المصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٥٧ .

اقصاء هؤلاء الأمراء عن مناصب الدولة .(١)

ويبدو ان الامراء الموالون لقلاوون حبذوا هذا الرأى ،فاتفقوا معه على تولية بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس - وعمره سبع سنين - سلطنة مصر و لقبوه بالملك العادل.(٢) ليسهل عليهم تنفيذ مايبيتونه من نوايا. وبالفعل فقد بدأ الامير سيف الدين قلاوون يستغل منصبه كأتابك للسلطان العادل الصغير ، فأمر بأن تنقش السكة باسميهما ،وأن يخطب لهما على المنابر . كما استغل صغر سن السلطان ،وقبض على زمام الأمور، وتحكم في دولته ،وبدأ يمهد لنفسه لتولى السلطنة بمصر فقبض على أعيان الامراء الظاهرية وزج بهم في السجن ،ثم أقدم على عمل هام وهو القبض على الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة بالشام ،وعين بدلا منه سنقر الاشقر أحد الامراء الصالحية . وأغدق على بقية هؤلاء الامراء الأموال والاقطاعات واستمالهم إليه .(٣)

ولما تحقق له ذلك جمع الامراء في العشرين من رجب سنة ٦٧٨هـ نوفمبر ١٢٧٩م وتحدث معهم في صغر سن السلطان العادل سلامش

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٧٨هـ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون في مصر ،ص ٢١ .

٢) ابن الفرات ،تاريخ ابن الفرات ،م٧ ،ص ١٤٨ ؛ أبو الفدا ،المختصر ، ج٤ ،ص ١٢ ؛ ابن خلدون ،العبر ،ج٥ ،ص ٣٩٣ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص ٢٨٨ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣٢٤ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٥٦ ، ٦٥٧ .

٣) ابن الفرات ،المرجع نفسه ،م٧ ،ص ١٤٩ ، ١٥٠ ؛ ابو الفدا ،المرجع نفسه ، ج٤ ،ص ١٢ ؛ ابن الوردى ،المصدر نفسه ، ج٢ ،ص ٣٢٤ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون في مصر ،ص ٢٢.

وقال لهم "قد علمتم أن المملكة لاتكون الا برجل كامل " فاتفق رأيهم على خلع السلطان الصغير سلامش وتولية الأمير سيف الدين قلاوون مكانه .(١)

وهكذا زال الملك من بيت بيبرس على يد الأمير سيف الدين قلاوون الذى كان بيبرس قد قربه منه وارتبط معه برباط المصاهرة حيث زوج ابنه الملك السعيد من ابنة قلاوون سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م . غير ان قلاوون هذا سرعان ما طمع في ولاية العرش على اثر وفاة الظاهر بيبرس بعد أن أدرك - على مايبدو - عجز ابنا الظاهر بيبرس عن حمل راية الجهاد ضد اعداء الاسلام والمسلمين المغول والصليبيين . فانتهز فرصة ضعف الملك السعيد ، وصغر سن الملك العادل سلامش ، وعمل على خلعهما ليحل محل أسرة بيبرس في السلطنة . ولم يكتف بذلك بل أقصى ابناء الظاهر بيبرس عن الاراضي المصرية .(٢) وبذلك صفا له الجو واستطاع أن يوءسس من

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٧٨هـ ؛ ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٤٣ ؛ ابن الفرات ،م٧ ،ص ١٥٠ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٥٨ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ١٢ ، ١٣ ؛ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ؛ ابن خلدون،العبر ، ج٥،ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ ؛ ابن أيبك الدواداری ،الدرة الزكية ،ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ؛ ابن الوردى ،تتمة لمختصر ، ،ج٢ ،ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ج٧ ،ص ٢٩٢ ؛ ابن شاكر الكتبي ،فوات الوفيات ،ج٢ ،ص ٢٩٦ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ، ،ص ٢٢ ؛ فايد حماد عاشور ، ،العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١٢٢ .

٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ،ص ٥٧ ، ابن الفرات ،م٧ ز ص ١٥٧ ، المقريزى المصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٥٥،٦٥٨ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدرنفسه ،ج٧ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٨ ،جمال الدين سرور ، المصدر نفسه ، ،ص٢٤ ، أنظر ايضا ، سعيد عاشور ،مصر والشام في عصر الايوبيين المماليك ،ص ١٩٢ .

بيته أسرة حكمت مصر زهاء قرن من الزمان .[١] حملت خلاله لواء الجهاد وطهرت بلاد الشام من أخطر احتلال تعرضت له في القرون الوسيطة .

على أن ذلك النجاح الذى حققه قلاوون باعتلائه عرش السلطنة المملوكية ، حيث جلس على عرش السلطنة في مصر ، يوم الأحد العشرين من شهر رجب سنة ٦٧٨هـ/ نوفمبر ١٢٧٩م ، وحلف له الامراء وارباب الدولة ، وتلقب بالملك المنصور وصار اسمه يذكر في الخطبة على المنابر .[٢] لم يقابل بالرضا من بعض الامراء. فقد خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطنة بدمشق ، وامتنع عن مبايعته . وأعلن استقلاله بمدن الشام ،ودعا الامراء هناك إلى طاعته ، واستحلفهم لنفسه ، وتلقب بالملك الكامل ثم ركب بشعار السلطنة وأبهة الملك بدمشق في الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٧٨هـ/١٢٨٠م ، وقبض على من رفض طاعته من الأمراء وعلى رأسهم الأمير حسام الدين لاجين نائب قلعة دمشق ، ثم جهز احد الامراء التابعين له إلى ساير الممالك الشامية والقلاع ليحلف من بها من النواب وغيرهم ويولي

---

١) جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون في مصر ،ص ٢٢ ؛ أنظر ايضا، سعيد عاشور ، ،مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

٢) ابن الفرات ،م٧ ،ص ١٥٢ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٣ ،ص ٦٦٣ ، ٦٦٤ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم ، ج٧ ،ص ٢٩٢ ؛ اليافعي ، مرآة الجنان ،ج٤ ،ص ١٨٩ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ،ج٤ ،ص ١٢ ، ١٣ ؛ابن الوردى ، تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ؛ ابن أيبك الدوادارى ،الدرة الزكية، ج ،ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

فيها من جهته من يريد .(١)

ولما وصلت المطالعة بذلك إلى الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، كتب إلى سنقر الاشقر ،وكتب معه الامراء يقبحون عليه فعله ويحضونه على الرجوع الى الطاعة . ومع ذلك لم يصغ سنقر الاشقر الى قولهم . الأمر الذى اضطر الملك المنصور إلى انفاذ جيش لمحاربته وذلك في أوائل سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م والتقى الفريقان بغزة ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة سنقر وجيشه وتراجعهم أمام القوات المصرية إلى الرملة .(٢)

ويبدو ان هذه الهزيمة التي مني بها الجيش الشامي الموالي لسنقر الاشقر ،قد زادت من حنقه وحقده على السلطان قلاوون فتوجه إلى الرحبة واتفق هو وأمير العرب عيسى بن مهنا على مراسلة

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٧٨هـ ؛ التحفة الملوكية حوادث سنة ٦٨٠ ؛ ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ص ٦١ ،٦٢ ؛ ابن الفرات ،م٧ ،ص ١٦٢ ، ١٦٣ ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٣ ،ص ٦٧٠ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم ،ج٧ ،ص ٢٩٤ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ،ج٥ ،ص ٣٩٦ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٨٩؛ اليافعي ، مرآة الجنان ،ج٤ ،ص ١٨٩ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٤، ص ١٣ ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣٢٥ ؛ ابن أيبك الدوادارى ،الدرة الزكية ،ص ٣٢٤ ؛ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص ٥٠٣ ؛ البرزالي، المقتفى لتاريخ أبي شامة ،حوادث سنة ٦٧٨ هـ .

٢) زبدة الفكرة ،حوادث سنة ٦٧٩ هـ ؛ ابن عبدالظاهر ،المصدر نفسه ،ص ٦٣، ٦٤ ؛ ابن الفرات ،المصدر نفسه ، ،م٧ ، ص ٦٦٨ ؛المقريزى ،المصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٧٥ ؛ ابن تغرى بردى ،المصدرنفسه ، ،ج٧ ،ص ٢٩٥ ؛ ابن أيبك الدوادارى ،المصدر نفسه ،ص ٢٣٦ .

أبغا - ايلخان مغول فارس- وحسنا له الاغارة على بلاد الشام، ووعداه الانحياز إليه وتقديم المساعدة له .(١)

وأمام ذلك ذلك الخطر الداهم ،أسرع السلطان المنصور قلاوون إلى الخروج إلى بلاد الشام على رأس قواته ، ودخل دمشق لأول مرة منذ ولي السلطنة فرحب به أهلها واحتفلوا بمقدمه ثم انفذ فريقا من جيشه للقضاء على سنقر الاشقر . الذى ما إن علم بمسير عساكر قلاوون التي خرجت في طلبه ، حتى فارق حليفه عيسي بن مهنا ،وتوجه بمن معه من العسكر في البرية إلى صهيون وتحصن بها وذلك في شهر ربيع الاول من سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م .(٢)

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٧٩هـ ؛ ابن عبد الظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص ٦٨ ؛ ابن الفرات ،م٧،ص ١٧٢ ؛ ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص ٥٠٣ ؛أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ، ص ١٣ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٦٧٧ ؛ابن خلدون ،العبر ،ج٥ ، ص ٣٩٦ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣٢٥ ؛ابن الفوطي الحوادث الجامعة ،ص ٤١٢ ؛ والرحبة : مدينة تقع على الفرات بين الرقه وبغداد ، وكانت محط القوافل بين العراق والشام (أنظر أبو الفدا،ص ٢٨٠ ،٢٨١ ؛ياقوت ،معجم البلدان).

٢) ابن عبدالظاهر ،،المصدر نفسه ،ص ٦٨ ؛ابن الفرات ،م٧ ،ص ١٧٢ ؛ابن العبرى ،المصدر نفسه ،ص ٥٠٣ ؛ المقريزى ،المصدرنفسه ،ج١ ،ق٢ ، ص ٦٧٧ ،٦٧٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٧ ،ص ٢٩٨ ؛أبوالفدا ،المصدر نفسه ، ،ج٤ ،ص ١٣ ؛ابن خلدون ،المصدر نفسه ،ج٥ ،ص ٣٩٦ ؛ ابن كثير البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٩٠ ،٢٩١ ؛ابن الوردى ،تتمة المختصر ، ج٢ ،ص ٣٢٥ ؛ ابن أيبك الدوادارى ،الدرة الزكية ،ص ٢٣٧ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص ٢٢ ؛ فايد حماد عاشور ،تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١١٣ ؛ سعيد =====

والمهم في الأمر ان اختلاف كلمة المسلمين آنذاك أفاد المغول في فارس . فقد أدت مراسلات سنقر الاشقر والأمير عيسى بن مهنا لهم إلى دفعهم لغزو بلاد الشام في هذه السنة . في محاولة منهم للانتقام لهزيمة جيوشهم في معركة ابلستين ،حيث جهز أبغا العساكر، وخرج المغول قاصدين البلاد الشامية ،وافترقوا ثلاث فرق ،فرقة من جهة بلاد الروم ومقدمهم صمغار وتنجي وطرنجي ،وفرقة من جهة الشرق ومقدمهم بيدو ابن طرغاى بن هولاكو ، وصحبته صاحب ماردين(١) والفرقة الثالثة فيها معظم العسكر وشرار المغول صحبة منكو تمر بن هولاكو . ووردت الأخبار بذلك إلى الشام في اوائل جمادى الآخرة من سنة ٦٧٩هـ/أكتوبر ١٢٨٠م . واستعد المسلمون لصدهم ، فخرج من كان بدمشق من العساكر المصرية والشامية ،يتقدمهم الأمير ركن الدين اياجي (٢) ، ولحق بالعساكر الذين كانوا

= عاشور ،تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١١٣ ؛ سعيد عاشور ،العصر المماليكي ،ص ٢٢٣ ؛ وصهيون : حصن منيع من أعمال سواحل البحر المتوسط من أعمال حمص لكنه ليس بمشرف على البحر وكان قلعة حصينة مكينة في طرف جبل خنادقها أودية واسعة عميقة ، لم يكن لها خندق محفور الا من جهة واحدة «هو نقر في حجر» (أنظر ياقوت ،معجم البلدان).

١) لعل المقصود بصاحب ماردين هنا هو الملك المظفر بن الملك السعيد الذى قدّم للمغول فروض الولاء والطاعه عقب وفاة والده (راجع ماسبق في الفصل الاول).

٢) أحد الامراء المماليك توفى سنة ٦٨٦ هـ (أنظر ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٢٩٨ حاشية (٢) .

على شيزر (١) وكانوا قد تأخروا عنها ونزلوا ظاهر حماة ، حيث اجتمعوا بالعسكر الواصل من الديار المصرية بزعامة الامير بدر الدين بكتاش النجمي (٢) وارسلوا كشافة الى المغول لاستطلاع اخبارهم ، وبعثوا في الوقت نفسه إلى الأمير سنقر الاشقر يقولون له " قد دهمنا هذا العدو وماسببه الا الخلف فيما بيننا ، وما ينبغي أن نهلك المسلمين في الوسط والمصلحة ان نجتمع على دفعه " فكان لهذا النداء اثره على نفس الأمير سنقر ، فأمر عسكره بالنزول من صهيون ورفيقه الحاج أزدمر من شيزر ، واجتمعت كل طائفة تحت قلعتها . وبالرغم من انهم لم يخالطوا جيش السلطان ، فإنهم اجمعوا على "اتفاق الكلمة ودفع العدو"(٣)

---

١) كانت شيزر لاتزال - على مايبدو - تابعه للأمير شمس الدين سنقر الاشقر قبل الاتفاق معه . (أنظر فايد حمادعاشور ،تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١١٥) وهي : هضبة صخرية منتصبه على ضفة نهر العاصي الغربية الى الشمال من مدينة حماه والنهر يحيط بها من ثلاث جهات ،بحيث اصبحت شبه جزيرة مرتفعه ،ومما زاد في منازعتها وحصانتها وقت الحرب وجود خندق محفور في الصخر يصل شبه الجزيرة بالبر (انظرياقوت ،معجم البلدان ، أسامة بن منقد كتاب الاعتبار ،مقدمة المحقق ،ص . ت)

٢) هو بكتاش بن عبدالله الفخرى النجمي ،أمير سلاح ،والفخرى نسبة الى فخر الدين بن الشيخ (انظر ابن حجر ،الدرر الكامنة ،ج ١ ،ص ٤٨٦ ; ابن تغرى بردى ،المصدر نفسه ،ج٧ ،ص ٢٩٨ . حاشيه).

٣) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٧٩ ; ابن عبد الظاهر، تشريف الايام والعصور ،ص ٧٦ ; ابن الفرات ،م٧ ،ص ١٨٥ ، ١٨٦ ; اليونيني، ذيل مرآة الزمان ،م٤ ،ص ٤٤ ; أنظر أيضا ،المقريزى ، السلوك ،،ج١،ق ٣ ،ص ; ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٣ ،ص ٢٩٨ ; النويرى ،نهاية الأرب، ج٢٩ ،ص ٢ - ٤ ; ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص ٥٠٤ .

وفي العشر الاوسط من جمادى الآخرة من السنة نفسها وصل إلى دمشق وبعلبك خلق كثير من أهل حلب وحمص وحماه وغيرها من البلاد الشامية جافلين من المغول ، ولم يتخلف الا من عجز عن الرحيل ،وأخليت حلب من العساكر والتحقوا بحماة. وزاد هلع الناس ،فعزم من تجمع بدمشق وماحونها من البلاد الشامية على التوجه إلى الديار المصرية ثم وصلت طوائف كثيرة من جيوش المغول إلى حلب في الحادى والعشرين من جمادى الآخرة بعد أن ملكوا في طريقهم عين تاب ،وبغراس والدربساك ،[1] ودخلوا حلب دون مقاومة لخلوها من العساكر ، فقتلوا من تأخر بها من المسلمين ونهبوا واحرقوا الجوامع والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء وارتكبوا بها الفضائع والفساد على عادة افعالهم القبيحة. وأقاموا بها يومين على هذه الصورة ، ثم رحلوا عنها يوم الأحد الثالث والعشرين من الشهر نفسه (اكتوبر ١٢٨٠) راجعين الى بلادهم بعد ان حملوا معهم من الاسلاب والغلات الشيء الكثير.[2] ويضيف ابن أيبك الدواداري أن أهل سيس حملوا معهم المنبر ورجعوا إلى ديارهم سالمين.[3]

---

١) عين تاب : قلعة حصينة بين حلب وانطاكية ،وتعد من اعمال حلب ،وبغراس : مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ على يمين القاصد الى انطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرطوس (انظر ياقوت ،معجم البلدان).

٢) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٧٩ ؛ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور ،ص ٧٦ ،٧٧ ؛ ابن الفرات ،م٧ ،ص ١٨٦ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ،م٤ ،ص ٤٥ ،٤٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٧ ،ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص ١٨١ ؛ أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص ١٤ ؛ ابن إياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق٢ ،ص ٣٥٠ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ، ج٢ ،ص ٣٢٦ .

٣) ابن أيبك الدواداري ،الدرة الزكية ،ص ٢٣٨ ؛ يذكر الذهبي ،انهم أحرقوا المنبر ولم يحملوه (انظر دول الاسلام ،ص ١٨١).

وكان سبب رجوع المغول عن حلب بهذه السرعة ، مابلغهم من اتفاق كلمة المسلمين على دفعهم . ولما بلغهم من اهتمام الملك المنصور صاحب حماة وخروجه بالعساكر من الديار المصرية للانضمام الى بقية الجيوش الاسلامية ببلاد الشام لكبس المغول داخل مدينة حلب .(١)

كما ان بعض من عجز من المسلمين عن الرحيل من حلب قبل وصول المغول اليها ،واستتر بها ،يئس عن نفسه من الحياة ، فصعد منارة الجامع وكبر بأعلى صوته على المغول وقال " جاء النصر من عند الله " واشار بمنديل كان معه إلى ظاهر البلد ،على ان اشارته إلى عسكر المسلمين ، وكأنهم قادمون إلى حلب ، وأخذ يصيح باعلى صوته "اقبضوهم من البيوت مثل النساء" فتوهم المغول من ذلك وخافوا، وايقنوا بالهلاك ،فاسرعوا بالخروج من البلد وهم يتخبطون خوفا على أنفسهم .(٢)

ولعل من أسباب رجوعهم أيضا علمهم بخروج السلطان قلاوون بقواته من مصر لقتالهم . حيث كان قد جمع العساكر بمصر وأنفق على الامراء والجند ، ثم استخلف على الاراضي المصرية ابنه الملك الصالح ،وسار الى

---

١) ابن عبد الظاهر ،تشريف الايام والعصور ، ص ٧٧ ؛ ابن الفرات ،م٧ ، ص ١٨٦ ؛ اليونيني، الذيل ،م٤ ،ص ٤٥ ،٤٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص ٢٩٩ ؛ والملاحظ هنا انه كان لخروج الملك المنصور صاحب حماه على رأس القوات المصرية أثره البالغ على نفوس المغول ، لماعرفوه عنه من مواقف مشرفه ضدهم .

٢) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٤ ،ص ٤٥ ،٤٦ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ،ج٧ ،ص ٢٩٩ .

غزة ، وبقي بها الى العاشر من شعبان من سنة ٦٧٩هـ/ ديسمبر ١٢٨٠م ، فلما سمع نبأ عودة المغول الى بلادهم عاد الى مصر بعد ان غاب عنها خمسين يوما .(١)

ويمكننا أيضا أن نضيف سببا آخر وهو انه لايستبعد أن يكون المغول عند دخولهم حلب خافوا على ممتلكاتهم في اقليم فارس من تهديد مغول القبيلة الذهبية (القفجاق) حلفاء سلاطين دولة المماليك المسلمين . فاضطروا للعودة بهذه السرعة لتلافي ماقد يحدث لهم من تلك الجهة من أخطار نظير غيابهم في بلاد الشام .

ومهما يكن من أمر فان ماقام به المغول من مهاجمة للاجزاء الشمالية من بلاد الشام ودخولهم مدينة حلب ، قد نبّه السلطان المنصور قلاوون الى خطرهم على ذلك الجزء من مملكته . وهنا رأى قبل الاشتباك معهم أن يسير على نفس النهج الذى نهجه سلفاه قطز وبيبرس من قبل وهو مهادنة الصليبيين القريبين على ساحل بلاد الشام ، لضمان عدم تدخلهم في الصراع واجباره على تقسيم قواته في جهتين متباعدتين . فاستغل

---

١) ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ، ص ٧٧ ،٧٨ ؛ ابن الفرات، م٧ ،ص ١٩٠ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٦٨٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٣٠٠ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص ٢٩٢ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ١٤ ؛ الذهبي ، دول الاسلام ،ص ١٨١ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ٣٢٦ ؛ فايد حماد عاشور ؛ تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١١٥ ،١١٦ .

وصول رسل الصليبيين اليه بمنزلة الروحاء يسألونه استمرار الهدنة التي كانت معقودة بينهم وبين السلطان بيبرس والزيادة عليها . فوافق على ذلك وتقررت الهدنة بين الملك المنصور قلاوون ،وولده الملك الصالح علي معا ، وبين مقدم الاسبتارية وجميع الاخوة الاسبتارية بعكا لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . أولها يوم السبت عاشر المحرم من سنة ٦٨٠هـ/ أول مايو ١٢٨١م . كما توصل أيضا إلى مهادنة بوهيمند السادس متملك طرابلس لمدة عشر سنين "كوامل متتابعات" أولها السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م .(١)

ولما كان خروج سنقر الاشقر عن الطاعة ، هو السبب المباشر الذى دفع المغول الى مهاجمة مدن الشام الشمالية سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م ، وان استمرار اختلاف كلمة المسلمين شجعهم الى معاودة الهجوم مرة أخرى . فقد حرص السلطان المنصور قلاوون ،بعد أن توصل إلى عقد هدنة مع الصليبيين على الاتصال بالامير سنقر الاشقر وترددت الرسل بينهما في الصلح ، وذلك في العشر الاوسط من شهر صفر من سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م . وهنا يبدو ان كلا منهما أدرك خطورة تفرق كلمة

---

١) انظر نص الهدنة في ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ، ص ٨٢، ٨٣ ؛ ابن الفرات ،،م٧ ،ص ٢١٤ - ٢٠٦ ؛ انظر ايضا ،ابن خلدون ،العبر ،ج٥ ،ص ٣٩٧ ؛ زبدة الفكرة ، حوادث سنة ٦٨٠هـ ؛ انظر ايضا

Stanley lanepoole . A.History of Egypt in the middle ages P.P. 278,279 /;Stevenson. The crusaders in the east P: 347

المسلمين وتكالب الأعداء عليهم ، فتقرر الصلح بينهما مضمونه ، أن يسلم سنقر الاشقر شيزر لنواب السلطان قلاوون ،ويعوضه عنها الشغر وبكاس وكانتا قد اخذتا منه ،ومعهما آفاميه وكفر طاب وأنطاكية وعدة ضياع متفرقة ،وأن يقيم سنقر على ذلك وعلى مابيده من قبل من البلاد وهي صهيون وبلاطنس وبرزية ،واللاذقية وستمائة فارس لنصرة الاسلام ،وان الامراء الذين معه ان أقاموا يكونوا من أمرائه وان حضروا الى السلطان قلاوون يكونوا آمنين ولايؤاخذوا ، فلما كان يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول من السنة نفسها ،وصل الى السلطان المنصور قلاوون رسولان بنسخة اليمين على ماتقرر ،فحلف السلطان المنصور على ذلك ، وكتب له تقليدا بالبلاد وسأله سنقر ان ينعت بالملك ، فأبى السلطان ذلك ،وسمح له ان ينعت بالامرة فقط ، وأن يخاطب في المكاتبات ب "المقر العالي المولوى السيدى العالمي العادلي الشمسي"(١)

---

١) بيبرس الدوادار،زبدة الفكره ،،ج٩،حوادث سنة ٦٨٠هـ ؛ ابن عبدالظاهر تشريف الايام والعصور ،ص ٨٧ ؛ ابن الفرات ،م٧ ،ص ٢٠٩ ،٢١٠ ؛ النويرى ،نهاية الأرب ،ج٢٩ ،ص ٥ ( ) ؛ المقريزى ،السلوك، ج١ ،ق٣ ،ص ٦ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم ،٣٠١،٣٠٢ ؛ أنظر أيضا ، ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص ٥٠٤ ؛ ابنخلدون ،العبر،ج٥ ،ص ٣٩٧ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ١٤ ؛ ابنالوردى ،تتمة المختصر، ج٢،ص ٣٢٦ ؛ابن كثير،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٩٤ ،٢٩٥ ؛الشغر : قلعة حصينة مقابلها قلعة أخرى يقال لها بكاس على رأس جبلين بينهما واد كالخندق ، بالقرب من انطاكية ، وكفر طاب : بلدة مشهوره بين المغرة ومدينةحلب ؛ وبلانطس أو بلاطنس : حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب (انظر ياقوت ،معجم البلدان).

ثم نودى بعد ذلك في دمشق باجتماع الكلمة ،ورجع الذين حضروا من جهة سنقر الاشقر اليه ،وسيَّر السلطان المنصور قلاوون صحبتهم رسولين من قبله ،فحلَّفا سنقر الاشقر وعادا إلى دمشق يوم الاثنين ثاني عشر الشهر نفسه ،فضربت البشائر بقلعة دمشق وسر الناس بذلك وأرسل السلطان المنصور قلاوون إلى الأمير سنقر الاشقر من الأقمشة والأواني والأنعام شيئا كثيرا ، وانتظم الصلح والاتفاق بين الطرفين وعادت العساكر الشامية والمصرية من شيزر إلى دمشق "للاستغناء عنهم بالصلح" (١)

ويبدو ان انتظام الصلح بين السلطان قلاوون والامير سنقر الاشقر قد انعكست أثاره على أبناء السلطان الظاهر بيبرس في الكرك ،حيث وردت الى السلطان قلاوون صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية رسل الملك المسعود الخضر بن السلطان الظاهر بيبرس في طلب الصلح والزيادة على الكرك بأن يكون له ماكان للملك الناصر صلاح الدين داود الأيوبي من قبل .(٢) ولكن طلبه هذا أثار ــ على مايبدو ــ غضب

---

١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الايام والعصور ،ص ٨٧ ؛ ابن الفرات ،م٧ ،ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

٢) الناصر صلاح الدين داود ابن المعظم عيسى بن العادل ، وكان الناصر قد خلف والده المعظم على دمشق في سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م ثم استولى الملك الاشرف بن العادل على دمشق سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩م ،وعوض الناصر داود عنها الكرك والبلقاء والصلت والاغوار والشوبك ،ثم تنازل عن الشوبك لعمه الكامل . (أنظر عاشور ،الحركة الصليبية ج٢،ص ٩٦٠ ، ٩٦١، ٩٦٣)

السلطان فلم تقتصر اجابته على رفض طلبه ذلك بل آمر السلطان على ضرورة رحيله عن الكرك • فعاود الملك المسعود مراسلة السلطان ، وسأله ان يقر بيده الكرك واعمالها من حد الموجب الى الحساء والتمس من السلطان شروطا منها • تجهيز اخوته الذكور والاناث اولاد الملك الظاهر بيبرس الى الكرك ،ورد الاملاك الظاهرية عليهم ،فاجابهم السلطان المنصور قلاوون الى ذلك وانعقد الصلح بين الطرفين في العشر الأول من ربيع الاول ٦٨٠هـ/١٢٨١م (١)

اصبح السلطان قلاوون بعد توحيد كلمة المسلمين في دولته ومهادنة الصليبيين على الساحل ،مستعدا لتوجيه ضربة قاصمة للمغول وحلفائهم للانتقام مما انزلوه بحلب في السنة الماضية ، وكان عسكر حلب هم السباقون الى ذلك ، فقد خرجت من حلب سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م فرقه من "الغياره" ذكر ابن عبدالظاهر انهم كانوا في ستمائة راكب او سبعمائة راكب الى بلاد الروم ،وانهم صادفوا قافلة تقدر بمائتي جمل خارجة من بلاد سيس الى الروم فنهبوها وكانت موسقة سكرا وصابونا وفستقا ورصاصا وقطنا • فخرج اليهم اكبر امراء الروم المعروف بابن قطني ومعه ثلثمائه راكب فقتلوه وقتلوا وجرحوا جماعة من اصحابه • ووصلوا الى آركلنا فهرب النائب بها • وحضر اليهم جماعة من اصحاب ابن قرامان فاجتمعوا وساقوا الى جبل بلغار فوق مندس وعادوا سالمين

---

١) بيبرس المنصورى ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٠هـ ؛ ابن عبدالظاهر ، تشريف الايام والعصور ،ص ٨٨ ؛ ابن الفرات ،م٧ ، ص ٢١٠ ؛ ابو الفدا ، المختصر ،ج٤ ، ص ١٤ ؛ ابن خلدون ، العبر ،ج٥ ، ص ٣٩٨ ؛ والموجب : بلد بالشام بين القدس والبلقاء ، والحسا ،ذكر ياقوت على انه اسم موضع لم يحدده ، (انظر معجم البلدان) ويبدو لنا انه من اعمال الكرك الجنوبية •

بين الجبال بين طريق سيس وبلاد الروم .(١)

تألم أبغا - ايلخان مغول فارس- من ذلك الهجوم الاسلامي المباغت فسيّر أخاه منكوتمر في جمادى الاخرة ٦٨٠هـ/١٢٨١م على رأس قوات مغولية الى بلاد سلاجقة الروم ،فنزل منكو تمر بجيوشه بين قيسارية والابلستين. ولما علم السلطان المنصور قلاوون بذلك ،بعث كشافة من عنده لاستطلاع اخبار العدو وتحركاته ، فلقوا طائفة من المغول ،واسروا منهم شخصا بعثوه الى السلطان بدمشق ،فانسه واستماله اليه ، وسأله أخبار المغول فذكر انهم في عدد كثير يزيدون عن ثمانين الف فارس وانهم يريدون مهاجمة بلاد الشام في رجب من السنة نفسها ،فاهتم السلطان بالامر واستدعى العساكر من اقطاعاتهم استعدادا لملاقاة العدو.(٢)

---

١) انظر ابن‌عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص١؛ ابن‌خلدون ،العبر ، ج٥،ص٣٩٩ ؛ رشيد الدين ،جامع التواريخ ، م٢ ،ج٤ ،ص٨٢ ؛ وأركلنا : يبدو ان المقصود بها "ارك" وهي مدينة صغيرة في طرف برية حلب قرب تدمر وعرض ذات نخل وزيتون (انظر ابن عبدالظاهر، المصدر نفسه ،ص١ ،حاشيه رقم ٦) ؛ أما ابن قرمان ،فهو صاحب دولة بني قرامان التي تأسست بجهات أرمناك وقسطموني يحتوى اسيا الصغرى ،في اواسط القرن السابع الهجرى ،ومن أهم الدول التركمانيه التي نشأت زمن التفكك في دولة الروم السلاجقه ،وموءسسها كريم الدين قرامان بن نور صوفي المتوفي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م وقد تولاها بعده ابنه محمد بن قرامان (انظر السلوك،ج٢ ،ص٦٣٠ حاشيه ، ابن‌عبدالظاهر ،المصدر نفسه ،ص٢ حاشيه)

٢) زبدة الفكره ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٠هـ ؛ ابن الفرات ،م٧ ،ص٢١٢ ،٢١٣ ؛ المقريزى ،السلوك ،،ج١ ،ق٣ ،ص٦٩٠ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ، ج٤ ،ص٩١ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص٣٠٢ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص٢٩٤ ؛ الذهبي،دول الاسلام ،ص١٨٢ ، السيوطي تاريخ الخلفاء ،ص٨١ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص١٤.

ثم وردت الاخبار الى السلطان بأن المغول ركبوا من منزلتهم ، وأن فرقة منهم على رأسها أبغا نفسه توجهت الى الرحبة ، فسير السلطان كشافة اليها لاستطلاع اخبار ابغا . وكثرت الاراجيف بالاجزاء الشمالية من بلاد الشام وخلت مدينة حلب من أهلها الذين نزحوا منها خوفا من هجوم المغول الى جهة حماة وحمص.(١)

وأمام ذلك الخطر الداهم ، سارع السلطان المنصور قلاوون ، بالخروج على رأس جيوشه التي احتشدت في دمشق قاصدا حمص فنزل عليها حادى عشر رجب من السنة نفسها وارسل الامير سنقر الاشقر ، يطلب منه الحضور بمن معه من الامراء والعساكر فنزل سنقر من صهيون ووافى السلطان ومعه الامراء على حمص ، فأكرمهم قلاوون وانعم عليهم وفرح المسلمون بحضورهم .(٢)

أما بالنسبة للمغول فقد تقدموا إلى اطراف حلب في العشر الاخيرة من جمادى الأولى ، ونازل أبغا بقواته الرحبة بثلاثة آلاف فارس

---

١) ابن الفرات ، م٧ ، ص ٢١٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٩١ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م٤ ، ص ٩١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٣٠٢ .

٢) ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م٧ ، ص ٢١٤ ؛ المقريزى ، المصدر نفسه ، ج١ ، ق٣ ، ص ٦٩١ ؛ اليونيني ، المصدر نفسه ، م٤ ، ص ٩٢ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج٧ ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٤ ؛ ابن أيبك الدوادار ، الدرة الزكيه ، ص ٢٤٢ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ج٤ ، ص ١٤ ، ١٥ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ٣٢٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٢٩٥ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ص ٣٩٨ ؛ الذهبي ، دول الاسلام ، ص ٨٢ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ .

كانوا بصحبته وسار منكوتمر بقواته ألتي كانت مكونة من المغول والكرج والروم والارمن وغيرهم (١) إلى عينتاب ، ومنها تقدم الى حماة" ،فافسد نواحيها وضرب جوسق الملك المنصور صاحب حماه" وبستانه .(٢)

ولما علم السلطان قلاوون بذلك ،وبأن مملوكا لأحد الأمراء ،هرب إلى المغول ودلّهم على عورات المسلمين ،وأخبرهم بعددهم . وان منكو تمر بن هولاكو ـ الذي أوكل اليه أخاه أبغا-ايلخان مغول فارس ـ مهمة قيادة الجيوش المغولة ـ قد تقدم من حماة لملاقاة الجيوش الاسلامية التي ا حتشدت في حمص . واستنفر قواته واستعد لمنازلة المغول ، واتفق في تلك الاثناء ان شخصا منعسكر المغول دخل حماة وقال للنائب بها "أكتب الساعة الى السلطان على جناح طاير ، وعرفه بأن القوم ثمانون ألف مقاتل ، في القلب منهم اربعة واربعون من المغل ، وهم طالبون القلب ،وميمنتهم قوية جدا ،فيقوى ميسرة المسلمين

---

١) كانت فئة الأرمن من ذلك الجيش بقيادة ملكهم ليو ،والكرج بقيادة ملكهم ديمترى الثاني وهم نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق وبلد السرير ،قويت شوكتهم حتى ملكومدينة تفليس ،ولهم ولاية تنسب اليهم (ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٧،ص ١٦٣ ،حاشيه) .

٢) ابن الفرات ، م٧ ،ص ٩٢ ، ٩٣ ؛ المقريزى ، السلوك ،، ٦٩١ ، ٦٩٢ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،ص ٩٢ ، ٩٣ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ص ٣٠٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ص ٢٩٥ ؛ وعينتاب : قلعة حصينة بين حلب وانطاكية وتعدمن أعمال حلب (أنظر ياقوت معجم البلدان) ،والجوسق : الحصن ،وقيل شبيه بالحصن والجوسق أيضا القصر ، وهو لفظ معرب وأصله كوشك بالفارسية . (انظر ، ابن منظور ،لسان العرب مادة جسق).

ويحترز على السناجق"(١)

فلما قرأ السلطان الكتاب رتب عساكره ، وذلك في صباح يوم الخميس الرابع عشر من رجب ٦٨٠هـ/١٢٨١م ، فجعل في الميمنة الملك المنصور صاحب حماة والعسكر الحموى ،وعلى رأس الميمنة الأمير شرف الدين عيسى مهنا ومعهما عدد آخر من كبار الأمراء، وجعل في الميسرة الامير سنقر الاشقر ومن معه من الامراء الظاهرية بالاضافة إلى عدد آخر من كبار أمراء السلطان نفسه ، وجعل على رأس الميسرة التركمان بجموعهم ، وعسكر حصن الاكراد . وعلى الجاليش وهو مقدمة القلب الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة بالديار المصرية "ومن معه من مضافيه" والأمير ركن الدين اياجي والحاجب بدر الدين بكتاش بن كرمون ، والمماليك السلطانية . ووقف السلطان تحت السناجق ومعه خاصته وأرباب الوظائف.(٢) ثم يضيف المقريزى

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٠هـ ؛ ابن الفرات م٧ ،ص ٢١٥ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٢٩٢ ؛ والسناجق: مفردها سنجق : لفظ تركي معناه الرمح والمراد هنا العلم الذى هو الراية ، الا انه لما كانت الراية إنما تجعل في أعلى الرمح عبر بالرمح نفسه عنها ،ويقال لحامله السنجقدار (أنظر القلقشندى، صبح الاعشى ،ج٥ ،ص ٤٥٨ ؛ ابن الاثير ،الباهر ،ص ٩٣ ،حاشية ؛ الأسنوى ،طبقات الشافعية ،ج٢ ،ص ٦٠٤ ؛ ابن خلدون ،المقدمة، ج٢ ، ص ٦٩٩ .

٢) بيبرس الدوادار ،المصدرنفسه ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٠هـ ( ) في التحفة الملوكيه حوادث سنة ٦٨٠هـ ( ) ؛ ابن الفرات ،م٧ ،ص ٢١٥،٢١٦ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١،ق٣ ،ص ٦٩٢ ،٦٩٣ ؛ أبوالفدا ،المختصر ،ج٤ ، ص ١٥ ؛وحسام الدين:هو طرنطاى بن عبدالله المنصوري توفى سنة ٦٩٩هـ (أنظر ابن تغرى بردى، النجوم ،ج٧،ص ٣٠٤ حاشية).

ان السلطان اختار مائتي فارس من مماليكه ،وانفرد عن العصائب "ووقف على تل فكان اذا رأى طلبا قد اختل أردفه بثلاثمائة من مماليكه .(١)

ومهما يكن من أمر فقد آشرفت كراديس (٢) المغول وكانوا ضعف عساكر المسلمين ، والتحم القتال بين الفريقين بوطأة حمص قريبا من مشهد خالد بن الوليد ، وذلك يوم الخميس رابع عشر شهر رجب فصدمت ميسرة المغول ميمنة المسملين ، فثبت المسلمون أمامهم ، وحملوا على ميسرة المغول فانكسرت الى القلب الذى فيه قائدهم منكوتمر ويبدو ان هجوم المغول قد جاء في وقت واحد حيث صدمت ميمنة المغول في الجهة الأخرى ميسرة المسلمين ، فلم تستطع ميسرة المسلمين مقاومة تلك الجهة ،وساق المغول خلف المسلمين حتى أشرفوا على حمص ، فلما وجدوا ابوابها مغلقة وقعوا على السوقة والعامة والغلمان بظاهرها فقتلوا منهم خلقا كثيرا . ولم يكن من بالميسره من المسلمين يعلم ماتهيأ لميمنتهم من النصر ، وكذلك الحال بالنسبة لميمنة المغول الذين ساقوا خلفهم لم يكونوا يعلموا ماحل بميسرتهم من هزيمة. حيث انسحب بعض من انهزم من ميسرة المسلمين الى دمشق وبعضهم الى قرب

---

١) المقريزى ،السلوك ،ج١ ، ق٣ ،ص ٦٩٣ ؛ والعصائب ،مفردها عصابة : وهي مابين العشرة الى الاربعين (أنظر ابن منظور ،لسان العرب مادة : عصب) ، أما المقصود بها هنا: فهي راية عظيمة من حرير اصفر مطرزة بالذهب عليها القاب السلطان واسمه (انظر القلقشندى ،صبح الاعشى ،ج٤ ،ص ٨ ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم ، ج٧ ، ص ٢٦٠ حاشيه.)

٢) مفردها كردوس : ويقصد بها الفرقة الحربية الراكبة ،أو الجماعة العظيمة من الخيل ،(أنظر أبو شامه ،الروضين ،ج١ ،ق٢ ،ص٦٣٨ حاشية).

صفد ، ومنهم من وصل إلى غزة . وظن من ساق وراءهم من المغول أن النصر قد تحقق لجيشهم بكامله فنزلوا عن خيولهم من المرج الذى عند سد حمص وأكلوا الطعام ونهبوا الأثقال والخزائن انتظارا لوصول بقية الجيش المغولي اليهم. فلما ابطأوا عليهم ارسلوا من يكشف اخبارهم ، فعاد الكشافة وأخبروهم بهزيمة ميسرتهم وان قائدهم منكوتمر هرب من المعركة فداخلهم الخوف وكروا راجعين . هذا ماكان من ميمنة المغول ،وميسرة المسلمين. أما ميمنة المسلمين التي كانت قد نجحت في كسر ميسرة المغول ، ووصلت الى القلب وبه منكو تمر وأجبروه على الهروب بمن معه فقد ساق من بها من المسلمين خلف المغول الهاربين ،بعد أن تعاهدوا وتحالفوا على الجهاد . أما ميمنة المغول التي كسرت ميسرة المسلمين ، فانها لما رجعت من مرج حمص بعد سماعها بهزيمة منكو تمر . لم يجروء من بها من المغول على منازلة السلطان قلاوون اثناء مرورها من امامه . فلما تقدموا قليلا باتجاه اخوانهم المنهزمين ساق السلطان خلفهم بفرسانه ،فانهزموا لايلوون على شيء .(١)

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٠هـ ، التحفة الملوكيه ،حوادث سنة ٦٨٠هـ ؛ ابن الفرات ،م٧ ،ص ٢١٦ ، ٢١٧ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ، ق٣ ،ص ٦٩٣ - ٦٩٥ ؛ النويرى ،نهاية الأرب ،ج٢٩ ،ص ٨ - ٩ ؛اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٤ ،ص ٩٢ ، ٩٣ رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج٢ ،ص ٨٢ ، ٨٣ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ،ص ٤١٥ ؛ الذهبي ،دول الاسلام ،ص ١٨٢، ١٨٣ ؛العبر ج٥ ،ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ؛ المقريزى ، الخطط ،ج٢ ،ص ٢٣٨ ؛ ابن حبيب، درة الاسلاك ،ج١ ،ص ٦٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٧ ،ص ٣٠٣، ٣٠٤ ؛ مورد اللطافة فيمن ولى السلطه والخلافه ،لوحه ٧٦ ، ٧٧ ====

وبعد انفصال الحرب عاد السلطان الى منزلته ، وكتب البشائر بالنصر وبات ليلة الجمعة الى السحر ،فسمع المسلمون صياحا ظنوه المغول قد عادوا فاستعد المسلمون للقائهم على الفور. فتبين لهم بعد ذلك ان العساكر الاسلامية التي تتبعت المغول المنهزمين قد عادت ظافرة منتصرة ،بعد ان ألحقت بالعدو خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد ،وأجبرت الكثير منهم على الاختفاء بجانب الفرات فارسل السلطان من أضرم النيران بالأوزار(١) التي على الفرات ،فاحترق من العدو طائفة كبيرة وهلك كثير منهم في الطريق الذى سلكوه الى سلمية ، ثم رحل السلطان يوم الجمعة خامس عشر رجب من السنة نفسها من ظاهر حمص الى البحيرة ليبعد عن الروائح التي انبعثت من جثث القتلى .(٢)

== ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص ٥٠٤ ،٥٠٥ ؛ ابن خلدون ،العبر، ج٥ ،ص ٣٩٨ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ١٤ ،١٥ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣٢٦ ،٣٢٧ ؛ ابن أيبك الدوادار،الدرة الزكية، ص ٢٤٣ ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٩٥ .

١) الأوزار أو الازبار جمع زاره وهي الأجمة ذات الماء والحلفاء والقصب (أنظر ،ابن منظور ،لسان العرب ،مادة زأر ؛ المقريزى ،السلوك ، ج١ ق٣ ،ص ٦٩٥ .

٢) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٠هـ ،التحفة الملوكية حوادث سنة ٦٨٠هـ ؛ ابن الفرات ،م٧ ،ص ٢١٨ ؛ المقريزى ،المصدرنفسه ، ج١ ،ق٣ ،ص ٦٩٥ ،٦٩٦ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٤ ،ص ٩٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٧ ،ص ٣٠٦ ؛ ويبدو ان المقصود بالبحيرة هنا بحيرة قبرس وهي قريبة من حمص بينها وبين جبل لبنان ،وتنصب فيها مياه تلك البلاد ،ثم تخرج منها فتصير نهرا عظيما ،وهو نهر العاصي الذى عليه مدينة حماه وشيزر (أنظر ،ياقوت ،معجم البلدان ؛ القلقشندى ،صبح الاعشى ،ج٤ ،ص ٨٤ ؛ المقريزى ،المصدر نفسه ،ج١ ، ق٣ ،ص ٦٩٦ . حاشية).

وبعد ذلك الانتصار العظيم رحل السلطان قلاوون إلى دمشق فوصلها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب ، فكان يوما عظيما ،عظم فيه سرور الناس وكثر فرحهم ،وامتدحه الشعراء وأكثروا المديحوالتهنئة بهذا النصر العظيم .(١)

ولما استقر بدمشق جرد فرقة من عسكره مع الأمير بدر الدين الايدمرى الى الرحبة لتتبع أبغا ومن معه من المغول ،وبعث في الوقت نفسه الى نائبها يخبره بما منَّ الله عليه من النصر. فلما سمع أبغا بذلك رحل عنها وقصد بغداد . ووصل الأمير بدر الدين الأيدمرى إلى حلب وبعث في طلب المغول على الفرات فعبروا الفرات خوفا وغرق منهم خلق كثير، وتوجهت طائفة منهم الى قلعة البيرة فقاتلهم أهلها ومنعوهم من دخولها . كماتوجهت فرقة أخرى وفيهم صاحب سيس وأقاربه إلى بغراس ،فخرج عليهم أهلها واثخنوا فيهم قتلا واسرا ، أما الفرقة التي كانت قد توجهت الى سلمية ،فقد خرج عليهم أهل الرحبة وطردوهم منها ، فلحق من بقي من المغول بابغا وهو في طريقه إلى بغداد ، وفيهم أخوه منكوتمر وهو مجروح فغضب عليه وعلى من معه من كبار المغول وقال له " لم لامت أنت والجيش ولا انهزمت" . فلما دخل أبغا بغداد مكث بها فترة قليلة وسار منها الى جهة همذان ، أما منكو تمر فقد توجه الى بلاد الجزيرة ، فنزل بجزيرة ابن عمر ، وكانت الجزيرة لأمه قد أعطاها إياها أبوه

---

١) اورد بيبرس الدوادار كثير من هذه القصائد في زبدة الفكرة ،ج٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ .

هولاكو لما أخذها .[1]

وبهذا تمكن السلطان المنصور قلاوون من إفشال محاولة المغول السيطرة على مدن الشام الشمالية ، وطهر بلاد الشام منهم مرة أخرى ، بعد ان أثخن في جيوشهم قتلا وأسرا ،ولقنهم درسا لن ينسوه . ليتفرغ بعد ذلك لمواصلة مشروع تصفية الوجود الصليبي من المشرق الاسلامي الذى بدأه اسلافه زعماء الجهاد الاسلامي عماد الدين زنكي ، ونورالدين محمود ،وصلاح الدين والظاهر بيبرس .

اعتناق المغول الإسلام

توفى أبغا ابن هولاكو في اواخر سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨٢م هما وحسرة بسبب مانااله من خوف ورعب ، عقب كسرة جيوشه في معركة حمص التي ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من جيوشه . وتوفى بعده قائده منكوتمر متأثرا بجراحه في المحرم من سنة ٦٨١هـ/ ابريل ١٢٨٢م. ووقع الاختلاف بعد وفاة أبغا فيمن يلي ايلخانية مغول فارس فرأى أغلبية أمراء المغول اقامة تكدار الذى كان قد اعتنق الدين الاسلامي واتخذ لنفسه اسم أحمد . واتفقوا على إقعاده في تخت الملك . وما هان على بعض أمراء المغول جلوس أحمد لأنه ادعى

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ، ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٠ هـ ; التحفة الملوكية ،حوادث سنة ٦٨٠ هـ ; ابن الفرات ،م٧ ،ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ; المقريزى، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٦٩٨ ، ٦٩٩ ; رشيد الدين ،جامع التواريخ ،م٢ ،ج٢ ، ص ٨٤ ; وجزيرة ابن عمر ،بلدة فوق الموصل ، تحيط بها مياه دجلة ~~من ناحية واحدة~~ ، (انظر ،ياقوت ،معجم البلدان).

الإسلام . فحضر أخوه قنغرطاى وقال لأخيهما أرغون بن هولاكو الذى نافس – على مايبدو – أخاه أحمدا على ولاية عرش الإيلخانية . " إن أبغا شرط في الياسة انه إذا مات ملك مايقعد عوضه الا الأكبر من أولاده . وقد رتبنا أحمد ، ومن خالف يموت" فأطاعوه ،وسيروا الرسل ليحضروا الملوك ليكتبوا خطوطهم بالارتضاء بالإيلخان الجديد أحمد .(١)

---

١) ابن عبد الظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص ٣ ، ٤ ؛ أنظر أيضا ،رشيد الدين، جامع التواريخ ،ج٢،ص ٨٥ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٠٤ ؛ ابن حبيب الحلبي ، الفوائد المنتقاه من صاحب حماه ،ورقة ١٤٩ ب ؛ الغياثي، تاريخ الغياثي ، ،ص ٤٥ ، ٤٦ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ،ص ٤١٧ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٤ ،ص ١٤١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٧ ،ص ٣١٠ ؛ الدليل الشافي ،ج١ ،ص ٩٥ ؛ ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول، ص ٥٠٥ ؛ أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص ١٦ ؛ والياسة : هو القانون الذى أصدره جنكيز خان سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م عقب انتخابه خانا اعظما للمغول ،وضمنه مجموعة من القوانين التي نسخت كل من سبق من قوانين العرف في الاستبس ،لكي يربط اقاليمه معاً في ظل حكم موحد ،وهذا القانون الذى صدر مجزءاً طول حكم جنكيزخان حدد ما لرؤساء العشائر من حقوق وامتيازات ، وماهو مقرر للخان من شروط الخدمة العسكرية ،وغيرها من الخدمات وقواعد نظام الضرائب ، فضلا عن القانون الجنائي والمدني والتجارى ،ومع ان جنكيزخان يعتبر الطاغية الأكبر فانه قصد ان يلتزم هو واخلافه بالقانون . وباختصار يمكن القول ان هذا القانون قد نظم علاقة الحاكم بالمحكومين ،وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض . كما حدد علاقة الفرد بالمجتمع . وتلخص احكام الياسه في امور ثلاثه هي ، الخضوع لجنكيز خان والاتحاد في قبيلة واحدة والعقاب الصارم لكل مخطيء وقد أمر جنكيز خان بان يستمر هذا النظام في اخلافه ولم يعرف عن أحد منهم مخالفته (لمزيد من التفاصيل ،راجع المقريزى ، الخطط ،ج٢، ص ؛ رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣،ص ٤١٦ ، ٤١٧ ؛ حافظ حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول ،ص ٢١٢ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ،ج١ ،ص ٣٣٨ – ٣٤١ .

استهل السلطان أحمد عهده باظهار اخلاصه وتمسكه بالدين الاسلامي وهنا يذكر ابن عبدالظاهر أن السلطان أحمد تحدث مع كبار أمراء المغول في مستقبل علاقتهم مع المسلمين ، فوقع الاتفاق بينهم على " أن قدرتهم قد ضعفت ورجالهم قتلت ، وأن المسلمين كلما راحوا في قوة ، وانه لاحيلة في هذا الوقت أتم من اظهار الاسلام والتقرب الى مراضي مولانا السلطان (قلاوون) واكتفاء بأسه بذلك"(١)

والواقع أن أحمد تكدار الذى يقال انه تشرف باعتناق الاسلام في حياة والده هولاكو(٢) كان – على مايبدو – حريصا كل الحرص على أن يبدأ عهده بفتح صفحة جديدة في العلاقات المغولية المملوكية قائمة على اساس احترام مبادىء الدين الاسلامي الحنيف ومواجهة اعدائه يدلنا علي ذلك الرسالة التي بعثها الى نوابه على بغداد طالبهم فيها باظهار شعائر الدين الاسلامي وتنفيذ احكامه ، وضرب الجزية على أهل الدمة مضمونها ب :

"بسم الله الرحمن الرحيم ،لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، وانا جلسنا على كرسي الملك ، ونحن مسلمون فيتلقون أهل بغداد هذه البشرى ، ويعتمدون في المدارس والوقوف وجوه البر ماكان يعتمد في أيام الخلفاء العباسيين ، ويرجع كل ذى حق الى حقه في أوقاف المساجد والمدارس ، ولايخرجون عن القواعد الاسلامية ، وانتم ياأهل بغداد مسلمون. وسمعنا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: لاتبرح هذه العصابة الاسلامية مستظهرة الى يوم القيامة . وقد عرفنا أن هذا الخبر خبر صحيح ورب واحد احد فرد صمد ، فتطيبون قلوبكم وتكتبون الى البلاد جميعها "(٣)

---

١) ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص ٤

٢) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ، م٤ ،ص ١٤١ .

٣) ابن عبدالظاهر ، المصدرنفسه ، ،ص ٥ ؛ أنظر أيضا ،بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨١ هـ .

ويبدو أن السلطان أحمد تكدار ، اختار اهل بغداد ،لأولى رسائله المعبرة عن اعتناقه للدين الاسلامي ، لكي يثبت للمسلمين وخاصة المماليك في مصر والشام صدق نواياه نحو مصادقة المسلمين وذلك لما كان يكنه مسلمو المغول من احترام لحاضرة الخلافة العباسية بغداد ، يوئيد ذلك،موقف الملك المسلم بركة خان القفجاق العدائي من ابن عمه هولاكو بسبب ما اقترفه الأخير من جرائم ضد هذه المدينة وقتل خليفة المسلمين بها .(١)

ومهما يكن من أمر فانه لايستبعد ايضا ان السلطان احمد تكدار كان يبيت – في السر – تعاطفه مع سلاطين دولة المماليك المسلمين منذ حياة والده هولاكو وعهد اخيه أبغا ، بدليل اننا لم نسمع عنه اى مشاركة في الصراعات الدامية التي دارت رحاها بين المسلمين والمغول في اعالي الشام والأناضول ،بالاضافة الى ان السلطان المسلم احمد تكدار كان هو البادىء بمراسلة السلطان المملوكي قلاوون ،حيث شرع في سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م بعد توليه العرش المغولي بقليل في تجهيز رسله الى السلطان المنصور قلاوون • الذى ما ان علم بوصولهم الى البيرة ،حتى أصدر أوامره الى نوابه في تلك المناطق بالاحتراز عليهم ،وان يمنعوا من روئية الناس لهم ، والحديث معهم ، ولايسار بهم الا في الليل(٢)، حيث دخلوا تحت الحراسة الى حلب في ليلة السبت الحادى والعشرين من جمادى الاخرة من السنة نفسها ،وأنزلوا بها خفية من غير أن يعلم بهم أحد ، ثم أحضروا الى دمشق ،ومنها الى

---

١) راجع ماسبق في الفصل الثاني •

٢) يبدو ان السلطان المنصور قلاوون ظن في بداية الأمر ان ذلك خدعة من جانب المغول ،بقصد التجسس على ديار المسلمين ،بدليل احترازه على الرسل وحجبهم عن انظار الناس ،والسير بهم اليه ليلا •

مصر ، حيث دخلوا قلعة الجبل ليلا ،وأحضروا بين يدى السلطان وسلموه كتاب السلطان تكدار ، ومضمونه إن أحمد تكدار المسلم قد تولى حكم المغول ، وانه أمر ببناء المساجد والمدارس في بلاده ، وحث الناس على المسير الى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج ،وطالب في رسالته باجتماع كلمة المسلمين وان ذلك يتأتي باقرار السلام والوفاق بين الدولتين المغولية والمملوكية.

ولما أنهى الرسل رسالتهم عادوا وقد أكرمهم السلطان المنصور قلاووه إلى ديارهم على الصورة الي حضروا عليها تحت الحوطة والاحتراز من غير أن يعلم الناس، بدخولهم ولا خروجهم . فوصلوا الى حلب في سادس شوال من سنة ٦٨١هـ/٨ يناير ١٢٨٣م ،ثم عبروا الفرات عائدين الى ديارهم ، ومعهم رد السلطان قلاوون الذى كان يتضمن التهنئة باعتناق تكدار للاسلام ،واجابته الى طلب الصلح واستقرار الأمن بين الدولتين .[1] وهنا يبدو ان السلطان قلاوون لم يكن مع ذلك قد أمن عائلة المغول فكان مما قاله للرسل " انني لا أثق إلا بكلام الشيخ عبدالرحمن لما أعلم من دينه ومن حكمه على الملك أحمد اغا سلطان ،وعلى وزيره صاحب ماردين وجماعة كثيرة نحو

---

١) أنظر نص الخطاب ورده في بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨١هـ ؛ ابن عبدالظاهر ،تشريف الأيام والعصور ،ص٦ - ١٦ ؛ ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص٥٠٦ - ٥١٨ ؛ أنظر أيضا ،ابن الفرات، م٧ ،ص ٢٤٨ ،٢٤٩ ؛ المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٠٧ ،٧٠٨ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ،م٤ ،ص ١٤٥ ،١٤٧ ؛ بيبرس الدوادار ،التحفة المسلوكيه ،حوادث سنة ٦٨١هـ ؛ أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص١٦ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣٢٨ ؛ ابن خلدون ،العبر ، ج٥ ،ص ٣٩٩؛ ابن ايبك الدوادارى ،الدرة الزكية ،ص٢٤٩ - ٢٦٠ .

مائتي الف فارس وراجل واتباعهم وغيرهم "(١)

وبالفعل فقد استجاب الايلخان أحمد تكدار لما التمسه منه السلطان المنصور قلاوون . فجهز الشيخ عبدالرحمن وصحبته جماعة من الامراء منهم زين الدين صاحب ماردين ، وأرسلهم الى السلطان المنصور قلاوون. فلما وصلوا الى البيرة تلقاهم أحد النواب بتلك المناطق ، ومنعوهم من حمل السلاح وعدلوا بهم عن الطريق المسلوك إلى أن دخلوا بهم حلب ، ومنها ساروا بهم الى دمشق فدخلوها في ليلة الثلاثاء ثاني عشر ذى الحجة من سنة ٦٨٢ هـ/ مارس ١٢٨٣م وانزلوا بقلعة دمشق من غير أن يراهم أحد ،واستقروا بالقلعة إلى أن وصل السلطان المنصور قلاوون إلى دمشق في سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م حيث طلب احضار الشيخ عبدالرحمن ومن معه الى حضرته فادوا الرسالة التي جاءوا لأجلها من عند الايلخان أحمد تكدار فسمعها السلطان قلاوون منهم وأعادهم إلى مكانهم ،ثم استحضرهم ثانية وثالثة لسماع مقالتهم حتى استوعب ماعندهم من الأخبار.(٢) ثم أعلمهم في المرة الثالثة ان مرسلهم أحمد تكدار قد قُتل ،وملك مكانه ابن أخيه أرغون بن أبغا بن هولاكو . ومن ثم أمر بنقلهم

---

١) ابن الفرات ،م٧ ،ص ٤٩ ؛ أما الشيخ عبدالرحمن فلم أقف له على تعريف سوى ماذكره ابن الفرات في تاريخه عند ذكر خبر وفاته ،الذى أطلق عليه "عبدالرحمن رسول أحمدآغا ملك التتر" توفى في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٨٣هـ في قلعة دمشق ودفن بمقابر الصوفية ،(انظر تاريخ ابن الفرات ، المجلد الثامن ص ١٣).

٢) يبدو انه نمى الى السلطان قلاوون نبأ تمرد أرغون ابن أبغا على عمه أحمد تكدار ،لذلك عمل على مماطلة الرسل انتظارا لما ستسفر عنه تلك الخلافات من نتائج .

إلى مكان آخر داخل قلعة دمشق ،وإجراء الرواتب الكافية لهم . ثم مالبث ان مات الشيخ عبدالرحمن في رمضان من سنة ٦٨٣هـ/ ديسمبر ١٢٨٤م .(١)

والواقع ان هذه المكاتبات التي تُبودلت بين إيلخان مغول فارس المسلم أحمد تكدار ، والسلطان المملوكي المنصور قلاوون الذى كان يعتبر بحق الممثل الحقيقي للقوة الحاميه للاسلام آنذاك . كان من الممكن أن توقف العداء بين الدولتين الجارتين ،ليتحقق للإسلام والمسلمين من خلالها فترة من التقدم والانتشار والوقوف في وجه الاعداء . فيما لو استمر الإيلخان أحمد تكدار فترة طويلة من الزمن على العرش الايلخاني . ولكن وفاته في سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م فضت على تلك الآمال حيث أقدم الإيلخان الجديد أرغون بن أُبغا على اضطهاد المسلمين في بلاده ، وصرفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمال . كما حرم عليهم الظهور في بلاطه . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أمعن وزيره سعد الدوله اليهودى في الكيد للإسلام والتآمر عليه والحط من شأنه .(٢)

---

١) ابن الفرات ،م٧ ،ص ٢٧٨، ٢٧٩ ؛ أنظر أيضا ،ابن عبدالظاهر ،تشريف الأيام والعصور ،ص ٤٨، ٤٩ ؛ ابن الفوطي ،الحوادث الجامعة ،ص ٣٤٢ ؛ ابن أيبك الدوادار ،الدرة الزكيه ،ص ٢٦١ .

٢) لمعرفه تفصيل خروج أرغون بن أبغا على عمه أحمد تكدار ،أنظر رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ،م٢ ،ج٢ ،ص ٩٦ ومابعدها ؛ ابن الفرات ،م٨ ،ص ٣ ، ٤٠ ؛ ابن أيبك الدوادار ،المصدر نفسه ،ص ٦٣ ،ومابعدها ؛ ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول،ص ٥١٨ ،ومابعدها ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص ١٧١ ، ١٧٢ ؛ فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١٢٦ .

ولم يكتف أرغون بن أبغا بذلك العداء السافر والاضطهاد للمسلمين بل ذهب إلى ماهو أبعد من ذلك ،وهو السير على نهج اسلافه في محاولة عقد حلف مع الصليبيين ،لوضع المسلمين في الشام بين شقى رحى. فراسل ملوك الغرب وبابوات روما في هذا الشأن ،وعرض عليهم حق الاتجار والتنقل في دولته ، بقصد اضعاف تجارة المماليك ،والقضاء على قوتهم . وزاد على ذلك بأن أعلن استعداده للتنصر .(١) الا أن محاولاته تلك باءت - على مايبدو - بالفشل كسابقتها لانشغال الغرب الاوربي آنذاك بمشاكله الداخلية .

وعلى الرغم من ذلك ، فاننا نستطيع أن نوءكد بأن خروج أرغون على عمه أحمد تكدار ،واضطهاده للمسلمين لم يوءثر على انتشار الاسلام بين صفوف مغول فارس . إذ يبدو ان جموع المغول الوثنيين نتيجة اختلاطهم بالمسلمين الاصليين في اقليم فارس وجدوا ضالتهم في الدين الاسلامي الحنيف ،فاقبلوا على اعتناقه ، واصبح الاسلام دينا رسميا لدولتهم في فارس . يدلنا على ذلك إقدام عدد من إيلخاناتهم الذين خلفوا أرغون على اعتناق الدين الاسلامي وتطبيق احكامه داخل دولتهم .(٢)

ثانيا : جهاد أسرة قلاوون ضد الصليبيين

حرص السلطان المنصور قلاوون ، منذ بداية عهده على تقوية اواصر الصداقة مع حلفاء المماليك زعماء القبيلة الذهبية (القفجاق) . فأرسل

---

١) فايد حماد عاشور ،العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ،ص ١٢٦، ١٢٧.

٢) انظر :عبدالسلام فهمي ،تاريخ الدولة المغولية في ايران .

الى منكو تمر خان مغول القفجاق يخبره بارتقائه العرش المملوكي ، وجدد معه علاقة الود والصداقة ، وحرصه على الاستمرار في مناوئة عدوهما المشترك مغول فارس.(١) ولما اعتلى السلطان المسلم أحمد تكدار عرش المغول في فارس لم يغتر السلطان قلاوون بذلك الحدث ،بل حرص على استمرار مراسلته لحكام القفجاق . وزادت الحاجة لهم عندما نسف أرغون ابن أبغا التقارب الذى تم بين السلطان أحمد تكدار والسلطان المملوكي قلاوون إذ كان من الطبيعي أن يحرص الأخير على تقوية روابط الصداقة مع مغول القفجاق وتحريضهم على قتال أعدائه مغول فارس لكي يتفرغ هو لمشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام .

ولما كان السلطان الظاهر بيبرس قد توصل الى مصادقة الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس الثامن (٦٦٠ - ٦٨١هـ/١٢٦١ - ١٢٨٤م) فقد حرص السلطان قلاوون على تأكيد تلك الصداقة ،ليستعين به على الصليبيين ، لما عُرف عنه من معاداة للغرب الأوربي الذى كان يوالي امداداته إلى الصليبيين ببلاد الشام . فبعث إلى الامبراطور البيزنطي نفسه رسالة يعلمه فيها بتوليه السلطنة المملوكية ، ويمد اليه يد الصداقة و الحلف ، فأرسل إليه الامبراطور كتابا يطلب فيه مودته ، ويظهر استعداده لتسهيل السفر على رسله التي تمر ببلاده ،وسأله أن يبعث اليه يمينا يتمسك بها ،فأرسل اليه السلطان المنصور قلاوون نسخة يمينه كما سيَّر إليه رسلا من قبله لتحليفه.(٢)

---

١) انظر المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٠٣ ، حاشية ؛ جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر ،ص ٢٥٩ ؛ فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٢٦٠ .

٢) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٠هـ ؛ابن الفرات ،م٧ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ؛ جمال الدين سرور ، المرجع نفسه ،ص ٢٥٩ .

ولما ولي الامبراطور اندروفيكس الثاني(٦٨١-٧٢٩هـ/١٢٨٢ – ١٣٢٨م) عرش الدولة البيزنطيه سار على سياسة أبيه ميخائيل الثامن في التماس ود سلطان المماليك ،فأرسل إلى السلطان قلاوون هدية ثمينة عبارة عن حمل من الحرير الأطلسي ،وأربعة أحمال من البسط ،فحازت على قبول السلطان قلاوون ، وغمر الرسل بعطاياه .(١)

كذلك تبودلت الرسل والهدايا بين السلطان المنصور قلاوون وبعض الامارات المسيحية باسبانيا . فقد أرسل الفونس صاحب قشتاله Alfonso of Castile سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م رسولين إلى السلطان المنصور قلاوون ، ومعهما هدية من الخيل والبغال ،فأحسن السلطان ضيافتهما وأجزل لهم العطايا.(٢) ولم تقتصر العلاقة بين السلطان قلاوون والفونس صاحب قشتاله على تبادل الرسل بل أبرمت بينهما معاهدة دفاعية في السنة نفسها .(٣)

---

١) النويرى ،نهاية الأرب ،ج٢٩ ،ص ٢٨٥ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص ٢٥٩ ،٢٦٠ ؛ ابن عبدالظاهر ،تشريف الأيام والعصور ،ص ٥٤ .

٢) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،حوادث سنة ٦٨١ ؛ ابن عبدالظاهر، المصدر نفسه ،ص ٤٢ ؛ جمال الدين سرور ، المرجع نفسه ،ص ٢٦٢ .

٣) Muir, the mameluke or slave Dynasty of Egypt p. 38 ،

~~انظر ايضا ،جمال الدين سرور ، المرجع نفسه ،ص ٢٦٢ .~~

وكانت امارة أرغونة أيضا من بين الإمارات الاسبانية المسيحية التي ارتبطت بعلاقات ودية مع السلطان المملوكي المنصور قلاوون فقد عقد ملكها وملك صقلية اللذان كانا أخوين معاهدة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م تعهدا فيه بمساعدة السلطان قلاوون ضد أى حرب صليبية ،وضد اللاتين بسورية اذا نقضوا الهدنة التي أبرموها معه.(١)

وإلى جانب ذلك فقد حرص جيمس الثاني ملك أرغونة على تكوين صداقةقوية مع السلطان المنصور قلاوون من أجل رعاية شئون المسيحيين في الشرق وتنمية موارد بلاده بفتح أسواق تجارية لها في مصر.(٢)

وكان حرص سلاطين مصر على تنشيط تجارة مصر باعثا لهم على الترحيب بالتجار الايطاليين في الموانيء المصرية . فقد كانوا حملة التجارة الشرقية إلى أوربا ، يحملونها الى جمهورياتهم ومنها توزع إلى أوربا عن طريق الممرات الكثيرة التي تخترق جبال الألب . فاذا كان الظاهر بيبرس قد عقد معاهدات تجارية عدة مع جنوة ، ومنح البنادقة عدة امتيازات سهلت عليهم سبل المتاجرة ،فكانت لهم في الاسكندرية خاناتهم التي تخزن فيها

---

١) ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور،ص ١٥٦ ؛
Stoven on, The crusaders in the East .P 351.
جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ، ص ٢٦٢ .

٢) ابن عبدالظاهر ،المصدر نفسه ، مقدمة المحقق ،ص ٥٠ .

تجارتهم بل كان لهم حراسهم وقناصلهم،كما حرص سلاطين المماليك على منح تجارهم حق التقاضي امام قناصلهم وفقا لقوانينهم الخاصه . فان السلطان المنصور قلاوون قد عقد اتفاقات مماثلة مع البندقية وجنوة وبيزا ، فأصبح لهذه الجمهوريات قناصل في الاسكندرية ودمياط ورشيد ،مسؤولة عن سلامة مواطنيهم وعن تنفيذهم لقوانين التجارة ، فكان التجار الاجانب الذين يفدون الى مصر يسجلون اسماءهم في مكاتب قنصلياتهم من أجل سهولة تمتعهم بما نصت عليه المعاهدات المعقودة من امتيازات .(١)

ومن جانب آخر فقد أدت هذه المعاهدات إلى إثارة غضب البابوية على هذه الجمهوريات المسيحية . التي كانت تحاول اثارتهم من وقت لاخر في سبيل نقض هذه المعاهدات والانضمام الى صف العالم المسيحي في صراعه ضد المسلمين. فكانت بعض هذه الجمهوريات وبالذات الايطالية تنظم اليه في بعض الاوقات وتحارب في صفه الا ان منافعها الاقتصادية لا تلبث ان تدفعها الى العودة الى صداقة سلاطين المماليك ، حيث كانت اسواق القاهرة والاسكندرية تزخر بمواد التجارة القادمة من الهند .(٢)

وكذلك عقدت معاهدات صداقة بين السلطان المنصور قلاوون وبين فيليب الرابع (٦٨٤ - ٧١٤هـ/١٢٨٥ - ١٣١٤م) ملك فرنسا

---

١) ابن عبدالظاهر ،تشريف الأيام والعصور ،مقدمة المحقق ،ص ٥١ ؛أنظر أيضا ،عفاف صبره ،تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ،ص ٥٧؛ورشيد بليده على ساحل البحر المتوسط والنيل قرب الاسكندرية ،(أنظر ياقوت ،معجم البلدان).

٢) ابن عبدالظاهر ،المصدر نفسه ،مقدمة المحقق ،ص ٥١ ؛ أنظر أيضا ، عفاف صبره ، العلاقات السياسية بين الشرق والغرب ،ص ٥٧ .

،والامبراطور رودلف امبراطور النمسا . فقد كان الملك فيليب الرابع يرمي الى عرضين ظاهرين ،أولهما القضاء على سلطة الاشراف في بلاده ليجعل من الحكومة المركزية قوة كبيرة يكون على رأسها ، وثانيهما ابعاد كل أثر لنفوذ اجنبي في ايطاليا ليستخلصها لنفسه فعمل على ابعاد سلطة البابا ، ولم يتورع عن محاربة البابا بونيفاس الثامن وكان عداوءه للبابا يحتم عليه ان ينضم إلى اعدائه ، ولو كان هوءلاء الأعداء من المسلمين.(١)

سقوط امارة طرابلس الصليبية

سبق ان ذكرنا أن السلطان المنصور قلاوون عندما توجه لمحاربة المغول . عمل على مهادنة الصليبيين على ساحل بلاد الشام، حتى لايفاجأ بخروجهم عليه وهو يحارب المغول . فجدد الهدنة التي عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع الفرسان الاسبتارية بحصن المرقب ، كما عقد معاهدة أخرى مماثلة مع الفرسان الاسبتارية بعكا ، وثالثة مع بوهيمند السابع أمير طرابلس.(٢)

ولما تحقق للسلطان المنصور قلاوون الغرض بطرد المغول من بلاد الشام ، لم يتجه لمحاربة الصليبيين مباشرة ،لالتزامه معهم بمعاهدة آمدها عشر سنين . لذا آثر استغلال الفرصة بالعمل على تحصين ثغور المسلمين على شاطئ الفرات الغربي ، لمواجهة أي اعتداء

---

١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الايام والعصور ، مقدمة المحقق ،ص ٥٢.

٢) راجع ماسبق ،ص

متجدد من قبل المغول على تلك المناطق . فاتجه بتفكيره إلى الاستيلاء على قلعة قطينا التي كانت تمثل ضررا على حصن كركر الواقع على الضفة الغربية لنهر الفرات فجرد اليها عسكرا من حصن كركر ،فنازلوها، وفرضوا عليها حصارا شديدا ومنعوا دخول المدد اليها ، حتى ضاق الحال بمن داخلها ، فحصلت منهم الاجابة الى التسليم ،وتسلم نواب السلطان منهم ذلك الثغر في يوم الخميس تاسع عشر ربيع الآخر سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م .(١)

كما اهتم في الوقت نفسه بحصن الكختا الواقع على الشاطيء الغربي لنهر الفرات بالقرب من حصن كركر ، والذى وصفه ابن عبدالظاهر بأنه " من أعظم الحصون واشمخها ،واسمقها ،واحصنها واتقنها ،على صخر شاهق في الهواء ،لايلحقه رام ، واذا رمى من تحته رام لا يصل سهمه الا الى بعض الصخر ،وهومن سائر جوانبه حصين ،وله باشورة لاصقة به" وأصدر السلطان قلاوون أوامره إلى نوابه في تلك المناطق ،يبذل الوعود الجميلة لمن بداخل الحصن ، فاتفق جماعة منهم على قتل النائب المغولي به ، وجهزوا ثلاثة أنفار إلى نائب السلطان بحلب ،فتقرر الحال معهم على الانضواء تحت لواء السلطان قلاوون ، الذى اهتم بالأمر وبعث رسلا من قبله لتحليفهم على السمع والطاعة ،فشملهم بانعامه ، واقطع من يستحق منهم الاقطاعات ثم جهز اليها نائبا من قبله وذلك في جمادى الأولى من سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م .(٢)

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٣هـ ؛ ابن عبد الظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص ٢٨،٢٧ ؛ابن الفرات ،م٧ ،ص ٢٧٣.

٢) بيبرس الدوادار ، المصدر نفسه ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٣هـ ؛ ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ،ص ٢٨ - ٣٠ ؛ابن الفرات ،م٧ ،ص ٢٧٣،٢٧٤.

كما عمد السلطان قلاوون الى تأديب مملكة أرمينية الصغرى ، فأصدر أوامره إلى نائبه على حلب بالتوجه الى بلاد سيس لمعاقبة ملكها ليو الثالث لما ارتكبه في حلب من العدوان على جامعها بالإحراق ، فخرج العسكر الاسلامي من حلب في صفر من سنة ٦٨٢هـ /١٢٨٣م ، وعبروا الحدود الأرمنية قاصدين مدينة إياس ، فوجدوا اهلها قد حصنوا المدينة ،وخرجوا الى ظاهرها استعدادا لمواجهة الجيش الاسلامي الزاحف عليهم ، فحمل عليهم المسلمون وكسروهم وحشروهم الى الميناء ،ثم اقتحموا الأبواب ودخلوا المدينة ،وخربوا مرافقها وغنموا منها غنائم كثيرة، ولما عزموا على الخروج منها سيروا الكشافة الى المناطق القريبة منها ،فاخبروهم بأنهم شاهدوا "سوادا عظيما" من جهة تل حمدون وكان اولئك العسكر قد وصلوا إلى باب الاسكندرونة ،فاذا عسكر سيس قد أقبل لمهاجمتهم ، فاحترز المسلمون ووقفوا بالقرب من باب الاسكندرونة ، وشناوشوا معهم القتال ،فكسرهم المسلمون وأسروا جماعة من خيالتهم ، وساقوا خلفهم الى تل حمدون ،فلما حل المساء توقف العسكر الاسلامي عن القتال ،وتبعت فرقة منهم جماعة من الأرمن ،فوقفوا على طُلُب منهم تقدير خمسمائة مقاتل فلما رأى الأرمن المسلمين خلف اصحابهم وهم منهزمين امامهم، انهزموا معهم . وبات العسكر الاسلامي ليلته على باب الاسكندرونة ولما اصبحوا شدوا رحالهم عائدين الى حلب محملين بالغنائم "ولم يعدم أحد من العسكر المنصور "(١)

---

١) ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص ٣٠ – ٣٢ ؛ والاسكندرونة : مدينة في شرقي انطاكية على ساحل البحر المتوسط بينها وبين بغراس أربعة فراسخ (انظر ياقوت ،معجم البلدان).

ويبدو ان ذلك النجاح الباهر الذى حققه السلطان المنصور قلاوون ضد المغول وحلفاءهم الأرمن ، قد انعكست آثاره على بقايا الصليبيين داخل مملكة عكا نفسها ،حيث سارع صاحبها (١) الى مراسلة السلطان قلاوون ،يلتمس عقد هدنة معه . وهنا يبدو ان السلطان قلاوون رأى أن من الأفضل مادام قد ارتبط بمعاهدة منفردة مع طائفة الاسبتارية بعكا، ان تكون تلك المعاهدة شاملة لبقية الطوائف الصليبية بها ،فضلا عن مدينتي صيدا وعثليث وبلادها . فاتفق الطرفان على عقد هدنة بينهما أمدها عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات وذلك في صفر من سنة ٦٨٢هـ / ٣يونيه ١٢٨٣م.(٢)

ولما زالت مخاوف السلطان من جهة المغول وحلفائهم ،عوّل على اتمام مشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ،فهاجم فجأة حصن الاسبتارية بالمرقب سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م رغم المعاهدة التي عقدها

---

١) كانت عكا وصيدا وعثليث من بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية ، وملكهافي تلك السنة هو Charlez of Anjōu وقد تولى نائبه ببلاد الشام أودو بوالشيان Pollechien مفاوضة السلطان في الهدنه (انظر جمال الدين سرور ،دولةبني قلاوون نقلا عن King. The Knights Hospitollers in the Holyland.P 284

(انظر ايضا ،ابن‌عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص ٣٤ حاشيه‌رقم٥

٢) انظر نص هذه الهدنة في ابن عبدالظاهر ،المصدر نفسه ،ص ٣٤ – ٤٣ ؛ ابن الفرات ،م٧ ،ص ٢٦٢ ،ومابعدها ؛ انظر ايضا ،المقريزى ،السلوك، ج١ ،ق٣ ،ص ٩٨٥ ومابعدها الملحق رقم ٨ ؛ القلقشندى ،صبح الاعشى ، ج١٤ ،ص ٥٢ ومابعدها .

معهم لمدة عشر سنين ،وذلك بسبب اعتراضهم قافلة من التجار المسلمين . وفرض عليه حصارا شديدا استمر ثمانية وثلاثين يوما . رأى بعدها الصليبيون عجزهم عن المقاومة ،فتوسلوا الى السلطان في طلب الامان وتسليمه له ، فوافق السلطان على ذلك رغبة منه في المحافظة على أسوار الحصن الذى وُصِفَ بأنه كان " غاية في العلو والحصانه "(١) وانتهى الأمر باجلاء الحامية الصليبية منه الى طرابلس تحت حراسة جند السلطان ، وسمح لهم بنقل مايستطيعون حمله من أموالهم.(٢)

ولما فرغ السلطان قلاوون من الاستيلاء على حصن المرقب اتجه إلى حصن مرقية الذى كان "بارتليموا" صاحب حصن المرقب قد خرق الهدنة

---

١) أبو الفدا ،المختصر،ج٤ ،ص ٢١ ؛ كماوصفه كل من ابن تغرى بردى ؛وابن الفرات بأنه "من الحصون المشهوره بالمنعة والحصانة وهو كبيرجدا" (أنظر النجوم ،ج٧،ص ٣١٧ ؛ تاريخ الدول والملوك ،ج٨ ،ص ١٧ ؛ أما ابن حبيب فقد وصفه بقوله "وهو حصن شامخ الطور ،باذخ السور ،محكم البنيان مكين الأركان ،شديد الامتناع في غاية العلو والارتفاع" أنظر درة الاسلاك ،ج١ ،ص ٨٠ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٤ ،ص ٢٤١ .

٢) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ، حوادث سنة ٦٨٤ هـ ؛ ابن عبدالظاهر ، تشريف الايام والعصور ،ص ٧٧ – ٨١ ؛ ابن الفرات ،المصدر نفسه ، ج٨ ،ص ١٧ ،١٨ ؛ المقريزى السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٢٧ ،٧٢٨ ؛ ابن تغرى بردى ،المصدر نفسه ،ج٧ ، ص ٣١٧ ؛ أبو الفدا ،المصدر السابق ،ج٤ ، ص ٢١ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ، ج٢ ،ص ٣٣٢ ،٣٣٣ ؛ ابن حبيب، درة الأسلاك ،ج١ ،ص ٨٠ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص ٢٣٨ ؛
Ctevenson, The crusaders in the Middle agest p. 281

ابن اياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٦٢ ؛ القلقشندى ،صبح الاعشى ، ج٣ ،ص ٤٣١ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٤ ،ص ٢٠ – ٢٤١ .

وبناه بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس ، وأعانه على بنائه بوهيمند امير طرابلس ،وأمده الاسبتارية في حصن المرقب وغيره بالمساعدات ، وكان نواب السلطان المرابطون بحصن الاكراد بعد أن عجزوا عن منع الصليبيين من بنائه ،قد أقاموا برجا بالقرب منه بقرية "ميعار" وجعلوا به خمسين رجلا يستبدلون كل فترة ،فلم يجد ذلك العمل نفعا ورأى السلطان الا سبيل الى انتزاع هذا الحصن من الصليبيين بالقوة ، وان حصاره لايمكن لكونه في البحر فلجأ الى سياسة التهديد والارجاف ،وأرسل الى بوهيمند يتوعده بقوله " إن العساكر قد تفرقت ومابقي لها إلا انت ،وهذا البرج أنت الذى عمرته في الحقيقه . ولولا اعانتك لما بني ،وانت المؤاخذ به ، فإما أن يهدم ، وإلا أخذنا قبالته من بلادك ما لاينفعك في الدفع عنه صاحب مرقية ،وتندم حيث لاينفع الندم ،ويكشف الغطاء» فتيقن بوهيمند من عزم السلطان قلاوون على مهاجمة بلاده ،فأجاب الى تسليم الحصن للمسلمين بعد هدمه ،وأرسل شخصا من أعيان أصحابه ليتولى هدمه . وأطلق سراح المسلمين الذين كانوا في الأسر وأرضى صاحبه "بارتليموا" بمبلغ من المال وملّكه بعض الضياع. وبعث الى السلطان قلاوون بهدية ،وصالحه على الا يترك عنده أسيرا ولا يتعرض لتاجر ولا يقطع الطريق على مسافر . وكلف السلطان احد أمرائه بالمشاركة في الهدم ،فهدم حصن مرقبه "حجرا حجرا"(١)

---

١) ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص٨٩ ،٩٠ ; أنظر أيضا ، المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٤٧٦ ; ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج٧ ،ص ٣١٧ ; جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص ٢٣٨ ; عمر عبدالسلام تدمرى ،تاريخ طرابلس ،ص ٥٧٧ ،٥٧٨ ; اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٤ ،ص ٢٤١ ; ومرقية: قلعة حصينة من أعمال حمص (أنظر ياقوت ،معجم البلدان).

وكان استيلاء السلطان قلاوون على حصني المرقب ومرقية قد أثر على صاحبة صور مارجريت (Marguerite, fillede Airehenri) فتوسلت إلى السلطان فعقد معها هدنة لمدة عشر سنين[1]، بعد أن تنازلت له عن نصف دخل صور السنوى ،وتعهدت بعدم تجديد تحصيناتها.[2]

ويبدوا ان هذا النجاح الذى حققه السلطان المنصور قلاوون ضد الصليبيين على ساحل بلاد الشام ،قد أثار شمس الدين سنقر الاشقر مرة أخرى ،حيث امتنع عن الحضور لمساعدة المسلطان عند حصاره حصن المرقب القريب من حصن صهيون الذى كان سنقر مقيما به . الأمر الذى أثار حفيظة السلطان قلاوون وتنكر لذلك . وبالرغم من ان سنقر الأشقر حاول إرضاء السلطان بارسال ابنه ناصرالدين صمغار الى خدمته ، الا ان السلطان منعه من العودة إلى أبيه وأرسله إلى الديار المصرية ومن ثم أصدر أوامره إلى الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة بمصر بتجهيز العساكر والخروج بها الى الشام لمهاجمة سنقر بحصن صهيون ، حيث نازلها طرنطاى وراسل سنقر في تسليمها ،وأخبره بوعود السلطان له . فامتنع سنقر عن إجابته ،فضايقه ونصب المنجنيقات على الحصن حتى أشرف على أخذه عنوة، فلما رأى سنقر عجز موقفه ،ارسل في طلب الآمان والأيمان ،فحلف له حسام الدين طرنطاى ان السلطان لا يضمر له سوءا . فنزل سنقر إلى الأمير حسام الدين وسلم اليه الحصن. ورتب فيه نائبا من قبل السلطان وذلك في سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م .[3]

---

١) انظر نص الهدنة فيابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص١٠٣ ، ومابعدها.

٢) جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص٢٣٨ ؛

Lancpoole . Ahistory of Eygpt in the Middle ages p. 281

٣) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ حوادث سنة ٦٨٦هـ ؛التحفة" الملوكية" حوادث سنة ٦٨٦هـ ؛ ابن عبدالظاهر ،المصدر نفسه ،ص١٤٨ -١٥٠ ؛ ===

ولما فرغ حسام الدين من أمر صهيون عدل إلى جهة اللاذقية ونقل اليها المنجنيقات من صهيون والمرقب ، وكانت مدينة حصينة وصفها ابن عبدالظاهر بقوله " وهذا البرج شمم في أنف تلك الجهات ، وآفة من الآفات ، طالما أصبح وأمسى حسرة في قلب المسلمين ،وذخيرة لأعداء الدين. وذلك انه في وسط البحر ،لاتسلك إليه طريق من بر ولاينقب له سور "(١) ولكن حدث في تلك الآونة أن وقعت زلزلة عظيمة في جهة اللاذقية هدمت أكثر برجها الذى في وسط البحر ،فاستغل عسكر حسام الدين طرنطاى ذلك ،وأخذوا في عمل الثقوب من جهة الامكنة التي هدمتها الزلزلة ، وكشفت المدينة من جهة البحر ،فخاف من بداخلها وسلموا المدينة لحسام الدين ،فأمنوا على الخروج بنفوسهم وأموالهم.(٢) وكانت اللاذقية آخر

== ابن الفرات ،م٨ ،ص ٤٩ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٣٤ ؛ أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ، ص ٢٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٣١٩ ؛ ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، حوادث سنة ٦٨٦هـ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٣٠٩ ؛ ابن خلدون ، العبر ،ج٥ ،ص ٣٩٩ ؛ ابن الوردي ، تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣٣ ؛ وحسام الدين : هو طرنطاى بن عبدالله المنصورى توفى سنة ٦٩٩هـ (أنظر ابن تغرى بردى، المصدر نفسه ، ج٧ ،ص ٣٠٤ حاشيه).

١) ابن عبدالظاهر ،تشريف الأيام والعصور ، ، ص ١٥١ ؛ أما أبو الفدا فقد ذكر بأن كان بها برج للصليبيين يحيط به البحر من جميع جهاته ؛ أنظر ، المختصر ،ج٤ ،ص ٢٢ .

٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ؛ أبو الفدا المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ٢٢

بلد تبقى من امارة انطاكية الصليبية .(١)

لم يبق أمام السلطان المنصور قلاوون بعد ذلك سوى مهاجمة طرابلس التي تردى موقف الصليبيين بها عقب وفاة بوهيمند السابع سنة ٦٨٦هـ /١٢٨٧م دون أن يترك وريثا للعرش بها ليضع بذلك المسمار الأخير في نعش الصليبيين بطرابلس وماحولها . إذ أعلن فرسان طرابلس وتجارها قيام قومون – أى حكم بلدى مستقل(٢) في طرابلس ، في الوقت الذى وصلت فيه الأميره لوسي أخت بوهيمند السابع أمير طرابلس ووريثته ، فاستنجدت بالاسبتارية حلفاء أخيها في محاولة لاستعادة حقها الشرعي في حكم طرابلس(٣) ورد قومون

---

١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٧١ . ويبدو انه لاصحه لما رجحه Stevenson op cit . P 350 n.1 من ان اللاذقية كانت تابعة لسنقر الأشقر ، وان المدافعين عنها كانوا من المسيحيين وان الامير طرنطاى استولى عليها بعد استيلائه على صهيون وبرزية – بدليل ماذكره المؤرخ أبو الفدا الذى كان معاصرا للحوادثوشارك بنفسه بعد ذلك في الاستيلاء على طرابلس من ان اللاذقية كان بها برج للفرنج ويحيط به البحر من جميع الجهات (أنظر المختصر ،ج٤ ،ص ٢٢) . كما ان سنقر الأشقر قد انضم الى حسام الدين طرنطاى عقب تسليمه حصن صهيون ،ولم يلتفت بعد ذلك بتاتا إلى اللاذقية والذى يمكن قوله هنا هو انه لايستبعد ان يكون سنقر كان على علاقة طيبة مع الفرنج باللاذقية قبل انضوائه تحت لواء السلطان قلاوون في تلك السنه (أى سنة ٦٨٦هـ)

٢) أنظر محمود سعيد عمران ،معالم تاريخ اوربا في العصور الوسطي ،ص

٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،ج٢ ، ص ١١٧١ : نقلا عن King , The Kinght, Hospiallers P. 288

؛ عمر عبد السلام تدمرى ،تاريخ طرابلس ،ص ٥٧٩ .

طرابلس على ذلك بالاستنجاد بالجنوية . بل يذهب المؤرخ ابن تغرى بردى الى ان "بارتليموا امير باتشوا" صاحب جبيل ، ورئيس القومون الجديد لم يتردد في الاستنجاد بالسلطان المملوكي المنصور قلاوون ،ووعده اذا تمكن من تحقيق اطماعه ،فانه سيقتسم معه طرابلس .(١)

وحدث ان استجابت جنوا لنداء أهل طرابلس بإرسال بعض سفنها لمساعدتهم ، يحدوها الى ذلك الطمع في تحقيق مكاسب تجارية من جراء السيطرة على مدينة طرابلس ، فضلا عما في ذلك من أهمية في النزاع والتنافس بينها وبين البندقية . ولم يلبث ان عقد بارتليمو امير باتشو اتفاقية مع جنوة ، اصبحت طرابلس بمقتضاها تحت حماية الجنوية الذين حصلوا على كثير من الشوارع والاسواق في المدينة .(٢) وكتب أهل طرابلس بما تم مع جنوة الى الأميرة لوسي التي كانت في عكا ، ولم يعلم الجنوية بهذا الاتصال الذى تم بين أهل طرابلس ولوسي الا عن طريق لوسي نفسها ، التي ادركت انه لافائدة من عمل اتفاقية مع أهل طرابلس دون موافقة الجنوية . وفي المقابلة التي تمت بين رئيس الجنوية والأميرة لوسي في صور ،أبرمت اتفاقية بين الطرفين ، وافقت لوسي بمقتضاها على جميع ماحصل عليه الجنوية من امتيازات في طرابلس ، كما أقرت الحقوق التي حصل عليها

---

١) ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، ج٧ ،ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ؛ سعيد عاشور ،الحركة الصليبية ،ص ١١٧٢ ؛ عمر عبدالسلام تدمرى، تاريخ طرابلس ،ص ٥٧٩ .

٢) انظر ايضا ،سعيد عاشور ،المرجع نفسه ،ص ١١٧٢ ؛ عمر تدمرى، المرجع نفسه ،ص ٥٧٩ ، نقلا عن

Heyd, Hist Ducommerce Levant, I. PP. 356

القومون ، مقابل موافقة الجنوية على إعلانها أميرة على طرابلس .[1]

وكان أن أحسّ بارتليمو صاحب جبيل انه خرج من الصفقة خاسرا ، وان الغنيمة قسمت بين الجنوية والاميرة لوسي دون أن يكون له نصيب منها ، خاصة وانه كان يطمع في الحصول على امارة طرابلس ، بوصفه صاحب جبيل . الأمر الذى دفعه الى الاتصال بالسلطان قلاوون طالبا التأييد منه لتحقيق اطماعه في طرابلس .[2]

ومن جانب آخر فان اتفاق الاميرة لوسي والجنوية وما ادى اليه من توطيد أقدام الجنوية في طرابلس . هو مالايمكن أن يرضى عنه البيازنة والبنادقة فضلا عن مقدمي الدواوية والاسبتارية والتيتون ، يوءيد هذا ما أشارت اليه بعض المراجع الصليبية المعاصرة من ذهاب اثنين من الصليبيين – يرجح كونهما من البنادقة – الى القاهرة ، حيث قابلا السلطان المنصور قلاوون وحذراه من ان بقاء الجنوية في طرابلس يهدد تجارة الاسكندرية ويجعل لها السيطرة على مياه الشرق الاوسط .[3]

---

١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ١٧٢ ، نقلا عن:
Heyd, Opcit, I.P 356.

انظر ايضا ، عمر تدمرى ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٧٩ .

٢) انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص

٣) سعيد عاشور ، المصدرنفسه ، ج٢ ، ص ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، نقلا من:
Setton : Ahistory of The erusades, 11. p 348.

وهكذا اثبت الواقع مرة اخرى بأن تاريخ الصليبيين في بلاد الشام في القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى لم يكن سوى عملية انتحارية طائشة.(١) فقد غدت امارة طرابلس بعد وفاة بوهيمند السابع في وضع يرثي له . فأمرها أصبح في يد أمرأة بسيطة تحيط بها طوائف صليبية متنافره كل همها تحقيق مكاسب اقتصادية حتى لو كان ذلك على حساب استقرار ماتبقى لهم من وجود داخل بلاد الشام .

ولاشك أن السلطان المنصور قلاوون كان يرقب الوضع في طرابلس وأدرك بأن الاستيلاء عليها بات ميسورا ، ورغم أن المماليك لم يكونوا في حاجة الى تحريض على ذلك العمل ،وذلك منذ أن قام بوهيمند السادس سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م باستدعاء المغول الى الشام وتحالفه معهم وحثهم على التنكيل بالمسلمين . فان ارتباط السلطان قلاوون مع صليبي طرابلس بمعاهدة أمدها عشر سنين كان يحول دون مهاجمته لها رغم ماحل بالصليبيين بها من وهن وضعف نتيجة استمرار النزاع بينهم وعدم تقديرهم لخطورة الموقف .

وفي ذلك الوقت الذى كان السلطان المنصور قلاوون يترقب أى عمل عدائي من جانب الصليبيين يكون حجة له لمهاجمتهم وصلته رسالة من الامير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام تفيد بأن الصليبيين بطرابلس نقضوا الهدنة ، واعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين وأسروا

---

١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،ص ١١٧٣ .

عددا من المسلمين . الامر الذى أعطاه الحق في مهاجمة مدينة طرابلس فاعلن النفير العام لقواته استعدادا لمهاجمتها .(١)

في ذلك الوقت علم مقدم الداويه - عن طريق رشوة احد امراء المماليك وهو الامير بدر الدين بكتاش الفخرى - بنية السلطان المنصورى قلاوون ، فحذر اهل طرابلس من الخطر الذى بات يتهددهم (٢) فتناسى الصليبيون خلافاتهم ، وتكتلوا للدفاع .

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٨هـ ؛ التحفة المملوكية ، حوادث سنة ٦٨٨هـ ؛ ابن الفرات ، م٨ ، ص ٨٠ ؛المقريزى، السلوك ، ج١ ،ق٣ ، ص ٧٤٦ ؛ ابن خلدون ، العبر ،ج٥ ، ص ٤٠١ ؛ سعيد عاشور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٨ ؛ عمر عبد السلام تدمرى ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٨٠ ؛ وحسام الدين لاجين هو السلطان حسام الدين لاجين بن عبدالله المنصورى ، الذى ولي السلطنه المملوكية بالاراضي المصرية بعد خلع السلطان العادل كتبغا المنصورى ٦٩٦هـ/١٢٩٦م . واصله مملوكا للملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز ثم اشتراه السلطان سيف الدين قلاوون بعد خلع الملك المنصور على من السلطنه (انظر ترجمته مفصله في ابن الفرات، م٨ ، ص ٢٢٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٨ ، ص ٨٥ ؛ ابن عبد الظاهر تشريف الايام والعصور ، ص ٢٩٢ .

٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٦٨٤ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ١١٧٣ ؛ عمر تدمرى ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٨٠ ؛ وبدر الدين هو بكتاش بن عبدالله الفخرى النجمي توفى سنة ٧٠٦هـ والفخرى نسبه الى فخر الدين بن الشيخ (أنظر الدرر الكامنه ،ج١ ، ص ٤٨٠ ، ٤٨١ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج٧ ، ص ٢٩٨ حاشيه (٣)).

عن طرابلس ،واستصرخوا اخوانهم الصليبيين في كل مكان لينجدوهم فأرسل لهم هنرى الثاني ملك قبرص أخاه عموري وبصحبته نجدة عاجلة من فرسان الجزيرة على ظهر أربع سفن حربية ، كما أسرع الاسبتارية رغم عدائهم الشديد لأهل طرابلس إلى تقديم المساعدة والمشاركة في الدفاع عن طرابلس . وكذلك تناسى الجنوية والبيازنة والبنادقة خصوماتهم موءقتا ، فأرسل الجنوية أربع سفن حربية والبنادقه سفينتين ،والبيازنة بعض السفن الصغيرة لحماية طرابلس من ناحية البحر ، وأزدحمت المدينة بالصليبيين والوافدين اليها من كل جهة ، وباللاجئين من سكان القرى التابعه لها ، ومن المدن والقرى التي كان قد استولى عليها السلطان قلاوون من أيدى الصليبيين .(١)

ولم يأبه السلطان المنصور قلاوون بتلك الاستعدادات الصليبية داخل طرابلس ، بل قرر أن ينهي أمرها ، فخرج بالجيوش المصرية من قلعة الجبل ، وخيم بظاهر القاهرة يوم الخميس العاشر من المحرم سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م . ثم رحل بعد أن اكمل استعداداته ، يوم الثلاثاء ،خامس عشر المحرم قاصدا بلاد الشام ، وفي الوقت نفسه كتب الى جميع النواب بالممالك الشامية والحصون الاسلامية يأمرهم بتجهيز العساكر وارسال المنجنيقات والات الحصار الى طرابلس . ثم وصل السلطان بالجيوش إلى دمشق في يوم الاثنين ثالث عشر صفر من السنة نفسها ، وبعد أن استراح بها اسبوعا ، تكامل خلاله وصول الجيوش الشامية اليه ، رحل منها يوم الاثنين

---

١) رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٦٨٥ ؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٧٣، ١١٧٤ ؛ قبرص والحروب الصليبية ، ص ٥١ ،عمرعبدالسلام تدمرى ،تاريخ طرابلس ،ص ٥٨٠، ٥٨١ .

العشرين من صفر على رأس جيوشه متوجها إلى طرابلس.[1]

وصل السلطان قلاوون بقواته إلى مشارف طرابلس، ولم يعد في طريقه أية مقاومة تذكر، فقد آثر الصليبيون التحصن داخل اسوار المدينة، ونزل السلطان بقواته على سفح مرتفع اشرف من خلاله على المدينة، وشرع في محاصرتها من الجهة

---

١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، حوادث سنة ٦٨٨هـ ؛ التحفة المملوكية، سنة ٦٨٨هـ ؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص ١٣( ) ابن الفرات، م٨، ص ٨٠ ؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق ٣، ص ٧٤٦ ؛ أبو الفدا، المختصر، ج٤، ص ٢٣ ؛ ابن أيبك الدرة الزكية، ص ٢٨٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص ٣٢١ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٣١٣ ؛ ابن خلدون، العبر، ج٥، ص ٤٠١ ؛ اختلف المؤرخون في تقدير عدد الجيش المملوكي، فمنهم من ذكر بأنه كان يتألف من عشرة آلاف فارس وثلاثة وثلاثين الفا من المشاة ومنهم من قدره بمائة الف من المشاة، ومنهم من قدره بأربعين ألف فارس ومائة الف من المشاه، ولم تفصح المصادر العربية المعاصرة عن عدد افراد الجيش المملوكي، بل اشارت الى انه صحب السلطان قلاوون خلق كثير من المتطوعة (أنظر ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٣، ص ٣١٣ ؛ عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس، ص ٥٨٢، ٥٨٣ ؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٧٤ ؛ أنظر أيضا، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص ٤٦.

الشرقية ، ونظرا لكون المدينة محاطة من بقية الجهات بالبحر "وليس عليها قتال في البر إلا من جهة الشرق وهو مقدار قليل"(١) فقد عمد السلطان قلاوون الى نصب مزيد من المنجنيقات بلغت تسعة عشر منجنيقا ، وبدأ الرمي على المدينة في حين والى النقابون والحجارون والزراقون عملهم وتمكنوا من فتح ثغرات في سور المدينة الشرقي(٢) واستمر الحال على ذلك وضايق المسلمون المدينة مضايقة شديدة الى أن تمكنت قذائف المنجنيقات من تهديم برج كبير للصليبيين في الركن الجنوبي الشرقي من السور وكذلك برج الاسبتارية الممتد إلى البحر ، وأمام هذا الحصار الشديد أدرك معظم من بداخل المدينة انه لاجدوى من المقاومة ، ففر عدد كبير من البنادقة الى شاطيء البحر وركبوا السفن هاربين بعد أن شحنوها بالامتعة وقد أحدثت حركتهم هذه خوفا وريبة لدى أحد أمراء البحر الجنويين ، إذ ظن ان البنادقة يحاولون بذلك سرقة بعض سفنه الراسية في الميناء فاستدعى رجاله وغادروا المدينة بعد أن اخذوا معهم ماكانوا يحفظونه في متاجرهم . الأمر الذى أدى الى ارتباك المدافعين عن المدينة وفتّ ذلك في عضدهم ونتج عن ذلك أن غادر الأمير عمورى ومعه عدد كبير من القادة

---

١) أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص٢٣ ،أنظر أيضا ، الحميرى ، الروض المعطار، ص ٣٩٠ ؛ عبدالسلام تدمرى ،تاريخ طرابلس ، ص ٥٨٥ ؛ سعيد عاشور ،، الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٧٥ .

٢) ابن الفرات ،م٨ ،ص ٨٠ ، والزراقون ،مفرها زراق وهو الذى يقذف النار المشتعله بالقار وغيره عبر المزاريق (الانابيب) (أنظر أيضا عمر عبدالسلام التدمرى ، المرجع السابق ،ص ٥٨٥ حاشيه).

الصليبيين المدينة هاربين الى قبرص .[١]

استغل السلطان قلاوون ذلك الخلل الذى دب في صفوف الصليبيين بطرابلس ، فشن هجوما قويا عليها ، ووجدت قواته طريقا الى الداخل عبر السور الشرقي المتهدم . فتدفقت بعددها الى داخل المدينة . ولما رأى الصليبيون عجز موقفهم بادروا بالهرب الى جزيرة بمحاذاة طرابلس قريبة من الساحل تعرف بأسم جزيرة النخلة .[٢] فتبعهم المسلمون حتى لحقوا بهم .

ولنترك المؤرخ أبو الفدا الذى شهد الاستيلاء على طرابلس مع أبيه وعمه الملك المظفر صاحب حماه يصف لنا ذلك العمل البطولي حيث يقول " وكان في البحر قريبا من طرابلس جزيرة ، وفيها كنيسة سنطماس ، وبينها وبين طرابلس المينا ، فلما أخذت طرابلس هرب الى الجزيرة المذكورة ،وإلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء ، فاقتحم العسكر الاسلامي البحر ، وعبروا بخيولهم سباحة الى الجزيرة المذكورة فقتلوا جميع من فيها من الرجال ، وغنموا مابها من النساء والصغار ، وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب عَبَرْتُ اليها في مركب فوجدتها ملأى من القتلى ، بحيث لايستطيع

---

١) رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٦٨٧ ؛ أنظر أيضا ،عمر تدمرى ،تاريخ طرابلس ، ص ٥٨٥ ؛ سعيد عاشور ،الحركة الصليبية ،ج٢ ، ص ١١٧٤ .

٢) ابن الفرات ،م٨ ،ص ٨٠ ؛ السيوطي حسن المحاضرة ،ج٢ ،ص ١١٠ ؛ عبد السلام تدمرى ،المرجع السابق ،ص ٥٨٦ ،أما الدكتور ،سعيد عاشور فيسميها جزيرة القديس نيقولا (أنظر الحركة الصليبية ،ج٢،ص ١١٧٥ .

الانسان الوقوف فيها من نتن القتلى "(١)

وحدث أن جماعة من الصليبيين حاولوا النجاة بأنفسهم واستقلوا مركبا في البحر فالقتهم الريح الى الساحل فظفر بهم غلمان المسلمين وقتلوا واسروا منهم عددا كبيرا وغنموا منهم غنائم كثيرة (٢)

ولما تم للسلطان قلاوون الاستيلاء على طرابلس أمر في البداية بالابقاء عليها ، وأنزال الجيش فيها ، ثم أشير عليه بأن هدمها أولى من بقائها خاصة بعد أن تهدمت أسوارها وأبراجها ، وتصدعت معظم منازلها بفعل الرمي من المنجنيقات أثناء الحصار، فوافق على هدمها ، ثم أمر بالبدء في بناء طرابلس الجديدة بجوار النهر ، بعيدا عن شاطئ البحر ، لتكون في منأى عن تهديد الأساطيل الصليبية مستقبلا .(٣)

---

١) أبو الفدا ، المختصر ، ج٤ ، ص ٢٣ ؛ وقد ذكر العيني في عقد الجمان ج٤ ، ورقة ٧٢٢، وابن الفرات م٧ ، ص ٨٠٠ ان البحر انطرد عن الافرنج الفارين الى الجزيرة المذكورة فانحسرت المياه ، وظهر للعساكر الاسلامية مخاضة فعبروها مابين راجل وفارس وأوقعوا بمن فيها ، (انظر ايضا ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص ١٣ ( ) ؛ عمر عبدالسلام تدمرى ، ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ .

٢) ابن الفرات ، م٨ ، ص ٨٠ ؛ العمرى ، مسالك الابصار ، ج٨ ، ص ٩٠ ، ٩١( )

٣) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٧٤٨ ؛ ابن الفرات ، م٨ ، ص ٨١ ؛ ابن حبيب درة الاسلاك، ج١ ، ص ٩٥ ( ) الذهبي ، العبر ، ج٥ ، ص ٣٥٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٣١٣ ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ص١٨٨ ؛ ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، حوادث سنة ٦٨٨هـ ؛ الحريرى ، الاعلام والتبيين ، ، ورقة ١٤٤ أ ؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج٢، ص ١١٧٥ .

وكان من أثر سقوط طرابلس أن أخلى الصليبيون ببلاد الشام مدينتي بيروت وجبيل ، فاستولى عليها السلطان المنصور قلاوون وان كان قد أقر بارتليموا على بلدة جبيل على سبيل الاقطاع ، فان ذلك جاء مشروطا بتبعيتها وخضوعها لسلطنة المماليك كما تعهد صاحبها الصليبي بدفع معظم أموالها للسلطان قلاوون. (١) كماتسلم السلطان حصن أنفة وكان أيضا لصاحب طرابلس ، فأمر بتخريبه ،ثم تسلم البترون وجميع ما هناك من الحصون . (٢)

ويضيف ابن الفرات ان السلطان قلاوون قد ابقى على الأميرة لوسي أخت بوهيمند السابع صاحبة طرابلس قريتين من قرى طرابلس . (٣)

والغريب في الأمر أن سقوط طرابلس في أيدى المماليك لم يحدث ردود فعل عكسية بشكل قوى لدى الغرب الأوربي كما كان متوقعا . ففي الوقت الذى كان يأمل فيه بقايا الصليبيين ببلاد الشام أن تلبي أوربا نداء البابا في الاسراع لإنجادهم . فقد تنصل

---

١) النويري ،نهاية الأرب ،ج٢٩ ،ص ٦ ؛ ابن دقماق ، الجوهر الثمين، حوادث سنة ٦٨٨هـ ؛ ابن الفرات ،م٨ ،ص ٨١ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ،ج٧ ،ص ٣٢١ حاشية ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ،ص ١١٧٥ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص ٣٢٩ .

٢) ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ،ج٧ ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ ؛ وانفة بليدة على ساحل بحر الشام شرق جبل صهيون (أنظر ياقوت ،معجم البلدان).

٣) انظر ابن الفرات ، المصدر نفسه ،ص ٨١ ،أنظر ،

Stevenson, The crusaders in The East - P 349

جمال الدين سرور ، المصدر نفسه ،ص ٢٣٩ .

ملك فرنسا من كل مسؤولية ، كما ان ملكا أرغونة وصقلية وقعا معاهدة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م تعهدا فيها بمساعدة السلطان المنصور قلاوون ضد أية حملة صليبية جديدة ، وضد الصليبيين في الشام إذا قاموا بخرق الهدنة ألتي أبرموها مع السلطان قلاوون .[١] وكان الملك الانجليزى ادوارد الأول ،هو الوحيد الذى عزم على القيام بحرب صليبية في المشرق . إلا ان الجدال الكبير بين الشرق والغرب انتهى قبل الوقت الذى حدده للقيام بهذه الحرب .[٢] أمّا العرض الذى تقدم به أرغون خان المغول في فارس، فقد ظل قائما لايلقى ردا من البابوية ، شأنه شأن صيحات هنرى الثاني ملك قبرص ألذى أرسل بدوره إلى الغرب الاوربي مستنجدا بهم لانقاذ ماتبقى للصليبيين من مراكز في ساحل بلاد الشام .[٣]

أما بالنسبة لبقايا الصليبيين في بلاد الشام ،فقد خارت قواهم وتمسكنوا داخل المدن المتبقية تحت أيديهم . باستثناء ماذكره ابن عبدالظاهر من أحد أمراء البحر الجنويين ذكر أن اسمه "بنيت زكريا" (Bendito Saccaria) عمد بعد هروبه من طرابلس الى أعمال القرصنة البحرية ، وقام بمهاجمة مركب تجارى خرج من الاسكندرية ، وقتل من فيه من المسلمين واستولى

---

١) راجع ماسبق ،ص

٢) جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون في مصر ،ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ؛ سعيد عاشور ،الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٧٦ ؛أوربا العصور الوسطى ج١ ،ص ٥٧٨ ، ٥٨٠ ؛ عمر عبدالسلام تدمرى ،تاريخ طرابلس ،ص ٥٩٥ .

٣) سعيد عاشور ،الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٧٦ .

عليه ، فخاف الجنوية المقيمين في الاسكندرية عاقبة ذلك ، فهربوا منها إلى البحر . ورد السلطان قلاوون عليه بامساك جميع الجنوية المتواجدين في الثغور الاسلامية . ولما كان الجنويون يخشون أن تضيع تجارة الشرق من أيديهم ، فقد أنكروا على هذا الأمير تعدياته ولاموا فعلته ، ومنعوه من الالتجاء الى جنوة ، كما تبرأ منه أهل عكا وجميع الفرنج ، وعقد السلطان معاهدة مع الجنوية في سنة ٦٨٩/١٢٩٠م .(١)

والواقع ان استيلاء السلطان المملوكي قلاوون على طرابلس ، يعد انجازا عظيما في مشروع تصفية الوجود الصليبي من الشرق الاسلامي يضاف الى تلك الإنجازات الرائعة التي حققها زعماء

---

١) انظر نص الهدنة في ابن عبدالظاهر ،تشريف الأيام والعصور ، ص ١٦٥ – ١٦٩ ؛ ويورد الدكتور / عمر عبدالسلام تدمرى، رواية أخرى نقلها عن مؤرخ الحوليات الجنوى "يعقوب دوريا" " Jacopo D,oria " الذى دون أحداث الفترة ١٢٨٠ – ١٢٩٣م) ضمن مجموعه حوليات كنارو : ان المدعو باولينو دوريا (Paolino D oria) قنصل الجنويه في مستعمرة كافا " Caffa " على البحر الأسود ، هو الذى هاجم المركب القادم من الاسكندرية انتقاما لسقوط طرابلس إذ انه عندما سمع بحصار المدينة أعد ثلاث سفن وشحنها بالمقاتلين والميرة لانقاذها ، وعندما وصل إلى قبرص سمع خبر سقوطها ،حزن وعاد وفي طريق عودته التقى بالمركب الاسكندرى فهاجمه (انظر تاريخ طرابلس ،ص ٥٩٥ ، ٥٩٦ . حاشيه).

الجهاد الإسلامي من قبله . ولاغرو ، فلقد كانت طرابلس قاعدة رئيسية وعاصمة لإمارة صليبية في الشرق الاسلامي أقام بها الصليبيون قرابة قرنين من الزمان . لذا فقد أحدث سقوطها في أيدى المسلمين دويا هائلا خفقت له قلوب المسلمين بعد أن أرسلت البشائر بذلك الفتح العظيم الى كافة الافاق الاسلامية فزينت المدن ، وعملت القلاع (١) في الشوارع ، وسر الناس بهذا النصر سرورا عظيما ،وتبارى الخطباء والشعراء في وصفه والتهنئة به .(٢)

---

١) القلاع: جمع قلعة ،والراجح أن المقصود بها هنا قلاع خشبية زينت بها الطرقات ، احتفالا بهذا النصر العظيم. وفي (Dozy supp - Dict. Ar) ان القلاع ـ وجمعه أقلع ـ هو قماش يغطي صحن الجامع d,unemosgues صحن Piece de toile gui couvrele وربما كان المقصود هنا قماشا شبيها بهذا،نصبه الأمراء على جوانب الطرقات لاستكمال زينتها وبهجتها . (أنظر المقريزى ،السلوك ج١ ،ق٣ ،ص ٧٠١ حاشية).

٢) أنظر على سبيل المثال لا الحصر ،بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٨٨هـ ؛ ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص ١٨٠ ـ ١٨٢ ؛ الكتبي ،عيون التواريخ، ج١٢ ،ص ٢ ـ ٦ ( ) ؛ العيني ،عقد الجمان ،ج٢٠ ،ص ٧٢٢ ـ ٧٢٤؛ ابن حبيب ،درة الاسلاك ،ج١ ،ص ٩٩ ؛ ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية ،ج٨ ،ص ٢٨٧ ،ومابعدها ؛ القلقشندى ، صبح الاعشى ،ج٧ ،ص ٣٦٦ ـ ٣٧٠ ؛ عمر عبدالسلام تدمرى ،تاريخ طرابلس ، الملاحق).

استيلاء الاشرف خليل على عكا

غدا موقف الصليبيين ، فيما تبقى لهم من معاقل في ساحل الشام في وضع سيء للغاية ، خاصة بعد ان رفض حكام أوربا تلبية نداء البابا في الاسراع لنجدتهم .[1] الأمر الذى حتم على من تبقى منهم داخل بلاد الشام مواجهة مصيرهم المحتوم لوحدهم . وهنا يبدو ان البنادقة رأوا بعد توصل الجنوية الى عقد معاهدة منفردة مع السلطان المنصور قلاوون في سنة ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠م[2] ان الفرصة قد سنحت لهم للدفاع عن مدينة عكا . لاثبات وجودهم ، ومنافستهم الجنوية الذين عجزوا عن الدفاع عن مدينة طرابلس .

وقد أُرجع البعض ذلك التناقض بين البنادقة والجنوية الى ان موقف البنادقة السلبي من طرابلس الهدف منه ، الانتقام من منافسيهم الجنوية الذين تولوا مهمة الدفاع عن طرابلس، إذ عز على البنادقة أن يستولي أعداؤهم الجنوية على طرابلس ويمتلكون ذلك المركز الاقتصادى والحربي الفذ على ساحل بلاد الشام. ولما سقطت طرابلس في أُيدى المماليك . رأى البنادقة الذين كانت لهم السيادة في عكا أن تعرضها لأى خطر يهدد مصالحهم التجارية الكبرى في بلاد الشام كلها . لذلك حرصوا على بقائها وعقدوا العزم على الدفاع عنها . وتجنيبها ماحل بطرابلس[3]

---

١) راجع ماسبق ،ص ٣٢١ .

٢) راجع ماسبق ،ص ٣٢٢ .

٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٧٧ ،نقلا عن
Stoon, opcit ll , p 593

وكان أن استجاب البنادقة لدعوة البابا نيقولا الرابع ،فاسهموا في اعداد حملة مكونة من الف وستمائة مرتزقا على شاطيء الادرياتيك في صيف سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م لانقاذ عكا ، وخرجت الحملة في عشرين سفينة تحت قيادة دوق البندقية نفسه ،ومعه عدد كبير من البنادقة ، فضلا عن متطوعة بقية المدن الايطالية .(١)

والواقع ان هذه الحملة كانت هي الموءشر الحقيقي الذى خول السلطان المنصور قلاوون مهاجمة عكا في ذلك الوقت . بالرغم من انه لم يكن – على مايبدو – ينوى مهاجمتها آنذاك بسبب ارتباطه معها بمعاهدة لمينتة أمدها . فضلا عما تم بينه وبين الجنوية في هذه السنة(٢) . والذى ترتب عليه أن اخذت العلاقات التجارية تعود الى مجاريها الطبيعية بين الصليبيين في عكا وصور وبيروت منجهة ، وبقية البلدان الإسلامية داخل بلاد الشام من جهة أخرى ، فانتضمت القوافل بين دمشق وبيروت ، وأستأنف الفلاحون في القرى الاسلامية القريبة من عكا نشاطهم في فلاحة أرضهم وترقب محصولها .(٣)

ولكن ذلك الاستقرار لم يدم طويلا . إذ عد المسلمون وصول هذه الحملة الصليبية الجديدة التي تبناها البنادقة الى بلاد الشام خرقا للهدنة التي كان السلطان قلاوون عقدها مع الصليبيين . خاصة وان هذه الحملة الايطالية ضمت في ركابها عناصر همجية ،مشحونة بالحماسة الدينية ،لاخبرة لهم بشئون السلم والحرب ،ماإن وطأت أرجلهم

---

١) سعيد عاشور ،الحركة الصليبية ، ج٢ ،ص ١١٧٧ ، نقلا عن
Cam. med Hist. Vol . 5 , p 318

٢) راجع ماسبق ، ص

٣) انظر ،سعيد عاشور ،المرجع نفسه ،ج٢ ، ص ١١٧٧، ١١٧٨ .

ارض عكا حتى عبّروا عن حماستهم الدينية بارتكاب الجرائم الفظيعة ضد الفلاحين المسلمين في إقليم عكا . ثم عادوا بعد ذلك ودخلوا المدينة ليذبحوا كل من بداخلها من تجار المسلمين الذين كانوا قد قصدوا عكا في ظل الأمان المعطى لهم بعد عقد الصلح بين السلطان قلاوون والصليبيين بها.(١) ولم يسلم المسيحيون السريان من جهل أولئك الايطاليين الوافدين اذا اختلط عليهم الأمر وحسبوهم مسلمين.(٢) الأمر الذى أذهل أهل عكا من تلك الاعمال الهمجية ، وخشوا عاقبة مافعله الصليبيون الجدد، فارسلوا الى السلطان قلاوون يعتذرون عما حدث ويتعهدون بمعاقبة المذنبين.(٣)

والواقع ان السلطان قلاوون لم يكن في حاجة الى اعتذار صليبي عكا عن تلك الجرائم التي ارتكبها الصليبيون الوافدون اذ كان في ذلك الوقت بحكم قوة موقفه ، وحرصه الشديد على مواصلة مشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، حريصا كل الحرص على ترقب أى عمل صليبي يخل بشروط الهدنة المعقودة مع عكا ليتسنى له مهاجمتها ، يشاركه في ذلك جموع المسلمين المتعطشة للجهاد في سبيل الله . التي سارعت باحضار ملابس الضحايا اليه ملطخة بالدماء ،ومعبرة عن

---

١) الحريرى ،الاعلام والتبيين بذكر خروج الفرنج الملاعين ،ورقة ١٤٤ آ ؛ أنظر أيضا ،المقريزى السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٥٣،٧٥٤ ؛ ابن الفرات ،م٨ ،ص ١١٠ ؛ الذهبي ،دول الإسلام ،ص١٨٨ ؛ ابن عبدالظاهر ،تشريف الأيام والعصور ،ص ١٧٧ ؛ سعيد عاشور ،الحركة الصليبية ،ص ١١٧٨ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ص ٢٤٠.

٢) أنظر سعيد عاشور ،المرجع السابق ،ص ١١٧٨.

٣) سعيد عاشور ،المرجع السابق ،ج٢،ص ١١٧٨ .

استياءها من تلك الجرائم الصليبية . وأمام ذلك الدليل المادى ثارت همة السلطان قلاوون ،وأقسم أن ينتقم لهم من الصليبيين . وهنا يبدو ان السلطان قلاوون أراد أن يخول نفسه مقاتلة كافة الصليبيين داخل مدينة عكا . فشرط على أهلها تسليم المذنبين فورا إليه . مقابل قبول اعتذارهم فعقد الصليبيون بعكا مجلسا لبحث هذا الأمر . واقترح مقدم الداوية الموافقة على شرط السلطان قلاوون بأن يتم القبض على المتهمين في ذلك العدوان ، وتسليمهم الى السلطان قلاوون ليقتص منهم بنفسه مادام سيؤدى ذلك الى عدوله عن الانتقام منهم .(١)

ولكن هذا الاقتراح الذى كان السلطان قلاوون – على مايبدو– يدرك مسبقا بأنه لن يقابل بالارتياح من معظم الأوساط المسيحية بعكا ، نظرا لضخامة عدد الصليبيين المذنبين ، وصعوبة القبض عليهم وتسليمهم إليه ، قوبل بالرفض من الرأى العام المسيحي بعكا ، واكتفى من بداخلها بتقديم اعتذارات شكلية تضمنت ان ما حرى كان من فرنج الغرب ، وقد شنقوا منهم جماعة .(٢)

---

١) Stevenson . op. cit . p 352.
سعيد عاشور ،الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٧٩ .

٢) ابن عبد الظاهر ،تشريف الأيام والعصور ،ص ١٧٧ ؛ ويذكر الدكتور عاشور ،نقلا King - op cit . p 239 ان الصليبيين بعكا تقدموا الى السلطان باعتذارات شكلية فحواها "ان العدوان قام به صليبيون اجانب اغراب خارجون عن سلطة حكومة عكا ،ولذلك فان هذه الحكومة غير مسئولة عن أعمالهم (أنظر سعيد عاشور ، المرجع السابق ،ص ١١٧٩).

وعندئذ تحقق للسلطان قلاوون ماكان ينشده . ورفض اعتذارات الصليبيين بعكا " ولاسمعها منهم ،وتوكل على ربه وأذن الاعداء بحربه "[١] بعد أن شاهد ان كل الامور تسير في صالحه ،فالصليبيون نقضوا الهدنة التي كان قد أبرمها معهم. وقواته تتمتع بروح معنوية عالية .

كما ان احوال الصليبيين داخل عكا ذاتها كانت تسير من سيء الى اسوأ إذ تجمعت بها فلول الصليبيين المتشتتة التي هربت من انطاكية وطرابلس وغيرها من المراكز والمدن الصليبية التي استردها المسلمون من الصليبيين . وأضحت عكا تعج بمزيج غريب غير متجانس من الصليبيين ،حتى صار بداخلها سبع عشرة جالية كل منها تؤلف قومونا مستقلا بذاته .[٢] فضلا عما كان بها من ممثلين لمنظمات الفرسان وملوك انجلترا وفرنسا وقبرص والمدن الايطالية التجارية وكذلك البابوية وكل من هؤلاء كان يسير في طريقه الخاص ويفكر بطريقته الخاصة وينظر الى الامور من وجهة نظر المصدر الذى يمثله دون أن يحاول التعاون مع غيره لتوحيد الجهود ضد الخطر المنتظر.[٣] بل ظلت هذه المدينة ملجأ تتخذ جميع مساوىء المسيحية طريقها اليه بعد

---

١) ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص ١٧٧ .

٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٧٩ ، ١١٨٠ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص ٢٤٢ .

٣) سعيد عاشور ، المصدر نفسه ،ص ١١٨٠ نقلا عن Archer, The crusades p.p 415 - 416

أن أهملت بها فروض الدين والقانون والفضيلة حتى أصبحت في أواخر أيامها محطا لمن أراد من المسيحيين الانغماس في الترف والرذيلة". (١)

ولم يكن يشفع لبقايا الصليبيين بعكا سوى ماكانت عليه من الحصانة العالية ،إذ كانت دفاعاتها تتألف من اثنى عشر برجا ، وقد شيدت هذه الابراج على ابعاد متساوية ،وعند زاوية الانحراف على خليج عكا ، والاتجاه صوب الغرب نحو البحر كان يوجد على السور الخارجي يقابل البرج "الملعون" على السور الداخلي ، وكان الملك هنرى الثاني هو الذى عمر هذا البرج ،وقبالة هذا البرج كان يوجد برج آخر عند مدخل الحصن من تشييد الملك هيو والد هنرى الثاني ،وهذه الزاوية باكملها من برج هنرى الثلني الى برج الملك هيو كانت اضعف النقاط في خط الدفاع عن عكا. ولذا فقد تقرر أن يتولى الدفاع عنها جنود الملك هنرى بقيادة أخيه عموري. (٢)

ومهما يكن من أمر ،فان السلطان المنصور قلاوون لم يكن يهمه سوى ماكان يمليه عليه دينه الاسلامي الحنيف من وجوب

---

١) جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ، ص ٢٤٢ . نقلا عن Archer . Op cit /. P 414.

٢) انظر رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٦٩٧، ٦٩٨ ؛ حامد غنيم ،الجبهة الاسلامية ،ج٣ ،ص ٢١٦ ؛ أنظر أيضا خريطة عكا .

التمسك بمقاطعه على نفسه مع اعدائه . أما وقد خرق الصليبيون بمحض اختيارهم الهدنة ، التي كانت مبرمة معهم.(١) فقد شرع السلطان في الاستعداد للاستيلاء على عكا . ولكن القدر لم يمهله ليحقق ذلك الحلم الذى لم يعد سوى مسألة وقت يختاره لدك آخر معقل صليبي في بلاد الشام ،اذ لم يكد يفرغ من اكمال استعداداته الحربية ،ويغادر القاهرة حتى فوجيء بوعكة صحية ،تزايدت آلامها وتوفى على اثرها في ذى القعدة من سنة ٦٨٩هـ/ نوفمبر ١٢٩٠م.(٢)

---

١) يورد الدكتور محمد جمال الدين سرور نقلا عن نقلا عن ميور " Muir, op. cit p. 39. " ان السلطان المنصور قلاوون دعا القضاة وأخبرهم باعتداء الصليبيين على التجار المسلمين بالقرب من عكا ،فافتوه بأن مالحق بالتجار المسلمين من الاهانات مبرر كاف لاعلان الجهاد على الصليبيين (انظر دولة بني قلاوون في مصر ،ص ٢٤٠) .

٢) ابن عبد الظاهر ،تشريف الأيام والعصور ،ص ١٣٨ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٩ ،ص ٥٥ ( ) ؛ ابن حبيب ، الفوائد المنتقاة من أخبار صاحب حماة ،ورقة ١٤٨ أ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٥٥ ؛ أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص ٢٣ ؛ ابن اياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٦٠ ؛ ابن خلدون ، العبر ،ج٥ ،ص ٤٠٣ ؛ ابن الفرات ،م٨ ،ص ٩٧ ؛ الذهبي ، دول الاسلام ،ص ١٨٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ج٧ ،ص ٣٢٥ ؛ الحريرى ، الاعلام والتبيين ورقة ١٤٤ أ .

ولم يكن لوفاة السلطان المنصور قلاوون في هذا الوقت أى آثر في تبدل موقف المماليك إزاء عزمهم طرد بقايا الصليبيين من آخر معقل لهم في عكا . فبالرغم من أن الصليبيين استبشروا بذلك ، وظنوا انها إرادة الله تدخلت لانقاذ عكا خاصة بعد ان سمعوا اخبار الخلافات التي دبت بين أمراء المماليك حول ولاية العرش ، وذلك عندما حاول الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة تدبير موءامرة لإقصاء الأشرف خليل بن قلاوون عن منصب السلطنة بعد وفاة والده . إلا ان حلمهم ذلك مالبث أن تبدد بعد أن نجح الأشرف خليل في التغلب على هذه الموءامرة ،وتهدئة الأمور داخل السلطنة المملوكية ، ومن ثم الشروع مباشرة في اتمام مشروع والده بطرد الصليبيين من عكا.(١)

أدرك الصليبيون أن الخطر بات محدقا بهم ،فحاول امراوءهم التوسل الى السلطان الاشرف خليل ، بأن ارسلوا اليه رسلهم يطلبون منه العفو " فلم يقبل منهم ما اعتذروا به "(٢) وأخذ في اكمال الاستعدادات التي كان والده قد بدأها لحربهم فأصدر أوامره الى نوابه ببلاد الشام باتخاذ الاهبة ،وتجهيز وسائل النقل لحمل الذخائر وآلات الحصار الى أسوار عكا. وفي هذا يقول ابن الفرات " فجهزت أعواد المجانيق من دمشق المحروسة وبرزت الى ظاهرها في مستهل شهر ربيع الاول من السنة المذكورة (٦٩٠هـ)

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٩٠هـ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٥٧ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٨٠ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص ٢٤ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية ج٣ ،ص ٢١٤ .

٢) المقريزى ، المصدر نفسه ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٦٢ .

وتكامل ذلك في ثاني عشر من ربيع الاول الشهر المذكور،وتوجه بها الامير علم الدينسنجر الدواداری احد الامراء بالشام ثم فرقت على الامراءمقدمي الالوف ،فتوجه كل امير ومضافيه منها بما امر بنقله ثم توجه الامير حسام الدين لاجين نائب السلطنه بدمشق المحروسه في اخر الجيش ببقية العسكر في العشرين من شهر ربيع الأول الشهر المذكور • وندب الملك الأشرف ايضا الامير سيف الدين طغريل الايغاني الى الحصون والممالك يستحثهم على سرعة تجهيز المجانيق والالات ، فبادر النواب الى ذلك، ووصل الملك المظفر صاحب حماة الى دمشق في ثالث عشر شهر ربيع الأول الشهر المذكور بعسكر حماة وصحبته مجانيق وزردخاناة ، ووصل الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب السلطنة بالفتوحات بعساكر الحصون وطرابلس ومعهما بالمجانيق والزردخاناه في رابع عشرى شهر ربيع الأول الشهرالمذكور• ووصل سائر النواب بالممالك الشامية وعساكرها الى عكا. هذا ماكان من أمر نواب الشام المحروس ، وأما ماكان من الملك الاشرف ، فلما كان يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الأول من هذه السنة نزل السلطان الملك الاشرف من القلعة المحروسة ، وتوجه بالعساكر المنصورة الى جهة الشام ، وجهز أدره العالية الى دمشق المحروسه فوصلوا الى قلعتها في يوم الاثنين سابع ششهر ربيع الاخر من هذه السنة • وفي يوم الخميس شهر ربيع الاخر الشهر المذكور وصل السلطان الملك الاشرف الى المنزلة بعكا في ثالث ساعة من النهار ووصلت المجانيق الى عكا في اليوم الثاني من وصول السلطان وهي اثنان وتسعون منجنيقا فنصبت وتكامل نصبها في أربعة أيام واقيمت الستائر "(١)

---

١) ابن الفرات ،م٨ ،ص ١١١ ، ١١٢ ; أنظر أيضا ،المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٦٣ ، ٧٦٤ ;أبوالفدا ،المختصر ،ج٤ ، ص ٢٤ ; بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٩٠هـ إبن تغرى بردى ،النجوم ،ج ٨ ،ص ٥ ; عن الستائر أنظر مايلي في الفصل الخامس •

كما أصدر السلطان الأشرف في الوقت نفسه أوامره الى نائبه على الكرك الأمير بيبرس الدوادار بتجهيز العساكر وأدوات الحصار إلى عكا . وفي هذا يقول بيبرس عن نفسه في كتابه زبدة الفكرة "وكنت حينئذ بالكرك فلما بلغني أمر هذه الغزاة ووردت علي مراسم السلطان بتجهيز الزردخانات والآلات، تاقت نفسي الى الجهاد ،وحنت اليه حنو الأرض الضامئة الى صوب العهاد ، فطالعت السلطان بذلك ، وسألته أن أصير الى هنالك . لأساهم في ثواب الغزو وأشارك . فأذن لي في الحضور وسمح بالدستور ، فكنت كمن فاز آمله بنجاحه ،وانجلى ليله بصباحه فجهزت من الزردخانات المانعة والالات النافعة ،والرجال المجتهدين ،والرماة والحجارين ، والغزاة والنجارين وتوجهت ملاقيا السلطان فوافيته وقد وصل غزة ،فلقيت منه اكراما وابتساما ، وسرت في ركابه الى عكا ....."(1)

وبعد أن اكتملت استعدادات السلطان الأشرف خليل أمام عكا . بدأ هجومه الكاسح على المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ / ابريل ١٢٩١م . حيث أخذت قواته في مهاجمة أسوار المدينة وضربها بالمنجنيقات وقذفها بالحجارة الثقيلة وقدور النفط المشتعله حتى تمكنت من احداث ثقوب في الاسوار الخارجية (٢) . في الوقت الذى وآلى الرماة فيه رشق المدينة

---

١) زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٩٠هـ .

٢) بيبرس الدوادار ، المصدر نفسه ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٩٠هـ ؛ التحفة الملوكية ،حوادث سنة ٦٩٠هـ ؛ابن الفرات ،م٨ ،ص ١١٢ ؛ الحريرى ، الإعلام والتبيين ،ورقة ١٤٤ ب ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص٧٦٤، ٧٦٥ ؛ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٨ ،ص ٥ ،٦ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٨١ ؛ حامدغنيم ، الجبهة الاسلامية ،ج٣ ،ص ٢٢٠ .

بالسهام بشكل فعّال . مما أثر على المدافعين الصليبيين داخلها . وأمام ذلك الهجوم حاول فرسان الداوية مهاجمة قوات الملك المظفر صاحب حماة للحد من هجومها الا ان هجومهم باء بالفشل الذريع . كما لقي الاسبتارية المصير نفسه عندما حاولوا تكرار مافعله الداوية. واستمر حصار المسلمين للمدينة حتى تداعت تحصيناتها ، وكان أول الابراج انهيارا هو البرج الذى أُقامه الملك هيو وبعده دمر المقاتلون المسلمون البرج الانجليزى ، وبرج "كونيه بلوا" ، كما أخذت تنهار أمامهم الأسوار القائمة عند باب القديس أنطون ، وعند برج القديس نيقولا وكان آخر الأبراج سقوطا هو البرج "الملعون" الواقع في زاوية الحصن .(١)

ولم تجد محاولة الملك هنرى الثاني ملك قبرص ، الذى وصل الى عكا على رأس مائتين من الفرسان ، وخمسمائة من المشاة وقدركبير من المؤن والامدادات في انقاذ ماتبقى من تحصينات عكا ، فحاول التفاهم سلميا مع السلطان الأشرف خليل . وهنا تجلت عظمة السلطان وثقته بنفسه وبقواته فواجه رسل الملك هنرى ملك قبرص قائلا " ألم تحضروا ومعكم مفاتيح عكا؟" وبعد ان ابلغوه رسالة الملك هنرى وعدهم بتأمين خروجهم جميعا من عكا ومعهم أموالهم إذا هم استسلموا ولم تؤخذ المدينة منهم عنوة .(٢) وهنا يبدو ان الملك هنرى لم يكن يملك حق

---

١) رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٧٠١ – ٧٠٤ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية ،ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ؛ انظر الخريطه ،ص

٢) انظر ،سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٨٢ .

التفاوض باسم أهل عكا جميعا وانه اختلف مع بعض زعمائهم حول قبول ماشرطه السلطان عليهم ، يدلنا على ذلك ماذُكر من أن هنرى عندما اخفقت محاولاته في مفاوضة السلطان ، حاول المشاركة في الدفاع عن عكا ، ولكنه سرعان مافقد الأمل في انقاذها بسبب انحلال أمر الصليبيين واختلاف كلمتهم ، فعاد أدراجه الى قبرص ومعه جميع قواته.(١) ولاشك ان ذلك كان له أسوأ الأثر في نفوس بقية الصليبيين المدافعين عن عكا.(٢)

استغل السلطان ذلك الخلل وقذف بكل قواه في المعركة ، واندفعت كتائب عسكره على المدينة الواحدة بعد الأخرى ، ولم يلبث المسلمون ان شقوا طريقهم الى المدينة من خلال الثغرات التي احدثتها المنجنيقات في اسوار المدينة.(٣) وبذلت حامية عكا كثيرا من الجهد في سبيل الدفاع عنها الا ان ذلك لم يُجْدِ أمام حماس المسلمين وإصرارهم على اقتحام المدينة . الأمر الذى ولّد كثير من الهلع والخوف في نفوس الصليبيين المدافعين عن المدينة ، فالتجأ كثير منهم الى الابراج المتبقية ، كما أقلع عدد كبير منهم بالسفن التي كانت راسية في المرفأ باتجاه قبرص

---

١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص ٦ ؛ أنظر أيضا ، الحريرى ، الاعلام والتبيين ، ورقة ١٤٤ ب .

٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٨٢ .

٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٧٠٣ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية ، ج٣ ، ص ٢٢١ .

وفي هذا يضيف المؤرخ أبو الفدا الذى شارك في المعركة بنفسه ذلك بقوله " ولما هاجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب ، وكان داخل البلد عدة ابرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج ، وتحصنوا بها ، وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئا يفوت الحصر من كثرته ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالابرجة ، ولم يتأخر منهم أحد "(١)

واعتصم الداوية بدارهم التي كانت بارزة في البحر في الجهة الشمالية الغربية من المدينة ،واستعدوا للمقاومة ولما رأى السلطان الأشرف حصانة موقعهم ،عرض عليهم اتفاقا مشرفا يقضي بالسماح لهم بالابحار الى جزيرة قبرص بكل أمتعتهم بشرط ان يستسلمو له .(٢) وهنا ظن الداوية ان القوات الاسلامية لن تستطيع الوصول الى موقعهم بحال من الاحوال. وأرادوا خداع السلطان الأشرف ،باعلان الموافقة للتشفي منه ،حيث وافق السلطان الأشرف وأرسل جماعة من عسكره الى ذلك المعقل الصليبي للتفاوض مع الداوية في الأمر ،فاقدم الداوية على ذبحهم عن آخرهم . الأمر الذى أثار غضب السلطان وهمته فاصدر أوامره الى قواته بمهاجمتهم في موقعهم ، وأحاطت القوات الإسلامية ببرجهم إحاطة السوار بالمعصم ، وتمكن النقابون من نقبه وتعليقه ، وبعد قتال ضار بين الطرفين انهار البناء وسقط

---

١) أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ٢٥ .

٢) ابن الفرات ،م٨ ،ص ١١٢ ؛ رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ، ص ٧٠٨ ؛ حامد غنيم الجبهه" الاسلامية ص ٢٢١ .

البرج ، وبانهياره سقط آخر معقل من معاقل المقاومة الصليبية بعكا.(١)

وهكذا سقطت عكا في أيدى المسلمين بعد حصار طويل دام أكثر من أربعة وأربعين يوما وبعد ان ظلت في ايدى الصليبيين أكثر من مائة عام منذ ان تمكن الصليبيون من استعادتها من صلاح الدين سنة ٥٨٧هـ/١١٩٠م الذى كان قد استردها منهم سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م(٢) وبهذه المناسبة ،يبدو ان السلطان الأشرف قد أفاد مما حدث بعكا في عهد صلاح الدين فأصدر أوامره عقب سقوطها إلى قواته بتدميرها ،حيث أشعلت النيران في مرافقها ، وهدمت دورها إلى الارض " ودكت دكا "(٣) ليقطع بذلك كل آمل للصليبيين ،فيما لوحاولوا

---

١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٨ ،ص ٦ ،٧ ؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ،،ج٣ ،ص ٧٠٩ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية ،ص ٢٢١ .

٢) لمعرفة تفصيل ذلك أنظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ،ص ٧٩ ، ومابعدها ؛ العماد ، الفتح ،ص ٧٩ ،ومابعدها ؛ أبوشامه ، الروضتين ،ج٢ ،ص ٨٦ ،ومابعدها ؛ سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان ، ج٨ ،ق١ ،ص ٣٩٤ ومابعدها ؛ ابن واصل ،مفرج الكروب ، ج٢ ،ص ٢٠١ ومابعهدها ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ،ج٦ ،ص ٣٥ ومابعدها ؛ ابن واصل ، التاريخ الصالحي ،ورقة ٢٠٦(ب) ؛ الاصفهاني ، البستان الجامع ،ورقة ١٢٩(أ) ؛ابن العديم ، زبدة الحلب ،ج٧ ،ص ١١١ ومابعدها .

٣) أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص ٢٥ ؛ أنظر أيضا ،بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ،ج ٩ ،حوادث سنة ٦٩٠هـ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ، ق٣ ،ص ٧٦٥ ؛ رنسيمان ، المصدر نفسه ،ج٣ ،ص ٧٠٩ .

استخدامها كرأس حربة لاعادة الوجود الصليبي إلى الشرق الاسلامي.(١)

والواقع ان السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون وصل باسترداد عكا عاصمة بيت المقدس وآخر المعاقل الصليبية الى قمة المجد السياسي والعسكرى ، وتوج بعمله هذا الجهود المضنية التي بذلها زعماء الجهاد الاسلامي على مدى قرنين من الزمان ،ليضع نفسه في عدادهم . فضلا عما أدى اليه ذلك الحدث العظيم من مظاهر الابتهاج والسرور التي عمت العالم الإسلامي ، بعد أن سارع السلطان بارسال البشائر بذلك الى كافة الاقطار الاسلامية والذى ظهر واضحا في القصائد التي قيلت في مديحه والاشادة بجهوده التي أثمرت استرداد عكا من أيدى اعدائه الصليبيين .(٢)

وبالرغم من أن معركة عكا كانت هي الحاسمة من قصة الصراع الاسلامي الصليبي ،إلا انه كان يوجد الى جانب عكا عدة مواقع صليبية كان من الضرورى على السلطان الأشرف تصفيتها حتى يصبح القول بأن العمل الاسلامي ضد الصليبيين قد وصل غايته .(٣) ولعل أهم هذه المراكز كان مدينة صور ،تلك المدينة التي يمكن القول انها ظلت بأيدى الصليبيين منذ وصولهم إلى الشرق الإسلامي في أواخر القرن الخامس الهجرى ،الحادى عشر

---

١) حامد غنيم ،الجبهة الاسلامية ،ج٣ ،ص ٢٢٢ .

٢) أنظر على سبيل المثال ما أورده بيبرس الدوادار في زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

٣) حامد غنيم ،المصدر نفسه ،ج٣ ،ص ٢٢٤ .

الميلادى حتى هذا الوقت . وذلك لما كانت تتمتع به من حصانة طبيعية ، حيث يصفها المؤرخون المسلمون بأنها مدينة حصينة متوسطة في البحر كالسفينة ، ليس لها طريق إلى البر إلا من مكان واحد له سبعة أبراج .(١) فضلا عما كانت تتمتع به من أسوار عاليه ، وماقام بها الصليبيون من تعميق خندقها الذى أوصلوه من البحر إلى البحر حتى صارت المدينة "كالجزيرة في وسط الماء لايمكن الوصول اليها ولا الدنو منها "(٢)

ويبدو ان السلطان الأشرف خليل عندما وصلت جيوشه الى أسوار عكا وبدأت حصارها ،تنبه لخطورة مدينة صور الحصينة ، فأنفذ فريقا من جنده لحفظ الطرق المؤدية اليها والتضييق عليها . تحسبا لتكرار ماحدث من الصليبيين عقب معركة حطين وسقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧ م .(٣)

١) العماد ، الفتح ،ص ١٩٨ ؛ أبوشامه ،كتاب الروضتين ،ج٢ ، ص ١١٩ ؛ ابن واصل ،مفرج الكروب ،ج٢ ،ص ٢٤٣ ؛ سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان ،ج٨ ،ق١ ،ص ٤٠٠ .

٢) ابن الاثير الكامل ،ج١١ ،ص ٥٥٣ ؛ أنظر أيضا ،الحنبلي ،شفاء القلوب ،ورقة ٤١ ( ) أبوشامه ؛ المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ١١٩؛ ابن واصل ،المصدر نفسه ،ج٢ ،ص ٢٤٣

٣) كان صلاح الدين قد سمح للصليبيين بعد استرداد بيت المقدس منهم سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م باللجوء الى صور ،فتجمع بها أعداد كبيرة منهم ،حتى ان المؤرخ ابن الأثير حمّل صلاح الدين مسئولية ماحدث للمسلمين بعد ذلك من متاعب عليها ،وعزا ذلك الى افراط صلاح الدين في التسامح مع خصومه الصليبيين. (انظر الكامل ، ج١ ،ص ٥٥٥ ،٥٥٦ ؛ كماذكر المؤرخ سبط ابن الجوزى ، ان صلاح الدين ضيّع الفرصة على المسلمين بتسيير العساكر الصليبيين===

وبالفعل فقد تمكنت تلك القوة الاسلامية من الحيلولة دون دخول المراكب المحملة بالصليبيين المنهزمين من عكا الى صور ثم شددت القوات الاسلامية حصارها على صور ،حتى اضطر أهلها إلى طلب الأمان ، فامنهم المسلمون على أنفسهم وأموالهم ، وتسلموا صور منهم .(١)

وفي إطار تصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام ، أوكل السلطان الاشرف بعد استيلائه على عكا الى أحد أمرائه مهمة الزحف على صيدا التي كانت معقلا للفرسان الداوية ، الذين شيدوا بها قلعة على جزيرة قريبة من الشاطيء. اعتصموا بها الا ان هذا الاعتصام لم يغن عنهم شيئا إذ أنهم لما رأوا المهندسين المسلمين قد شرعوا في إقامة جسر يصل الشاطيء بالجزيرة

=== إلى صور ،وأنه كان من الواجب عرضهم على الاسلام ،فان اسلموا و إلا ضربت رقابهم (أنظر ،مرآة الزمان ،ج٨ ،ق١ ،ص ٣٩٨) .

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٩٠هـ ؛ التحفة الملوكية ،حوادث سنة ٦٩٠هـ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ج٤ ،ص ٢٥ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٦٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٨ ،ص ٨ - ١٠ ؛ ابن الفرات ،م٨ ،ص ١١٣ ؛ ابن حبيب ،درة الاسلاك ، ج١ ،ص ١٠٦ ( ) ؛ القلقشندى ،صبح الأعشى ،ج٣ ،ص ٤٣١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٣٢١، الذهبي ، ج٥ ،ص ٣٦٥ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢ ،ص ٣٣٧ ؛ جمال الدين سرور ،دولة بني قلاوون ،ص ٢٤٣ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية ،ج٣ ،ص ٢٢٤ ؛ رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣ ،ص ٧١٠ ؛ حسين أمين ، الحروب الصليبية ،ص ٣٦٩ .

فقدوا الأمل وهربوا إلى انطرسوس . فسيطرت القوات الاسلامية على القلعه والمدينة معا وذلك في منتصف رجب من سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٠م .(١)

وشجع ذلك النجاح القوات الاسلامية على مواصلة زحفها صوب الشمال وبدأت بمدينة بيروت ،فأدرك من بها عجزهم عن المقاومة ،فتخلوا عن المدينة ولاذوا بالفرار ،فدخلها المسلمون وهدموا أسوارها وحطموا قلاعها وذلك في آخر رجب من السنة نفسها وقد انعكس ذلك النجاح على بقية المعاقل الصليبية حيفا وانطرسوس وعثليث التي استسلمت للسلطان الأشرف دون قيد أو شرط .(٢)

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ، التحفة الملوكية ؛ المقريزى ، السلوك ، ص ٧٦٥ ؛ ابن الفرات ،ج٨ ،ص ١٢١ ؛ أبو الفدا ، المختصر، ص ٢٥ ؛ ابن حبيب ،درة الاسلاك ،ج١ ،ص ١٠٦ ؛ ابن الوردى ،تتمة المختصر ،ج٢،ص ٣٣٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ص ٣٢١ ، ؛ الذهبي ،ج٥ ،ص ٣٦٥ ؛ ابن إياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٦٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ،ص ٨ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية ، ص ٢٠٤ ،٢٢٥ ؛ رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ص ٧١١ .

٢) بيبرس الدوادار المصدرين نفسهما ، حوادث سنة ٦٩٠هـ ؛ ابن الفرات ،م٨ ،ص ١١٣ ؛ المقريزى ، المصدر نفسه ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٦٥ ؛ أبو الفدا ، المصدرنفسه ،ج٤ ،ص ٢٥ ؛ القلقشندى ،صبح الأعشى ،ج٣ ،ص ٤٣١ ؛ ابن الوردى ، المصدرنفسه ، ج٢،ص ٣٣٧ ؛ ابن حبيب ، المصدر نفسه ،ج١ ،ص ١٠٦) ؛ الذهبي، العبر ،ج٥ ،ص ٣٦٥ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ،ج٨ ،ص ١٠ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،ج٢ ،ص ١١٨٣ ؛ جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون ،ص ٢٤٣ ؛ حامد غنيم ، المرجع نفسه ،ج٣،ص ٢٢٥ ؛ رنسيمان ، المرجع نفسه ،ج٣ ،ص ٧١٢ ؛

Stevenson, Op.cit.p 355.

ولاذ بعض فلول الصليبيين بجزيرة آرواد ،واتخذوها قاعدة يشنون منها الغارات على الموانيء الشامية ،ويذكر ابن أيبك انه في العشر الأول من شعبان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م قصد جمع من الصليبيين ساحل بلاد الشام في مراكب قدرت بثلاثين بطشه في كل بطشه مائة نفر ،بهدف الاغارة على المسلمين في السواحل الشامية . فلما قارب دخولهم الساحل أرسل الله عليهم ريحا ،أغرقت معظم مراكبهم ، ورجع من سلم منهم خائبا .(١) فقرر السلطان الناصر محمد بن قلاوون – الذى خلف أخاه الأشرف خليل على عرش السلطنة المملوكية (٦٩٣ – ٦٩٤ ؛ ٦٩٨ – ٧٤١هـ) – احتلال تلك الجزيرة ، فأعد المراكب وشحنها بالمقاتلة ، وأبحر ذلك الأسطول الاسلامي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م ، متجها الى جزيرة آرواد وتمكن المسلمون من تحطيم أسوارها والاستيلاء عليها .(٢)

---

١) انظر ، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ،ص ١٢ .

٢) أبو الفدا ،المختصر ،ج٤ ،ص ٤٧ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،٩٢٨ ، ٩٢٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٨ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ؛ جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر ،ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية ،ج٣ ،ص ٢٢٥ ،٢٢٦ ؛ أحمد مختار العبادى ،عبدالعزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية ،ص ٣٠٨ ،٣٠٩ ؛ وآوارد جزيرة صغيرة في الجهة الشمالية من طرابلس الشام على بعد خمسين كيلو مترا ،وفي الجنوب الغربي من أنطرسوس على بعد ثلاثة كيلو مترات تقريبا ، طولها ٨٠٠ متر ، وعرضها ٥٠٠ م معظم سكانها من المسلمين ، يمتهنون الملاحة واستخراج الاسفنج الأحمر من البحر (انظر النجوم ، ج٨ ، ص ١١ حاشيه المحقق) .

وهكذا وبانتهاء القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى انتهى الوجود الصليبي كليا من بلاد الشام ،وتحققت بذلك آمال سلاطين المماليك ، الذين حملوا لواء الجهاد الاسلامي منذ بزوغ نجم دولتهم الفتية ، واستطاعوا بفضله طرد المغول من بلاد الشام ، ومن ثم تصفية الوجود الصليبي منها . ليكتبوا بذلك الانجاز العظيم صفحات تاريخهم المجيد وليمكنوا دولتهم الفتية من الاستمرار في مسرح الوجود كأعظم قوة في الشرق الأدنى لأكثر من قرنين من الزمان . تلك الدولة التي استطاعت ان تحقق أعظم فتح اسلامي إبان العصور الوسطى ،والذى تمثل في اعتناق المغول في فارس للدين الاسلامي . والذى انعكس آثره - على مايبدو - وبصورة واضحة على وطنهم الأم في اقاصي شرق اسيا . ولعل مانسمعه اليوم من وجود مسلمين وباعداد ضخمة في تلك المناطق يعود الفضل فيه الى تلك الجموع المغولية المسلمة التي استقرت في اقليم فارس ، وكانت بلاشك تتردد في حركة مستمرة بين موطنها الجديد اقليم فارس ووطنها الأم مقاطعة منغوليا .

الفصل الخامس

مقومات حركة الجهاد الاسلامي عند المماليك

الفصل الخامس

مقومات حركة الجهاد عند المماليك

- المماليك وتجديد حركة الجهاد ضد المغول والصليبيين.
- نظام الإقطاع الحربي في عهد المماليك.
- ديوان الجيش المملوكي.
- الجيش المملوكي وتنظيماته.
- أساليب التعبئة والقتال.
- الأسطول المملوكي.

المماليك وتجديد دعوة الجهاد ضد المغول والصليبيين

جاء سلاطين المماليك ليحققوا ذلك الحلم الذى بدأه زعماء حركة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين ، عماد الدين زنكي وابنه نورالدين محمود ، وصلاح الدين من بعدهما . بالعمل على توحيد كلمة المسلمين ووقوفهم صفا واحدا لانقاذ العالم الإسلامي من الخطر المغولي المدمر ، ومن ثم تصفية بقايا الوجود الصليبي من بلاد الشام . والباحث في تاريخ الدول الثلاث الزنكية والصلاحية والمملوكية يدرك أن قيامها كان صحوة اسلامية استهدف إيقاظ العالم الاسلامي من سباته العميق الذى استغله الغرب الاوربي ، ممثلا في الحملات الصليبية ليفرض سيطرته على أجزاء منه ، وكذلك الحال بالنسبة للغزو المغولي القادم من الشرق . فاذا كان عماد الدين زنكي قد تمكن من القضاء على كل مايعكر صفو الوحدة الاسلامية ، وتوج ذلك بالقضاء على امارة الرها الصليبية التي كان الصليبيون قد أسسوها في اعالي العراق[1] فان ابنه نور الدين محمود من بعده قد عمل على مواصلة جهوده وتمكن من إفشال مهمة الحملة الصليبية الثانية التي جاءت إلى المشرق الاسلامي كإجراء انتقامي لسقوط إمارة الرها ،كما تمكن في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م من القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة التي كانت تنافس

---

١) أنظر ،محمد محمد الشيخ ،الجهاد الاسلامي ،ص ؛ مسفر الغامدى، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الاسلامي قبل قيام الدولة الايوبية ، ص ؛ عماد الدين خليل ،عماد الدين زنكي .

الخلافة العباسية السنية في بغداد ، ليعيد بذلك للعالم الاسلامي وحدته المذهبيه .(١) وقام صلاح الدين من بعده بتتويج تلك الجهود باستعادة بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م (٢) ليضع بذلك العمل الجليل الاساس الصحيح لمن جاء بعده من سلاطين المماليك المسلمين الذين ساروا على نهجه وأخلصوا النية لله وحده ،وجددوا دعوة الجهاد ضد اعداء الاسلام حتى تمكنوا من قهر المغول والصليبيين معا .

والواقع اننا اذا تتبعنا أعمال سلاطين دولة المماليك في هذا المجال . ندرك أن الدافع الأساسي لهم كان الجهاد في سبيل الله للذوذ عن ممتلكات المسلمين . ولما كان ذلك لا يتأتى الا بتوحيد كلمة المسلمين ، فإنهم قد سعوا جاهدين لتحقيق ذلك . فبدأوا جهودهم بتجميع القوى الاسلامية التي فرت من وجه العدوان المغولي وحشدها داخل الاراضي المصريه وخرج السلطان المظفر قطز على رأس تلك الجموع بعد أن غرس فكرة الجهاد في نفوسها وأشعل الحماسة في صفوفها الى بلاد الشام وتمكن من كسر المغول في معركة عين جالوت التي تعتبر بحق بداية النهاية للوجود المغولي في بلاد الشام . ترتب عليها إعادة الوحدة مرة أخرى بين مصر والشام ، ليمهد الطريق لمن أتى بعده من السلاطين

---

١) أنظر ،حسين حبشي ،نور الدين محمود والصليبيون.

٢) أنظر ،عبدالله الغامدى ،صلاح الدين والصليبيون .

لمواصلة الجهاد ضد المغول والصليبيين،ذلك الجهاد الذى كان يعد في نظرهم فرض عين على كل مسلم لايقل عن كونه ركنا من اركان الاسلام . ومن الادلة على ذلك ماجاء في نص تقليد الخليفة العباس المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م في هذا الشأن حيث قال " ومما يجب تقديم ذكره الجهاد الذى اضحى على الأمة فرضا"(١) وكذلك ماورد في خطبة الخليفه الحاكم بأمر الله بجامع القلعة والتي قال فيها "أيها الناس أعلموا ان الإمامة فرض من فروض الإسلام ،والجهاد محتوم على جميع الأنام ..... فشمروا عن ساق الاجتهاد في احياء فرض الجهاد "(٢) ومنها أيضا ماذكر من أن السلطان الظاهر بيبرس عندما تواتر إليه أن بركة خان القفجاق قد اعتنق الإسلام ، كتب إليه في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م يغريه بقتال ابن عمه هولاكو ، على اعتبار ان ذلك العمل واجب عليه مادام قد اعتنق الإسلام .(٣) كمايذكر ابن عبدالظاهر

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ١٠٧ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٢ ،ص ١٠٢ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٥٦ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب السريه ،ص ٤٢ ؛ القلقشندى ، مآثر الاناقة ،ج٣،ص ٢٧ .

٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ،ص ١٤٣ ، ١٤٤ ؛ اليونيني، المصدر نفسه ،ص ١٨٨،١٨٩ ؛ المقريزى ، المصدر نفسه ، ص ٤٧٨ ؛ ابن اياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣١٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

٣) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ،ص ٨٨ ، ٨٩ ؛ اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ،ص ١٦٥ .

أن المغول جهزوا " ركبا الى الحجاز" في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م بقصد كشف تلك الطرقات والتلصص على جهاتها وكان السلطان الظاهر بيبرس قد عزم في تلك السنة على الحج ، فبلغته هذه الاخبار قبل التوجه الى الحجاز " فاقدم وتقدم وعزم على الجمع بين الحج والجهاد ."(١)

ويبدو من اقتران فرضية الجهاد بالحج ان المماليك كانوا يعتبرون الجهاد في حكم الحج أى انه واجب على المسلم المستطيع شأنه في ذلك شأن الحج .

وإلى جانب ذلك فان سلاطين دولة المماليك قد اتبعوا اساليب عدة ،دلت على اهتمامهم البالغ بتجديد دعوة الجهاد الاسلامي ، ودفع المسلمين إلى اداء هذا الوجب فإلى جانب اهتمامهم باحياء الخلافة العباسية في القاهرة والذى كان الهدف من ورائه اضفاء صفة الشرعية الكاملة على دولتهم . ومن ثم استغلال سلطة الخليفة الروحية لحث الناس على جهاد أعداء الاسلام ،فان مجالسهم كانت لاتخلو من الحديث عن الجهاد والاهتمام بشئونه وذكر فضائله واساليب التأهب والاستعداد له . يدلنا على ذلك قول السلطان المظفر قطز في أحد مجالسه لمن تردد من أمرائه في الخروج معه لملاقاة المغول في عين جالوت " يامراء المسلمين لكم زمان

---

١) ابن الظاهر ،الروض الزاهر ، ص ٣٥٦، ٣٥٧ .

تأكلون أموال بيت المال ، وانتم للغزاة كارهون . وانا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فان الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين "(١) فكان لذلك اثره البالغ على نفوس المجتمعين ، فاجمعوا على مرافقته ، فأمر باجتماعهم في مجلس آخر حضهم فيه على قتال المغول وذكرهم بما وقع للاقاليم الاسلامية التي سيطر عليها المغول من القتل والسبي والحريق وخوفهم من وقوع مثل ذلك في الأراضي المصرية ، وحثهم على استنقاذ الشام من المغول واعادته الى حوزة الاسلام والمسلمين " وحذرهم عقوبة الله فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد "(٢) كما يذكر أيضا أن السلطان الظاهر بيبرس سمع في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م بأن عدة من المغول ومن الإتراك والبغاددة قصدوا البلاد مستأمنين فأمر بجمع الأمراء واعلمهم بذلك وقال " أخشى أن يكون مجيئهم من كل جهة مايستراب منه ، والرأى أن نخرج اليهم، فان كانوا طائعين عاملناهم ماينبغي ،والا فنكون على أهبه . ومن احتاج من العسكر الى شيء اعطيته وما أنا الا كاحدكم يكفيني فرس واحد ، وجميع ماعندى من خيل وجمال ومال كله لكم ولمن يجاهد في سبيل الله "(٣)

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٩ .

٢) المقريزى ، المصدرنفسه ،ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

٣) المقريزى ، المصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥١٥ .

كما اتبع المماليك إلى جانب ذلك اسلوبا آخر لتجديد دعوة الجهاد الإسلامي . فقد اتخذوا من خطباء المساجد وسيلة للدعاء لجيوشهم بالنصر وحث المسلمين على الجهاد في سبيل الله . يدلنا على ذلك ماذكره ابن عبد الظاهر من انه حدث أثناء حصار المسلمين لصفد سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥ م ، أن دعا خطيب دمشق عقب خطبة الجمعة للمجاهدين "ودعا الناس ، وكشفت الرؤوس ، وخشعت الأصوات ،فاستجاب الله منهم"(١) كما حدث سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م عندما عزم المغول على مهاجمة مدن أعالي الشام "أن قنت الخطباء والأئمة بالجوامع والمساجد في الصلوات وغيرها "(٢) كذلك حدث في سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م عندما جاءت الأخبار الى السلطان المملوكي المنصور قلاوون بأن الصليبيين بعكا قاموا بقطع الطريق على المسافرين من المسلمين في البر والبحر فلما تحقق السلطان من ذلك أمر الخليفه الحاكم بأمر الله أن يخطب في جامع القلعة ويحرض الناس على قتال الصليبيين " فلبس السواد وخطب بالناس في جامع القلعة خطبة بليغة في معنى ذلك "(٣)

وكان للفقهاء والقضاة دور كبير في ترغيب الناس في الجهاد، وارشادهم إلى فضائله ،وفي هذا الشأن يذكر ابن كثير ، انه حدث في يوم الجمعة سابع عشر شوال من سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٩م ، أن عمل شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية

---

١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٢٦١ .

٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٢٩٤ .

٣) ابن إياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٦٨ ; أنظر أيضا ، ابن كثير ، المصدر نفسه ،ج١٣ ،ص ٣٢٧ .

"ميعادا" في الجهاد وحرض فيه ،وبالغ في ذكر اجور المجاهدين .(١) كما حرص سلاطين المماليك على أن يصحب الجيش المؤذنون والقراء ، والوعاظ لإشعال الحماس في نفوس المقاتلين اثناء القتال ، وحثهم على الجهاد والتشويق للجنة فمن العبارات المألوفة التي كان يرددها هؤلاء " يامجاهدين لاتنظروا لسلطانكم ،قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم صلى الله عليه وسلم "(٢)

وصفوة القول فان خير دليل على اهتمام سلاطين المماليك بهذا الأسلوب حرصهم الشديد على شن معاركهم ضد اعدائهم أيام الجمع ، وذلك ـ على مايبدو ـ تبركا بدعاء الخطباء على المنابر .

كما اهتم سلاطين المماليك أيضا باشعال الحماس في نفوس المسلمين اثناء اشتداد الازمات وسير المعارك حيث كانوا كثيرا مايسيرون بين صفوف الجيوش ويحثون المقاتلين على الجهاد . من ذلك ماحدث في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م عندما كاد الجيش الاسلامي يهزم في بداية المعركة . فصرخ السلطان قطز صرخة عظيمة سمعه معظم عسكره وهو يقول " واسلاماه " ثلاث مرات " يا الله انصر عبدك قطز على التتار "(٣)

---

١) ابن كثير ، البداية والنهاية ،ص ٣٥٢ .

٢) المقريزى السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٩٣٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ،ج١ ،ص ١٦٠ .

٣) المقريزى ، المصدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٣١ .

كما يبدو انه كان للمحتسبين دور كبير في حث الناس على النفير للجهاد . يدلنا على ذلك ماذكره ابن العديم في معرض حديثه عن ثغر طرطوس من أنه وقت النفير كان المتولي للحسبة ورجاله بين يديه ينادون بأعلى أصواتهم "النفير يا اصحاب الخيل والرجال" ويظل المحتسب ورجاله يطوفون الشوارع كلها ، فاذا كان الوقت نهارا انضم اليهم الصبيان يساعدونهم على النداء بالنفير وحض الناس على المسير مع الأمير للجهاد.(١)

وخلاصة القول ، فان ماذكرناه من الادلة التي سقناها على سبيل المثال لا الحصر يدل دلالة واضحة على أن سلاطين المماليك قد قاموا بدور فعّال ، جددوا فيه الدعوة الى الجهاد المقدس . في وقت كان العالم الاسلامي يمر فيه بمرحلة خطيرة بعد أن تكالب عليه الأعداء من الشرق والغرب،وشجعوا المسلمين على الدفاع عن ممتلكاتهم ومقدساتهم . موءكدين أن الجهاد فرض مقدم على كل عمل ، وانه واجب لافسحة فيه . ولعل ممايوءيد ذلك ماقاله السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م عندما وافق على مهادنة صاحب يافا ومتملك بيروت ،ثم تعلل الصليبيون با لعوض عن زرعين حيث أجابهم "بأنكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية مرج عيون وقايضتم صاحب تبنين والمقايضة في أيديكم ، فكيف تطلبون العوض مرتين ،فان

---

١) ابن العديم ،بغية الطلب ،ج٢ ،ص ٢٦٨ - ٢٧٢ ؛ أنظر أيضا عليه الجنزوري ،الثغور البرية الإسلامية ، ص ١٥٩ .

بقيتم على العهد ، وإلا فمالنا شغل إلا الجهاد"(١) وكذلك ماحدث سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م عندما كتب الى صاحب اليمن كتابا ينكر عليه أمورا يقول فيه " الملك هو الذى يجاهد في الله حق جهاده ، ويبذل نفسه في الذب عن حوزة الدين ، فان كنت ملكا ،فاخرج التق التتار"(٢)

والذى يجدر ذكره هو ان وجوب الجهاد في نظر سلاطين المماليك لم يكن مقصورا على أهل تلك البلاد التي وحدوا كلمتها تحت رايتهم . بل ان ذلك يشمل العالم الاسلامي باكمله . فبالاضافة الى ماسبق أن اشرنا اليه من مخاطبة السلطان الظاهر بيبرس لبركة خان زعيم القفجاق ، وحثه على قتال ابن عمه هولاكو على اعتبار ان ذلك فرض واجب عليه . فقد أورد ابن عبد الظاهر ان بيبرس نفسه جهز في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م أحد أمرائه الى المغرب لإعلام تلك الجهة بمامن الله من الفتح "ليشتد ازر المسلمين على الفرنج"(٣) كمايذكر المقريزى ، ان السلطان بيبرس نفسه كتب في سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م الى صاحب تونس ينكر عليه التظاهر بالمنكرات ، واستخدام الفرنج وكونه لم يخرج لملاقاتهم لمانازلوه ، وكان مماقاله فيه " مثلك لايصلح أن يلي أمور المسلمين"(٤).

---

١) راجع ماسبق في الفصل الثالث .

٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ٥٨١ ، ٥٨٢ .

٣) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٣٣٧ .

٤) المقريزى ، الصمدر نفسه ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٠١ ؛ وصاحب تونس هو أبو عبدالله محمد بن يحيى بن عبدالواحد عمر الأمير المستنصر بالله الهنتاني البربرى ، الموحدى المغربي توفى =====

ولم يكن سلاطين المماليك وحدهم هم الذين تبنوا دعوة الجهاد. بل كان لقادتهم وعامة جيشهم دور كبير في إحياء هذه الفريضة. يدلنا على ذلك تلك الاجتماعات التي كانت تعقد بينهم يتذاكرون فيها فرائض الجهاد وفضائله ،لاستنهاض عزائم الناس وترغيبهم في الخروج في سبيل الله.(1) وكان قادة المماليك يتباشرون ويتسابقون على

=== سنة ٦٧٥ (انظر، ابن شداد ،تاريخ الظاهر بيبرس ، ،ج٢،لوحه ١٢٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٢٠١ حاشية ؛ لوثروب ستودارد ،حاضر العالم الاسلامي ،م٢،ج٣ ،ص ٢١٣ .

1) راجع ماسبق في الفصل الثاني. نظر لمكانة الجهاد الهامة في الإسلام ،عنى الكثيرون من ائمة الدين وعلمائه بدراسته وبحثوا فيه وصنفوا وواصلوا جهودهم في تدوين ماورد فيه من الايات وتفسيرها والأحاديث والآثار وشرحها - فنرى مدونات السنة وموسوعاتها تخصص له بابا منفردا ، ثم إن بعض المصنفين أفردوه في موءلف خاص مستقل ومن هوءلاء .

١- ابن المبارك المتوفي سنة ١٨١ هـ .

٢- ابو سليمان داود بن على بن داود الاصفهاني الظاهرى المتوفي سنة ٢٧٠ .

٣- أحمد بن عمر بن الضحاك الشيباني ،أبو بكر ، المعروف بابن أبي عاصم المتوفي سنة ٢٧٨ .

٤- ثابت بن نذير القرطبي المالكي المتوفي سنة ٣١٨ هـ .

٥- ابراهيم بن حماد بن اسحاق الازدى المالكي المتوفي سنة ٣٢٣هـ .

٦- أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي المتوفي سنة ٣٨٨ هـ .

٧- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣هـ .

٨- تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد بن على الجماعيلي المقدسي المتوفي سنة ٦٠٠هـ وسماه " تحفة الطالبين في الجهاد والمجاهدين"

٩- أبو محمد قاسم بن على بن الحسن بن هبة الله المعروف =====

معسكر سلاطينهم لمجرد علمهم بعزمهم على الجهاد ،ولاشك انهم بذلك يوءثرون على غيرهم من المسلمين ، فيجعلونهم يتوافدون على الجهاد في سبيل الله زرافات ووحدانا . من ذلك مافعله الأمير بيبرس الدوادار المنصورى الذى كان واليا على الكرك . الذى ما إن سمع بمسير السلطان الاشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م بقصد الاستيلاء على عكا من أيدى الصليبين ،حتى سارع بالخروج على رأس جيشه وعتاده لملاقاة السلطان عليها .(١)

== بابن عساكر المتوفي سنة ٩٠٠هـ .

١٠- وعز الدين على بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير المتوفي سنة ٦٣٠هـ .

١١- بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع المعروف بابن شداد المتوفي سنة ٦٣٢هـ .

١٢- عماد الدين إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير المتوفي سنة ٧٧٤هـ " الاجتهاد في طلب الجهاد" .

١٤- على بن مصطفى علاء الدين البوسنوى الشهير (على دده" المتوفي سنة ١٠٠٧ هـ .

١٥- حسام الدين خليل البرسوى الرومي ،المتوفي سنة ١٠٤٢ هـ ،كما عنيت مدونات الفقه الإسلامي ببيان أحكام الجهاد وآثاره وأفردت له بابا خاصا ، أما الكتب الحديثه التي تناولت موضوع الجهاد فهي كثيرة جدا (أنظر ابن المبارك ،كتاب الجهاد ،مقدمه المحقق ،ص ٤٠ - ٤٢) .

٢) راجع ماسبق في الفصل الرابع

وختاما هناك حقيقة هامة لايمكن اغفالها كان لها الأثر الأكبر في جعل دولة المماليك دولة جهادية منذ نشأتها . ذلك أن هؤلاء المماليك جُلِبوا الى ديار الاسلام أطفالا صغارا فنشأوا وسط بيئة اسلامية خالصة . وتعلموا منذ نعومة أظفارهم اللغة العربيه ، وتلقوا أُصول الديانة الاسلاميه على أيدى مجموعة مختاره من الفقهاء والمشايخ المسلمين فشبوا لايعرفون دينا غير الاسلام ، ولاوطنا غير الوطن الاسلامي فصاروا جزءا لايتجزأ من المحيط الاسلامي الكبير . وأخذوا يحسون الأحاسيس نفسها التي شعر بها معاصروهم من المسلمين نحو الأخطار الكبرى التي هددت العالم الاسلامي في ذلك الوقت . فوضعوا أيديهم في أيدى أبناء مصر والشام وسار الجميع تحدوهم فكرة الجهاد في سبيل الله والوقوف صفا واحدا في وجه أعداء الاسلام المغول والصليبيين . (١)

---

(١) أُنظر ، السيد الباز العريني ، المماليك ، ص ٣ ، ومابعدها ؛ أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ، ص ٩٤ ، وما بعدها ؛ فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص ٣٠٠ .

ثانيـــــــاً : الاقطـــــاع الحربـــــــي

نشـــأ نظـــام الاقطـــاع الحربـــي في الشـــرق الاســـــلامـــي فـــي عهـــد الدولـــة الســـلجوقية ، التي كانت تســـير على اســـــاس صـــرف مرتبـــات نقديـــة للجيـــش النظامـــي حتـــى منتصف القرن الخامـس الهجـــرى ،الحادى عشـــــر الميـلادى حيث أدى اتســـاع رقعـــــــة الدولـــة وصعوبـــة الســيطرة عليـهـا وارهـــاق الادارة المـالية بباهـــظ المرتبـــات التي كانـت تصرف للجيـش الى تفكيـــر نظـام الملـــــك في الاســـــتعاضة عن المرتبـات النقديـــة بالاقطـــاعات مـــــــن الاراضـي وتوزيعهـــــا على مختلف عنـاصـــر الجيـــش .(١)

ومن المعـــروف أن الاراضي المصريـــة شـــاهدت في العصـــــــر الفـاطمـــي نظامـــــا اقطاعيـــــا في بعـض الاحيـان .ولكنه لم يكـــــن اقطاعـــــا حربيـــــا . ولكـــن هـــذه الاقطاعـــات غير الحربيـــــــة مـالبث أن حـــدث لـهـــا بعض التغييـــرات في طبيعتهـــا ، وذلـــــك عندمـــــا منحـــت هـذه الاقطاعـــات لأمـــراء جيش نـــور الدين ، اذ ارتبطت هـــذه الاقطاعـــات بالخدمـــة الحربيـــة حسب النظـام الاقطاعـــــي الزنكـــي ، الذى كـــان اقطاعـــا وراثيـــا . فقـــد كـــان من عـــــادة نـــور الديـــــن محمـــود عندمـــا يمـــوت أحـــد الامراء المقطعيـــــن منـــح اقطـــاع الأب المتوفـي لابنـــه . وفـي حالة صغر سن الابـــــن كـان الســـلطان يعيـــن من يديـــــر الاقطـــاع حتى يكبـر . وكـــــان هـــذا هـــو الســـبب الذى جعـــل الامـــراء يبرزون قدراتهم الحربيـــــة في المعـــارك . وكـــان نـــور الدين قد اعتـــاد اخذ الاقطاع مـــــــن

---

١) المقريزى ، الخطـــــط ،ج١ ،ص ٩٥ ؛ نظـــير حســـان ســـــعداوى جيـــش مصـــر ، ص ٢ ،٣ .

أى أمير يهمل في واجباته ، فقد حدث سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧ م عندما كان غالبية أمراء نور الدين مترددين في محاربة الفاطميين والصليبيين عند البابين في صعيد مصر . هدد الامير شرف الدين انهم اذا رفضوا القتال فسوف يسترد السلطان نور الدين اقطاعاتهم ويطلب منهم اعادة الموارد التي اخذوها منها ، ولهذا حاربوا بشجاعة حتى انتصروا .(١)

اما الاقطاع الأيوبي الذى أحدثه صلاح الدين بعد سقوط الدولة الزنكية وقيام الدولة الأيوبية ، فلم يكن يتطابق مع نموذج الاقطاع الزنكي . فالاقطاع الايوبي كان يُمنح كما هو الحال في الاقطاع الزنكي الى الامراء والأجناد مقابل الخدمات الحربية . غير انه لم يكن اقطاعا وراثيا . ولايمنح المقطع أي سيادة على اراضي الاقطاع . اذ من المعروف ان طبيعة نظام الاقطاع ورغبة السلطان المستمرة في تحسين فعالية النظام الحربي . كان لايسمح بتوريث الاقطاع مطلقا . فقد كان صلاح الدين يعرف أن توريث الاقطاع سوف يوءدى الى نتائج عكسية بالنسبة للخدمات الحربية في عدة حالات . وذلك عندما يموت المقطع ويترك طفلا صغيرا ، أو عددا من الاطفال ، ويصبح الحاصل على الاقطاع ليس في سن توءهله لحمل السلاح ،ولايستطيع الاشتراك في حملات عسكرية كما أن توزيع الاقطاع بين عدد من الاطفال كان يوءدى بالتالي

---

١) ابن الأثير ،ج١١ ،ص ٣٢٥ ؛ أبو شامة ،كتاب الروضتين ،ج١ ،ق٢ ، ص ٣٦٥ ، Hassanein Rabie. THe Firarcial Systeme of Egypt .pp. 20 - 30. عن تفاصيل معركة البابين واسباب انتصار جيش نور الدين فيها (أنظر حسن حبشي ،نور الدين محمود والصليبيون ،ص ١١٤).

الى نوع من الفوضى في الاقطاع .(١)

ومن هذا نخلص الى حقيقة هامة هي ان منح الاقطاع بواسطة السلطان ،ليس معناه منح ملكيات الاراضي الزراعية لهذا المقطع ، وليس معناه أيضا تمتع المقطع بمتحصلات الاقطاع لفترة طويلة ، بل ان منح الاقطاع يعطي المقطع مجرد الحق في أن يجمع لنفسه ولأجناده مجموعة معينة من الضرائب في مقابل الواجبات المدنية والعسكرية التي كان ملزما باداائها .(٢)

أما بالنسبة لنظام الاقطاع الحربي الذى اتبعه المماليك في دولتهم فانه - على مايبدو - لم يكن يختلف عن النظام الذى كان سائدا لدى اساتذتهم الأيوبيين . يدلنا على ذلك قول المقريزى في كتابه الخطط " وأما منذ أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا ، فان اراضي مصر كلها ، سارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده "(٣) ولم يقتصر توزيع الاقطاعات الحربية في عهد المماليك على اراضي مصر ، بل تعدى ذلك الى كل البلاد التيتمكن المماليك من ضمها الى دولتهم . يدلنا على ذلك ماذكره النويرى من انه كان هناك اقطاع في مصر وآخر في بلاد الشام.(٤) وكذلك

---

١) Rabie . oP CIT . pp. 59 , 60 .

٢) Rabie . oP CIT . p . 57 .

٣) المقريزى ،الخطط ،ج١ ،ص ٩٧ ؛ والذى يجدر ذكره هنا ان المؤرخ المقريزى . توفي سنة ٨٤٥ .

٤) النويرى ،نهاية الارب ،ج٨ ،ص ٢٠٩ .

ماذكره ابن الفرات في معرض حديثه عن الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار مملوك السلطان الظاهر بيبرس بأنه كانت له الاقطاعات العظيمة بالديار المصرية والبلاد الشامية.(١)

وقد اتبع سلاطين المماليك أساليب عدة لتوزيع الاقطاعات على أمرائهم وأجنادهم ، منها ماكان الغرض منه تثبيت اقدامهم في الاراضي التى اصبحت خاضعة لهم ، مثلما حدث مع شجر الدر التي سارعت بمجرد اعتلائها العرش بعد وفاة زوجها الملك الصالح أيوب الى توزيع الاراضي المصرية كاقطاعات على الأمراء المماليك .(٢) وكذلك ماحدث سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م عندما استولى السلطان المظفر قطز على سائر بلاد الشام حيث أقطع الامراء الصالحية والمعزية واصحابه اقطاعات الشام "(٣)

كما استخدم المماليك توزيع الاقطاعات وسيلة لتحقيق الوحدة الإسلامية . يدلنا على ذلك ، ماحدث سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م عندما فارق الأمير ركن الدين بيبرس الأمراء الناصرية ،وقدم إلى القاهرة ، فخرج السلطان المظفر للقائه وأنزله دار الوزارة بالقاهرة وأقطعه قصبة قليوب .(٤) وكذلك ماحدث سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م عندما خرج السلطان الظاهر بيبرس ودخل دمشق في يوم الاثنين سابع ذى القعدة وقدم عليه بها الملك الأشرف

---

١) ابن الفرات ،م٧ ،ص ٠٩٣.

٢) أنظر الباز العريني ،المغول ،ص ٢٣٩ .

٣) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٣٣ .

٤) المقريزى ،المصدر نفسه ، ج١ ،ق٢ ،ص ٤٢٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ،ج٧ ، ص ١٠١ .

الايوبي صاحب حمص ، فخلع عليه واعطاه ثمانين الف دينار وحملين ثيابا وزاده على مابيده من البلاد تل باشر . كماقدم عليه في الوقت نفسه الملك المنصور صاحب حماه ، فخلع عليه أيضا واعطاه ثمانين الفا وحملين ثيابا ، وكتب له توقيعا بالبلاد التي تحت يده .(١) كماقدم الى مصر في السنة نفسها اولاد صاحب الموصل وهم الملك الصالح اسماعيل ، وأخوه الملك المجاهد اسحق صاحب جزيرة ابن عمر ، ثم اخوهما الملك المظفر على صاحب سنجار ، فأحسن السلطان بيبرس اليهم واعطاهم الاقطاعات الجليلة بالديار المصرية .(٢) كماحدث أيضا في سنة ٦٨٦هـ عندما قدم الأمير سنقر الأشقر الى السلطان المنصور قلاوون بمصر طائعا " أن أنعم عليه وأقطعه الاقطاعات العظيمة " .(٣)

كما كان سلاطين المماليك يمنحون رجالهم الاقطاعات مكافأة لهم على ماقاموا به من اعمال جليلة . ويدلنا على ذلك ماحدث سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م عندما رحل السلطان الظاهر بيبرس من غزة وهاجم كل من قيسارية وحيفا وأرسوف حيث قام بتقسيم ماملكه في هذه الغزاة من القرى والضياع على من كان معه من الامراء وعساد

---

١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٧ ، ص ١١٤ ؛ وتل باشر قلعة حصينة وكورة واسعة شمالي حلب ، بينها وبين حلب يومان (أنظر ياقوت ، معجم البلدان) .

٢) أبو الفدا ، المختصر ، ج٣ ، ص ١٣ ؛ وسنجار بلد صغير بالقرب من الموصل بارض الجزيرة (أنظر ياقوت ، معجم البلدان ؛ القزويني ، أثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣٩٣ .

٣) ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور ، ص ١٥٢،١٥٣ .

هو الى مصر .[١] وكذلك ماحدث سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م عندما استولى على ثم أمر بتعميرها وتحصينها ونقل الذخائر والأسلحة اليها " وأقطع بلدها لمن رتبه لحفظها من الاجناد "[٢]

كما يلاحظ أن سلاطين المماليك في توزيعهم للاقطاعات قد راعوا الجوانب الامنية في دولتهم . فقد حدث في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م أن أوقع السلطان الظاهر بيبرس بعرب زبيد "لكثرة فسادهم" ثم أحضر أمراء العربان واقطعهم الاقطاعات ، وسلمهم " درك البلاد" والزمهم حفظ الدروب الى حدود العراق . وكتب منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا .[٣]

كما جعل المماليك توزيع الاقطاعات وسيلة لاجتذاب المستأمنين من المغول والصليبيين الى معسكرهم . ففي يوم الخميس الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وصلت طائفة من المغول الى القاهرة مستأمنين فغيّر السلطان زيهم وأقطعهم اقطاعات وأنفق فيهم وأضاف كل جماعة منهم الى مقدم " ثم تواتروا بعد ذلك طائفة بعد اخرى" حيث وصلت الى القاهرة طائفتان منهم في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م ، فخرج السلطان بيبرس لتلقيهم ،وأنعم عليهم بالاقطاعات .[٤] ولم يقتصر

---

١) ابن خلدون ، العبر ،ج٥ ،ص ٣٨٥ .

٢) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٢ ،ص ٣٤٣ .

٣) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ ؛ أنظر أيضا ، ابن خلدون ، المصدرنفسه ،ج٥ ،ص ٣٨٣ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب السرية ،ص ٦٢.

٤) اليونيني ، المصدر نفسه ،م٢ ،ص ١٥٦ ، ١٩٥ .

الأمر على معسكر المغول ، بل وفد على السلطان في سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م جماعة مستأمنين من جهة الصليبيين ،فاعطاهم الاقطاعات وأحسن اليهم .[١] وحضر الى السلطان المنصور قلاوون بظاهر طرابلس ابن صاحب جبيل الصليبي الذى كان أمير طرابلس قد قتل اباه في سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م فأخلع عليه السلطان وأقر جبيل عليه على سبيل الاقطاع ـ كما سبق أن اشرنا ـ[٢]

وفي مقابل الموارد المتحصلة من الاقطاع ، كان على المقطع مجموعة من الالتزامات التي كان يجب عليه أن يؤديها وهي التزامات حربية مثل تقديم العساكر وقت الحرب ، فضلا عن عدد من الواجبات غير الحربية . ونظرا للجهاد الذى اتصف به العصر فقد كانت الواجبات الحربية للمقطع دون شك أهم الواجبات . فقد كان المقطع مسئولا مسئولية كاملة عن نفقات عساكره وقت الحرب . فكان عليه أن يعد عسكره الاعداد الكامل لكي يلحق بالسلطان في كل حملة حربية ويكون مكلفا بالانفاق عليها ، والأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر . ماحدث سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م عندما عزم السلطان الظاهر بيبرس الاغارة على طرابلس في هذه السنة ، حيث طلب الأجناد من اقطاعاتهم فحضروا "بأجمعهم"[٣] وكذلك ماحدث عندما عزم السلطان المنصور قلاوون على فتحها سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م حيث خرج بنفسه على رأس العسكر المصرى ، وكتب الى النواب بالممالك الشامية والحصون الاسلامية بتجهيز العساكر ،وإنفاذ

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٢٣٥ .

٢) راجع ماسبق في الفصل الرابع .

٣) النويرى ،نهاية الارب ،ج٢٨ ،ص ٨٧ .

المنجنيقات وآلات الحصار اليها .(١) وكذلك الحال عندما عزم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الاستيلاء على عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م حيث ندب العساكر اليها من الديار المصرية، وساير الممالك والحصون ، وأمر نواب السلطنة بالممالك الشامية والساحلية ونواب القلاع والحصون بتجهيز "الزردخانات وأعواد المجانيق والحجارين وغيرهم".(٢)

والى جانب ذلك كان على صاحب الاقطاع أن يقوم بمراقبة الأعداء وصد غاراتهم المفاجئة من ذلك ماحدث في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م عندما ورد الخبر الى السلطان بيبرس بأن الصليبيين أخذوا "أخيذة كبيرة للمسلمين ، فكتب الى نوابه على الشام بالاجتهاد في ردها"(٣) كماوقع بين الأمير علم الدين سنجر الباشقردي نائب السلطان الظاهر بيبرس بحمص وبين البرنس بوهيمند أمير الصليبيين بطرابلس وقعة في صفر من سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م انهزم فيها الصليبيون.(٤) وحدث في سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م عندما علم السلطان المنصور قلاوون بأن ملك قبرص قصد الساحل ،أن أمر " النواب بحفظ الاماكن جميعها" فاهتموا بأمره ولما وصل الى جهة بيروت كمنوا له كمينا في أحد الجبال وقتلوا وأسروا عددا من جماعته " ولولا انه

---

١) النويري ،نهاية الارب ،ج٢٩ ،ص ١٣ ؛ أنظر أيضا ،ابن الفرات، م٨ ،ص ٨٠ - ٨١ ؛ المقريزي ،السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٤٧ ،٧٤٨ .

٢) النويري ،المصدرنفسه ،ج٢٩ ،ص ٥٥ ،٥٦ ؛ ابن الفرات ،م٨ ،ص ١١٠، ١١١ ،؛ المقريزي المصدرنفسه ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٦٣ ، ٧٦٤ .

٣) المقريزي ،المصدر نفسه ،ج١، ق٢ ،ص ٥١٣.

٤) المقريزي ،المصدر نفسه ،ص ٥٤٣ .

ركب في البحر لكان أسيرا أو قتيلا"(١)

كما كان على المقطع أن يقوم ببعض الاعمال الحربية الكبيرة ضد مراكز الاعداء القريبة من اقطاعه : مثال ذلك ماحدث سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م حيث أغار الأمير شمس الدين سنقر الرومي على انطاكية ومعه الملك الأشرف موسى صاحب حمص والملك المنصور صاحب حماة ، ونازل صاحبها بوهيمند السادس ، وأحرق الميناء بمافيها من المراكب ، ثم حاصر السويداء وكبدها خسائر فادحة وغنم منها غنائم وميرة.(٢) وكذلك ماحدث سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م فقد أغار الأمير ناصر الدين القيمري على قيسارية وعثليث ، وكبد الصليبيين بها خسائر فادحة في العتاد والارواح وكان الصليبيون قد قصدوا مهاجمة يافا فلما سمعوا بذلك الهجوم خافوا ورجعوا عنها.(٣) وفي سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م استأذن الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب السلطنة بحصن الاكراد ، السلطان المنصور قلاوون في الإغارة على بلد المرقب لما اعتمده أهلها من الفساد عند وصول المغول الى حلب في هذه السنة ، فأذن له السلطان بذلك.(٤) وقام الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على الشام بالاستيلاء على صيدا وطرابلس وذلك عقب استيلاء السلطان الأشرف على عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م.(٥)

---

١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٧٢ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ج٣ ، ص ٢١٤ .

٣) المقريزى ، المصدر نفسه ، ص ٥١٣ .

٤) أبو الفدا ، المصدر نفسه ، ص ١٤ .

٥) ابن الفرات ، م٨ ، ص ١٢١ ؛ ابن تغرى بردى النجوم ، ج٨ ، ص ١٠ .

هذه أهم واجبات المقطع الحربية ، أما الواجبات غير الحربية التي على المقطع اداؤها ،فتشمل المراسيم السلطانية التي كان السلطان المملوكي يصدرها ، واقرار الأمن داخل الاقطاع والنظر في مصالح الرعية • وبالاضافة الى ذلك فقد كان على المقطع عدد من الواجبات المدنية أهمها مايختص برى وزراعة الاقطاع ، وبعض الخدمات الخاصه بالسلطان• فضلا عن قيام المقطع وموظفيه بتوزيع التقاوى السلطانية ، بين المزارعين في الاقطاع ، وكانت هذه التقاوى تمنح من السلطان للمقطع مع الاقطاع لضمان سلامة المحصول • وكان من الواجب على المقطع أن يترك التقاوى في الاقطاع ليضمن محصولا طيبا لمن يخلفه على هذا الاقطاع •(١)

وكان الاقطاع احيانا يحتوى على اراضي مستصلحة نتيجة شق قنوات وجسور ، وكان على المقطعين أن يبذلوا كل جهدهم لكي يحسنوا هذه الاراضي المستصلحة ، فضلا عن قيام المقطع باقامة الجسور البلدية وصيانتها (وهي السدود الزراعية الصغيرة) التي كان لها أهمية كبيرة في رى الاقطاع • أما عن الجسور السلطانيه وهي السدود الزراعية الكبيرة التي شيدت لمنفعة الاقاليم ، فلم يكن المقطع مسوءولا عنها من الناحية النظرية • ولكن من الناحية العملية كان المقطعون يساعدون السلطان في تشييد هذا النوع من الجسور وذلك

---

١) ابراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ،ص ١٩٧ ، ٢٠٢ ؛ Hassanin Rabie . Opcit . p 32 ؛ سعيد عاشور ،المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٠ •

بامداده بالرجال والبقر والالات وغيرها . يضاف الى ذلك أيضا أن المقطع كان يشترك في حفر وتطهير الترع والقنوات .(١)

ولما كان السلطان المملوكي هو المصدر الأصلي لمنح الاقطاعات فقد كان يستطيع الغاءه في اى وقت من الاوقات وذلك متى تقاعس المقطع عن اداء واجبه ، أو بدر منه مايخل بالتزاماته الحربية . من ذلك ماحدث سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م عندما اهتم السلطان بيبرس بأمر الغزو في هذه السنة وسيّر الى اعمال مصر باحضار الجند من اقطاعاتهم ، فتأخروا فارسل " سلاح واريته " فعلقوا الولاة بأيديهم ثلاثة أيام تأديبا لكونهم ماسارعوا الى احضار الأجناد .(٢) وكذلك ماحدث سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م ، حيث أعاد السلطان المنصور قلاوون اقطاع الامير سيف الدين أيتمش السعدى اليه ، وكان قد قطعه عنه عند انضمامه الى سنقر الاشقر (٣) ثم عاد السلطان وقبض عليه وعلى الأمير كشتعدى الشمسي لخلل ظهر منهما على مايبدو واحتاط على اقطاعهما.(٤) كمايذكر ابن كثير انه في اثناء حصار السلطان الأشرف خليل لعكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م وقع " تخبيط" من نائب الشام حسام الدين لاجين ، فتوهم أن السلطان يريد مسكه ، فحاول الهرب ولكن أحد الأمراء أعاده الى السلطان ،فطيب قلبه

---

١) المقريزى ،الخطط ،ج١ ، ص ١٠١ ؛ حسنين ربيع ،النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ،أنظر أيضا ،محمد حمدى المناوى ،نهر النيل في المكتبة العربية ، ص ١٣٤ - ١٣٨ .

٢) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٤٤ .

٣) ابن الفرات ،م٧ ،ص،٢٢٨ .

٤) ابن الفرات ،المصدر نفسه ،،ص ٢٤٦ .

وخلع عليه ، ثم امسكه بعد ثلاثة أيام وبعثه الى قلعة صفد " واحتاط على حواصله "(١)

وكان نظام الاقطاع الحربي بما اشتمل عليه من واجبات يعاقب عليها المقطع متى قصر في شيء منها كفيلا بإخلاص الجند واستماتتهم في القتال وتحقيق الانتصارات العظيمة ضد الاعداء • مثال ذلك ماذكره المقريزى من انه حدث في سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٩م عندما خرجت العساكر الاسلامية لمهاجمة تل حمدون ، شرط عليها السلطان المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦هـ - ٦٩٩هـ/١٢٩٦ - ١٢٩٨م) بأن لا ترجع الا بعد فتح تل حمدون وإن عادت من غير فتحها فلا إقطاع لها بالديار المصرية • وذلك لمابلغه من خلاف داخل صفوفهم اثناء توجههم اليها •(٢)

والواقع ان نظام الاقطاع الحربي كان ذا اهمية كبيرة بالنسبة للجيش المملوكي ، حيث كان ذلك النظام دافعا لهم على التوسع في الفتوحات للاستزادة منه • يدلنا على ذلك ما أورده ابن عبد الظاهر في حوادث سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م من ان السلطان الظاهر بيبرس " زاد الأمراء الناصحين له في اقطاعاتهم وأمّر من يستحق الإمرة "(٣)

---

١) ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٣٢٠ ، ٣٢١ •

٢) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٨٣٩•

٣) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ،ص ١٧٠ •

والذى يجدر ذكره هنا أن المقريزى الذى ذكر في كتابه الخطط أن اراضي مصر كانت منذ عهد السلطان صلاح الدين تقطع للسلطان وأمرائه واجناده ـ كما سبق أن أشرنا ـ ذكر بعد ذلك في كتابه نفسه أن تطورا حدث في هذا المجال في عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين حيث قال " لما أفضت السلطنة الى المنصور لاجين راك البلاد وذلك أن ارض مصر كانت أربعة وعشرين قيراطا ، فيختص السلطان منها باربعة قراريط ، ويختص الأجناد بعشرة قراريط ، ويختص الأمراء بعشرة قراريط ،وكان الامراء يأخذون كثيرا من اقطاعات الأجناد ، فلا يصل الى الاجناد منها شيء ،ويصير ذلك الاقطاع في دواوين الأمراء ،ويحتمي بها قطاع الطريق وتثور بها الفتن ويقوم بها الهوشات ، ويمنع منها الحقوق والمقررات الديوانيه ،وتصير مأكله لأعوان الأمراء ومستخدميهم ،ومضرة على أهل البلاد التي تجاورها ،فابطل السلطان ذلك ورد تلك الاقطاعات على اربابها ... وجعل السلطان في هذا الروك للامراء والاجناد أحد عشر قيراطا "(١)

---

١) المقريزى ، الخطط ،ج١ ،ص ٨٨ ؛ أنظر أيضا ، السلوك ،ج١ ، ق٣ ، ص ٨٢١ ، ٨٢٢ ؛ محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ،ص ٢٩٩ ؛ والروك : مصدر الفعل الثلاثي (راك) ، وهي كلمة من أصل قبطي معناها مسح الارض لتقدير خراجها ثم اتسع معناها حتى شملت ايضا تعداد القرى وعدد سكانها ومافيها من ماشية (انظر ابن مماتي ،قوانين الدواوين ،ص ٤٥٥ فهرس الاصطلاحات المقريزى ، السلوك ،،ج١ ،ق٣ ،ص ٨٤١ ؛ محمد حمدى المناوى نظام الروك في مصر الاسلامية ،ص ١ ،نهر النيل في المكتبة العربية ، ص ١٨٣ حاشية).

وحدث في العهد الثالث للسلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ –٧٤١هـ/ ١٣٠٩ – ١٣٤١م) روك آخر تناوله المقريزى بشيء من التفصيل فذكر أن السلطان الناصر رأى سنة ٧١٥هـ ان اقطاعات المماليك البرجية كثيرة ، ففكر هو والقاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش أن يروك البلاد ومن ثم تقسيمها إلى اقطاعات ، فقسم البلاد الى مناطق أرسل الى كل منطقة منها أميرين ، ومعهما كاتب من كتاب الديوان ، ومستوفين وقياسين ، ليتولوا مسحها ومعرفة ماتحويه من ارض منزوعة ، وبور ومستبحرة ،وعبرة كل ناحية ، وانتهى دوك البلاد في مدة خمسة وسبعين يوما وقدمت الكشوفات " بجال جميع ضياع ارض مصر ومساحتها وعبرة اراضيها ، ومايتحصل من كل قرية من عين وغلة وصنف " وقد خص السلطان نفسه بعشرة قراريط ، ووزع الأربعة عشر قيراطا الباقية على الأمراء والأجناد وذلك في المحرم من سنة ٧١٦هـ . ثم قرر للمتقدمين في السن والعجزة من الجند رواتب بدلا من الاقطاعات .(١)

كما حدث روك ثالث في عهد السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤ – ٧٧٨هـ/١٣٦٣ – ١٣٧٦م) وذلك في شوال من سنة ٧٧٧هـ ، وقد

---

١) المقريزى ، الخطط ،ج١ ،ص ٨٨ ؛ أنظر أيضا ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ؛ محمد حمدى المناوى ،نظام الروك في مصر الاسلامية ،أو نظام مساحة الارض ، بحث لم يطبع ، ص ٨ ، والعبرة من الناحية النظرية هي متوسط المتحصل السنوى من الاقطاع ،بان يجمع ايراد أحسن سنة وأسوأ سنة ثم يقسم على اثنين ، ومن الناحية العملية فان العبرة والمتحصل الفعلي من الاقطاع لايمكن ان يتطابقا . (لمزيد من التفصل انظر Hassanene , Rabie . opcit . pp. 47 - 48 .

أفرد له ابن الجيعان ، كتابا خاصا اسماه " التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية " ذكر فيه اقاليم مصر ومابها من بلدان مرتبة على حروف المعجم وعبرة كل بلد .(١)

وقد احتلفت الأمراء بالنسبة لهذا الروك ،فالبعض يوءكد انه تم فعلا في عهد السلطان الأشرف.(٢) بينما يرى البعض الآخر ان هذا الروك هو الروك الناصري نفسه(٣) ، حجتهم ماذكره المقريزى من ان الروك الناصرى ظل العمل به الى مابعد زوال دولة بني قلاوون سنة ٧٨٤هـ .(٤)

وعلى كل فليس هناك ماينفي أو يوءكد نسبة هذا الروك للسلطان الأشرف شعبان ، ولكن لما كان ابن الجيعان مستوفيا لديوان الجيش فلا يستبعد انه عثر بين الاوراق الرسمية مايفيد بأن الاشرف قام بروك البلاد .(٥)

---

١) طبع هذا الكتاب في مطبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٨٩٨م مع مقدمة بالفرنسية بقلم الدكتور مورتيز مديردار الكتب المصرية وقتئذ .

٢) أمين باشا سامي ،تقويم النيل ،ج١ ،ص ١٢٦ .

٣) مورتيز في مقدمه لكتاب ابن الجيعان ، عمر طوسون ،مالية مصر ،ص ٢٥٠ .

٤) المقريزى ،الخطط ،ص ٩١ .

٥) محمد حمدى المناوى ،نظام الروك في مصر الاسلامية ،ص ٠٩.

وروك رابع حدث في عهد السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ - ٨٤١هـ/١٤٢١ - ١٤٣٧م) تحدث عنه قاضي المنزلة في كتابه " عجائب الأخبار عن مصر الأمصار" ذكر أن السلطان الأشرف برسباى أمر كتاب الدواوين والجيوش المصرية بضبط واحصاء قرى مصر كلها قبليها وبحريها ،فكانت الفين ومائتين وسبعين قرية ، ولم يذكر المؤرخ تاريخ لهذا الروك.(١)

ومن هذا يتضح لنا أن نظام الاقطاع الحربي ، كان يعد من أولى موارد الدولة المملوكية ،لأنه المصدر الدائم اللازم للصرف على الجيش السلطاني وجيوش الأمراء الاقطاعيين ، فضلا عن النفقات العسكرية اللازمة للجيش المملوكي على اختلاف عناصره زمن الحرب ، وبهذا يمكن القول أن سلاطين المماليك بتطبيقهم لنظام الاقطاع الحربي في دولتهم ، قد وفروا على انفسهم مهمة تزويد جيوشهم بماتحتاجه من السلاح والعتاد والموٴن . فقد كان على صاحب الاقطاع ان يأتي بجيشه الى ساحات القتال وهو مزود بكل مستلزمات القتال ،هذا فضلا عما كان يساهم به المقطع من أموال وعتاد وموٴن لخدمة الجيش السلطاني الملازم للسلطان نفسه .

ثانيا : ديوان الجيش المملوكي

وكان ديوان الجيش المملوكي مشرفا ومسوٴولا عن توزيع هذه الاقطاعات على الأمراء والأجناد ومتابعتها . فقد كان هذا

---

١) مخطوط الازهر ،ص٧أ ،٧ ب .

الديوان هو الأساس لتوزيع هذه الاقطاعات على الأمراء المقطعين ، ومن أهم مهامه اثبات اسماء اصحاب الاقطاعات على اختلاف فئاتهم ، ومن ثم الاشراف على تلك الاقطاعات التي تخضع للزيادة والنقصان نظير مايقدمه الأمير المقطع من خدمات للسلطان . كما قام ديوان الجيش بتقدير المبالغ المسماه "الغيبانات" وهي الأموال التي تخصم من الجندى نتيجة غيابه عن الخدمة بدون اذن ، حيث يقوم الديوان بعملية الخصم عن هذه المدة . وفي هذا المعنى يذكر ابن مماتي [1] انه اذا كان قد قرر للجندى ستمائة دينار واشتغل بقرار ذلك أول السنه" ،ثم غاب في اثنائها بغير اذن مدة شهرين اقتطع منه مائة دينار.[2]

ومن الوظائف التي قام بها ديوان الجيش تسجيله للاموال المعروفة بالفواضل ، والتي فسرها ابن مماتي بضربه مثلا عليها ، ذكر فيه انه اذا كانت عبرة ناحية من النواحي خمسة الاف دينار ، وفيها جماعة مقطعون بما مبلغه اربعة الاف وثمانمائة دينار رسمي ،مابقي من عبرتها فاضلا وهو مائتا دينار .[3]

---

١) أبو المكارم أسعد بن الخطير بن مهذب بن زكريا ابن مماتي وكان ناظرا لبعض الدواوين المصرية أيام صلاح الدين وابنه الملك العزيز عثمان ، وأسرته مسيحية الأصل دخلوا في الاسلام ايام شيركوه ، وقد هرب الأسعد الى الشام أيام العادل ونزل على الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب وخدمه . وتوفى ابن مماتي سنة ٦٠٦هـ (أنظر قوانين الدواوين تحقيق عزيز سوريال ،أبوشامة كتاب الروضين ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦٩٤ حاشيه (٤))

٢) ابن مماتي قوانين الدواوين ،ص ٣٥٥ .

٣) ابن مماتي ،المصدر نفسه ،، ص ٣٥٥ ؛أنظر أيضا
Hassanein Rabie . opcit .p.p 47 - 48 .
عن العبرة انظر ماسبق ،ص

وماقيل عن الفواضل يمكن ان يقال عن المتوفر ،والذى هو عبارة عن جملة من الأموال تتوفر بسبب وفاة الجندى اذ جرى العرف بأن يكون راتبه من أول السنة الى يوم وفاته لورثته ، وماكان مقررا بقية السنة ،صار من المتوفر ، واذا لم يكن له ورثه ، جعل الديوان جميع ماقرر له متوفرا .(١)

كمايبدو ان ديوان الجيش كان يقوم بتسجيل العمليات المعروفة بالتفاوت والتي يمكن تعريفها بانها عبارة عن أموال الفروق الناتجة عن تغيير مرتبة الجندى بانتقاله من فئة اصحاب الجوامك والرواتب الى فئة ذوى الاقطاعات ، أى انه اذا انتقل جندى الى اقطاع جديد للمرة الاولى ، فانه يأخذ دخل اقطاعه من تاريخ تعيينه عليه لا من أول السنة.(٢)

ومن اختصاصات ديوان الجيش ، اصدار احصاءات دورية بعدد الجند ، والمبالغ المقررة لهم ، يدلنا على ذلك ماذكره ابن عبدالظاهر ، من ان السلطان الظاهر بيبرس عرض العساكر سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م " وجلس لذلك كل يوم خميس واثنين" وأي جندى اشتكى من مخدومه أمر بانصافه .(٣)

---

١) ابن مماتي ،قوانين الدواوين ،ص ٣٥٥ ؛ القلقشندى ،صبح الاعشى ، ج٤ ،ص ١٩٠ ؛ حسنين ربيع ،النظم المالية في مصر ،ص ٦٣ .

٢) انظر حسنين ربيع ،المرجع نفسه ، ص ٦٣ ؛ والجوامك مفردها جامكية ، وهي رواتب خدام الدولة ،واللفظ مركب من جام أى قيمة ومن كي وهي أداة النسبة ،فارسي معرب ويعني فيالاصطلاح المملوكي رواتب الجند (أنظر الأسنوى ،طبقات الشافعية ،ج٢ ،ص ٥٩٦ ،٥٩٧).

٣) ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ،ص ١٨٢ .

وماذكره ايضا في حوادث سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م من ان السلطان نفسه جلس في هذه السنة لبعض العساكر وهم لابسين عدة الحرب وكتاب ديوان الجيش بين يديه " يجيبون عمايسألون"(١)

والى جانب ذلك ،يبدو ان ديوان الجيش قام أيضا بالانفاق العام على الحاميات والحصون والقلاع ، التي كان سلاطين المماليك يهتمون بها اثناء جهادهم لاقتلاع بقايا الوجود الصليبي من ساحل بلاد الشام .

ويذكر النويرى ، أن موظفوا ديوان الجيش كانوا يقومون بتسجيل اسماء أرباب الاقطاع على اختلاف طبقاتهم ، وعدد الجند التابعين لكل مقطع داخل اقطاعه ، وأمام اسم كل مقطع عبرة اقطاعه " رمزا لاتصريحا" ولعل ذلك كان من باب الحذر والسرية التي توخاها موظفوا الديوان . لذا تجنب الديوان ذكر عبرة الاقطاع او متحصله إلا بناء على مرسوم من السلطان نفسه .(٢)

كما كان من مهام ديوان الجيش ضمان عدم التلاعب في الاقطاعات ، فكانت به سجلات مقابلة عرفت باسم جرائد الاقطاع ،خصص لها موظفون يقومون بتسجيل اقطاعات كل اقليم ، ومايتضمنه كل اقطاع من كفور وضياع وغير ذلك ، والعبره الماليه لكل اقليم ، وقيمة مايتحصل منه ، وانتقال الاقطاع من شخص الى آخر .

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٢١١ .

٢) النويرى ،نهاية الارب ،ج٨ ،ص ٢٠٠ - ٢٠١ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٦٢.

كما جرت العادة في ديوان الجيش على ان تحرر جريدة اخرى باسماء العسكر الذين كانوا يتقاضون أجورهم نقدا لا اقطاعا .(١)

وحرص ديوان الجيش على متابعة الاحوال الزراعية في الاقطاعات ومراقبتها ، واعادة النظر كل ثلاثة أعوام في الاموال المفروضة على اصحابها وتسجيل مايطرأ عليها من تعديلات .(٢) وكان رئيس الديوان يكلف بعض الموظفين كل عام بالحصول على نسخة من قوانين رى البلاد ، لمعرفة الزيادة والنقص في الاراضي المزروعة والحصول على نسخة من سجلات الاقاليم لمعرفة مايتعلق بأمور مواردها المالية .(٣)

كما أهتم ديوان الجيش بتسجيل التقادم ، الذى كانت مقررة على أرباب الاقطاعات لتقديمها للسلطان ،ولو تعطلت غضب عليهم . ويطالبهم بها . ومن هذه التقادم ماهو سنوى ومنها ماهو طارىء بحكم الظروف والمناسبات المختلفة كحج السلطان او زواجه أو نحو ذلك من الحفلات وكذلك اذا خرج السلطان للصيد أو زار أميرا في اقطاعه ، فان الأمير

---

١) النويرى ،نهاية الأرب ، ص ٢٠٢ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، طلال العصيمي ،الاقطاع الحربي في العصر الايوبي ص ١٨٣ رسالة ماجستير لم تطبع .

٢) Poliak : Feud alism in Egypt , syria, Palestine , and Lebanon, p. 22 .

٣) النابلسى ، لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية ص ٢٣ .

المقطع مكلف في هذه الحالة بتدبير أمر الضيافة فضلا عمايقدمه من التقادم والغالب أن يخلع السلطان على الأمير نظير تقدمته . وتحتوى التقادم على خيول وقماش وأثواب مختلفة الألوان والأنواع وكذلك الأسلحة ، وبعض انواع الحيوانات والطيور ، العادى منها والغريب واصناف التحف ،ومن التقادم مايرى المقطع تخصيصه للسلطان ومنه مايرى تخصيصه لحريمه وأولاده . ومن الأمثلة على ذلك ماذكره المؤرخ أبو الفدا صاحب حماة من انه قدم في سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م بتقدمته على السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكانت عبارة عن خيول وقماش ومصاغ .(١)

أما أهم موظفي ديوان الجيش ،فيشمل الناظر ،ويعد المسئول الأول عن كل مايجرى في هذا الديوان ، وليس لأحد من الموظفين التابعين له أن ينفرد عنه بشيء من الأمور التي ينظر فيها الديوان . ولابد من توقيعه الرسمي على جميع الاوراق الرسمية التي تجرى في الديوان ، فضلا عن احاطته بجميع مايرد على الديوان من معاملات . واشرافه الكامل على مايرد اليه وماينصرف منه ، حيث كانت تقدم اليه بيانات كاملة بالمتحصلات والمصروفات والبواقي والفوائض والمتأخرات . لانه يعد المسئول الأول عمايحدث في ذلك من خلل .(٢)

---

١) أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص ٩٤ ، ٩٥ ؛ ولمعرفة المزيد من هذه الأمثلة ،أنظر ماأورده الدكتور ابراهيم طرخان في كتابه "النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى) ،ص ٢٠٢ - ٢٠٤ .

٢) ابن مماتي ،قوانين الدواوين ،ص ٢٩٨ ؛ أنظر أيضا ،النويري ، نهاية الأرب ،ج٨ ،ص ٢٩٩ ؛ القلقشندى ،صبح الاعشى ،ج٤ ،ص ١٩٠ ؛ حسين ربيع ، النظم المالية في مصر ،ص ٨٤ .

ويلي الناظر ،موظف اخر يدعى متولي الديوان ،ومهمته الاشراف على تنفيذ تعليمات الناظر .[١] وليس له أن يزيد على ذلك ، وان اضاف شيئا لزمه مايترتب عليه من تبعه ،وكان هذا الموظف يقوم بالتصديق على التصاريح التي تسمى التذاكر ،فضلا عن الاستدعاءات وكذلك الاشراف على الموظفين عند مباشرتهم ، وذلك بالكتابة على تواقيعهم وتحريراتهم.[٢]

أما الموظف الثالث في الديوان فهو المستوفي ،ووظيفته مطالبة الموظفين بمايجب عليهم رفعه من الحساب في اوقاته كمايقوم بتبليغ متولي الديوان بمايجب تحصيله من الاموال في مواعيده المحدده ، واقامة السجلات والتأكد من كمال مايرد على الديوان ، واخراج مايجب تخريجه منه ، ومتى ظهر تقصير في شيء من ذلك كانت عليه مسئوليته ، الا في حالة عدم وجود توقيعه عليه . ويأتي بعد ذلك المعين ، وهو الموظف الرابع في الديوان ، ويذكر ابن مماتي انه عبارة عن كاتب بين يدى المستوفي . مهمته مساعدته في الاعمال المنوطه به ، وليس عليه مسئولية شيء من ذلك الا فيما يحرره من جرائد الديوان من غير أن يشهد عليه احد ، ليمضي عليه الوقت فتصبح الجريدة شاهدة عليه ، أما الناسخ فهو كاتب وظيفته نسخ التوقيعات والمكاتبات الصادرة من الديوان والواردة اليه ، ومتى ظهر منه تحريف في شيء من ذلك تحمل مسئوليته ، والموظف السادس في الديوان هو المشارف . ويذكر ابن مماتي

---

١) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ،ص ٢٩٨ ؛ النويرى ،نهاية الأرب ، ج٨ ،ص ٣٠٠ .

٢) النويرى ،المصدر نفسه ،ج٨ ، ص ٣٠٠ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٨٤ .

" أن أمره جار على أمر الناظر" ويبدو من هذا أن وظيفته هي تكرار عمل الناظر لتأكيده ومن ثم مراقبة تنفيذه وتدقيقه ، ويزيد على ذلك ان جميع المتحصلات المالية بعد الختم عليها تكون في عهدته وتحت حيطته • يلى ذلك الموظف السابع وهو العامل ومهمته القيام بعمل الحسابات اللازمة ورفعها ، والكتابة بالموافقة على مايرفعه غيره من المعاملات ، فضلا عن قيامه ببيان البواقي لمن عليه شيء من أموال الدولة ، بسبب الانصراف من الخدمة • ويجرى مجرى العامل موظف آخر عرف بالكاتب ، مهمته الالمام بمايتأخر في البلاد من مال وغلال مما يستعان به عند تقدير ايرادات الدولة .(١)

أما الجهبذ فهو الموظف التاسع في الديوان ، مهمته كتابة المتحصل من الأموال وقبضه ، وكتابة الوصولات ،فضلا عن عمل المخازيم والختمات ، ومايتبعها ، بالاضافه إلى انه مطالب بمايقبض من الأموال ، وباخراج مايترتب عليها من خراج • أما الموظف العاشر ، فهو الشاهد ، وعمله تحقيق وضبط مايشاهده من أوراق رسمية وغيرها ، ثم اثبات الحساب الموافق لتعليقه • ويلي ذلك عدد من موظفي ديوان الجيش منهم النائب وقد ذكر ابن مماتي في تعريفه انه " كاتب يستخدم نائبا عن الديوان مع المستخدمين" وعليه يمكن القول انه من المحتمل ان تكون مهمته القيام بمراقبة الموظفين أهل الديوان

---

١) ابن مماتي ،قوانين الدواوين ،ص ٣٠١ - ٣٠٣ ؛ أنظر أيضا ، النويرى ،نهاية الارب ، ج٨ ،ص ٣٠١ - ٣٠٣ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ،ص ٨٥ •

اذ يذكر المصدر نفسه بعد ذلك ان هذا الموظف لايلزمه شيء من رفع الحسابات ولا الكتابة عليها . ثم الأمين الذى يشبه النائب في عمله ، فضلا عن مشابهته الشاهد في بعض الاعمال . ثم الخازن وعمله قبض الغلات وخزنها واخراجها . واخيرا الحاشر ويبدو ان مهمته كانت حفظ ارث من توفى وليس له ورثة ، وعليه تقع المسئولية فيما قد يقع في ذلك من نقص بخيانة أو بغيرها.(١)

الجيش المملوكي وتنظيماته الحربية

واكب قيام الدولة المملوكية ، ابتلاء العالم الاسلامي بخطرين في وقت واحد . وكان على هذه الدولة الفتيه لكي يكتب لها البقاء . أن تقوم بانقاذ ماتبقى من العالم الاسلامي من خطر الغزو المغولي المدمر . ومن ثم تخليصه من بقايا الوجود الصليبي ، الذى لازال حتى ذلك الوقت جاثما على المناطق الساحلية من بلاد الشام . ولما كان ذلك الأمر يتطلب استعدادا كبيرا ،فإن سلاطين المماليك ، وبالذات الأوائل منهم عمدوا إلى تكوين جيش كبير ذى عناصر متعددة استطاعوا به تحقيق ذلك الهدف . وعناصر هذا الجيش العسكر السلطاني ، أو المماليك السلطانية وكانت مهمتهم مقصورة على ملازمة السلطان والجهاد معه ، وجند الأمراء ، أو مماليك

---

١) ابن مماتي ،قوانين الدواوين ،ص٣٠٤ – ٣٠٦ ؛ أنظر ايضا ، النويرى ،نهاية الارب ،ج٨ ،ص ٣٠٠ – ٣٠٥ ؛ القلقشندى ، صبح الاعشى ،ج٤ ،ص ٣٣ ،٣٤ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٨٥ ،٨٦ ؛ حامد زيان ، الأزمات الاقتصادية والأوبئه في مصر عصر سلاطين المماليك ، ص ٣٣ .

الأمراء الذين يستدعون من اقطاعاتهم وقت الحرب ويسرحون بعدها فضلا عن المتطوعة والقوات المساعدة .

فالجيش السلطاني : هو الجيش الذى كان ملازما للسلطان ويعتمد عليه في صد غارات الاعداء التي تحدث اثناء ابتعاد اجناد الامراء عنه ، حتى يتمكن من استدعائهم للمجيء اليه . يدلنا على ذلك ماذكره المقريزى من ان السلطان الظاهر بيبرس كانت عدة عسكره اثنى عشر الفا " ثلثها بمصر ، وثلثها بدمشق ،وثلثها بحلب ، وكان هوءلاء خاصته " فاذا غزا خرج معه أربعة الاف يقال لهم جيش الزحف ، فان احتاج استدعى اربعة أخرى ، فان اشتد به الأمر استدعى الأربعة آلاف الثالثة .(١)

والى جانب المماليك السلطانية ،كانت هناك فرقة أخرى عرفت باسم " المماليك الخاصكية " يختارهم السلطان من المماليك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صغارا ،فيجعل منهم حرصه الخاص ، ويكلفون بالقيام بالمهمات الشريفة .(٢) ويمتازون عن بقية المماليك السلطانية بأن السلطان يتولى تربيتهم وعتقهم ، كما انهم يلازمون السلطان في خلواته .(٣) ولاشك ان هذه الطائفة كانت تقوم بدورها في الجهاد معه وقت الحرب شأنها شأن المماليك السلطانية .(٤)

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق ٢ ،ص ٦٣٨ .

٢) العيني ، السيف المهند ،ص ٢١٠ حاشية .

٣) على ابراهيم حسن ،تاريخ المماليك البحرية ،ص ٣٤٦ ; ابراهيم طرخان،النظم الاقطاعية ، ص ١٨٠ حاشية .

٤) راجع ماسبق في الفصل الرابع .

ويجرى مجرى ذلك أجناد الحلقة ، ويتكون أفرادها من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين واولادهم وهي اقرب الطوائف الى نظام الجندية في العصور الحديثة وهم على هذا الاعتبار جيش الدولة الذى لايتغير بتغير السلطان.(١) وكان تنظيمهم في غاية الدقة والاتقان يشرف على كل الف منهم احد امراء المئين ، ولكل مائة منهم "نقيب" ولكل اربعين "مقدم" وكانت مرتباتهم تصرف من ديوان الجيش.(٢) ووصفهم القلقشندى بأنهم " عدد جمّ وخلق كثير" (٣) ومن الأدلة على مرافقتهم للسلطان ماذكره المقريزى في حوادث سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م من ان السلطان الظاهر بيبرس عندما توجه للحج في هذه السنة اصطحب معه " ثلاثمائة مملوك وأجناد الحلقة "(٤)

أما جند الامراء ، فقد اقتضت ضرورة تطبيق نظام الاقطاع الحربي في الدولة المملوكية ، بقاء معظم الجيش مفرقا

---

١) على ابراهيم حسن ،تاريخ المماليك البحرية ، ص ٣٤٦ ؛ مصر في العصور الوسطى ،ص ٤٠٨، ٤٠٩ .

٢) العمرى ، مسالك الابصار ،ج٥ ،ص ١٦٦ ؛ على ابراهيم ،حسن المرجع السابق ،ص ٣٤٦ ،٣٤٧ .

٣) القلقشندى ،، صبح الاعشى ،ج٤ ،ص ١٦ ؛ والنقيب في اللغة: كالأمين والكفيل أو الضمين ،وجمعها نقباء : وهو كالعريف على القوم أو المقدم عليهم يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم (أنظر ابن منظور ،لسان العرب ، مادة "نقب").

٤) المقريزى ، السلوك ،؛ ج١ ق ٢ ،ص ٥٨٠ .

بين أجزاء الدولة . وكان السلطان المملوكي - كما سبق أن اشرنا - يقطع الاقطاعات لأمرائه ، مقابل التزامهم بواجبات عدة منها أن على كل أمير اعداد فرقة حربية تتكون من عدد محدد من الجند ، وتأمين لوازمها ، فاذا مانشبت الحرب خرج هذا الأمير بجنده الى ميدان القتال ، واذا انتهت الحرب أو توقفت لحلول فصل الشتاء ، عاد بهم الى اقطاعه على ان يعود عند تجددها . والأدلة على ذلك كثيرة ، منها :- ماحدث سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، عندما عزم السلطان المظفر قطز على محاربة المغول ، حيث نادى بالنفير العام للجهاد في سبيل الله ، وأرسل الى عربان الشرقية والغربية فاجتمع عنده من عساكر مصر نحو أربعين الفا .[١] ومنها أيضا ماحدث سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م عندما استغل الصليبيون حلول أيام الربيع وكون العسكر الاسلامي " متفرق في اقطاعاته " وكاتبوا المغول لقصد البلاد الاسلامية .[٢] وكذلك ماحدث سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م حيث صرف السلطان المنصور قلاوون " العساكر الى اماكنهم " وذلك بعد ان تمكن من هزيمة المغول في معركة حمص ، واجلائهم من بلاد الشام .[٣] وماذكره أبو الفدا من ان السلطان قلاوون لما فرغ من الاستيلاء على طرابلس عاد الى الديار المصرية وأعطى صاحب حماه " الدستور " فعاد الى بلاده .[٤]

والى جانب ذلك ،كانت هناك فرق الغزاة المتطوعة الذين

---

١) ابن إياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٠٥ .

٢) شافع بن على ،حسن المناقب السرية ،ص ٨٧ .

٣) ابن خلدون ، العبر،ج٥ ،ص ٣٩٧ ؛ انظر ايضا ،أبو الفدا ، المختصر، ج٤ ،ص ١٥ .

٤) أبو الفدا ، المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ٢٣ .

كانوا يعرفون قبل العهدين الأيوبي والمملوكي بالاحداث المتطوعة . وذلك منذ العهد النورى ،يدلنا على ذلك ماذكره ابن القلانسي من ان نورالدين محمود أمر بالنداء "في الغزاة والمجاهدين والأحداث المتطوعة من فتيان البلد والغرباء بالتأهب والاستعداد لمجاهدة الفرنج "(١) أما كلمة أحداث بمفردها فالظاهر انها كانت معروفة منذ ماقبل العهد النورى بدليل ماذكره ابن القلانسي نفسه من ان نور الدين محمود لم يكن في استطاعته الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م ,الابفضل مراسلته لاحداثها ،واستمالتهم اليه .(٢)

---

١) ابن القلانسي ،ذيل تاريخ دمشق ،ص ٣٤٠ ؛ أنظر أيضا ،نظير حسان سعداوى ،جيش مصر ،ص ١٥ .

٢) ابن القلانسي ، المصدر نفسه ، ص ٣١٥ ؛ أنظر أيضا ابن الاثير، الباهر في الدولة الاتابكية ،ص ١٠٧ ؛ نظير حسان سعداوى ، المرجع نفسه ، ص ١٥ ؛ ويذكر البعض : ان طائفة الاحداث هذه تكونت في بلاد الشام منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وذلكلمقاومة الحكم الفاطمي ، وهم عبارة عن جماعة من القوات المدنية كانوا يقومون ايضا بحفظ النظام ومكافحة النيران وإغاثة المنكوبين ، بالإضافة الى انضمامهم الى القوات النظامية لمحاربة الاعداء وقت الحاجة اليهم (أنظر ،سعيد عاشور ، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ،في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ؛ مسفر الغامدى ،الجهاد ضد الصليبيين في الشرق ص ٤٩ حاشية (٢) ؛ ZAKKAR , The Emirate of Aleppo .
p. 255 - 256 . Encycl opaedia of Islame , Vol,p.259.

والملاحظ أن كلمة أحداث هذه قد اختفت من المصادر التاريخية اختفاءاً تاماً طوال العهدين الأيوبي والمملوكي ، وحل محلها كلمة " المتطوعة " يدلنا على ذلك ماذكره العماد من ان صلاح الدين عندما عزم على قصد الصليبيين في مرج عيون سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م لكبسهم في مخيمهم ، وتسامع المسلمون بذلك تباشروا وتسابقوا الى المسير اليه ، وكان من ضمن الوافدين "متطوعة" دمشق وحوران.(١) وماذكره ابن تغرى بردى،من أن السلطان الأشرف خليل عندما خرج لمنازلة عكا في سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م اجتمع عنده العسكر الاسلامي باعداد لاتحصى " وكان المطوعة اكثر من الجند ومن في الخدمة "(٢)

والجدير بالذكر ان أغلب هوءلاء المتطوعة الذين اسهموا في حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول حتى ثم تطهير بلاد الشام منهم ، لم يكونوا مقصورين على طائفة الأحداث الشهيرة التي كان مقرها مدينة دمشق ، بل ضمت هذه الطائفة في العهد الأيوبي ،والمملوكي من بعده أعدادا كبيرة من الفقهاء والعلماء ورجال الدين . يدلنا على ذلك ماذكره ابن كثير من ان صلاح الدين عندما عزم على استعادة بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م " قصده العلماء والصالحون تطوعا "(٣) وماذكره ابن عبدالظاهر من ان السلطان الظاهر بيبرس عندما هاجم أرسوف سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م حضر " العباد والزهاد والفقهاء

---

١) العماد ،الفتح ،ص ٢٩١ ،٢٩٢ ؛ ومرج عيون ،مكان بسواحل الشام (أنظر ياقوت ،معجم البلدان).

٢) ابن تغرى بردى ،النجوم ،ج٨ ،ص ٥ ؛ أنظر أيضا ابن كثير،البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٣٢٠ .

٣) ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٢ ،ص ٣٢٢ .

والفقراء الى هذه الغزاة المباركة "(١) ومن ذلك أيضا ماذكره ابن كثير في حوادث سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م من ان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عندما خرج لمنازلة عكا في هذه السنة خرجت معه " العامة والمتطوعة .... حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء "(٢)

وهناك عنصر آخر من المحاربين أسهم مع سلاطين المماليك فيجهادهم لصد العدوان المغولي عن بلاد الشام، وتصفية الوجود الصليبي منه . هم القوات المساعدة من العربان وغيرهم . والأدلة على ذلك كثيرة منها اضافة الى ماسبق الاشاره اليه (٣) ماذكره أبو شامة في حوادث سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م من ان السلطان المظفر قطز عندماعزم على مواجهة المغول فيعين جالوت خرجت معه العساكر المصرية ومن انضوى اليهم " من العرب وغيرهم "(٤) وماذكره المقريزى منان السلطان الظاهر بيبرس سير أحد أمرائه سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م ومعه كثير من "أمراء عربان الكرك" لمهاجمة خبير فاستولوا على قلعتها (٥) وكذلك ماذكره ابن عبدالظاهر من ان السلطان المنصور قلاوون عندما عزم على منازلة المغول في معركة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م . أعد للأمر عدته وجمع جيشا ضخما

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٢٣٨ .

٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص ٣٢٠ .

٣) راجع ماسبق . ص ٣٥٤ –

٤) أبو شامه ، الذيل على الروضتين ، ،ص ٢٠٧ .

٥) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٢٠ ، ٥٢١ .

من " المماليك التركمان وبدو الصحراء وعرب الحجاز حتى بلغت عدتهم ثمانين الفا "(١)

ويبدو ان الخدمة الحربية كانت الزامية على هؤلاء العربان ، وان السلطان المملوكي كان يعاملهم معاملة الأمراء المقطعين ، ويطالبهم بتقديم العساكر ومستلزمات القتال وقت الحرب . يدلنا على ذلك ماذكره المقريزى في حوادث سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م من ان السلطان الظاهر بيبرس خلع على أمراء العربان" من العابد وجرم ثعلبه وضمنهم البلاد ، والزمهم القيام بالعداد وشرط عليهم خدمة البريد وإحضار الخيل برسمه "(٢)

والى جانب هذا كله ، كانت هناك فرقة أخرى من فرق الجيش المملوكي أسهمت في جهادهم ضد المغول والصليبيين ، تسمى "أولاد الناس" وقد تكونت من ابناء أمراء المماليك فقط. الذين كانوا عبارة عن جيش احتياطي ، يُدعى الى حمل السلاح وقت الحرب . وفي مقابل ذلك كان لكل منهم اقطاعات معينة أو مبلغ من المال يدفع لهم دفعة واحدة ، أو مرتبا سنويا زادت قيمته تدريجيا حتى بلغ الف درهم في عصر السلطان قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١هـ/١٤٦٨ - ١٤٩٦م) وكانت هذه الأجور تدفع لهم حتى في أيام السلم .(٣)

---

١) ابن عبد الظاهر ،تشريف الأيام والعصور ،ص ٤٤،٤٥ .

٢) المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٨١ ؛ والعداد : زكاة مفروضة للسلطان سنويا على قطعان القبائل العربية والتركمانية (أنظر المقريزى ،المصدر نفسه ،حاشيه رقم ٦).

٣) أنظر المقريزى، المصدر نفسه ،ج١ ،ق٣ ،ص ٦٩٠ ،حاشية المحقق ؛ على ابراهيم حسن ،تاريخ المماليك البحرية ،ص ٣٤٧ .

أساليب التعبئة والقتال

لما كانت الدولة المملوكية قد قامت في ظروف عصيبة ، متمثلة في ذلك الصراع الذى كان دائرا بين القوى الاسلامية والقوى الصليبية ، والذى لم تكد نهايته تقترب ، حتى فوجيء الشرق الاسلامي ،بحركة أخرى أشد هولا وأقسى وقعا هي حملات المغول عليه • فقدكان على سلاطين المماليك الذين وجدوا انفسهم امام خطرين في وقت واحد • ان يهتموا بالحرب وشئونها والسلاح المستخدم فيها •

والواقع ان سلاطين المماليك في جهادهم ضد المغول والصليبيين استخدموا من الاسلحة ماهو كفيل بتحقيق غرضهم الذى كانوا ينشدونه • ويأتي في مقدمتها المنجنيقات، والتي تعتبر أعظم آلات الحصار في العصور الوسطى و قد وصف القلقشندى المنجنيق " بأنه آله من خشب له دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل ، رأسه ثقيل ،وذنبه خفيف ، تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع اسافله الأعلى اعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه "(١)

---

١) القلقشندى ،صبح الأعشى،ج٢ ،ص ١٤٤ ؛ أنظر أيضا ،ابن شداد ،النوادر السلطانية ،ص ٢٦ حاشية ؛ الأسنوى ، طبقات الشافعية ،ج٢،ص ٦١٧ ؛ صبحي الصالح النظم الإسلامية ، ص ٥٠٨ – ٥١٠ •

وقد ذكر الطرسوس في كتابه " تبصرة أرباب الالباب "(١) ان المنجنيقات كانت على ثلاثة أنواع ، هي العربي وهو الذي يمتاز بدقة صناعته وجودة استخدامه . والتركي الذى يعد أقل أنواع المنجنيقات كلفة في صناعته وأرخصها موءونة . أما النوع الثالث فهو الفرنجي وقد وصفها وصفا دقيقا وبين كيفية استخدامها في القتال ، حيث أوضح ان لذلك أمور هامة يجب أن تراعى وان عدم مراعاتها يسبب أخطارا جسيمة لمن يتولى الرمي بها . كما نبه على مراعاة الدقة في وضع الحجر على الكفة ،وان ذلك له آثره في تحديد المسافة التي يصل اليها الحجر . حيث ذكر انه متى كان السهم في لين ليس بالمفرط ، كان لذلك أثره في وصوله إلى مسافة أبعد وكان مفعوله اشد نكاية وأقسى وقعا للهدف المقصود ومتى كان السهم يابسا كان دون ذلك.

---

١) قام الطرسوس بتأليف كتابه المسمى " تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام والعدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء " وأهداه الى صلاح الدين الأيوبي . وقد قام كلود كاهن بنشره في مجلة معهد الدراسات الشرقية بدمشق سنة ١٩٤٧ - ١٩٤٨ م. ولما كانت الدولة المملوكية قد قامت على انقاذ الدولة الأيوبية ، فالذى لاشك فيه ان هذه الأنواع قد أستخدمت في العهد المملوكي . ولعل مما يقوى ذلك ماذكره ابن الفرات في حوادث سنة ٦٩٠هـ من ان السلطان الأشرف خليل نصب على عكا عند استيلائه عليها اثنين وتسعين منجنيقا " ما بين افرنجي وقرابغا وشيطاني" أنظر تاريخ ابن الفرات ،م٨ ، ص ١١٢ . اذ يبدو لنا من هذا ان كلمة قرابغا هنا لفظ تركي ربما قصد به النوع التركي والشيطاني فهو لفظ عربي قصد به النوع العربي .

كماذكر أيضا انه يتعين على الرامي بالمنجنيق أن يباعد بين رجليه ويضبط الكفة بيده ويقعد مع كل جرة بنفسه مع الكفة .(١)

أما بالنسبة لحجم الحجارة التي كانت تقذف بواسطة المنجنيقات فقد وصفها العماد الاصفهاني بانها " مثل قلوب الرجال ووجوههم "(٢) كمايبدو لنا ان هذه الحجارة كانت تختار من النوع " الأملس" يدلنا على ذلك ماذكره ابن فضل الله العمرى في كتابه مسالك الأبصار من ان هذه الحجارة كانت " كالروءوس الملحقة "(٣)

ولم يقتصر عمل المنجنيقات على القذف بالحجارة بل استخدمت في الرمي بسلاح آخر كان للمسلمين دور كبير في استخداماته وتطوير صناعته في العصور الوسطى ، هو سلاح النفط . يدلنا على ذلك ماذكره المقريزى في حوادث سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م عندما حضر ابن اخت ملك النوبة متظلما منه حيث جرد السلطان الظاهر بيبرس معه أحد أمرائه على رأس فرقة حربية ضمت في مجموعها " الزراقون والرماة ورجال الحراريق "(٤) وماذكره أيضا في موضع أخر انه حدث في

---

١) الطرسوس : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٦، ١٧ .

٢) العماد ، الفتح ، ص ٢٥٥ .

٣) العمرى ، مسالك الأبصار ، ج٧ ، ورقة ٢٩٨ .

٤) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٢١ ؛ أنظر أيضا ، ابن الفرات ، م٨ ، ص ٩١ ، ٩٢ .

سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م أن اجتمع الأمراء بدمقله لعرض العساكر وتدريبها على فنون القتال في البر والبحر " وزينت الحراريق في البحر ولعب الزراقون بالنفط "(١)

---

١) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٣، ص ٧٥٢ . يبدو لنا انه كانت هناك فرق متخصصة في جيوش المسلمين في العصور الوسطى مهمتها عمل سلاح النفط والرمي به ، يدلنا على ذلك ماذكره ابن شداد من أن الخليفة العباسي بعث في سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م إلى صلاح الدين حملا من النفط ومعه جماعة من الذين لهم خبرة بهذا السلاح عرفوا "بالنفاطين" (أنظر النوادر السلطانية ص ١١٨ . ولايستبعد ان تكون هذه الفرقة ظلت تمارس عملها هذا حتى في العهد المملوكي. أما الزراقين فقد فسرهم البعض بانهم جماعة مهمتهم رمي النفط من الزراقات التي هي عبارة عن أنابيب خاصة يرسل فيها النفط ، فتنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان ، فتحرق السفن في الماء (أنظر ابن الفرات ، م٤ ، ص ٢١١ حاشية) . كمايبدو لنا أيضا ان كلمة نفاطين كانت تطلق على الذين يعملون بالنفط في الحروب البرية ، أما الزراقين فربما قصد بها أولئك الذين يشتغلون بهذا السلاح في البحر ، ولعل اقتران كلمة النفاطين بالزراقين في بعض المصادر (أنظر ابن شداد ، المصدر نفسه ، ص ١١٨ ، ١٢٠ ؛ أبو شامه كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص ١٥٢ ، عند تطرقهما للحديث عن سلاح النفط خير دليل على ذلك ، هذا بالإضافه الى ماذكره ابن النديم في الفهرست ص ٤٣٧ من أنه رأى بنفسه كتاب يوضح العمل بالنار والنفط والزراقات في الحروب . ودمقله ، مدينة كبيرة في بلاد النوبة (أنظر ياقوت ، معجم البلدان) .

ولم يقتصر استخدام المسلمين لهذا السلاح على الرمي به بواسطة المنجنيقات ، فقد أشار الطرسوسي الى طرق عدة لاستخدامه في القتال فذكر ان منه ماكان يُرمى به من على ظهور الخيل أو بواسطة النشاب (١) ومنه مايوضع في قشر البيض بعد اخراج مافيه ثم يرمى به على الهدف ومنه مايقذف بواسطة قوس عمل خصيصا لذلك وللنفط المعمول في قوارير .(٢) فضلا عن تمكن المسلمين من صناعة نوع خاص منه يستطيع المشي على الماء دون ان ينطفيء مهمته إحراق مراكب العدو .(٣)

أما كيفية صناعته فقد ذكر الطرسوس . ان المسلمين برعوا في صنع أنواع عدة من النفوط ، وان هناك عناصر عدة تدخل في تركيبه . منها الزيوت ،والنورة المطفأة وغير المطفأة ،والنفط والصمغ ، والكبريت وخل الخمر الحاذق ، والقطران ،وشحوم الحيوانات ، ونخالة الحنطة ، وبعض النباتات وغيرها التي كانت تخضع لعمليات كيميائية دلت على براعة المسلمين آنذاك في هذا العلم لانتاج هذا السلاح .(٤) ومن ثم استعماله ضد

---

١) النشاب: النبل وهو سهم مصنوع من الغاب (أنظر ،نبيل عبد العزيز ،خزانة السلاح في الاسلام ،ص ٥٥ .

٢) يبدو ان حملة هذه الأقواس هم الذين كان يطلق عليهم آنذاك الجرخيه جمع جرخي، والجرخ آله حربية كانت تستعمل لرمي، السهام والنفوط والحجارة (أنظر ابن واصل ،مفرج الكروب ،ج٥ ، ص ٩٥ حاشية ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق ٢ ،ص ١٠٣ ، حاشية ؛ أبو شامة ، الروضتين ،ج١ ،ق٢ ،ص ٤٥٧، ٤٥٨ حاشية .

٣) الطرسوس ،تبصرة أرباب الألباب ،ص ٢١ ، ٢٢ .

٤) أنظر الطرسوس ، المصدر نفسه ،ص ٢٠ ـ ٢٣ .

اعدائهم بطرق مذهلة ، إلى حد انهم توصلوا الى طريقة كانوا يلقونه بها مشتعلا حتى وقت سقوط المطر أو اشتداد الريح .(١)

ويبدو ان استعمال المماليك لسلاح النفط في جهادهم ضد المغول والصليبيين ، وتطور صناعته وطرق استخدامه ، قد دفعهم إلى اكتشاف "البارود" الذى ترتب على اختراعه ظهور المدافع أو المكاحل . والتي وصفت على أنها آلة نحاس أو رصاص أوحديد يوضع فيها الحجر أو البندق وهو من الحديد فينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود .(٢)

---

١) عبدالمنعم ماجد ، نظم سلاطين دولة المماليك ،ص ١٧١ ، نقلا عن حسام الدين لاجين الرماح ،عمدة المجاهدين في ترتيب الميادين، ورقة ١٤ب ،١٥أ ؛أحمد عدوان ،العسكرية الاسلامية في العصر المملوكي ،ص ٦٩ .

٢) ظهر البارود لاول مرة علىأيدى المماليك ، وذلك قبل أن يعرفه الغرب ،بدليل ان كلمة بارود انتقلت الى اللغات الاوربيه ، ففي الانجليزية " Powder " وفي الفرنسيه " Poudre " ، ومما يوءكد ايضا انالبارود أول مااستعمل فيمصر ان مادته الأساسية وهي "النطرون" توجد بها (عن النطرون ،أنظر القلقشندى ،صبح الأعشى ،ج٣ ،ص ٤٦٠ ،٤٦١) ولذلك فلاصحة لماذكر من أن الصينيين أو الأوربيين هم الذين اخترعوا سلاح البارود ، بدليل ان المغول الذين سيطروا على الصين لم نسمع عن استخدامهم هذا السلاح في حروبهم ضد المسلمين ، وكذلك الحال بالنسبة للاوربيين (أنظر عبدالمنعم ماجد ،المرجع السابق ،ص ١٧٢) .

ومن الاسلحة التي استخدمها المماليك في جهادهم ، الدبابات التي وُصفت بأنها " آلة سائرة تتخذ من الخشب الثمين ، وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير وتحرك فتنجر ، وربما جعلت برجا من الخشب ، ودبّر فيها هذا التدبير وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر "(١) أما الطرسوس ،فقد اكتفى بمجرد الاشارة اليها عند حديثه عن المنجنيقات بقوله " ومما يضاف الى ذلك (أي المنجنيقات) وان كانت هي ليست منها ، وإنما هي آلة تقرب من هيولاها .(٢) يستعان بها في نقب الاسوار وماشابهها وهي الدبابات "(٣) ويبدو ان استخدامها يكون بادخال الرجال داخلها ، ومن ثم دفعها حتى تقترب من الأسوار والحصون ليقوم من بداخلها بمهمة النقب في حين تقيهم هي شر مايرمون به من فوقهم .(٤)

---

١) الحسن بن عبدالله ،آثار الاول ،ص ١٩٢ ؛ أنظر أيضا ،ابن الفرات، م٤ ،ج٢ ،ص ٧ حاشية ؛ أبو شامه ،الروضتين ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٩٩ حاشية ؛ المقريزى ،اتعاظ الحنفاء ،ج٣ ،ص ٣١٥ حاشية ، الروشيدى ،إمارة الموصل ،ص ١١٥ حاشية ؛ صبحي الصالح النظم الاسلامية ،ص ٥١٠ ، ٥١١ .

٢) يبدو ان الطرطوس ،قصد بهذا التعبير ان الدبابة كانت تشبه الى حد كبير المنجنيقات في تصميمها وشكلها .

٣) الطرسوس ، المصدر نفسه ،ص ١٨ .

٤) عبد الرحمن زكي ، السلاح في الاسلام ، ص ٢٤ .

أما الستائر فهي من أهم معدات الحرب التي استخدمها المسلمون في جهادهم ضد المغول الصليبيين ، وكانوا يتخذونها من الجلود واللبود المبلولة بالخل والشب والنطرون ، لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط كما كانت تستعمل الى جانب ذلك لحماية الأبراج والدبابات المصنوعة من الخشب والسفن من قذائف النفط .(١) ومنها نوع يستخدم ايضا في وقاية الجنود الذين يستعان بهم في جر المنجنيقات وماشابهها .(٢)

ومن وسائل الدفاع التي استخدمها المسلمون للغرض نفسه ، ماعرف باسم المثلثات أو الحسك الشائك ، وهي التي وصفها الطرطوس بقوله " هذه المثلثات من الطف الألات وأبدع المصنوعات ، وأسرعها تأثيرا في النكاية وهي مكيدة تُرمى في الأرض التي تعلم أن العدو يسلكها اليه ويسرع فيها للهجوم عليهم ، فاذا ساحت الخيل عليها ، ووطئت شوكتها القائمة فيها عقرتها أشد عقر ، وأثرت فيها أعظم تأثير فتسقط الخيول بمن عليها ، وتهلك بما اصابها من تلك النكاية" وسلاح الحسك هذا على نوعين منه المثلث الذى هو عبارة عن شوكة قائمة وشوكتين على الأرض ومنه المسدس ويتكون من ثلاث شوكات قائمة ، وثلاث

---

١) ابن واصل ،مفرج الكروب ،ج٢ ،ص٣٠٣ حاشية ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق١ ،ص١٠٢ ، ج١ ،ق٣ ، ص ٧٦٤ حاشية .

٢) أنظر الطرسوس ، تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٨، ١٩ .

ثابتـــــــه علـــى الارض .(١)

ومـــن الأسـلحة التي استخدمها المماليـك فـــــي جهادهـــــم ، القســى بانواعهـــا والتي تحـدث عنهـا ابـــن القيـــم إمـام الجوزيــة في كتابـه (الفروســية) فذكـــر انهـا في الأصـــل نوعـــان : قـــوس يـــد ، وقـــوس رجــــل ، وقـوس اليــد ثلاثـــة أصنـــاف ،عربيـة وفارســية وتركيـــة . والعربيــة نوعــان ، حجازيـة وكانت تصنـع من عـود النبـــع أو الشـوحـط ، وهي قضيـب أو قضيبــان ، ويسمونـها " شريحيـــة " ومنهـا ماهـو من فـرع واحـد وهي أجودهـا . وواسطية وهي مصنوعـــة من أربعـة اشـيـاء ، الخشـب ،والعقـب ، والقـرن ، والغـراء. ولهـــا سـيتـان ومقبـض ،وسـميت واسطية لتوسطها من القسى الحجاريـــة والفارســـية ، وليسـت نسـبة الى مدينـة واسـط ، لأنـها كانـــت موجـودة قبل بنـاء واسـط ، وتسـميها العرب " منفصلة " لانفصـــال أجزائهـا قبل التركيــب ، وهي أجود القســي عندهم ،وتحت هذين النوعيـن أصنـاف كثيره تجـاوز العشـــرة .

---

١) الطرسـوس ،تبصرة أربـاب الألبـاب ، ص ١٩ ،٢٠ ؛ كان المسلمون فـي أول أمرهم يصنعـون هذا السلاح من حسك السعدان وهو شـــوك صلب ذو ثلاث شعب تنتشـر منه شـعبتـان على الأرض وتبقى الثالثة بـارزة لتعطب بها حوافـر الخيـل وأقدام العدو المغير . ويبدو ان المسلمين طوروا صناعة هذا السـلاح فيما بعد من أصابـــع حديديـة مدببة ذوات شعب ثلاث وبثـوه حول الخـــــادق والأسـوار وفي الطرق التي يسلكها العـدو ليمنع تقـــدم الخيـل والرجال (أنظـر صبحي الصالح ،النظم الاسلاميـــة ، ص ٥٠٢).

أمـا الفارسـية والتركية فقد اكتفى ابن القيم الى مجرد الإشارة اليها بقوله " والقوس الفارسية فهي قسي العساكر الاسلامية في هذا الزمان في الشام ومصر ومايضاف اليهما "(١) واما القسى التركية ،فهي مثل قسى الفرس ، غير انها اغلظ منها وكثير منها بل أكثرها له قفل ومفتاح وتسمى الأنثي والذكر ، ويجعلون لها ركابا في طرف مجراها ، فاذا أراد أحدهم أن يوترها أدخل رجله في ركابها فأوثرها " ٠

وأما قوس الرجل فذكر انهما نوعان أحدهما هذه التركية ، والثاني قوس الجرخ ، وهي قوس لهنا جوزة ، وأن أهل المغرب يعتنون بها كثيرا ويفضلونها ٠ ويستطرد ابن القيم في المفاضلة بين هذين النوعين ، فيذكر ان قوس اليد أنفع في وقت مصافة الجيوش ، وملاقاة العدو في الصحراء ٠، واما قوس الرجل فأنفع وقت حصار القلاع والحصون ،ثم وصف كيفية استخدامها وصفا مفصلا ٠(٢)

ومن القسى التي استخدمها المسلمون في العصور الوسطى نوع اخر عرف باسم " الزنبوركات " يدلنا على ذلك ماذكره ابن الاثير عند حديثه عن فتح حصن صهيون سنة ٥٨٤/١١٨٨م ٠ اذ يقول "ودام رشق السهام من قسى اليد والجرخ والزنبورك والزيار "(٣) اذ

---

١) يبدو ان ابن القيم قصد بهذا دولة المماليك نفسها ،بدليل انه عاش في القرن الثامن الهجرى ، حيث انه توفى سنة سنة ٧٥١ هـ ٠

٢) انظر ابن القيم امام الجوزية ، الفروسية ،ص ١٣٩ ومابعدها ٠

٣) ابن الأثير ،الكامل ،ج١٢ ،ص ١١ ٠

ورد ذكر الزنبورك والجرخ هنا على أنهما نوع من أنواع القسي ،وجاء في العماد " وتوتير الجروخ والزنبوركات"(١) فالتوتير لايكون الا للقوس كما جاء في الروضين أيضا " ومراكب وحراريق وفيها رماة الجروخ والزنبوركات "(٢) لهذا كان المقصود بها القسي لا السهام بدليل قول ابن شداد " واطلقوا (أي المسلمين) عليهم سهام الجروخ وأحجار المنجنيق"(٣) فالحجر يطلق من المنجنيق ، والسهم يطلق من القوس .

ومما يمكن الحاقه بالقسي المقلاع أو المحذفة ويعد أبسط أنواع الألات القاذفة ، يستعان فيها بقوة الطرد المركزية ، وذلك يجعل القذف في طرفها بين حبلين يجمعان في يد القاذف من الطرف الثاني فيديرها ثم يخلي أحد الطرفين فينبعث المقذوف بعيدا .(٤) ويبدو ان المسلمين استخدموا المقلاع في جهادهم ضد المغول والصليبيين لقذف أعدائهم بقوارير النفط لإحراق منشآتهم ، يدلنا على ذلك ماذكره المؤرخ الصليبي المعاصر جوانفيل في مذكراته حيث قال " حدث ذات ليلة من ليالي حراستنا الأبراج المغلقة أن جلب المسلمون آلة تعرف بالمقلاع لم تكن لديهم من قبل ذلك الحين ، ووضعوا النار الاغريقية في حمالة الآلة ..... فلما أخذوا في اطلاق النار انطرحنا أرضا على معاصمنا...

---

١) العماد ، الفتح ،ص ٣٤٥ .

٢) أبو شامة ، الروضتين ،ج٢ ،ص ١١٩ .

٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ،ص ١١٨ .

٤) عبد الرحمن زكي ، الجيش المصرى في العصر الاسلامي ، ص .

وكانت النار الاغريقية تأتي من الأمام أشبه ماتكون ببرميل من القار ذات ذنب يقارب الرمح طولا ، يصحبها صوت هائل كدوى الرعد ، وكأنها طائر في الجو ، تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شيء كأنه في وضح النهار ...... (١)

ويبدو ان هذا السلاح الذى استخدمه المسلمون في القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى شبيه بالقنابل "الفسفورية" المضيئة التي تضيء ساحات القتال ، والتي تستخدمها الجيوش المتحاربة في عصرنا الحاضر . وهذا معناه ان المسلمين قد توصلوا الى ابتكار هذا النوع من السلاح منذ أكثر من ثمانية قرون مضت .

ومن الآلات الحربية التي استعان بها المماليك في جهادهم ضد المغول والصليبيين ، أبراج الحصار أو القلاع المتحركة التي كانت تصنع من الخشب المتين وتغطى بالحديد والجلد ، وكان الغرض منها الاقتراب من حصون العدو وأسواره لا قتحامها ، ولقذف السهام والأحجار أو غيرها من القذائف الى الداخل وغالبا كان البرج يجر على عجلات خشبية أوحديدية أو يدفع على اسطوانات ، ويتألف البرج من عدة أدوار يعلو بعضها بعضا ويوصل اليها بدرج من الداخل ، وينتهي البرج بقنطرة خشبية يمكن القاؤها على جدار الحصن أو السور ليجرى عليها المقاتلون عند الاقتحام (٢) ولعل هذا شبيه

---

١) أنظر ،جوانفيل ، القديس لويس ،ص ١٠٩ ، ١١٠ ،ترجمة حسن حبشي .

٢) عبد الرحمن زكي، الجيش المصرى ،ص ٩٤ ؛ أنظر أيضا ،على ابراهيم حسن ،تاريخ المماليك البحرية ،ص ٣٥٩ .

بعمليات الإنزال العسكري في عصرنا الحاضر .

ومنها أيضا الكبش(١) : وهو آلة من الخشب والحديد ، تجر بنوع من الحبال ،وتستعمل لدق الحائط حتى ينهدم ، وأصل الكبش عبارة عن دبابة له رأس في مقدمه مثل رأس الكبش ويتصل هذا الرأس في داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال تجري على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها . ويتعاون الجنود الذين يتحصنون في داخل الدبابة وجنود آخرون استتروا بدروعها ووقفوا خلفها ، ليتعاون هؤلاء جميعا على ضرب السور بها حتى يخرقوه ، فيتسللون الى داخل البرج أو القلعة(١)

والى جانب ذلك فقد استخدم المماليك فيجهادهم أنواعا أخرى من الأسلحة الخفيفة التي يكون القتال بها وجها لوجه ، مثل السيوف ، التي ذكر الطرسوس ان معادنها وأنواعها تختلف باختلاف البلدان التي توجد فيها ،وان منها ماكان يصنع ببلاد المغرب والأندلس وبلاد الروم والهند والصين وديار مصر ، كما ذكر ان اردأ أنواع السيوف ماكان بالمغرب والأندلس ، أما أجودها فهو ماكان يصنع بمصر.(٢) والسيف سلاح ذو حد يضرب به باليد وهو أنبل الأسلحة البيضاء والتي قدر حقها المسلمون . ومن قبلهم العرب في جاهليتهم .(٣) وشاع استعمال السيف المستقيم الى حوالي القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، ثم بدأ استعمال السيف المقوس ذى النصل الواحد ، وكانت تنقش على نصل السيوف آيات

---

١) [handwritten footnote, illegible]

٢) أنظر الطرسوس ،تبصرة أرباب الألباب ، ص ٤٠

٣) عبد الرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ،ص ٣٣ .

قرآنيه أو عبارات تشيد بصولتها ، كماحفرت على بعضها الزخارف الطريفة .(١)

ومن الأسلحة الخفيفة أيضا الرماح التي تعد من أهم الأسلحة التي تستخدم من فوق ظهور الجياد.(٢)وهي على أنواع منها الأصم القصير وهو أحسنها طعنا، ومنها نوع اخر يشق نصفين ويجوف جميعه تجويفا تمشي فيه النشاب وهذا النوع يستخدم كالقوس لرمي السهام.(٣) ولرأس الرمح أشكال شتى ، منها المشعب والعريض والرفيع والمموجوغير ذلك وكان يطلق على القصيرة منها " مربعا " وعلى الطويلة "الطوال" ويسمى الرمح ايضا "القناه " ويقال لحامله "رماح" • ومما يمكن الحاقه بها الحربة وهي عبارة عن رمح قصير سهل حمله واستخدامه .(٤)

ومن الاسلحة الهجومية الي استخدمها المماليك الدبوس وهو عبارة عن آلة من حديد في طرفها كتلة صغيرة يحملها الفرسان في السروج تحت أرجلهم لاستخدامها في تهشيم الخوذ المعدنية .(٥) ومنها أيضا " الطبر" وهو آلة تشبه الفأس وله رأس نصف مستدير ويركب في قضيب من حديد أو خشب متين وكانت تحفر عليه النقوش الإسلامية أو العبارات الدينية وكان حملتها يسمون " الطبردارية"

---

١) عبد الرحمن زكي ، الجيش المصرى ،ص ٩١ •

٢) عبد الرحمن زكي ، السلاح في الاسلام ،ص ٢٨ •

٣) انظر تفصيل ذلك في الطرسوس ،تبصرة أرباب الألباب ،ص ١٠ – ١١•

٤) عبد الرحمن زكي ، الجيش المصرى ،ص ٨٨ •

٥) عبد الرحمن زكي ، السلاح في الاسلام ، ص ٢٦ •

وتستخدم غالبا لحماية السلطان حيث يسير حملتها حوله لضرب من يجرأ على التقدم نحوه دون إذن وعددهم عشرة وأميرهم يسمى " أميرطبر" وبمتحف فينا لتاريخ الفنون طبر للسلطان المملوكي قايتباى .(١)

أما الأسلحة الدفاعية التي استخدمها المماليك في جهادهم، فمنها الدروع وهي عبارة عن أثواب منسوجة من زرد الحديد تلبس في الحرب ،وشكلها ضيق تلبس على الجسم ،لها أكمام قصيرة تصل إلى منتصف الذراع ، وجرت العادة بأن يلبس المحارب ثوبا من النسيج المبطن يكون أشبه بوسادة تحت حلقات المعدن أو صفائحه الرقيقه . ويتكون الدرع الكامل من الجوشن وهو الجزء الذى يقي الصدر ، والبيضة او الخوذة أو المغفر وهي الأجزاء التي تقي الرأس ثم أجزاء أخرى تقي الساقين والساعدين والكفين .(٢) وقد وصلت صناعة الدروع الى أوجها عند المسلمين أثناء الحروب الصليبية ومن ثم نقلت صناعتها إلى أوربا بواسطة الصليبيين . ولاتزال بعض الخوذ المصرية التي تنسب الى سلاطين وأمراء المماليك محفوظة بمتاحفها ، منها على سبيل المثال لا الحصر خوذة نقش عليها اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمتحف "بورت دى هال" ببروكسل ، وأخرى للسلطان برسباى (١٤٢٢ - ١٤٣٨) نقش عليها اسمه بمتحف اللوفر بباريس .(٣)

---

١) أنظر عبد الرحمن زكي ، الجيش المصرى ،ص ٨٩ ، ٩٠ .

٢) عبد الرحمن زكي ، السلاح في الاسلام ،ص ٢٦، ٢٧ .

٣) انظرعبد الرحمن زكي ، الجيش المصرى ،ص ٩٢ ، ٩٣ .

ويشبه الدروع التراس وهي من أهم معدات الحرب الدفاعية في العصر المملوكي وكانت تصنع من الحديد ومن الخشب والجيد ،ومن الجلود المكسوة بالدهون والأصباغ يتقي بها المحارب الضرب والرمي ، وقد أشار الطرسوس عند حديثه عنها إلى انها على أنواع عدة منها المدور وهي التراس ،ومنها الطوارق وهي التي وصفها بأنها " آلة مستطالة الى ان تستر الفارس والراجل ،وتبدأ مدوره ثمتجتمع أولا الى أن ينتهي آخرها الى نقطة محدوده كروءوس المعاول" أما النوع الثالث من هذه التراس فهي الجنديات والتي وصفها الطرطوس أيضا بقوله " وهي كالطوارق الا انها غير محدودة الأواخر، بل مقطوعة لتقف على رآس الأرض وهي التي تزحف بها الرجالة للقتال وتكون للصف كالحصن المانع من النبال"(١) وقد تفنن المسلمون في صنع هذه التراس ونقشوا عليها الآيات القرآنية والحكم والعبارات الطريفة ،وتميزت تراس كل بلد بشكل خاص وعرفت باسمه ، فكان منها الترس الدمشقي والعراقي والغرناطي وغيرها .(٢)

والى جانب ماذكر من الأسلحة التي استخدمها المماليك في جهادهم ضد المغول والصليبيين، استخدموا اسلحة اخرى خاصة بنقب الأسوار وطم الخنادق ،وهي التي عرفت بعدد النقوب ، منها القطاعة وهي عبارة عن مطرقة تستعمل لقطع

---

١) انظر الطرسوس ،تبصرة أرباب الألباب ،ص ١٢.

٢) عبد الرحمن زكي ، الجيش المصرى ،ص ٩٣ .

الصخر أو هدم البناء [1] هذا فضلا عماهو مشهور من هذه العدد كالمساحي وماشابهها .[2]

وكانت هذه الأسلحة على اختلاف انواعها تحفظ في دار أطلق عليها "الزردخاناه" أو السلاح خاناه" ومعناها بيت السلاح ،وقد أفرد لهذه الدار في قلعة الجبل عدة قاعات خصكل منها لنوعمعين منهذه الاسلحة ، ويرأسها أمير أطلق عليه اسم " أمير سلاح" ويعاونه عدد من الموظفين عرفوا باسم " السلاح دارية" وكان يشتغل فيهذه الدار جماعة من الصناع المهرة يختصكل منهم بنوع من أنواع السلاح، يعهد اليهم بأمر صنعه ومهمة إصلاحه اذا أصابه تلف ، وكان عمل هؤلاء الصناع مستمرا سواء كانت البلاد في حالة حرب أو في حالة سلم . وكان لكل أمير من الأمراء زردخاناه خاصة به وبجنوده ولكنها لم تكن مثل زردخاناة السلطان بالقلعة ،بل صورة مصغرة منها .[3]

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٢٢٦ ؛عبدالرحمن زكي ، السلاح في الاسلام ، ص ٤٥ .

٢) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٢ ،ص ٤٤٧ ؛ ابن الفرات ، م٤ ، ج٢ ،ص ٨٠ .

٣) القلقشندى ،صبح الأعشى ،ج٤ ،ص ١١ ،١٢ ؛ ج٥ ،ص ٤٦٢ ؛ أنظر أيضا ، ابن شاهين ،زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ٢٢ ؛ المقريزى السلوك ،ج١ ،ق ٣ ، ص ٧٤٧ حاشية ؛ على ابراهيم حسن ،تاريخ المماليك البحرية ،ص ٣٥٩ ،٣٦٠ ؛ عبدالمنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، ص ١٧٠ ؛ أحمد عدوان ، العسكرية الإسلامية ،في العصر المملوكي ،ص ٩١ .

ومن هذا يبدو لنا ان السلطان المملوكي كان يقوم بتوزيع الموءن والعتاد على العسكر السلطاني الذى كان ملازما له في كل الأوقات من زردخاناه قلعة الجبل، أما بالنسبة لعساكر الأمراء ، فكانوا يحصلون على موءنهم وعتادهم من الزردخاناه التي كانت توجد في حاضرة إقطاعاتهم .

اما عن أساليب القتال في الجيش المملوكي ، فان تناولها يدفعنا في البداية الى الحديث عن التعبئة العامة ،وهي في الحقيقة لم تكن تختلف عما سبقها من العهود الإسلامية ، اذ كان الجيش يتألف من عسكر المقدمة ، ثم عسكر القلب حيث يكون السلطان بجنوده ، ثم عسكرا آخر من ناحية اليمين عن موقف السلطان وعلى سمته يسمى الميمنة ، وعسكر آخر من ناحية الشمال ويدعى الميسرة ، ثم فرقة أخرى من وراء العسكر كله تدعى الساقة ، وهذه هي الأصول التي أجمع عليها في ترتيب جيوش المسلمين " وتلك الأصول في نظرهم كالفروض الواجبة ، أما الفروع كالطلائع والكمناء ، فهي كالنوافل غير الواجبة لاختلافهم فيها "(١)

والتعبئة على هذه الصورة ، معناها ان يقف كل عسكر في موضعه ،ويعرف كل أمير منزلته استعدادا للزحف على العدو بحيث تقف الميمنة في مقابلة ميسرة العدو ، والميسرة في مقابل ميمنته ، وتنقسم كذلك كل من الميمنة والميسرة الى جناحين أيمن وأيسر ، وبالمثل القلب فيقال

---

١) أنظر الطرسوس ، تبصرة أرباب الألباب ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

الذراع الأيمن للقلب ، والذراع الأيسر للقلب ،وتتكون المؤخره من المطبخ والخزينة ، والفائض من الخيول والأسرى والجرحي وتنطبق هذه الصوره على سبيل المثال لا الحصر على ماذكرته الروايات المعاصرة عن التعبئة العامة في معركة حمص التي وقعت في سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م بين السلطان المملوكي المنصور قلاوون والمغول عندما هاجم المغول مدن الشام الشمالية في هذه السنة .(١)

وكان السلطان المملوكي يقوم بتعيين قائد مستقل لكل فرقة من هذه الفرق أطلق عليه المقدم فيقال مقدم المقدمة ، ومقدم الميمنة ، ومقدم الميسرة ،ومقدم الساقة أما القلب فقد جرت العادة بأن تكون امرته لنسلطان المملوكي نفسه ، ويحاط بالأطباء والفلكيين والعلماء والأخصاء ورماة المزاريق المهرة ويقف معه حاملوا العلم وأصحاب الكوسات .(٢)

والى جانب ذلك كان السلطان يدور بنفسه يوم المعركة بين صفوف الجيش ، يتفقدهم ويحثهم على الجهاد في سبيل الله ،

---

١) عن تفصيل هذه المعركة أنظر الفصل الرابع .

٢) أنظر على سبيل المثال أحداث المعركة نفسها ؛ والكوسات عرفها القلقشندى في كتابه صبح الأعشى ، ج٤ ،ص ٩ ؛ بأنها عبارة عن صنوجات من نحاس تشبه الترس ،يدق بأحداهما على الآخر بايقاع مخصوص ويصاحب ذلك طبول وشبابه ، أنظر أيضا ،ابن نظيف الحموى ، التاريخ المنصورى ، ص ١٥٣ حاشية .

ويعدهم الثواب من الله ويحذرهم من التواني عنه ، يدلنا على ذلك موقف السلطان المظفر قطز من بعض أمراء المماليك الذين ترددوا بادئ الأمر في الخروج للقاء المغول في معركة عين جالوت ، حيث خاطبهم بقوله " يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون، وانا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته ، فان الله مطلع عليه "(١)

وجرت العادة ان يسبق المعارك في العهد المملوكي حركة استكشاف يقوم بها طائفة من الجيش المملوكي عرفت باسم اليزك أو الطلائع أو الكشافة يمرن أفرادها على تقصي أخبار العدو ومعرفة خططه الحربية وحجم استعداداته . وقد يعهد الى هذه الطائفة بمهمة مناوشة العدو لاستدراجه الى معسكر المسلمين ، والأدله على ذلك كثيرة لعل أهمها تلك الطلائع التي قادها الأمير ركن الدين بيبرس سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م لاستطلاع أخبار المغول واستدراجهم إلى عين جالوت .(٢) ومنها أيضا ماحدث سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م عندما هاجم السلطان بيبرس عكا في هذه السنة حيث أقام يزكه على باب عكا لاستطلاع أخبار الصليبيين ورصد تحركاتهم في الوقت الذى فرق عسكره على البساتين والأبنية التي بظاهرها ،وظل اليزك على ذلك الحال مدة أربعة أيام " حتى تكامل الإحراق والهدموقطع الأشجار "(٣) كما حدث أيضا في

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١،ق٢ ،ص ٤٢٩ .

٢) راجع ماسبق في الفصل الثاني ، اليزك لفظ فارسي معناه طليعة الجيش (أنظر ابن الأثير ، التاريخ الباهر ،ص ١١٧ حاشية ؛ وفي الحوادث الجامعه لابن الفوطي ،ص ٩ ٢ حاشيه رقم ٢ " اليزك عند الترك كالسرية عند العرب .

٣) المقريزى ، المصدر نفسه ،ج١،ق٢ ،ص ٥٥٩ .

سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م أن خرج السلطان الظاهر بيبرس من ظاهر حماة من غير ان يعلم أحد مقصده ، وسار على طريق حلب ، ثم عبر على شيزر ، وأصبح على حمص ، وتوجه منها إلى حصن الأكراد وحصن عكا وكشف أمورهما استعدادا لمهاجمة الصليبيين بهما .(١) كما يذكر ابن عبد الظاهر انه حدث في سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ان حسام الدين نائب السلطان المنصور قلاوون بالشام لما توالت الأخبار اليه بقصد المغول الرحبة ، سيّر جماعة من الكشافة لاستطلاع أخبار العدو في تلك المنطقة .(٢)

أما وضع الخطط العسكرية ، فقد وضع سلاطين المماليك لإقرارها والإشراف عليها مجلس مشورة ينعقد كلما دعت الضرورة لانعقاده ، وكان هذا المجلس يجتمع برئاسة السلطان وكبار الأمراء ، ويحضره الخليفة وقضاة المذاهب الاربعة ومشائخ العلماء وذلك قبل الخروج للجهاد ، بغرض التشاور ووضع خطط القتال وتحديد وقته وأخذ رأى القضاه والفقهاء في مشروعيته .(٣)

والذى لاشك فيه ان السلطان المملوكي كان يعطي أعضاء المجلس حرية الرأى في صراحة تامه ، وكثيرا ما أخذ برأى أعضائه في كثير

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٩٩ .

٢) ابن عبد الظاهر ،تشريف الأيام والعصور ،ص ١٤٦ .

٣) عن مشروعية القتال أنظر (محمد بن ناصر الجعوان ، القتال في الاسلام واحكامه وتشريعاته ، ص ١٨ ومابعدها) .

من الأمور ، وان كان من المقطوع به ان وجود السلطان كرئيس لهذا المجلس كان يخوله السيطرة عليه ، ولم يحدث مطلقا ان علا صوت أحد الاعضاء الآخرين وانفردوا بالمناقشة دونهم. والأدلة على ذلك من الروايات المعاصرة كثيرة ، منها ماحدث سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م عندما تواترت الأخبار بعبور المغول الفرات وقصدهم البلاد الشامية حيث جمع الأتابك قطز الأمراء وشاورهم في الأمر ، فاشاروا عليه بعقد مجلس مشورة ، فجمع القضاه ومشائخ العلم والأعيان ، وكان المشار اليه في المجالس شيخ الإسلام عز الدين بن عبدالسلام . الذى أفتى بجواز جمع الأموال من الأغنياء والتجار، بشرط أن لايبقى في بيت المال شيء من السروج والذهب والفضة وغيرها ، فاجمعوا على ذلك .(١) وكذلك ماحدث سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م عندما وصل الخبر الى السلطان الظاهر بيبرس من البلاد الشامية بأن عدة من التتار ومن الاتراك والبغاددة ، قصدوا البلاد مستأمنين فأمر بجمع الأمراء وأعلمهم بذلك وقال " أخشى أن يكون في مجيئهم منكل جهه مايستراب منه والرأى أن نخرج اليهم فان كانوا طائعين عاملناهم بماينبغي ، والا فنكون على أهبة "(٢) وكذلك ماحدث سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م عندما بلغ السلطان حركة التتار على بلاد الشام وانهم تواعدوا مع الصليبيين بالساحل حيث استشار السلطان الأمراء في توجهه اليهم " جريدة "

---

١) ابن إياس ، بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

٢) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق ٢ ص ٥١٥ .

فاشاروا عليه بأن يخرجوا هم قبله ويبقى السلطان بقلعته .(١) وفي سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م استقبل السلطان الظاهربيبرس بدمشق عددا من أمراء الروم فاكرمهم وكتب إلى الأمراء يستشيرهم في تسيير عسكر إلى بلاد الروم .(٢) وفي سنة ٦٧٦هـ /١٢٧٧م تواترت الأخبار الى السلطان الظاهر بيبرس بأن أبغا – خان مغول فارس – وصل إلى الابلستين عقب هزيمة جيوشه بها ونظر الى مكان المعركة وتأسف على من قتل من المغول وأمر بقتل ا.للبرواناه ،وانه عزم على قصد بلاد الشام . فأمر السلطان بجمع الأمراء ، وضرب مشورة ، واتفق معهم على ملاقاته " حيث كان"(٣) وفي سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م خرج السلطان المنصور قلاوون قاصدا الشام ، وسار حتى نزل الروحاء ، وأقام قبالة عكا ،فراسله الصليبيون من عكا في تجديد الهدنة التي كانت معقودة معهم ، لانقضاء مدتها ، فأحضر الأمراء واستشارهم فحصل الاتفاق على تجديد الهدنة مع الصليبيين .(٤)

---

١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٣٦١ ؛ والجريدة : الفرقة من العسكر الخيالة لارجالة فيها . وقد تستعمل ويراد بها سير السلطان على وجه السرعة دون حشد أو أثقال (أنظر ابن نظيف الحموى ، التاريخ المنصورى ، ص ٤٨ حاشية ؛ أبو شامه كتاب الروضتين ،ج١ ،ق ٢ ، ص ٤٧٨ ؛ نبيل محمد محمد عبد العزيز ،الخيل ورياضتها في عهد سلاطين المماليك ص ١٦٥ .

٢) المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٢ ،ص ٦٢٥ .

٣) ابنكثير ،البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص ٢٧٤ ؛ ابن الفرات، م٧ ،ص ٨٠ .

٤) ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ٣٠٠ ؛ والروحاء من عمل الساحل (أنظر ابن تغرى بردى ،المصدرنفسه) .

والى جانب نظام المشورة ،اتبع سلاطين المماليك اساليب أخرى كان لها الأثر الكبير في إحكام خططهم العسكرية ، منها استغلال المعلومات التي كانت تصلهم من معسكرات العدو ، اما بواسطة الطلائع أو اليزك - كماسبق ان اشرنا - واما بواسطة الجواسيس أوالعيون التي كان السلطان المملوكي حريصا على بثها في معسكرات الاعداء لكشف خططهم ومعرفة مواطن الضعف في صوفهم • من ذلك ماذكره ابن عبدالظاهر من ان السلطان الظاهر بيبرس كتب في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م الى بعض نوابه على حدود العراق ، يعرفهم بماوصلت به الأخبار عن هولاكو في البر والبحر من كسر بركة له "مرة بعد مرة" (١) وكذلك ماحدث عندما حضر رسل عكا الى السلطان المنصور قلاوون بعد وفاة السلطان بيبرس سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م ، يسألونه استمرار الهدنة على ماكانت عليه في الأيام الظاهرية اذ اتفق اثناء موافقة السلطان قلاوون على طلبهم أن كتب اليه جواسيسه بها يخبرونه بانجماعة من الصليبيين قتلوا جماعة من المسلمين فكتب السلطان اليهم مستجليا الأمر •(٢) ومنه أيضا ماذكره المقريزى في حوادث سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م من ان الأمير شمس الدين بهادر بن الملك فرج الذى كان في أول أمره "أمير طشت" السلطان جلال الدين خوارزمشاه • وبعد وفاته ملك قلعة كيران وعدة قلاع من ناحية نقجوان ، ثم وصل بعد ذلك الى بلاد سلاجقة الروم فاقطع بها " ناحية أقصرا" كان بهادر ابنه

---

١) ابن عبدالظاهر ،الروض الزاهر ، ص ١٤٩ •

٢) انظر شافع بن على ،حسن المناقب السرية ، ص ١٣٨ •

بكاتب السلطان بيبرس ويتقرب إليه بإعلامه بحقيقة أخبار المغول . وذلك قبل فراره من معسكرهم إلى السلطان بيبرس.(١) ومنه أيضا ماذكره اليونيني في ترجمته للأمير سيف الدين بلبان بن عبدالله الرومي ، الذى كان من أعيان أمراء السلطان المنصور قلاوون يعتمد عليه ويثق به ، وهو المطلع على أسراره وتدبير أمور " القصاد والجواسيس والمكاتبات"(٢)

كما يبدوا ان سلاطين المماليك ساروا على نهج من سبقهم في استخدام الحمام الهوادى ، وذلك كوسيلة للاتصال بجيوشهم التي كانت تتعرض للحصار والتضييق عليها من جانب الأعداء ، لمعرفة أحوالهم ، ومن ثم تنسيق الخطط العسكرية معهم . ولعل مايوءيد ذلك ماذكره ابن إياس من ان السلطان الظاهر بيبرس رتب في سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م " خيل البريد" وهي عباره عن مراكز بين القاهرة ودمشق فيها خيول

---

١) المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق ٢ ، ص ٦١١؛ أمير طشت أو الطشت دار ،ماخود من الطشت وهو ماتغسل به الأيدى والثياب في الأصل . وصاحب هذه المهنة مسئول عن لباس سيده وفرشه (أنظر القلقشندى ،صبح الأعشي ،ج٤ ، ص ١٠ ؛ شافع بن علي حسن المناقب السرية ،ص ٥٧ حاشية المحقق .

٢) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ، م٤ ، ص ١٠٦، ١٠٧ .

جيدة ومعها ريجال يعرفون"بالسواقين"[١] اذ لايستبعد ان هذه المراكز كانت بها محطات لاستقبال الرسائل عن طريق هذا النوع من الحمام .

أما عن التنظيم في القتال فقد اتبع سلاطين المماليك في معاركهم أساليب كثيرة ومتنوعة، ففي المعارك المكشوفة التي كانت جيوشهم تشتبك مع عدوهم وجها لوجه وهو ماكان يعرف بالمصاف .[٢] كانوا يقسمون به جيشهم الى تعبئة قتالية تتألف من المقدمة والقلب ،والميمنة والميسرة والساقة ، ويجعلون ميمنتهم مقابل ميسرة العدو ، وميسرتهم مقابل ميمنته . وعند بدء القتال يكتفي السلطان بمنازلة العدو بأحد الجناحين ، على حين يظل الجناح الآخر على أهبة الاستعداد يتقدم للقتال متى أصاب الأول الوهن او أعياه الضعف أما القلب فوظيفته امداد جناحيه بالأطلاب اذا ما أصابها خلل في حين تقوم المؤخره بامداد

---

١) أنظر ابن إياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ٣٣١ ، ٣٣٢ ؛ والحمام الهوادى ، هو الحمام الزاجل ، أو حمام الرسائل ، وأطلق هذا الاسم على هذا النوع من الحمام لحمله صغار الرسائل ، وقيل إن اسم ورقاء بالعربية أطلق في الأصل على هذا النوع من الحمام ، لحمله ورق الرسائل ، وهو مشهور بسرعة الطيران (أنظر نظير حسان سعداوى ،نظام البريد في الدولة الإسلامية ، ص ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٢).

٢) المصاف : جمع مصف وهو الموقف في الحرب والاصطفاف للقتال (أنظر أبو شامة ،كتاب الروضتين ، ج١ ،ق٢ ، ص ٦١٦ حاشية).

جميع الفرق بالأسلحة والخيل والموئن .(١)

ولايقتصر موقف السلطان في المعركة على القلب بل يطوف على الفرق جميعا يحثهم على الجهاد ويحبب لهم الاستشهاد في سبيل الله ، واذا ماأشتد القتال طاف بين الصفوف من الميمنة الى الميسرة ،يدعو الأطلاب الى التقدم والتمركز في مواقع يعينها لهم ، وذلك على ضوء المعلومات التي تصله عن طريق طلائعه أو جواسيسه والتي توضح له نقاط الضعف في صفوف العدو . ولعل خير دليل على ذلك ماذكرته الروايات المعاصرة من ان السلطان المظفر قطز ركب بنفسه وطاف بين صفوف جيشه في معركة عين جالوت مرددا بعض الصيحات الجهادية التي كان لها الدور الكبير في استبسال قواته في جهاد الأعداء حتى تحقق لهم ذلك النصر العظيم الذى غير موازين القوى في العصور الوسطى .(٢)

ومن اساليب القتال التي اتبعها سلاطين المماليك في جهادهم ، الحرب الخاطفة ومباغتة العدو، من ذلك ماذكره اليونيني من ان السلطان الظاهر بيبرس خرج من مصر سنة ٦٦٤هـ ١٢٦٥م قاصدا صفد ،وسار حتى نزل عين جالوت ، ومنها بعث

---

١) راجع ماسبق ، ص ٤٢٦ ؛ والأطلاب جمع طلب وهو الكتيبة من الجيش ومعناه الأصلى ، الأمير الذى يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، وأطلق أيضا على قائد المائة أو السبعين . (أنظر أبو شامه ، كتاب الورضتين ،ج١ ،ق٢ ،ص ٦١٤، حاشية).

٢) راجع ماسبق في الفصل الثاني .

فرقتين من عسكره للإغارة على الساحل فأغاروا على عكا وصور وعرقد وطرابلس وجلبا وحصن الاكراد في يوم واحد.(١)

كما استخدموا الجانب ذلك أسلوب الكر والفر ، ففي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م جرد السلطان الظاهر بيبرس جماعه من العسكر صحبة الأمير شمس الدين سنقر الرومي للإغارة على أنطاكية ، فأغاروا عليها وعادوا عنها محملين بالغنائم .(٢) وفي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م جرد السلطان نفسه جماعة أخرى من عسكره ورسم لهم الإغارة على " بلاد الفرنج فساقوا وكسبوا وعادوا سالمين"(٣)

ولم تقتصر اساليب سلاطين المماليك القتالية على ذلك ، بل استخدموا أساليب أخرى متعددة منها أسلوب التمويه والخداع منه ماذكره الحريرى من ان عساكر الإسلام أغارت في سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م على أعمال صور وطرابلس ، ثم نزلوا على صفد ، وحاصروا الصليبيين بها أربعين يوما وأخذت " بالخديعة "(٤)

كما عمل المماليك على بث سراياهم أو"الغيّارة" في معسكرات العدو وممتلكاته لإضعافها بالنهب والسلب والتخريب ،

---

١) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٢ ،ص ٣٣٧ ؛ أنظر أيضا ، ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٢٨١ .

٢) شافع بن على ،حسن المناقب ،ص ٥٠ – ٥١ .

٣) ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه ،ص ١٢٠ .

٤) الحريرى ، الإعلام والتبيين ،ورقة ١٤١ب ؛ أنظر أيضا ، الذهبي ، العبر ،ج٥ ،ص ٢٧٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣ ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

من ذلك ماذكره ابن عبدالظاهر في الروض الزاهر ،من ان الغيّارة توجهت في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م من البيرة الجهة كركر ، فاحرقوا بلدها وأخذوا مواشيها .(١) وماذكره أيضا في تشريف الايام والعصور ، من ان الأخبار وردت من حلب بأن الغيّارة توجهت الى بلاد الروم ، وكانوا في ستمائة راكب أو سبعمائة ، وانهم صادفوا قافلة تقدر بمائتي رجل خارجة من بلاد سيس الى الروم فهاجموها وغنموا منها غنائم كثيرة وذلك في سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م (٢)

ويبدو ان نشاط جواسيس المماليك وعيونهم في استطلاع أخبار أعدائهم ورصد تحركاتهم ساعدهم على قيامهم بنصب الكمائن لهم وتكبيدهم الخسائر ، من ذلك ماحدث سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م عندما هاجم المغول الشام هذه السنة ، حيث كمن لهم العرب من بني تغلب فتوهم المغول ان عساكر كثيرة قد أحاطت بهم الأمر الذى كان له الأثر في هزيمتهم في هذه السنة .(٣)

كما نلحظ ان المماليك ابتعوا أسلوب الترهيب ، للتأثير على أعدائهم ، من ذلك ماحدث سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م عندما حاول الطليبيون التمرد على الهدنة التي عقدها السلطان بيبرس معهم ، فهددهم بقوله " إن بقيتم على العهد ،وإلا فمالنا شغل إلا الجهاد " فاضطروا للنزول عند رغبته .(٤)

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٣٥١ .

٢) ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور ،ص ١ ، ٢ .

٣) أنظر ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول،ص ٢٨٨ ؛ [illegible] .

٤) راجع ماسبق في الفصل الثالث .

أما فيما يتعلق بحصار المدن والقلاع ، فان سلاطين المماليك استخدموا لذلك أسلحتهم الثقيلة كالمنجنيقات والدبابات والقلاع المتحركة وغيرها. فاذا وقف السلطان على الحصن المراد حصاره ، تقدم بادىء الأمر إلى أصحابه يطلب تسليمه بالطرق السلمية ، فإن أبوا شرع في حصاره بتكتيك بارع ، يبدأ باختبار ذلك السور أو الحصن لتقدير استعداداته ، ومعرفة نقاط الضعف فيه ، واذا عين ذلك ،بدأ في نصب آلات الحصار ثم أصدر أوامره إلى المنجنيقات بالشروع في الرمي ، وفي الوقت نفسه يقوم المشاة بالتقدم على شكل زحوف مستمرة لمهاجمة الأعداء من البوابات أو من الفتحات التي تحدثها المنجنيقات في حين يقوم النقابون ،بنقب المواقع الحساسة التي تؤدى إما الى تعليق السور ثم انهدامه ، واما الى عمل ثقوب على شكل سلالم يصعد عليها الجيش. واما على شكل ثقوب داخل الأسوار تشعل فيها النيران بعد حشدها. فاذا تمكنوا بإحدى هذه الطرق من فتح ثغرة في السور ،تدافع الجيش الى الداخل. في الوقت الذى يظل فيه الرماة يطلقون على العدو سهامهم ، حتى لا يستطيع الظهور من أعلى السور وتعريض القوى الإسلامية المندفعه الى الداخل للأذى.(١)

---

١) أنظر ، ابن عبد الظاهر ، الروض ،ص ١٦٢، ١٦٣، ٢٣٠، ٢٨٢ ؛ أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص ٢١ ؛ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، القسم الثاني ،ص ١١٦ - ١١٨ ؛تاريخ الظاهر بيبرس ، ج٢ ، لوحه ٢٢٦ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٢ ،ص ٣٧٧ ؛ ابن الفرات ،م٨ ،ص ٩ ، ٨٠ ؛ المقريزى، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٧٤٧ ، ٧٧٨ ، ٨٤٠ ؛ ابن تعرى بردى ، النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٣٨، ١٣٩ ؛ Salections from Tarik Ibn Alfurat . : .87

وصفوة القول ، فإن المماليك اتبعوا في جهادهم أساليب متنوعة دلت على خبرتهم ودرايتهم بفنون القتال ،حسب مجريات الحوادث . كما راعوا الى جانب ذلك اختيار الوقت والمكان المناسب للاشتباك مع عدوهم ، فقد راعوا عند عزمهم على الجهاد درجة حرارة الجو ، فضلا عن إختيار المكان المناسب الذى ستدور فيه المعركه ، باستدراج العدو الى المكان المناسب الذى يريدونه هم ، كماراعوا أيضا توفر المواد اللازمة لجيوشهم وخيلهم أثناء القتال كالماء والعشب ، كما حرصوا على مراعاة اتجاه أشعة الشمس ، وذلك بعدم تعريض جيوشهم لاشعتها عند الهجوم ، خاصة في الصباح الباكر أو قبل الغروب. ولعل خيل دليل على ذلك ماحدث في معركة عين جالوت والاستيلاء على انطاكية وطرابلس وعكا .(١)

وأثناء جهاد المماليك لاقتلاع الوجود المغولي والصليبي من بلاد الشام ،لم يغب عن بال سلاطينهم القيام بتحصين بعض المناطق الهامة التي كانوا يخشون تعرضها لهجوم مغولي صليبي مفاجيء ، فلم ينسوا مطامع المغول في الأجزاء الشمالية من بلاد الشام ، فأمر السلطان بيبرس في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م بتجديد بناء القلاع على الحدود الفراتية لاسيما قلعة البيرة التي جدد بناءها وأرسل اليها آلات القتال والأسلحة والموءن من مصر والشام بما يكفي لمدة عشر سنين ، لتكون شوكة في جنب المغول .(٢) كما اُهتم أيضا بالموقع الاستراتيجي والعسكرى الهام الذى يمثله

---

١) انظر ماسبق ،في الفصل الثالث والرابع .

٢) المقريزى ، السلوك،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٢٥ ؛ العبادى ،قيام دولة المماليك ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

الأردن كملتقى للطرق المؤدية إلى المشرق الإسلامي بصفة عامة وبلاد الشام بصفة خاصة ، وخط دفاعي أمامي للإراضي المصرية في وجه المغول والصليبيين على حد سواء . فما أن تم له السيطرة على قلاع تلك المنطقة وحصونها حتى شرع في ترميمها وتقويتها وشحنها بالرجال والعدد والذخائر كما نقل المنجنيقات إلى عجلون [1] ، ثم وجه إهتمامه بعد ذلك بالصلت [2] فأمر بشحنها بالرجال والمؤن والعتاد . أما الكرك فجعلها خزانته حيث ادخر فيها الأموال والذخائر والمؤن.[3]

---

١) بفتح العين وسكون الجيم ، وضم اللام وسكون الواو ، ونون في آخره / قلعة من جند الأردن مبنية على جبل يعرف بجبل عوف ، وهي محدثة البناء بناها عز الدين بن أسامة بن منقذ أحد اكابر أمراء صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة ٥٨٠هـ وكان مكانها دير به راهب اسمه عجلون ،فسميت به (أنظر ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه ،حاشيه (٥) .

٢) بالف ولام لازمتين في أوله ، وفتح الصاد المهمله المشدده وسكون اللام وبعدها تاء مثناه : بلدة لطيفة من جند الأردن في جبل الغور الشرقي في جنوب (عجلون) أنظر ابن عبد الظاهر ،تشريف الايام والعصور ، ص ٩٦ حاشية رقم (٣) .

٣) انظر ابن واصل ،مفرج الكروب ،ج٦ ، ص ٤١٩ - ٤٢٧ ( ) ؛ يوسف غوانمه ، التاريخ السياسي لشرق الأردن ، ص ٤٥ - ٤٦ .

كما وجه اهتمامه ببقية بلاد الشام ، فأعاد عمارة القلاع والحصون التي خربها المغول من حمص إلى حوران ، وزودها بما تحتاج اليه من المؤن والدخيرة وكون بذلك العمل الجليل خطا دفاعيا حصينا امتد من شرق الاردن الى نهر العاصي ، هذا بالاضافة إلى الأبراج التي أقامها على الأطراف الصليبية لحفظ الطرقات من اعتداءات الصليبيين ومراقبة تحركاتهم.[1] اما في مصر فان السلطان أمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخورا عظيمة ليحول دون مرور السفن فيما لو حاولوا مهاجمتها ، كما شيد برجا للمراقبة في رشيد ، عمر أسوار الأسكندرية وجدد بناء المنار الذى بها .[2]

---

١) العبادى ،قيام دولة المماليك ، ص ٢٠٨ ،٢٠٩ ؛ غوانمه ، التاريخ السياسي لشرق الأردن ، ص ٤٥ ،٤٦ .

٢) ابن عبد الظاهر ، الروض ،ص ٩١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص ٢٥٧ ؛ ابن إياس ،بدائع الزهور ،ج١ ،ق١ ،ص ١١١ ؛ ابن الفرات ،م٧ ،ص ٨٤ ؛ العبادى ، المرجع نفسه ،ص ٢١١ ؛ السيد عبد العزيز سالم ،تاريخ الاسكندرية ،ص ٤٣٦ ؛ والمنار جمعه مناور أو منارات ، وهي عبارة عن أبراج للمراقبة تربط أطراف الدولة بالعاصمة ،يرابط فيها الحراس أو المرابطون ، ليلا ونهارا ، فاذا كشفوا عدوا مقبلا من البر أو البحر ،اشعلوا النار على قمم هذه المناور اذا كان الوقت ليلا او أثاروا فيها الدخان اذا كان الوقت نهارا . ثم سرعان ما تنتقل هذه الاشارات النارية او الدخانية من منارة الى أخرى تحذر الأهالي الى انتصل الى العاصمة ،وكثيرا ما استعمل المنورون اشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات متفق عليها للإخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك . وقد وصفها كل من القديس في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ،ص ١٧٧) والعمرى في كتابه التعريف ،ص ٢٠٠ ،٢٠١ ؛(أنظر ،العبادى ، المرجع نفسه ،ص ٢٠٩ – ٢١٠ .)

عنى المسلمون منذ وقت مبكر ، عناية كبيرة بالاسطول ، فقد اهتم الخلفاء الفاطميون ، وخاصه منذعهد الخليفه المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥هـ/٩٥٢ - ٩٧٥م) ، بانشاء المراكب البحرية في الفسطاط والأسكندرية ودمياط ، ومن ثم تسييرها الى الموانيء الشامية لمنافسة الأساطيل البيزنطية في البحر المتوسط، حتى اشتهرت هاتان الدولتان قبل الحروب الصليبية بانهما أقوى دولتين في البحر المتوسط .(١)

ولما دب الضعف الى جسم الخلافة الفاطمية ،شمل قواتها البحرية حتى عجز أسطولها في أواخر عهدها عن حماية المدن الساحلية الشامية من الاعتداءات الصليبية ، ولم يكد ينتهي القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، الا وقد فقد الاسطول الفاطمي مكانته خاصة بعد أن استولى الصليبيون على القواعد البحرية في ساحل بلاد الشام .(٢)

---

١) الباز العريني ،الشرق الادنى في العصور الوسطى ، ص ١٧٠ ؛
جمال الدين سرور ،الدولة الفاطمية في مصر ،ص ١٥٥ ؛
Ehrenkreutz . The place of Saladin in The naval history of the meditrranean sea, Jaurnal of the American Oriental Sociaty, (1955) P.101.

٢) Ehrenkrentz oPCIT . p. 101, 104
احمد مختار العبادى ،عبدالعزيز سالم ،تاريخ البحرية الاسلامية ، في مصر ،ص ٢٧٢ ؛ أرشيبالد لويس ،القوى التجارية والبحرية في حوض البحر المتوسط ، ص ٣٨٢ .

ولما قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م وأعاد توحيد الجبهة الإسلامية بين مصر والشام، استعدادا لبدء حركة الجهاد ضد الصليبيين ، اهتم منذ بداية حكمه باعادة بناء الأساطيل المصرية التي تعرضت للتلف الكامل من قبل شاور الذى أمر عندما هاجم عمورى الأول(Amarlic 1) ملك مملكة بيت المقدس مصر في سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م • بإحراق الفسطاط وشمل ذلك الحريق مراكب الأسطول التي دمرت عن أخرها.(١) وقد تمكن صلاح الدين باصراره على أهمية دور الأسطول في الجهاد ضد الصليبيين من بناء اسطول قوى بلغ أوج عظمته في الفترة الممتدة من سنة ٥٧٥ - ٥٨٣هـ/١١٧٩ - ١١٨٧م(٢) وهي الفترة التي حقق فيها انتصارات عظيمة ضد سفن الصليبيين على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية للبحر المتوسط(٣) ، فضلا عما خحققه ضد سفنهم في عرض البحر الأحمر .(٤)

---

١) المقريزى ، الخطط ،ج٢ ،ص ١٩٤ ؛ وشاور : هو أبو شجاع شاور بن مجير الدين بن نزار بن عشائر بن شاش ، قيل انه عرف بالسعدى نسبه الى حليمة السعدية (أنظر ابن حلكان ، وفيات الأعيان ،ج٢ ،ص ٤٣٩ ، العمرى ،مسالك الابصار ، ج٧ ص ١٢٧) ؛ عبدالرحمن زكي ، الفسطاط وضاحبتاها العسكر والقطائع ص ٣٣ •

٢) Ehrenkeutz . opcit. p . 101 - 102 .
؛ أنظر أيضا ، العريني، الشرق الادنى في العصور الوسطي ،ص ١٧٠.

٣) انظر ،سعاد ماهر ، البحرية في مصر الاسلامية ،ص ١٠١ ومابعدها ؛ العبادى ، عبدالعزيز سالم ،تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، ص ٢٠١ ومابعدها •

٤) أنظر ،حسنين ربيع ، البحر الأحمر في العصر الأيوبي ،مقال بندوة تاريخ البحر الاحمر ،بجامعة عين شمس سنة ١٩٧٩م •

ولما ورث المماليك دولة أسيادهم الأيوبيين في مصر والشام . كان التدهور السياسي الذى حل بدولتهم ، قد أدى الى قلة اهتمامهم بالاسطول وعدم العناية به .(١) لذلك كان على سلاطين دولة المماليك . أن يولوا الاسطول منذ بداية عهدهم ، جل اهتمامهم لماله من دور فعال في جهادهم ضد أعداء الإسلام ،خاصة وان ولادة دولتهم تزامن مع ظهور خطر المغول على المشرق الإسلامي في الوقت الذى كان الصليبيون يحاولون جاهدين توسيع نفوذهم في بلاد الشام مستغلين ذلك الضعف الذى دب في جسم الدولة الأيوبية في اخر عهدها .(٢)

ويشير المقريزى الىان السلطان الظاهر بيبرس كان أول من أهتم ببناء الأسطول في دولة المماليك ،لصد الأعداء الذين يغيرون

---

١) يصف المقريزى ،في كتابه الخطط ،ج٢ ،ص ١٩٤ ذلك بقوله (فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب استمر الحال في الأسطول قليلا ، ثم قل الاهتمام به ،وصار لا يفكر في آمره الاعند الحاجة اليه ،فاذا دعت الضرورة الى تجهيزه طلب له الرجال وقبض عليهم في الطرقات ،وقيدوا في السلاسل نهارا ،سجنوا في الليل حتى لايهربوا ،ولايصرف لهم الا شيء قليل من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بغير شيء كمايفعل بالأسرى من العدو ، فصارت خدمة الاسطول عار يسب به الرجال ،واذا قيل لرجل فيمصر يا أسطولي غضب غضبا شديدا ، بعدما كان خدام الأسطول ، يقال لهم المجاهدون في سبيل الله ، والغزاة في أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس .".

٢) انظر ماسبق " التمهيد"

على بلاده من جهة البحر ، فقد اهتم بدور صناعة السفن في الفسطاط والروضة والاسكندرية ودمياط ،لدرجة انه كان يشرف بنفسه على بناء سفن الاسطول . وحرص على توفير الخشب اللازم لبناء السفن ، فمنع الناس من قطع الأشجار التي تصلح أعوادها لبناء الاسطول[1] ويبدو ان مشروع إحياء الخلافة العباسية في القاهره الذى تبناه السلطان بيبرس نفسه ، كان له دور كبير في تشجيعه على الاهتمام ببناء الاسطول في مصر . فقد تضمن التقليد الذى منحه الخليفه العباسي للسلطان بيبرس ،الحث على الاهتمام بتحصين الثغور البرية والبحرية وبناء الاسطول فمما جاء فيه " ولاتخل الثغور من اهتمام بأمرها تبتسم له الثغور ، واحتفال يبدل مادجى من ظلماتها بالنور ، واجعل أمرها على الأمور مقدما ، وشيد منها كل ما غادره العدو متهدما فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهي على العدو داعية اقتران لا اجتماع وأولاها بالاهتمام ماكان البحر له مجاورا ، والعدو له ملتفتا ناظرا ، لاسيما ثغور الديار المصرية ... وكذلك الأسطول الذى ترى خيله كالأهلة وهو أخو الجيش السليماني . فان ذاك غدت الرياح له حاملة وهذا تكفلت بحمله المياة السائلة "[2]

ولا أدل على اهتمام السلطان بيبرس بالأسطول في دولته من تلك الحادثة التي أوردتها المصادر المعاصرة ،مفادها

---

١) المقريزى ، الخطط ،ج٢ ،ص ١٩٤ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض ،ص ٣٨٩ ؛ النويرى ،نهاية الأرب ، ج٢٨ ،ص ٥٦ .

٢) ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه ،ص ١٠٨ ،١٠٩ ؛ أنظر أيضا ، اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٢ ،ص ١٠٣ ؛ المقريزى ، السلوك، ج١ ،ق٢ ،ص ٤٥٦ ،٤٥٧ ؛ شافع بن على ،حسن المناقب السرية ، ص ٤٣ ؛ القلقشندى ،مآثر الاناقة ، ج٣ ،ص ١٢٨ .

ان السلطان بيبرس أصدر أوامره الى قادة أسطوله بمهاجمة جزيرة قبرص مستغلا خروج ملكها هيو الثالث إلى عكا وذلك في سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م ، وبالرغم من ان هذه الحملة البحرية تعرضت لكارثة طبيعية اذ هبت عليها ريح عاتية حطمت جميع سفنها بالقرب من مدينة ليماسول ، فان بيبرس لم ييأس بتلك الكارثة بل سارع في نفس السنة بإصدار أوامره إلى دور الصناعة في الأراضي المصرية ببناء سفن جديدة للاسطول عوضا عما ذهب على قبرص فتمكنت هذه الدور في فتره وجيزه بناء "ضعف ماعدم"(١)

وواصل سلاطين المماليك بعد بيبرس ، اهتمامهم بالاسطول ، خاصة بعد امتلاكهم لسواحل بلاد الشام ، اذ ان ذلك أدى الى شعورهم الزائد بمسئولية المحافظة عليها ، فاهتموا بوسائل الدفاع عنها لحمايتها من الخطر الصليبي الذى تركز في الجزر المجاورة في مياه البحر المتوسط ، فقد اهتم السلطان المنصور قلاوون بطرابلس بعد استيلائه عليها ، وجعلها نيابة سلطانية . يحكمها نائب للسلطان بمرسوم سلطاني يصدر بهذا الشأن . وكان من أهم اختصاصاته " شد البحر

---

١) أبو الفدا ، المختصر ،ج٤ ،ص٦ ؛ اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ،م٢ ،ص ٤٥٤ ؛ المقريزى ، السلوك، ج١ ،ق٢ ،ص ٥٩٣ ، ٥٩٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم، ج٧ ،ص ١٥٤ ؛ ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ،ق١ ،ص ١١٠ ؛ سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٤٨ .

وشد الشواني" على حد تعبير القلقشندى ،بمواني نيابته وهي طرابلس واللاذقية وأنطرسوس وجبلة . (١)

كذلك حرص السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بعد استيلائه على عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م على إنشاء اسطول قوى عهد بإعداده إلى الوزير الصاحب شمس الدين بن السلعوس(٢)، الذى اهتم ببناء سفن الاسطول ،حتى اكتملت عدتها ستين مركبا ،فأمر بتجهيزها بالالاتالحربيةوالرجال ، ثم حضر السلطان الى دار الصناعة بجزيرة الروضة ، وأقام لذلك احتفالا كبيرا ، توافد عليه المسلمون منكل حدب وصوب لمشاهدة مناورات الأسطول بعد إتمامه. وخرجت "الشواني والحراريق والطرائد" واحدة بعد أخرى ، وتبارى الجند في الاستعراض بها أمام السلطان ، حيث ظلت الشواني تواصل محاربة بعضها بعضا إلى أن أذن لصلاة الظهر ، فعاد السلطان بعسكره الى القلعة وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم في

---

١) أنظر القلقشندى ،صبح الاعشى ،ج٢٢ ،ص ١٧٦ ; أنظر أيضا ، العبادى ،عبدالعزيز سالم ،تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٣٠٨ . وكلمة "شد" لها معاني كثيرة وقد تعنى هنا الاشراف والاعداد أى انه يشرف على البحر وعلى اعداد السفن ،ومنها أيضا كلمة الشاد ،او المشد على عمارة المراكب ، وهو الموظف أو الناظر الذى يشرف على إعداد المراكب(أنظر ابن إياس بدائع الزهور ،ص ; العبادى ،سالم ، المرجع نفسه ،ص ٣٠٨ حاشية).

٢) هو الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن ابي الرجا التنوخي الدمشقي المعروف بابن السلعوس توفى سنة ٦٩٣هـ . (أنظر ابن تغرى بردى النجوم ،ج٧ ،ص ٣٣٤ حاشية).

ابتهـــــاج وفـــــــرح .(١)

---

١) المقريزى ، الخطط ،ج٢ ،ص ٩٤ ؛ جمال الدين سرور ،دولـــــة بني قلاوون ، ص ٣١٤ ،٣١٥ ؛ العبادى ،عبدالعزيز ســـــالم، تاريخ البحرية الاسلامية ،ص ٣٠٨ ؛ والشواني : مفردها شينـــي وهي من أهم القطع البحريـة التي كان يتألـف منها الأسطول في العصور الوسطى ،وهي مراكـب حربيـة كبيرة كانوا يقيمـون فيها أبراجـا وقلاعـا للدفـاع والهجوم ،وكانت هذه الابـــراج مكونـة من عدة طبقات تقف في الطبقة العليا منها العساكـــر المسلحة بالقسي والسهام ، وفي الطبقة السفلى الملاحـــون بالمجاديف وكان متوسط مايحمله الشيني الواحد مائة وخمسون رجلا ويجدف بمائة مجذاف وقد ظل اسم الشيني متداولا حتى أيام الدولة العثمانية (أنظر ابن مماتي ، قوانين الدواوين ،ص ٣٤٠ ؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافي ،ج١ ،ص ١٣ ؛ كحالة ،دراســات اجتماعية في تاريخ العصور الوسطى ،ص ١٢، ١٣ ؛ سعاد ماهـــر، البحرية فيمصر الاسلامية ،ص ٣٥٢، ٣٥٣ ؛ عبدالرحمن عبـاده ،سفن الأسطول الإسلامي ،ص ٤، ٥ ؛ جمال الدين سرور ، المرجع نفســه ، ص الحاشية) ؛ اما الحرايق فمردها حراقه : وهي سفينة حربيـة مهمتها حمل النفط والبارود ،فيها مرامي ترمى منها النيـران على الاعداء (أنظر سعاد ماهر ،المرجع نفسه ،ص ٣٣٩)؛ والطرائد مفردها طريدة وهي سفينة خاصة بحمل الخيل ، وكانت تتســـع لأربعين فـرسا ،وربما وصلت حمولتها إلى ثمانين فرسا (أنظـر ابن مماتي ،المصدر نفسه ،ص ٣٣٩ ؛ سعاد ماهر ،المرجع نفســه ، ص ٣٥٤ ، العريني، المرجع نفسه ،ص ٣١٥ ،حاشية ؛ الخربوطلـــي الإسلام فيحوض البحر المتوسط ،ص ١١٣ ،١١٤ ؛ عبدالرحمن عبادة ، المرجع نفسه ،ص ٥ ،٦).

ولما خلف الناصر محمد بن قلاوون ،أخاه الأشرف ، واصل الاهتمام بالاسطول فعنى بانشاء السفن وشحنها بالعدد والرجال وسيرها إلى سواحل بلاد الشام حيث انضمت اليها بعض القطع الحربية المرابطة بطرابلس ، وقامت بمطاردة فلول الصليبيين في البحر المتوسط ،واستولى رجالها على أقرب وكر لهم جزيرة ارواد وذلك في سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م.(١)

على ان طرد الصليبيين من ساحل بلاد الشام ، ومن جزيرة ارواد لم يحل دون استمرار تهديداتهم لسواحل دولة المماليك في مصر والشام ، وذلك بعد أن اتخذوا من جزيرة قبرص مركزا لهم الأمر الذى حتم على سلاطين المماليك زيادة الاهتمام بالأسطول لمواجهة ذلك الخطر الذى استشرى بعد أن تمكن ملوك هذه الجزيرة ، بمساعدة فلول الصليبيين الهاربين اليها من انتزاع جزيرة رودس من الدولة البيزنطية سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م ، واتخاذها قاعدة صليبية أخرى للإغارة على السواحل الإسلامية .(٢)

وقد استعان المماليك في بناء اساطيلهم بالخشب المحلي في مصر وهو من نوع السنط الذى كان ينبت بكثرة في جنوب الدلتا وصعيد مصر وشبه جزيرة سيناء ، وكان من احتكار الدولة.(٣)

---

١) أبو الفدا ،ج٤ ،ص ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم ،ج٨ ،ص١٥٦؛ المقريزى ،الخطط ،ج٢ ،ص ١٩٥ ؛ Dozy: suppl-auxdic.arabes I.P 735. العبادى ،سالم ،تاريخ البحرية الإسلامية ،ص ٣٠٩ .

٢) عن تهديدات هاتين الجزيرتين لسواحل مصر والشام ودور الاسطول المملوكي في مواجهتها ،أنظر سعيد عاشور ،قبرص والحروب الصليبية ص ؛ العبادى ،المصدرنفسه ، ص ٣٠٩ ومابعدها .

٣) ابن مماتي،قوانين الدواوين ،ص ٣٤٥ ؛ المقريزى ،المصدرنفسه ، ج٢ ،ص ١٩٤ ،١٩٥ ؛ العدوى ،تاريخ العالم الاسلامي ،ص ٣٣ .

بالاضافه إلى أخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في جبال لبنان كماقاموا إلى جانب ذلك بعقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الإيطاليه ، حصلوا بمقتضاها على حاجتهم من الخشب والحديد والشمع اللازم لبناء أساطيلهم (١) ، وكان يوجد بالأسكندرية في العهد الأيوبي ديوان اسمه "المتجر السلطاني" ويبدو انه ظل حتى العهد المملوكي مهمته ، شراء مختلف البضائع المستوردة من الخارج اللازمة للجيش والأسطول ، كالأخشاب والحديد والأقمشة الصوفية وغيرها وكان هذا المتجر يقوم بشراء هذه المواد بأموال الخمس المفروضة على التجار .(٢)

وكما اختص ديوان الجيش بالصرف على شئون القوات البرية ومايتبعها من الحصون والقلاع والمدن العسكرية ، فقد أفرد المماليك - على مايبدو - للبحرية ديوانا خاصا - شأنهم في ذلك شأن الأيوبيين من قبلهم - مهمته الإنفاق على القوات البحرية من سفن حربية وبحارة وموءن وعتاد ،بالاضافة الى دور الصناعة التي كانت تقوم ببناء الأساطيل ، والقيام بأعمال الصيانة اللازمة لها . يدلنا على ذلك ماذكره ابن عبد الظاهر، من ان السلطان الظاهر بيبرس أنفق على الشواني والحراريق والطرائد والسلالير وغيرها مائه الف دينار وذلك في سنة

---

١) عفاف سيدصبره ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ؛ نعيم زكي ،طرق التجارة الدولية أو محطاتها بين الشرق والغرب ،ص ٢٠ .

٢) أنظر ابن مماتي ،قوانين الدواوين ،ص ٣٢٧ ؛ حسنين ربيع ،النظم المالية ، ص ٥١ ؛ العبادى ، سالم ،تاريخ البحرية الاسلامية ،ص ٢٧٣ .

واحدة .(١) اذ يبدو لنا ان هذا الإنفاق كان يقوم به في العهد المملوكي ديوان خاص يشبه ديوان الأسطول في العهد الأيوبي .(٢)

والذى يجدر ذكره هنا هو ان دور الصناعة في العهد المملوكي قامت - علىمايبدو - بإعداد سفن خاصة بالبحر المتوسط ، وأخرى خاصة بالبحر الأحمر (٣)، لأن المهام التي أوكلت إلى الأسطول تتطلب منه العمل

---

١) ابن عبد الظاهر ، الروض ،ص ٨٣ ؛ أنظر أيضا ،شافع بن على ،حسن المناقب السرية ،ص ٣٥ ؛ ابن بسام ،نهاية الرتبه ،ص ٢٤٨ ؛ والسلالير : مفرها سلورة وهي سفينة متوسطة الجحم سريعة الحركة لها ثلاثة شرع ،تحتوى عادة على أربعين مجذاف وتستعمل في الحرب والسلم على السواء (أنظر سعاد ماهر ،البحرية في مصر الاسلامية ،ص ٣٤٧ .

٢) ذكر المقريزى ان صلاح الدين عندما قضى على الدولة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧ هـ/ ١١م اعتنى بأمر الأسطول وأفرد له ديوانا خاصا عرف باسم ديوان الأسطول ، وخصص له أموالا ضخمة متحصلات أقليم الفيوم ،والحبس الجيوشي ،وحراج السنط ،وحصيلة النطرون التي بلغت وقتذاك ثمانية الاف دينار ،وأجرة المراكب الديوانية وحصيلتي قريتي اشنين وطنيده من كورة البهنسا في محافظة المنيا الحالية (أنظر المقريزى ، الخطط ،ج٢ ،ص ١٩٤ ؛ حسين ربيع ، النظم المالية في مصر ،ص ٧١ .

٣) بدأ اهتمام المماليك بالبحر الأحمر في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، الذى أمر صاحب قوص في سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م بإرسال قوة بحرية إلى سواكن لتأديب صاحبها الذى كان يتعرض التجار ويستولى على مال من يموت منهم في البحر (أنظر ، ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه ،ص ٢٤٨ ؛ شافع بن على ،حسن ====

في البحرين معا ، اللذين اختلفا في الظروف الطبيعية ، فطبيعة البحر الأحمر تختلف عن طبيعة البحر المتوسط ، بمايحتويه الأول من صخور وشعب مرجانية ، ومابه من نباتات بحرية ، ومايهب عليه من رياح وأعاصير . لذا فان مراكب البحر المتوسط كانت تجهز بالمسامير ، أما مراكب البحر الأحمر فكانت تخاط " بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل ،يدرسونه الى ان يتخبط ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ... واذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفه سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش "(١)

والى جانب ذلك يبدو ان دور الصناعة في مصر ،قامت باعداد سفن خاصة يمكن أن يطلق عليها المراكب النهرية ، وذلك لمواجهة أى إجتياح داخلي للأراضي المصرية ، وكذلك لنقل المؤن والعتاد والرجال من الداخل الى سواحل مصر الشمالية (٢) ، وتوجد في المصادر المعاصرة إشارات الى ان مراكب نهرية كانت تعمل بدمشق ، وتحمل إلى البيرة ، ثم تجهز للعمل في نهر الفرات ،وأنهار مناطق الثغور المؤدية الى أرمينيه الصغرى.(٣)

واضافة الى ذلك فقد اهتم المماليك بتقوية أجهزة الدفاع

=== المناقب ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ؛ محمد صالح ضرار ،تاريخ سواكن والبحر الأحمر ،ص ٣٨) . ويبدو ان الحاجة ازدادت لنشاط الاسطول المملوكي في البحر الأحمر عندما تعرض بعد ذلك لمحاولات البرتغاليين السيطرة عليه (أنظر محمد عبد العال أحمد ،البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية السيطرة عليه ،ص ٧٩ ومابعدها ، غسان على الرمال ،صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر.

١) ابن جبير ، الرحلة ،ص ٣٨ .

٢) اليونيني،ذيل مرآة الزمان ،م٢ ،ص ٤١٠ ؛ المقريزى، السلوك ،ج١ ، ق٢ ،ص ٥٣٧ .

٣) أنظر ابن عبد الظاهر المصدر نفسه ،ص ٣٤٥ ، ٤٠٦ ، ٤٣٥ ؛ شافع بن علي حسن المناقب ،ص ١٠٥ ؛ ابن الفرات ،ج٧ ،ص ٣٠ .

والحراسة الساحلية كالرباطات والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام وحشدوا فيها الاجناد للمرابطه فيها والخفراء لحراستها .(١) كما عمدوا أيضا إلى وضع العراقيل على السواحل لتوعر على العدو مسلكه اذا ماحاول الاعتداء على ممتلكاتهم ، ومن ذلك ماذكره ابن دقماق من ان السلطان الظاهر بيبرس " وعّرفم البحر بقرابيص رماهم فيه لئلا تدخله مراكب الفرنج " كما أُقام بدمياط سلسلتين عظيمتين من حديد تقفل في الليل وعند الطوارىء لمنع مراكب العدو من العبور في النيل الى الديار المصرية .(٢)

وختاما يمكن القول ان المماليك تمكنوا من تكوين جيش بري وأسطول بحرى مزود بكل متطلبات القتال من سلاح وعتاد ومؤن بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعوها لتنظيم جيشهم ، والتي قامت على أساس بث روح الجهاد في نفوس رجالهم ، وتطبيق نظام الاقطاع الحربي في دولتهم ، ذلك النظام الذى ضمنوا بواسطته الحصول على جيش منظم عارف بكل أُساليب القتال ومزود بكل مستلزماته متى

---

١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ،ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٢ ،ص ٥٦٤، ٥٦٥ .

٢) أنظر ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ،ق٢ ،ص ٨١ ؛ والقرابيص : أو القرابيس ،ومفردها قربوس : فسره ابن منظور بانه " حنو السرج" أنظر لسان العرب ،مادة " قربس " ويبدو لنا ان هذه القرابيص عبارة عن أعواد او أسياخ من الحديد كانت تثبت داخل البحر على مسافة قريبة من أماكن رسو السفن تؤدى الى إعاقة رسون سفن العدو ، وفي الوقت نفسه يسهل على سفن المسلمين مهاجمتها من الجانب الآخر وتدميرها او إجبارها على التراجع .

عقدوا النية على الجهاد . حتى تحقق لهم طرد المغول من بلاد الشام ، ودفع خطرهم المتكرر عليها ، وتصفية بقايا الوجود الصليبي من سواحلها . ليتوجوا بذلك النجاح الباهر جهود من سبقهم من زعماء الجهاد الذين تعاقبوا على حمل رايته ضد الصليبيين أعداء الاسلام والمسلمين قرابة قرنين من الزمان .


الخاتمة

الخاتمة

أهم نتائج البحث

بحمد الله وتوفيقه ، انتهى موضوع البحث الذى تناول دراسة شاملة ومتكاملة لموضوع " جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى " وقد رأينا ان المشرق الاسلامي بصفة عامة كان إبان غزوات المغول فيحالة شديدة من الضعف والتخاذل والتفكك ،يسيطر عليه حكام متباغضون ، تتنازعهم الأهواء والأغراض وتنتشر في بلادهم المذاهب والأراء ، الأمر الذى سهل على المغول السيطرة على دويلاته عندما بدأ تقدمهم على حسابها من الشرق الى الغرب ، حتى تمكنوا في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م من دخول مدينة بغداد ، وإسقاط الخلافة العباسية بها . مستغلين ضعف شخصية الخليفة المستعصم بالله الذى لم يكن الرجل المناسب في المكان المناسب ، لقلة خبرته وعدم إهتمامه بأمور دولته . ففي الوقت الذى كانت الأخبار تصل اليه تباعا باقتراب جيوش المغول ، لم يتخذ الاستعداد الكافي لمواجهتها قبل أن يستفحل خطرها . كما أن زمام الأمور في بغداد لم يكن مركزا في يد واحدة بل كانت هناك سلطات مختلفة كل منها تجور على الأخرى و ذلك بسبب احتدام الصراعات المذهبية بين الطوائف الإسلامية وغير الإسلامية داخل بغداد نفسها.

ولما كان محور دراستنا هو بلاد الشام ،التي كانت هدف هولاكو التالي بعد دخوله مدينة بغداد ،فقد أوضحت

الدراسة ، موقف القوى الإسلامية وغير الإسلامية من ذلك الغزو، فقد كان من نتائج سقوط بغداد في أيدى المغول أن عم الرعب والخوف الحكام المسلمين ، الذين أخذوا يتسابقون على معسكر هولاكو لتقديم فروض الولاء والطاعة ، مقابل إبقائهم على ولاياتهم ، وكان أول هوءلاء بدر الدين لوءلوء صاحب الموصل ، الذى راح منذ وصول المغول الى همذان يتقرب اليهم ويعمل على ممالاتهم لابعاد الخطر عن إمارته ،ولما تمكن هولاكو من اقتحام بغداد ، سارع بالخروج الى معسكره حاملا معه الهدايا لتقديم الولاء له . كما قَدِم بعده للغرض نفسه الأتابك سعد الدين بن أبي بكر أُتابك فارس ، ومن بعده الأخوان عز الدين كيكاوس الثاني ، وركن الدين قلج أرسلان الرابع الذين كانا قد اقتسما سلطنة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، لتقديم ولاءهما لهولاكو :

ولم يقتصر ذلك التذلل والخضوع على البلدان الإسلامية في أعالي الجزيرة وآسيا الصغرى ، بل تعداه إلى بلاد الشام نفسها ، إذ أقدم الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق - الذى كان يعد أعلى الأمراء الأيوبيين شأنا في بلاد الشام - على إعلان خضوعه لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة متجاهلا دعوة الملك الكامل صاحب ميافارقين بالعمل على توحيد الجبهة الإسلامية ضد المغول . إذ استجاب لأوامر هولاكو وأنفذ ابنه الملك العزيز إليه حاملا معه الهدايا والتحف . لكن هولاكو شك في نوايا الناصر وأصر على أن يحضر عنده ليقدم تبعيته بنفسه . وهنا يبدو ان الملك الناصر انتابته نوبة من صحوة الضمير وشعر بمدى السخط الذى جلبه على نفسه بين الأمراء الأيوبيين ، فرفض دعوة هولاكو وأرسل اليه رداً مليئاً بالسباب وقلب سياسته تجاه المغول رأسا على عقب ، حيث أُقدم عندما بلغه عبور القوات المغولية

نهر الفرات ، بإرسال رسول من قبله الى المماليك في مصر يستنجدهم ضد جيوش المغول التي بات هجومها وشيكا على بلاد الشام فاستجاب المماليك لذلك النداء وأعلنوا استعدادهم لمساعدة الملك الناصر في الدفاع عن بلاد الشام ٠

ورغم ان الملك الناصر عاد فرفض ذلك العرض السخي الذى أبداه السلطان المملوكي قطز ، والذى يبدو ان مرده خوف الملك الناصر من أن ذلك سيغضب بقية الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام ٠ فانه يمكننا الخروج بنتيجة هامة وهي ان مماطلة الملك الناصر للمغول ، وتخوف السلطان المظفر قطز من معاودة الملك الناصر تسهيل مهمة المغول دخول بلاد الشام طمعا في مساعدتهم على مصر ، والذى ترتب عليه إعلان المظفر استعداده للخروج الى بلاد الشام لمحاربة المغول واعتبار نفسه نائبا للملك الناصر على مصر ، يعتبر الأساس الأول لاعادة الوحدة الإسلامية بين مصر والشام ، والتي مكنت المسلمين بعد ذلك من إيقاف الزحف المغولي على العالم الاسلامي ٠

أما عن موقف مملكة أرمينية الصغرى من الغزو المغولي لبلاد الشام ، فقد أوضحت الدراسة ان ملوك أرمينية عندما علموا باقتراب المغول من المشرق الإسلامي هللوا لهم ورأو فيهم القوة الضاربة التي تستطيع أن تقضي على الإسلام والمسلمين ، وتقوى الوجود المسيحي في تلك المناطق ، خاصة وان المغول في ذلك الوقت لازالوا يدينون بالوثنية ٠ الأمر الذى جعل هوءلاء المسيحيين ينظرون إلى هذه القوى على انها مادة خام يسهل تشكيلها في قالب مسيحي ٠ وزاد قوة هذا الطمع ظهور تيارات واتجاهات مسيحية بين صفوف المغول من ذلك ان زوجة هولاكو وأمه كانتا مسيحيتين شرقيتين عملتا على موءازرة المسيحيين

ومناصرتهم في كل المناطق التي خضعت للسيطرة المغولية .

أما بالنسبة للقوى الصليبية الغربية التي كانت تتمركز وقتئذ على الشريط الساحلي لبلاد الشام ، فقد وقفت موقف المتردد من الهجمات المغولية على بلاد الشام ، حتى أن سلوك بوهيمند السادس أمير انطاكية وتأييده لحركة الغزو المغولي على بلاد الشام ، والذى لم يكن بوصفه أميرا كاثوليكيا ، وإنما لكونه زوج ابنة هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى وحليفه وصديقه . قد ضايق معظم الصليبيين ببلاد الشام . وخاصة أهل عكا وقد تبين لنا ان عدم تعاون الصليبيين الغربيين راجع الى أسباب عدة منها . انشغالهم بمنازعاتهم الداخلية ، مما لم يترك مجالا للخوض في ميدان السياسة الخارجية ، واستغلال الظروف التي ألمت بالعالم الاسلامي من جراء الغزو المغولي ،كما لايستبعد أن يكون لاستياء التجار البنادقة في عكا من حركة المغول ، لما ترتب عليها من خلل اعترى طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب . هذا بالاضافة الى ان العلاقات التجارية بين البنادقة والمماليك في مصر كانت طيبة ، لذا حرص البنادقة على الا يحدث مايعكر صفو تلك العلاقات ، التي كانوا يحصلون من ورائها على مكاسب مادية كبيرة . كما برهنت الدراسة على انه كان هناك سبب آخر أهم ، الا وهو استياء الصليبيين الغربيين في الشام مما أظهرة المغول من عطف واضح على المسيحيين الشرقيين دون الغربيين. وتخوف الغربيين من الوقوع تحت رحمة الكنائس الشرقية ، حتى ان مؤرخا صليبيا معاصرا هوجوانفيل ذكر ان صليبي الشام أرسلوا في ذلك الوقت الى الغرب الأوربي يطلبون تسيير حملة صليبية ليس ضد المسلمين هذه المرة وإنما ضد المغول وحلفائهم المسيحيين الشرقيين .

وتوصل البحث الى نتيجة هامة وهي ان موقف الصليبيين هذا هو الذى مكنهم من البقاء مدة أطول في بلاد الشام . إذ لو تحالف الصليبيون الغربيون مع المغول ، لحققوا جزءًا بسيطا من أهدافهم وهو الانتقام والتشفي من المسلمين في تلك المناطق ، ولكن ذلك التحالف كان سينعكس على وضعهم السياسي هناك . إذ انهم كانوا بلاشك سيصبحون عبارة عن ولاية من ولايات المغول ، حالهم حال من سبقهم من المسيحيين الذى تحالفوا مع المغول . هذا بالإضافة الى ان تبعيتهم للمغول الذين عرفوا بمحاباة المسيحيين الشرقيين كان سيؤدى الى إضعاف مركز الكنيسة الغربية في بلاد الشام .

وعلى اية حال فقد برهنت الدراسة على ان ذلك التلاحم بين المغول والمسيحيين الشرقيين ومعهم صليبي أنطاكية أثمر عن تحقيق هدف هولاكو بالاستيلاء على مدن اقليم الجزيرة وبلاد الشام فقد أصدر هولاكو أوامره بعد أن تم له السيطره على بغداد ونقل كنوزها ودفائنها الى مقره الجديد مدينة مراغة ، إلى قواته بالمسير غربا والبدء بمدن إقليم الجزيرة فسقطت في يده مدن ميافارقين وماردين وآمد وحران ومنبج ونصيبين وغيرها رغم ما أبداه حكامها وعلى رأسهم الملك الكامل محمد الأيوبي صاحب ميافارقين والملك السعيد صاحب ماردين من ضروف الشجاعة والبسالة في الدفاع عن مدينتيهما . ليعبر المغول بعد ذلك نهر الفرات قاصدين بلاد الشام ، الذى كان تنازعه آنذاك سلطان ثلاث هي الأرمن في الشمال ، والصليبيون الغربيون على الساحل ، وسلطة الحكام المسلمين من أمراء البيت الأيوبي في الأجزاء الداخلية منه . ولما كان الأرمن قد انضموا بزعامة هيثوم الأول الى صفوف المغول منذ وصولهم إلى منطقة الشرق الأدنى ، بينما التزم الصليبيون الغربيون

مبدأ الحياد في ذلك الصراع الإسلامي المغولي ، لشعورهم بمستقبل مجهول ينتظرهم أمام القوى المغولية التي كانت لاتبقي ولا تذر . فان هولاكو قد وجه همته بكاملها نحو البلاد الخاضعة لحكم الأمراء الأيوبيين ،واستطاع بسبب تفكك القوى الأيوبية ورفضها المساعدة المملوكية وبفضل ذلك التلاحم بين قواته والقوى المسيحية من إكتساح مدن الشام الداخلية الواحدة تلو الأخرى .

وكان من نتائج اكتساح المغول وحلفائهم بلاد الشام أن عم الرعب والخوف سائر أرجائه فهرب الناس باتجاه الأراضي المصرية ، وقد انغرس في داخل نفوسهم ، نتيجة ماشاهدوه من الأهوال بسبب ماحل بهم وببلادهم من الدمار والخراب والهلاك ان السبيل الوحيد لانقاذ ماتبقى من العالم الإسلامي من الغزو المغولي هو البحث عن قيادة قوية ، تترجم نواياهم بالعمل على تنظيم جموع المسلمين وبعث روح الجهاد المقدس في نفوسهم لدرء العدوان المغولي الذى استشرى خطره وبات يهدد ماتبقى من العالم الإسلامي بالدمار والهلاك . والواقع ان الأراضي المصرية في ذلك الوقت كان كل شيء فيها ينبيء بظهور قوة جديدة . تنقذ العالم الإسلامي من هذا الخطر . فالسلطان المظفر قطز اعتلى عرش الدولة المملوكية الفتية بمشورة من كبار الأمراء في الأراضي المصرية لمواجهة الأخطار والتحديات التي باتت تهدد دولة المماليك في مصر، وتوصل هو بدوره الى إقناع خصومه من أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا الى بلاد الشام وعلى رأسهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى بالعودة إلى الأراضي المصرية والانضواء تحت لواءه متناسين مابينهم من الخلافات خاصة بعد أن ثبت لهم عجز أمراء الشام من البيت الأيوبي عن مقاومة المغول . والأهم من ذلك ان جموع المسلمين التي تعرضت لويلات الغزو المغولي ابتداء بالدولة الخوارزمية ومرورا بالخلافة

العباسية ثم الأمراء الأيوبيين في شمال العراق والشام ، وجدوا ضالتهم في القيادة المملوكية الحكيمة ، فحضروا ومعهم أمراءهم باعداد كبيرة إلى الأراضي المصرية ، حيث استقبلهم قطز أحسن استقبال وأصبحوا يكونون جزءا هاما من جيشه .

ومن هذا خلص البحث إلىنتيجة هامه ذلك ان فلول الممالك الإسلامية في المشرق الإسلامي التي تعرضت للغزو المغولي ، اضحوا على يقين تام بأن دولة المماليك الفتية في مصر هي القادرة علىحمل لواء الجهاد الاسلامي للنهوض بالعالم الإسلامي من وهدته العميقه ، وذلك لتوفر العنصر البشرى ، فضلا عن مواردها الطبيعية الضخمة ، وابتعاد حكامها عن الإثره وحب الذات .

وعند دراسة حوادث معركة ~~عكية~~ عين جالوت التي جاءت كرد فعل على التلاحم المغولي المسيحي ، والذى ترتب علين تطاول المسيحيين على المسلمين والإعتداء على مقدساتهم ، تبين بوضوح ماكان يتمتع به السلطان المملوكي قطز من مقدرة عظيمة في ميادين الإدارة السياسية والحرب ، يدلنا على ذلك الخطط السياسية والحربية التى نفذها قطز بإحكام للتمهيد لضرب المغول في عين جالوت فقد بذل قصارى جهده لتكوين قوة إسلامية تؤمن إيمانا تاما بفكرة الجهاد ضد أعداء الإسلام الذى حرص السلطان قطز منذ بداية عهده على غرسه في نفوس رجاله . ومن ثم اختيار المكان والزمان المناسب الذى يستطيع جيشه فيه ضرب المغول ضربة قوية لاتقوم لهم بعدها قائمة . وبالفعل فقد تمكنت جيوش المماليك بفضل هذا كله من تحقيق ذلك الإنتصار العظيم في عين جالوت .

وقد اثبتت الدراسة ان ذلك الانتصار العظيم الذى حققه المماليك في عين جالوت وما أعقبه من طرد المغول نهائيا من بلاد الشام يعتبر بحق من الحوادث الحاسمة ليس في تاريخ الشام ومصر فحسب ولافي تاريخ الأمم الإسلامية بمفردها وإنما في تاريخ العالم بأسره ، اذ برهنت الدراسة على ان ذلك الإنتصار العظيم لم ينقذ العالم الإسلامي وحده ، بل أنقذ العالم الأوربي والمدنية الأوربية من شر ذلك الغزو ، فلو تم للمغول إكتساح الأراضي المصرية والنفاذ إلى الشمال الافريقي لتمكنوا بكل سهولة من سلوك الطريق التقليدى إلى أوربا عبر صقلية وجبل طارق . لذا فإنه لايختلف اثنان في ان هذه المعركة تفوق في أهميتها المعارك الحربية الحاسمة في العصور الحديثة فهي لم تكن حربا بين شعوب راقية متحضرة تحكمها القوانين والقواعد والأعراف بل كان أحد طرفيها وهم المغول عبارة عن شعب بدائي بربرى متوحش سفاك للدماء مخرب لكل معالم الحضارة .

وثمة أهمية أخرى - هي ان انتصار المماليك في هذه المعركة قضى على المعارضة الأيوبية لهم في بلاد الشام وحصلوا بموجبه على ماكان ينقصهم من مجد سياسي كان لابد منه لتثبيت أركان دولتهم الفتية . فقد نسي الناس أصلهم غير الحر وتناسوا انهم اغتصبوا العرش من سادتهم الأيوبيين ، ولم يعد المسلمون يذكرون عنهم سوى شيئا واحدا ، هو ان المماليك انقذوا العالم الإسلامي من خطر الغزو المغولي المدمر ، وان بقاءهم في الحكم ضرورة لابد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى. وتوج سلاطين المماليك تلك الثقة التي أولوها بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة لتكتسب بذلك دولتهم صفة الشرعية الكاملة .

كما اثبتت الدراسة ان هذا الانتصار العظيم كان عاملا من عوامل انتشار الإسلام وقتئذ . فقد بعث روحا جديدة في المسلمين ، لاسيما مسلمي فارس الذين ارتفعت روحهم المعنوية وأخذوا يصمدون أمام مناورات المسيحيين وينافسونهم في تبوء مركز الصدارة في دولة المغول في ايران . وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الإسلامي ، حتى كللت مساعيهم بنجاح باهر ، أثمر عن اعتناق المغول في غرب اسيا للدين الإسلامي . بعد أن ثبت لهم صلاحيته لكل زمان ومكان وشموله لكل نواحي الحياة من خلال معاشرتهم لأهله ، ولبعده كل البعد عن الخلافات الجوهرية التي ابتلى بها الدين المسيحي . وذلك لكون الاسلام خاتم الأديان تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها .

وبرهنت الدراسة على ان انتصار المماليك في معركة عين جالوت كان له دور كبير في اضعاف بقايا الوجود الصليبي على ساحل بلاد الشام . فالذى لاشك فيه ان الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة بعد ذلك النصر العظيم الذى حققه المسلمون ضد المغول في هذه المعركة ، فسارع زعماؤهم - بعد أن أدركوا انـنهايتهم آتية لامحالة - بالتقرب إلى السلطان بيبرس وطلب مراحمه ، فعقد معهم معاهدات أملى شروطها بنفسه . وقام في الوقت نفسه بإبرام سلسلة من المعاهدات والاتفاقات الودية مع الدول الأجنبية القريبة من بقايا الصليبيين في بلاد الشام . وتمكن بفضله من إحكام العزلة على الصليبيين وذلك بحرمانهم من أي معونة خارجية . الأمر الذى عجل باقتلاع جذورهم نهائيا من ساحل بلاد الشام .

وبرهنت الدراسة أيضا على ان نتائج عين جالوت لم تقتصر على النواحي السياسية بل تعدت إلى النواحي الحضارية ، حيث جنبت

مصر ويلات الغزو المغولي المدمر ، ولم تتعرض القاهرة لما تعرضت له بغداد ودمشق وغيرهما من مدن ايران والعراق والشام من الخراب والدمار الذى عطل ماكانت تزخر به هذه المدن الإسلامية من الآداب والعلوم والفنون والمعالم الحضارية وبقيت القاهرة مكانا هادئا آمنا يهرع اليه العلماء والأدباء والفنانون ، حتى اكتسبت عاصمة المماليك مكانة ممتازة في هذا المجال إلى جانب مكانتها السياسية ، التي برهنت عما اكتسبه المماليك المسلمون من هيبة وقدرة في شئون السساسة والحرب ، اتضحت في علاقاتهم الخارجية الدولية الواسعة الانتشار وفي إصلاحاتهم وإداراتهم الداخلية الحازمة .

وعند دراسة موضوع جهاد السلطان الظاهر بيبرس ضد المغول والصليبيين ، أوضحت الدارسة ان الصليبيين في ساحل بلاد الشام شعروا بحرج موقفهم بعد انتصار المسلمين على المغول في عين جالوت ، فعاودهم الأمل في الاتصال بالمغول وطلب التحالف معهم طمعا في أحد أمرين ،إما تشجيع المغول في الاستمرار في ميدان الصراع لتخفيف الوطأة على أنفسهم . أو محاولة إحياء مشروع التحالف الصليبي المغولي الذى بات ضرورة قصوى تقتضيها الأوضاع السيئة التي آل اليها الصليبيون والمغول على حد سواء ، خشية ذلك النصر العظيم الذى حققه المماليك بكسر المغول وطردهم من بلاد الشام . والذى أدى بدوره إلى إضعاف بقايا الوجود الصليبي في ساحل بلاد الشام بعد تضييق الخناق عليهم - كماسبق أن اشرنا - ولكن السلطان الظاهر بيبرس واجه ذلك التقارب الصليبي المغولي - الذى كان نجاحه سيؤدى إلى تورط جيوشه في القتال على جهتين متباعدتين - بعقد تحالف مع بَرَكة خان مغول القفجاق الذى كان قد اعتنق الدين الإسلامي وكان على

عداء مع ابن عمه هولاكو، واستجاب بركة لدعوة الجهاد التي وجهها له السلطان بيبرس فهاجم هولاكو في إقليم فارس واشتبك معه في معارك حربية ضارية . وأضحى السطان بيبرس في وضع طيب بعد أن تمكن بفضل تحالفه مع بركة خان من تجميد نشاط المغول ضد دولته في مصر والشام وذلك باشغالهم في حروب داخلية وحرمان الصليبيين في الساحل من أية مساعدة خارجية ، الأمر الذى مكنه من توزيع نشاطه على الجبهتين الصليبية والمغولية معا .

وأوضحت الدراسة ان إمارة أنطاكية كانت أولى الإمارات الصليبية التي استهدفها السلطان بيبرس شروعه في الجهاد ضد الصليبيين لإقتلاع جذورهم من بلاد الشام ، وهنا تجلت براعة السلطان الحربية وحنكته السياسية وغيرته الدينية حين قصد إمارة أنطاكية في أقصى الشمال الغربي لبلاد الشام متخطيا بقية المراكز الصليبية في الوسط والجنوب وذلك لمعاقبة الأمير الصليبي بوهيمند السادس ، الذى كان قد انضم إلى صهره هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى ، وساعدا المغول في اكتساح مدن الشام الخاضعة للأمراء المسلمين من البيت الأيوبي . كما تمكن بيبرس بعد استيلائه على أنطاكية من فرض عزلة أخرى على الصليبيين في وبالأخص طرابلس التي كان يوهيمند مقيما بها آنذاك ، وقطع كل أمل لهم في الحصول على أية مساعدة من طرف آرمينيه الصغرى .

وكان لنجاح بيبرس في السيطرة على إمارة أنطاكية وتطويق الإمارات الصليبية في بلاد الشام أن أصبحت دولة المماليك تجاور مملكة أرمينيه الصغرى وكان من الطبيعي أن يوءدى ذلك التجاور إلى الإحتكاك المباشر ، سيما وان مملكة

أرمينية الصغرى ، مارست دورا صليبيا كبيرا ضد المسلمين منذ فجر الحروب الصليبية . وزادت على ذلك بتحالفها مع المغول بمجرد وصولهم الى منطقة الشرق الأدنى . لذا فقد أثبتت الدراسة ان استيلاء بيبرس على أنطاكية شجعه على السير قدما لمعاقبة مملكة أرمينية الصغرى ، وتقليم أظافرها حتى لاتبقى شوكة في جانبه اثناء جهاده لإقتلاع جذور الوجود الصليبي من بلاد الشام .

وبرهنت الدراسة على ان الضربة القوية التي أنزلها بيبرس بمملكة أرمينية الصغرى ، والتي أدت الى وأد نشوة الشباب التي كانت تلازم الملك الأرمني ليو الثالث ، والتي كان يشوبها جو من الحقد والكراهية نتيجة وقوعه في أسر المسلمين قد انعكست آثارها على المغول في فارس ، فراح إيلخانهم أبغا يفكر في قوة أخرى جديدة يفحمها في الصراع مع المسلمين ، فوقع اختياره على سلاجقة الروم الذين كانوا يدينون بالتبعية للمغول منذ دخول هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م . حيث قام بالاتصال بكبار أمراءهم وهاجم البيرة بمساعدتهم وذلك سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م ليفتح ذلك الهجوم المجال أمام السلطان الظاهر بيبرس لضرب الأناضول وإضعاف مكانة المغول بها ، حيث تمكن بيبرس بمساعدة بعض الأمراء السلاجقة الناقمين على السيطرة المغولية على بلادهم من أن ينزل بالمغول هزيمة مروعة في صحراء إبلستين . ليضيع بذلك على المغول فرصة مهاجمة بلاد الشام من تلك الناحية ، وليتفرغ لمواصلة مابدأه من جهود لتصفية الوجود الصليبي من ساحل بلاد الشام . إلا أن القدر لم يمهله بعد ذلك طويلا حيث توفى في سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م ولكن بعد وضع الأسس الصحيحة والكاملة لمن أتى بعده من سلاطين دولة المماليك الذين ساروا

على نهجه وأنزلوا بالصليبيين ضربات متلاحقه لم يفيقوا منها حتى ثم إقتلاع جذورهم نهائيا من بلاد الشام .

وعند دراسة جهاد أسرة قلاوون ضد المغول والصليبيين ،أوضح البحث ماحدث عقب وفاة السلطان بيبرس من انقسام في صفوف المماليك بسبب إقدام السلطان المنصور قلاوون من عزل ابناء الظاهر بيبرس ، والذى كان ضرورة اقتضها حركة الجهاد ضد المغول والصليبيين وقتئذ . ومع ذلك فقد نجح السلطان المنصور قلاوون في احتواء تلك الخلافات وتوحيد الكلمة داخل دولة المماليه لمواجهة الأخطار التي تكالبت عليها من جراء ذلك الانقسام خاصة بعد أن وضح ان المغول قد أفادوا من تلك الخلافات وقاموا بمهاجمة حدود دولة المماليك من الناحية الشمالية الشرقية في محاولة منهم للإنتقام لهزيمة جيوشهم في صحراء إبلستين ،فقد برهنت الدراسة على السياسة الحكيمة التي اتبعها السلطان قلاوون مع الأمير سنقر الأشقر ومن انضم اليه من الأمراء والمماليك لتهدئة الأمور معهم موءقتا ريثما يتم له تجنيب دولته محنة الهجوم المغولي عليها حيث خرجت قواته من الأراضي المصرية والتقت بقوات سنقر ورفاقه ووقفت صفا واحدا لمواجهة المغول وأنزلت بهم هزيمة ساحقة في معركة حمص الشهيرة . والتي نتج عن انتصار المسلمين فيها تخليص بلاد الشام مرة أخرى من نير الإحتلال المغولي . بعد أن لقنوهم في هذه المعركة درسا لن ينسوه .

وأوضحت الدراسة ان انتصار المماليك في معركة حمص، أحدث تحولا جذريا في علاقة المغول في فارس بنالدولة المملوكية . إذ أقدم كبار الأمراء المغول على إختيار السلطان المسلم أحمد تكدار ليلى عرش الإيلخانية بعد وفاة والده أبغا الذى توفى عقب

هذه المعركة مباشرة . وكان مرده شعورهم المتزايد بأن دولتهم باتت عاجزة من جراء الهزائم المتلاحقة التي منوا بها عن مواجهة دولة المماليك في الشام ومصر . وقد حرص السلطان أحمد تكدار على أن يبدأ عهده بإقامة علاقات طيبة مع المماليك قائمة على أساس احترام مبادىء الدين الإسلامي ومواجهة أعدائه . وكان من الممكن أن توقف هذه العلاقة الطيبة العداء بين الدولتين الجارتين ، ليتحقق للإسلام والمسلمين من خلالها فترة من التقدم والانتشار فيما لوا استمر الإيلخان أحمد فترة طويلة من الزمن على العرش الإيلخاني ولكن وفاته مقتولا سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م قضى على تلك الآمال ، حيث أقدم الإيلخان الجديد أرغون ، على نسف كل الجهود الذى بذلها السلطان احمد للتقارب بين دولة المغول في فارس والمماليك في مصر والشام . وزاد على ذلك باضطهاد المسلمين داخل دولته . وحرمهم منكافة المناصب التي كانوا يشغلونها كما أفسح المجال لوزيره سعد الدولة اليهودى في الكيد للإسلام والتآمر عليه والحط من شأنه .

ورغم تلك الصدمة العنيفة التي تلقاها المسلمون في تلك المناطق ، فقد خلص البحث إلى نتيجة هامة . هي ان موقف أرغون هذا لم يوءثر على انتشار الإسلام في صفوف المغول في فارس . إذ يبدو ان جموع المغول الوثنية ،نتيجة اختلاطهم بالمسلمين الأصليين في فارس ، قد وجدوا ضالتهم في الدين الإسلامي الحنيف ، فاقبلوا على اعتناقه وأصبح الإسلام دينا رسميا لدولتهم، يدلنا على ذلك ماقام به عدد من إيلخانات المغول الذين خلفوا ارغون من اعتناق الدين الإسلامي وتطبيق أحكامه داخل دولتهم .

وأوضحت الدراسة بعد ذلك ان السلطان قلاوون عمد بعد أن نسف أرغون محاولة التقارب بين المماليك والمغول إلى تحصين ثغور المسلمين على شاطيء الفرات الغربي ومن ثم اتجه إلى إتمام مشروع تصفية الوجود الصليبي . فرنا بناظريه إلى إمارة طرابلس ، فاستولى على المراكز الصليبية الموءدية اليها ثم هاجم المدينة نفسها مستغلا ذلك التفكك والخلل الذى دب في صفوف الصليبيين داخلها فاستولى عليها . ليضيف بذلك العمل الجليل ، إنجازا آخر إلى الإنجازات العظيمة التي حققها من سبقه من زعماء الجهاد . فلاغرو فقد كانت طرابلس قاعدة رئيسية وعاصمة لإمارة صليبية في الشرق الإسلامي أقام بها الصليبيون قرابة قرنين من الزمان .

وبرهنت الدراسة على ان هذا العمل الجليل ، قد شجع السلطان قلاوون على المضي قدما في طرد الصليبيين من آخر معقل لهم في الشرق الاسلامي ، مدينة عكا . ورغم ان القدر لم يمهله حتى ينال ذلك الشرف العظيم حيث توفى أثناء استعداده لمهاجمة عكا ، فقد قام ابنه الأشرف خليل من بعد بتنفيذ تلك المهمة ودق آخر مسمار في نعش الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي محققا بذلك آمال وطموحات سلاطين المماليك الذين حملوا لواء الجهاد منذ بزوغ نجم دولتهم وحققوا للإسلام والمسلمين أعظم انتصار شهده التاريخ ضد المغول والصليبيين .

وإلى جانب هذا فقد أثبتت الدراسة جدوى إهتمام المماليك باحياء فكرة الجهاد وغرسه في نفوس رجالهم على اعتبار انه فرض عين على كل مسلم مستطيع ، لا يقل عن كونه ركنا من أركان الإسلام . وكذلك الحال بالنسبة لنظام الإقطاع الحربي الذى اتخذ منه

سلاطين دولة المماليك وسيلة للصرف على جيوشهم بمختلف عناصرها . حيث قاموا بتوزيع أراضي مصر والشام على شكل إقطاعات بين أمرائهم وقادة جيوشهم ، مقابل التزامات حربية وخدمات مدنية يؤديها المُقطَع . وضمنوا بهذا النظام حصولهم وقت الحرب على جيش منظم مزود بكافة متطلبات القتال .

كما أوضحت الدراسة مدى ماوصل إليه سلاطين دولة المماليك من تقدم في وضع التنظيمات العسكرية البارعة لجيوشهم . إذ اتبعوا في جهادهم ضد المغول والصليبيين خططا عسكرية متنوعة ، منها ماكان يقوم على أساس الاشتباك مع العدو في معارك مكشوفة على شكل تعبئة قتالية مكونة من المقدمة والمؤخرة والقلب والجناحين ، ومنها ماكان يعتمد على أساليب الكر والفر والخداع والتمويه ونصب الكمائن وغير ذلك ، فضلا عما قامت به فرق من جيوشهم من أعمال فدائية كان الهدف منها إنهاك العدو وكشف خططه . يضاف إلى ذلك الخطط البارعة التي اتبعها سلاطين دولة المماليك في حصارهم للمدن والحصون والقلاع التي كانت تقوم على ضرب الأسوار والأبراج بالمنجنيقات ، ومن ثم تقدم فرق من جيوشهم على شكل زحوف تحميها سهام الرماة نحو الأسوار لنقبها وفتح الثغرات فيها تمهيدا لإقتحامها والاستيلاء عليها .

كما أوضحت الدراسة ايضا ان سلاطين دولة المماليك أدركوا منذ قيام دولتهم فى مصر ماللبحرية من أهمية في جهادهم لتصفية الوجود الصليبي من ساحل بلاد الشام ، فعملوا من بداية عهدهم على إعادة بناء الأسطول الإسلامي الذى كان قد ضعف في أواخر عهد الدولة الأيوبية . فأنشأوا دورا للصناعة

بالموانيء المصرية ، قامت ببناء أسطول إسلامي عظيم حقق المماليك بفضله إنتصارات بحرية عظيمة .

وألقت الدراسة الأضواء على مدى ماتوصل اليه المسلمون في ذلك الوقت من انتاج أسلحة متطورة كان لها الأثر البالغ فيما حققوه من انتصارات ضد المغول والصليبيين وحلفائهم فإلى جانب استخدامهم للأسلحة الثقيلة كالمنجنيقات والدبابات وغيرها . عرفوا أسرار أعظم سلاح عرفته العصور الوسطى ذلك هو سلاح النفط (النار الاغريقية) والبارود وبرع المسلمون آنذاك في صناعة أنواع متعدده منهما ، منها ماهو مماثل لما نشاهده في عصرنا الحاضر .

وأخيرا يمكن القول ان سلاطين دولة المماليك قطز وبيبرس وقلاوون وابنه الأشرف خليل حققوا أحلام زعماء الجهاد ضد الصليبيين عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وغيرهم ، باقتلاع الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي من جذوره . فضلا عماقاموا به من جهود جبارة في مواجهة الغزو المغولي المدمر على بلاد المسلمين . وعليه فستظل مكانتهم إن شاء الله في تاريخ الجهاد ضد أعداء الإسلام عظيمة خالدة أبد الدهر حتى يرث الله الأرض ومن عليها .


الملاحق

الملحق الاول

نص تقليد الخليفه العباسي المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس.(١) " الحمد لله الذى اصطفى الإسلام بملابس الشرف ، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف وشيد ماوهي من علائه حتى أنسى ذكر ماسلف ، وقيض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف .

أحمده على نعمة التي رتعت الأعين منها في الروض الأنف والطافه التي وقف الشكر عليها فليس له عنها منصرف . وأشهد أن لا آله إلاّ الله وحده لاشريك له ، شهادة توجب من المخاوف أمنا ، وتسهل من الأمور ماكان حزنا . وأشهد أن محمدا عبده الذى جبر من الدين وهنا ورسوله الذى أظهر من المكارم فنونا لافننا . صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقية لاتفنى وأصحابه الذين أحسنوا في الدين ، فاستحقوا الزيادة من الحسنى وسلم تسليما كثيرا .

وبعد فان أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا في تسطير مناقبه وبره من سعى ،فاضحى بسعيه الحميد متقدما ، ودعا الى طاعته ، فاجأب من كان منجدا ومتهما ، ومابدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما ،ولا استباح حمى وغي إلاّ أضرمه نارا أو أجراه دما .

---

١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٠٢ ومابعدها .

ولما كانت هذه المناقب مختصة بالمقام العالي المولو السلطاني الملكي الظاهري الركني شرفه الله بـ إعلاه - ذكره الديوان العزيز النبوى الإمامي المستنصرى - أعز الله سلطانه - تنويها بشرف قدره واعترافا بصنعه التي تنفذ العبارة المسهبة ولاتقوم بشكره ، وكيف لا ؟ وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت ماكان لها من محاسن وإحسان ، وأعتب دهرها المسيء لها فاعتب ، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها حربا ، وصرف اليها اهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها رحبا ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا ،وأظهر من الولاء رغبة في ثواب الله مالايخفى ، وأبدى من الإهتمام بأمر الشريعة البيعة أمرا لو رامه غيره لامتنع عليه ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به قبل الوصول إليه ، لكن الله ادخر هذه الحسنه ليثقل بها ميزان ثوابه ويخفف بها يوم القيامة حسابه ، والسعيد من خفف حسابه ، فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها في صحيفة صنعه ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه ، بعد أن حصل الاياس من جمعه .

وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الرقع ، وقد قلدك الديار المصرية ، والبلاد والديار بكريه والحجازية واليمنية ، والفراتية ومايتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها اليك ، حين أصبحت بالمكارم فردا ، وماجعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون مستثنى ، ولاجهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى .

فلاحظ أمور الأمة ، فقد أصبحت لها حاملا ،وخلّص نفسك من التبعات اليوم ، ففي غد تكون مسوءولا لا سائلا ،ودع الاغترار

بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلا وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالا زائلا ، فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة ، وقدم لنفسه زاد التقوى فتقدمة غير التقوى مردودة لامقبولة وابسط يدك بالإحسان والعدل ، فقد أمر الله بالعدل والإحسان وكرر ذكره في مواضع من القرآن وكفر به من المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما ، وجعل يوما واحدا منه كعبادة العابد ستين عاما ، وماسلك أحد سبيل العدل إلا واجتنيت ثماره من أفنان ، ورجع الأمر به بعد تداعي أركانه وهو مشيد الأركان وتحصن به منحوادث زمانه - والسعيد من تحصن من حوادث الزمان ، وكانت أيامه في الأيام أبهى من الأعياد ، وأحسن في العيون من الغرر في أوجه الجياد ، وأحلى من العقود اذا حلى بها عطل الأجياد .

وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام ، فاذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيبا ، واجعل عليه في تصرفاته رقيبا ،وسل ، عن أحواله ففي يوم القيامة تكونعنه مسؤولا وبما أجرم مطلوبا ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لاذنوبا ، وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق ، ومخالفة الهوى اذا ظهرت أدلة الحق ، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق ، وأن لا يعاملوا أحد على الاحسان والإساءة إلا بمايستحق وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعية إخوانا ، وأن يوسعوهم برا وإحسانا وأن لا يستحلوا حرماتهم اذا استحل الزمان لهم حرمانا ، والمسلم أخو المسلم ،ولو كان أميرا عليه أو سلطانا ، فالسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله ، وتحملوا عنه

ماتعجز قدرته عن حمل أثقاله .

ومما يؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيء السنين وجدد من المظالم التي هي على الخلائق من أعظم المحن ، وأن يشترى بإبطالها المحامد فإن المحامد رخيصة بأغلى ثمن ، ومهما جبى منها من الأموال ، فإنما هي باقية في الذمم حاصلة ، وأجياد الخزائن إن أضحت بها خالية فإنما على الحقيقة منها عاطلة ، وهل أشقى ممن احتقب إثما ، واكتسب بالمساعي الذميمة ذما ، وجعل السواد الأعظم يوم القيامة خصما ، وتحمل ظلم الناس فيما صدر عنه من أعمال (وقد خاب من حمل ظلما).[1]

وحقيق بالمقام الشريف السلطاني الملكي ، الظاهري ، الركني أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله وعزائمه تخفف ثقلا لا طاقة لهم بحمله ، فقد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعت له الأيام مالم تصنعه لغيره ممن تقدم من الملوك ، وان جاء اخرا . فاحمد الله على أن وصل إلى جنابك امام هدى أوجب لك مزية التعظيم ، ونبه الخلائق على ماخصك الله به من هذا الفضل العظيم . وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى ، وأن يوالي عليها حمدا لله ، فإن الحمد يجب عليها عقلا وشرعا ، وقد تبين أنك صرت في الأمور أصلا وصار غيرك فرعا .

ومما يجب ايضا تقديم ذكره ، أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذى يرجع به مسود الصحائف مبيضا ، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، وخصهم بالجنة التي (لا لغو فيها ولا تأثيم)[2]

---

١) سورة طه الآيه ١١١ .

٢) سورة الطور الآيه ٢٣ .

وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء أسرعت في سواد الحساد ، وعُرفت منك عزمة هي أمضى ماتحنه ضمائر الأغماد واشتهرت لك مواقف في القتال هي اشهر وأشهى إلى القلوب من الأعياد ، وبك صان الله حمى الإسلام من أن يبتذل وبعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول ، وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحا لاتندمل ، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلاقة إلى ماكان عليه في الأيام الأولى ، فايقظ لنصرة الإسلام حقا ماكان غافيا ولا هاجعا ، وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا ، وأيد كلمة التوحيد ، فما تجد في تأييدها إلا مطيعا سامعا .

ولاتخل الثغور من اهتمام أمرها ،تبتسم له الثغور ، واحتفال يبدل مادجى من ظلماتها بالنور ، واجعل أمرها على الأمور مقدما ، وشيد منها كل ماغادره العدو متهدما ، فهذه حصون بها يحصل الانتفاع وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع ، وأولاها بالاهتمام ماكان البحر له مجاورا والعدو له ملتفتا ناظرا ، لاسيما ثغور الديار المصرية ، فان العدو وصل اليها رابحا وراح خاسرا واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثرا .

وكذلك الاسطول الذى ترى خيله كالاهلة ،وركائبه سائقة بغير سائق مستقلة ، وأخو الجيش السليماني ، فان ذاك غدت الرياح له حاملة ، وهذا تكفلت بحمله المياة السائلة ، وإذا لحظها الطرف جارية في البحر كانت كالأعلام ، وإذا شبهها قال " هذه ليال تقلع بالايام " .

وقد سنى لك الله من السعادة كل مطلب ،وآتاك من أصالة الرأى الذى يريك المغيب ، وبسط بعد القبض

منك الأمل ، ونشط بالسعاده ماكان من كسل ، وهداك إلى مناهج الحق ، ومازالت مهتديا إليها ، والزمن الراشد فلاتحتاج إلى تنبيه عليها . والله يمدك بأسباب نصره ، ويوزعك شكر نعمه ، فان النعمة تستثمر بشكره ان شاء الله تعالى .

الملحـــق الثانـــــي

مضمـون كتـب وردت إلى السـلطان الظاهر بيبـرس مـــــن عنـد مقـدم الاسبتاريه سـنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م وجواب السلطان عليها .(١)

" وكـان مقـدم(٢) الاسبتـار قد كتب عدة كتب ، منها جـواب عن مشـافهة على لسـان كنـدو (٣) الداوية ، مضمونها : إنكم نقضتـم العهـد بأمـور منها سـوف تسـمعونها ، يعنى بأخبار التتـار ، فكتب السـلطان اليهم : إن شـرط الهدنـة التي كانت بيننا لاتجـدد بناء (في الأصل لايحدد بنا) ، وقد شـرع بيت الاسبتار في بناء ربـض على أرسـوف وغير ذلك ، وهـذا من بعض ماينقض العهد . فردوا الى السـلطان : إنـا لم نبـن هـذا الربض إلا لحمايـة الصعاليك من متجرمة المسلمين ، إلى غيـر ذلك ممايشبه هذا الكلام . فكان جواب الملك الظاهـر : أمـا تجديد الربض لحفظ الصعاليك ، فالبلاد ماتحفظ بالأسوار ولا تحفظ الرعية ولا (كذا) بالخنادق ، ولاتحفـظ إلا بأحد أمرين ، إمـا بالسـيوف والعزائم ، وإما بإحسـان الجيره وكف الأذى . ومن يخـاف من اللصوص لملايخاف من غيرهـم ؟ وأمـا أمـر التتـار ، وماجعلنـا حصوننا إلا خيولنا ، ولاخنادقنا إلا سيوفنا ، و لا أسوارنا إلا رجالنـا . وأما قولكم إن قلاعكم ماتخاف إلا الله ، ولايجسر أحد أن يصل اليها . فسوف ترون كيف يكون الوصول إليها ، إن شاء الله تعالى . ومايفزغ من أخبـار التتـار إلا مثلكم ، وإلا هذه عساكرى أولها في الفرات وآخرها في عيـذاب وماهي متواصلـة ."

---

١) ابن واصل ،مفرج الكروب ،ورقة ٤١٤ ب ،٤١٥ أ .

٢) كان مقدم الاسبتاريه ورئيسها تلك السنة (F. Hugh Revel)
أنظر ،المقريزى ،السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٩٦٥ .

٣) هذا اللفظ تعريب حرفي لكلمة (Commander) في اللغه الإنجليزيـة===

=== والراجح أن مرادفها في العربية الصحيحة لفظ المقدم ،وهو الذى يلي الرئيس العام (Grand Master) في ترتيب الوظائف الكبرى عند الاسبتارية والداوية (Templars)
ويظهر ان الرئيس العام في كل من الهيئتين كان يحتفظ لنفسه بوظيفته الأصلية مع وظيفة الرئاسة ، هذا وقد كان مقدم الداوية ورئيسها تلك السنة (Thomas Bernard)
(انظر ،المقريزى ،السلوك ،).

الملحـــق الثالـــــث

نصُّ كتـاب السلطان الظاهـر بيبـرس إلى بوهيمنـــد السـادس (Bohemond VI) أمير أنطاكيه وطرابلـــس ، بعد فتح أنطاكيـة سـنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م)[1] .

قد علـم القومـص[2] الجليل المبجل ، المعزّز الهمـام الأسـد الضرغـام ، بيمند فخـر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبيـة كبير الأمة العيسوية ، المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكيـة (منه) مـن البرنسـية[3] الى القوموصيـة ، ألهمـه الله رشـده ، وقرن بالخيـر قصـده ، وجعـل النصيحة محفوظـة عليه ، ماكان من قصدنا طرابلـس وغزونـا له في عقـر الدار ، وما شـاهده بعد رحيلنـا من إخراب العمائـر وهـدم الأعمـار، وكيف كنسـت تلك الكنائـس من بسـاط الأرض • ودارت الدوائر على كل دار ،وكيف جعلت تلك الجزائـر من الأجساد على سـاحل البحر كالجزائر، وكيف قتلـت الرجـال واستخدمت الأولاد وتملكت الحرائر ، وكيف قطعت الأشجـار ولـم يترك إلا مايصلـح لأعـواد المجانيق إن شـاء الله والستائر، وكيف نهبـت لك ولرعيتك الأمـوال والحريم والأولاد ( ) والمواشي ،وكيف استغنـى الفقيـر وتأهـل العازى واستخدم الخديم وركب الماشي •

---

١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ،ص ١٠٢ ومابعدها•

٢) القومص تعريب اللفظ اللاتيني (Comes) وهو في الفرنسـية (Comte) ، وفي العربية الدارجه "الكونت" (أنظر المقريـزى، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٩٦٦)•

٣) البرنسيه صفة البرنس ، وهو معرب اللفظ اللاتيني (Princeps) أو (Prince في الفرنسيه والإنجليزية • (أنظر المقريزى، المصدر نفسـه)•

هذا وأنت تنظر نظر المغشيّ عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتا قلت فزعا عليّ بهذا الصوت ، وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود ، وأخّرناك وماكان تأخيرك إلا لأجل معدود ، وكيف فارقنا بلادك وما بقيت ماشية إلا وهي لدينا ماشية ، ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية ، ولا سارية إلا وهي من أيدى المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولاموجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولا منعتك تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة ، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم مخترقة وللعقول خارقة ، وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا الى مدينتك أنطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لاتصدق أننا نبعد عنك وإن بعدنا فسنعود على الأثر .

وها نحن نعلمك بماتم ، ونفهمك بالبلاء الذى عم: كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشرى شعبان ،ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان . وفي حالة النزول خرجت عساكر المبارزة فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، وأسر من بينهم كنداسطبل [1] ، فسأل مراجعة أصحابك فدخل إلى المدينة ،فخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك ، فتحدثوا معنا فرأيناهم على رأيك من اتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، وأن رأيهم في الخير مختلف وقولهم في الشر واحد . فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت ، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ،رددناهم وقلنا : نحن الساعة لكم نحاصر وهذا هو الأول في الإنذار والآخر ، فرجعوا متشبهين بفعلك ،

---

١) الكنداسطبل معرب اللفظ الاتيني المركب (comes stabuli)،ومعناه في مصطلح العصور الوسطى الأوربية حاكم القلعة وحارسها ، ويقابله في مصطلح الدول الاسلامية لفظا "الذزدار " و "المستحفظ"،(أنظر المقريزى ،السلوك ، ج١ ،ق٣ ، ص ٩٦٧).

ومعتقدين انك تدركهم بخيلك ورجلك · ففي بعض ساعة مرشان المرشان[١] ، وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان[٢] ، وجاءهم الموت من كل مكان ·

وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا ، فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها ·

فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهّابة فيها تصول ، والكسّابة[٣] فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ودامتك[٤] وكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار - ؛ ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت ،وصحفها من الأناجيل المزورة قد نشرت ، وقبور البطارقة قد بعثرت ، ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس

---

١) المرشان تعريب لفظ (mareschal) في الفرنسية القديمة وهو مأخوذ من اللفظ اللاتيني (mariscalcus) ، ومعناه في مصطلح التاريخ الأوربي في العصور الوسطى " منظم الحفلات والمجالس " في البلاط ، وربما كان مرادفه في مصطلح دولة المماليك وظيفة " أمير مجلس " (أنظر المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق٣ ،ص ٩٦٧)·

٢) القسطلان معرب اللفظ اللاتيني (Castellanus) وهو حارس القصر (أنظر المقريزى ، المصدر نفسه)·

٣) ترجم (Quatremere : Op. Cit. 1.2. P. 193) هذا القول الى (ceux qui cherchaient) ، أى الذين كان همهم كسب الغنائم · (انظر المقريزى ، المصدر نفسه ،ج١ ،ق٣ ،ص ٩٦٨) ·

٤) ترجم (Quatremere:Op.Cit. 1.2.P. 193 هذا اللفظ الى (Joyaux) ، أى الجواهر الثمينة ،ولعله مخطيء هنا ، اذ ليس من المعقول أن تباع الجواهر الثمينة أربعة بدينار كما =====

مكان القداس والمذبح ، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس ،ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ، وقصورك وأحوالها قد حالت ، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد زلت وزالت - ، لكنت تقول " ياليتني كنت ترابا ! وياليتني لم أوت بهذا الخبر كتابا ! " ، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفيء تلك النيران بماء عبرتك ، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك ، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك ، فصارت شوانيك من شوانيك ، لتيقنت أن الإله الذى أعطاك أنطاكية منك استرجعها ، والرب الذى اعطاك قلعتها منك قلعها ، ومن الأرض اقتلعها .

ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ماكنت أخذته من حصون الإسلام : وهو ديركوش وشقيف تلميس وشقيف كفردئين ، وجميع ماكان في بلاد أنطاكية ، واستنزلنا أصحابك من الصياصي ،وفرقناهم في الداني والقاصي ،ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان ,الا النهر ، فلو استطاع لما سمي بالعاصي ، وقد أجرى دموعه ندما ، وكان يذرفها عبرة صافية ، فما هو أجراها بما سفكناه فيه دما .

وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بماوهبك الله من السلامة ، وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة ، وكونك

=== بالمننن ، وربما كان هذ اللفظ تعريبا للكلمة الفرنسيه (dames) ، أى النساء ،أو لعل المقصود لفظ " الدميات " وهو جمع " دمية " .
(أنظر المقريزى ، السلوك ،ج١ ،ق ٣ ، ص ٩٦٨) .

ماكنت بها فتكون إما قتيلا وإما أسيرا ، وإما جريحا وإما كسيرا ، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات ، ولعل الله ماأخرك إلا لأنّ تستدرك من الطاعة والخدمة مافات .

ولمّا لم يسلم أحد يخبرك بما جبرناك ، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ماسواها باشرناك بهذه المفاوضةْوبشرناك لتتحقق الأمر على ماجرى .

وبعد هذه المكاتبة لاينبغي لك أن تكذب لنا خبرا كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبرا " قال ولما وصل اليه (ص ٢٥٣ أ) هذا الكتاب اشتد غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكيةْ إلا من هذا الكتاب .

الملحـــق الرابـــــــــــع

نصّ شروط الهدنة بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبيت الاسبتار وإمارة طرابلس في المحرم سنة ٦٨٠هـ (أبريل ١٢٨١م)[1]

ذكر ماتقرر من المهادنات مع الفرنج على ماذكر.

وفيها تقررت الهدنة بين السلطان وولده معا ، وبين مقدم بيت الاسبتار وجميع الإخوة الاسبتارية ، لمدة عشر سنين كوامل متتابعات وعشر شهور وعشرة أيام وعشر ساعات ، أول ذلك يوم السبت ثاني عشر محرم سنة ثمانين وستمائة ، الموافق الثالث من شهر ايار سنة (   ) ألف وخمسمائه (و) اثنين وتسعين للاسكندر بن فيلبس اليوناني ، على جميع بلاد السلطان وما اشتملت عليه من الأقاليم والممالك والقلاع ، و المدن والحصون والبلاد والقرى ، والمزارع والأراضي والمواني والبحور ، والمراسي والثغور ، وسائر البلاد من الفرات إلى النوبة ، وعلى التجار والمسافرين في البر والبحر والسهل والجبل ، في الليل والنهار ، وعلى قلعة المرقب وربض المرقب بحقوقه وحدوده .

وتقررت الهدنة مع متملك طرابلس بيمند بن بيمند ، لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات يتبع بعضها بعضا ، أولها يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ثمانين وستمائة الموافق للخامس من تموز سنة ألف وخمسمائه (و) اثنتين وتسعين للاسكندر ، وآخرها سابع عشر ربيع الأول سنة تسعين وستمائة للهجرة النبوية . وذلك على بلاد السلطان الملك المنصور وبلاد ولده السلطان الملك الصالح أعز الله نصرهما ، قريبها وبعيدها ، سهلها وجبلها ، غورها ونجدها ، قديمها ومستجدها ، وماهو مجاور لطرابلس ومحادد

---

1) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ .

لها من المملكة البعلبكية جميعها ، وجبالها وقراها الرحلية والجبلية ، وجبال الضّنيين والعضبين وما هو من جملتها وحقوقها وعلى الفتوحات المستجدة : وهي حصن الأكراد وبلاده وأقليس وبلادها والقليعات وبلادها ، وصافيتا ( ) وبلادها ، وميعار وبلادها واطليعا وبلادها ، وحصن عكار وبلاده ، ومراقيه ومدينتها وبلادها ومناصفاتها : وهي بلاد اللكمة (وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها) ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الاسبتار وبلدة ومدينته وبلاها ، وماهو محسوب منها ومعروف بها من حصون وقرى ، وبلاد الست وبلاطنس وبلادها ، وقرفيص وبلادها ، وجبلة وبلاد اللاذقية وأنطاكية وبلادها ، والسويدية وميناوءها ، وحصن بغراس وبلاده ، وحصن ديركوش وبلاده وشقيف تلميس وبلاده ،وكفر دنين وبلاده ، والدربساك وبلاده ، وثغرى الشغر وبكاس وبلادهما ، والقصير وبلاده ،وصهيون وبلادها ، وبرزية وأعمالها ، والقلعية وأعمالها ، وعيدوا وأعمالها ، ومصياف وبلادها ، وحصون الدعوة وما اشتملت عليه من البلاد والقلاع : وهي القدموس والكهف والمنيقه والخوابي والرصافي والقليعة والعليقة ، والمملكة الحلبية وحصونها ومدنها وبلادها ، وشيزر وأبو قبيس وبلادها ، والمملكة الحموية وبلادها ، والمملكة الحمصية وبلادها ، وجميع ما لمولانا السلطان من ممالك وحصون وبلاده ، وقلاع وثغور وأبراج ، وموان وسواحل وبرور وأنهار ، وبساتين ومصايد وملاحات ،وسهل وجبل وعامر ودائر ،وجميع الامطار مصريها وشاميها وساحليها وحجازيها وغربها وشرقها (ص ١٢٥ب) وما سيفتحه الله على يده ويد ولده ويد عساكرهما وجنودهما من الممالك والحصون ،وعلى بلاد الابرنس : وهي طرابلس وماهو داخل بها ومحسوب منها ،وأنفه وبلادها وجبيل وبلادها ،ومدينة البثرون وأعمالها ،وصنم جيبل وبلاده ،وعرقا وبلادها المعينة في الهدنة ومدتها إحدى وخمسون ناحية ،وما هو للخيالة والكنائس وعدتها أحد وعشرون بلدا ، وماهو للفارس روجار دلالولاى من قبلي طرابلس يكون مناصفة ، وعلى ان يستقر برج اللاذقية وما تجدد فيه لخاص الإبرنس .

ويستقر النواب من الجهتين بمدينة اللاذقية وميناءها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفات، ويستقر مقامهم بمدينة اللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية (بيبرس) وكذلك في رعايا مدينة اللاذقية وبلادها، على ماتضمنته الهدنة الظاهرية (بيبرس)، وعلى ان يكون على جسر ارتوسية من غلمان السلطان لحفظ الحقوق والغلات ستة عشر نفرا: وهم المشد وغلامه والشاهد وغلامته، والكاتب وغلامه، وعشرة أنفار رجالة في خدمة المشد، ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنون فيها على العادة، ولايحصل منهم مضرة لرعية الإبرنس، وأن يمنعوا مايجب منعه من الممنوعات والا يمنعوا مايكون من عرقا وبلادها، ومايعبر من غلالها ومن أراضيها، ممايستغل منها ومن بلادها على ماتشهد به الهدنة، من ( ) الصيفي والشتوى، وغير ذلك ممايتعلق بعرقا وبلادها لا يعارضهم المشد فيه وماخلا ذلك مما يعبر من بلاد مولانا السلطان توءخذ عليه الحقوق، ولاتدخل الى طرابلس غلة محمية باسم البرنس ولا أصحابه إلا (و) توءخذ الحقوق عليها، وعلى أن الإبرنس لا يستجد خارج مدينته، ولا في البلاد التي وقعت الهدنة عليها بناء يمنع ويدفع، وعلى الشواني من الجهتين أن تكون آمنة من الأخرى، وكذلك مولانا السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل مجاورة للبلاد التي وقعت الهدنة عليها، ولا ينتقض ذلك بموت أحد من الجهتين ولا بتغييره، ولا برجل غريبه من الفرنج أو التتار بل تكون هذه الهدنة باقية. ومتى جاءت رجّل غريبة يداريهم عن بلاده وعن نفسه، ولا يدخل في مشورة توءدى إلى اعتماد سوء أو مكروه ولا يحسن لأحد من أعداء مولانا السلطان، ولا يتفق عليه برمز ولا خط، ولا مراسلة ولا مكاتبة ولا مشافهة، فتقرر الحال على ذلك، وعادت رسل كل جهة اليها.

الملحـــق الخامـــس

نص كتـاب السلطان أحمـد تكـدار الى السلطان المنصـور قلاوون سـنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م وجواب السلطان قـلاوون عليـه .(١)

بسـم اللـه الرحمن الرحيم ،بقوة الله تعالى ،بإقبال قا آن(٢) فرمـان أحمـد // الى سلطان مصـر : أمـا بعد ،فان الله سبحانه وتعالـى بسابق عنايتـه ، ونور هدايتـه ، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبـا وريعـان الحداثة ، الى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ،والشهادة بمحمـد عليه أفضل الصلـوات والسـلام ، بصدق نبوتـه ، وحسن الاعتقـاد في أوليائـه الصالحين من عبـاده في بريته ." فمن يرد اللـه/ أن يهديـه يشـرح صـدره للاسـلام "(٣) فلـم نزل نميـل الى إعلاء كلمة الديـن ، وإصلاح أمـور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى بعد ابينا الجيـد وأخينـا الكبيـر نوبـة الملك الينـا ، فأفـاض علينـا من جلابيـب الطافـه ولطائفـه ، ماحـقق به آمالنـا في جزيـل آلائـه وعوارفـه . وجـلا هذى المملكة علينـا . وأهـدى عقيلتها الينا . فاجتمع عندنا // في قوريلتـالي(٤) المبـارك ـ وهو المجمع الذى تنقدح فيه الاراء ـ جميـع

---

١) ابن عبدالظاهر ،تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصـور قلاوون ، ص ٦ ومابعدها .

٢) قـا آن : قـآن = خـان .

٣) الآيه ١٢٥ من سورة الأنعام ويدل أول الخطاب على ان أحمد خـان اعتنق الاسلام منذ حداثتـه .

٤) قوريلتـالي : قور يلتـاى (كماورت بعد ذلك في النص : وهي في التركية (quriltay) هو الاسم المغولي لمجلس السلطنة الذى يختـار الحكام ويدرس المسائل العويصة التي لايريد الحاكم ان يفصل فيهـا وحده ؛(أنظر ابن عبدالظاهر ،الصمدر نفسه ، ص ٧ .)

الإخـوان(١) والأولاد(٢) والأمراء الكبـار ، ومقدمو العساكر وزعمـاء البلاد. واتفقت كلمتهم على تنفيـذ ماسبق به حكم أخينا الكبير ، في انقـاذ الجم الغفيـر من عساكرنـا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتهـا وامتلاتْ الأرض رعبا لعظيم صولتها ، وشديد بطشتهم الى تلك الجهـة ، بهمة تخضع لها شم الأطواد وعـزمة تلين لها صم الصلاد . ففكرنا فيمـا تمخضت زبـدة عزائمهم عنه ، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه . فوجدنـاه مخالفـا لما كان في ضميرنـا من اقتنـاء الخير العام ، الذى عو عبـارة عن تقوية شعار الإسلام . وألاّ يصدر عن أوامرنـا – ما أمكننا – إلا مايوجب حقـن// الدماء ، وتسكين الدهماء ، وتجـرى به في الأقطار رخاء نسـائم الأمن والإمـان ، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقـة والإحسان ، تعظيما لأمـر الله ،وشفقة على خلق الله . فألهمنا اللـه – تعالى – إطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، وإعلام مـن أشـار بذلك / الرأى بما أرشدنا إليه : من تقديم مايرجى به شـفاء مزاج العالم من الأدواء(٣) . وتأخير مايجب أن يكون آخر الدواء ، وأننـا لا نحب المسارعة إلى هز النصـال للنضـال ،إلا بعد إيضاح المحجة ، ولا نأذن لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة . وقوى عزمنا على مارأينـاه من دواعي الصلاح. وتنفيذ ما// ظهر لنا به وجه النجاح . اذكار شـيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين ،عبدالرحمن الذى هو نعم العون لنـا

---

١) الإخوان : ترجمة للتعبير المغولي " أقاواينـي aqawaini " أى الإخوة الكبار والصغار ، أو أمراء البيت المالك والتي نجدهـا في النصوص الفارسية التي تتحدث عن تاريخ خلفاء جنكيز خان وفـي المغولية أقا aqa أى الاخ الأكبر أو شيخ القبيلة أو رأس الأسـرة أيني ini أى الأخ الأصغر . (أنظر ابن عبدالظاهر ،تشريف الايـام والعصور ،ص ٧).

٢) الأولاد: ترجمة للفظة المغولية "أوغول" أى ولد ويضيفها المغول الى اسم الملك للدلالة على ان المسن من العائلة المالكة وبذلك يكون معناها هنا : الأمراء : (أنظر ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه).

٣) الأدواء : أى الحرب . (ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه).

في أمور الدين • فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه • ونقمة على من أعرض عنه وعصاه • وأنفذنا اقضى القضاة قطب الملة والدين والأتابك بهاء الدين ، اللذين هما من ثقات هذه الدولة/ الزاهرة ليعرفاهم طرايقتنا •

ويتحقق عندهم ماتنطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ويبينا لهم أننا من الله على بصيرة ، وأن الاسلام يَجبّ ماقبله ، وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن نتبع الحق وأهله ، ويشاهدون عظيم نعمة الله على الكافة بمادعانا إليه : من تقديم أسباب الإحسان ،ولا يحرموها بالنظر إلى سالف // الأحوال فكل يوم هو في شأن • فان تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الإعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا إلى ماظهر من مآثرنا ، مما اشتهر خبره وعم أثره ، فاننا ابتدأنا ـ بتوفيق الله تعالى ـ باعلاء أعلام الدين واظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره تقديما ،وإقامة نواميس/ الشرع المحمدى على مقتضى قانون العدل الأحمدى اجلالا وتعظيما • وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف ، وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عماسلف • وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع البر والربط // الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة الى مستحقيها لشروط واقفيها ، ومنعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها ، وإلا يغير أحد مما قرر أولا فيها • وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سلبها وتسيير قوافلها • وانا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد / ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم، وحرمنا على العساكر والقراغول[1] .

---

١) القراغول : عند المغول تطلق على حراس الطريق • (أنظر ابن عبد الظاهر ،تشريف الأيام والعصور ، ص ٥٩)

والشحاني في الأطراف(٢)

التعرض بهم في مصادرهم ومواردهم ، وقد كان صادف قراغولنا جاسوسا في زى الفقراء كان سبيل مثله أن يهلك ، فلم يهرق دمه لحرمة ماحرمه الله تعالى ، وأعدناه اليهم . ولايخفى عنهم ماكان في إنفاذ الجواسيس // من الضرر العام للمسلمين ، فإن عساكرنا طالما رأوهم في زى الفقراء والنساك وأهل الصلاح فساءت ظنونهم في تلك الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وفعلوا بهم مافعلوا ، وارتفعت الحاجة بحمد الله تعالى إلى ذلك بماصدر اذننا به من فتح الطريق وتردد التجار وغيرهم . فاذا أمعنوا الفكر/ في هذه الأمور وأمثالها لايخفى عنهم أنها اخلاق جبلية طبيعية وعن شوائب التكلف والتصنع عرية . وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة المخالفة ، فإنها كانت بطريق الدين ، والذب عن حوزة المسلمين. فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين. وإن كانت // لماسبق من الأسباب فمن تحرى الآن طريق الصواب ،فإن له عندنا الزلفى وحسن مآب وقد رفعنا الحجاب ، وآتينا بفصل الخطاب وعرفناهم ماعزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحرمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها ، لنرضى بها الله والرسول ، وتلوح على صفحاتها/ آثار الإقبال والقبول . وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وتنجلى بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغمة . فتسكن في سابع ظلها البوادى والحواضر ، وتقر القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر ، ويعفى عن سالف الهنات والجرائر ، فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار مافيه صلاح

---

١) الأطراف : ومعنى اطراف في الأصل النواحي المتطرفة ومقاطعات الحدود واتت بمعنى العامة أو الطبقة الدنيا من الناس ،جاء في الكامل " رجل من أطراف الناس" وجاء في المنهل الصافي " كان من الأطراف الذين قدمهم الملك الموئيد" وجاء في النويرى " يتجنبون الفقهاء والعلماء والأدباء والعقلاء، وكانوا يطلبون أطراف البلاد أى العامة (أنظر ابن عبدالظاهر ،تشريف الأيام والعصور ،ص ٩) .

العالم ،// وانتظام أمور بني آدم ، فقد وجب عليك التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك الممالك والبلاد ،وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحل الكافة أرض الهويني وروض الدون ، وتخلص رقاب المسلمين/ من أغلال الذل والهون . وإن غلب سوء الظن بماتفضل به واهب الرحمة ، ومنع عن معرفة قدر/هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا ، وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا[1] ، والله الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد ، وحسبنا الله وحده .

كتب في أواسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين // وستمائة بمقام الأطاق[2] .

وكتب مولانا السلطان جوابه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ،بإقبال دولة السلطان الملك المنصور:

كلام قلاوون/ إلى السلطان أحمد /

أما بعد حمد الله الذى أوضح بنا ولنا للحق منهاجا ، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا . والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذى فضله الله على كل نبي ،نجّي به أمته ، وعلى كل نبي ناجى ،صلاة تنير مادجا وتُنير من داجَي . فقد

---

١) اقتباس من الآية ١٥ من سورة الإسراء .

٢) كتب .. سنة ... بمقام الأطاق utaq وتكتب أيضا أوطاق otaq كلمة تركية بمعنى غرفة ـ خيمة أو مجموعة خيام أو معسكر ، والمعنى هنا بمعسكر السلطان . (انظر ، ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه).

وصل الكتاب الكريم // ، المتلقى بالتكريم ، المشتمل على النبأ العظيم : من دخوله في الدين ، وخروجه عمن خلف من العشيرة والأقربين .

ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر للمُعْلَم المُعْلِم . والحديث الذى صح عند أهل الإسلام إسلامه ، وأصحّ الحديث ماروى عن مسلم . وتوجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يثبته على ذلك بالقول / الثابت ، وان ينبت حَبّ حُبّ هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أُخشن المنابت .

وحَصَل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من خديث إخلاصه النيةُ في أول العمر ، وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية ودخوله في الملة المحمدية ، بالقول والعمل والنية . فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام ، والهمه شريفه// هذا الإلهام ، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام . وأما إفضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه ، وإفاضة جلابيب هذه المواهب العظيمة عليه ، وتوقّلة الأسِرّة التي طهرها إيمانه ، وأظهرها / سلطانه ، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده وصدّق المبشّرات له من كرامة اولياء الله وعباده .

وأما حكاية اجتماع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمي العساكر وزعماء البلاد في مجمع قوريلتاى الذى تتقدح فيه زبدة الآراء وأن كلمتهم قد اتفقت على ماسبقت به كلمة أخيه الكبير في // انفاذ العساكر إلى هذا الجانب ، وأنه فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم ، وانتهت اليه أهواؤهم فوجده مخالفا لما في ضميره ؛ إذ قصده الصلاح ، ورأيه الإصلاح ، وأنه أطفأ تلك النائرة وسكن

تلك الثائرة فهذا فعل الملك المتقي ، المشفق من قومه على من بقى ، المفكر في العواقب ، بالرأى الثاقب ، وإلا فلو/ تُرِكوا وآراءهم حتى تحملهم الغِرّة ، لكانت تكون هذه الكرة هي الكرة . لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ،ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى . وأما القول منه : إنه لايحب المسارعة الى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة ، وتركيب الحجة ، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا//وحجته المتركبة . على من غدت طواعيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة . فإن الله تعالى ثم الناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة ، وجهادنا واجتهادنا ، انما هو على الحقيقة لله . وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول ، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الدخول ، وبارتفاع المنافرة/ ، تحصل المضافرة . فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ومن أقام منارهْ فله أهل بأهل في كل مكان ، وجيران بجيران في كل أرض ، وأما ترتب هذه القواعد الجمة على اذكار شيخ الإسلام ، قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن – اعاد الله من بركاته – فلم تر أولى قبلةْ كرامة كهذه الكرامة// ، والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة ، حتى تتم شرائط الإيمان ، ويعود شمل الإسلام مجتمعا كأحسن مما كان . ولا ينكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكن في الوجود ، أن كل حق ببركته الى نصابه يعود .

وأما انقاذ أقضى القضاه قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين / الموثوق بنقلهما في إبلاغ رسائل هذه البلاغة ، فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من حوالي (1) أحواله وخطرات خاطره ومنتظرات ناظره . ومن كل مايشكر ويحمد ، ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد .

---

١) حوالي أحواله : حوالي جمع حالية أى نفائس أحواله . ابن عبدالظاهر، المصدر نفسه .

وأمـا الإشـارة إلى النفوس إن كانت لها تطلع الـــى
اقامـة دليل ، تستحكم بسببه دواعي الود الجميل // فلينظر إلى ماظهـــر
من مآثـره ، في موارد الأمر ومصادره ، ومن العدل والإحسان ، بالقلـــب
واللسـان ، والتقدم بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط وتسبيل السبــل
للحج إلى غير ذلك . فهذه صفـات من يريد لملكه الـدوام . فلمـــا
ملك عدل ، ولم يمل إلى لوءم من عدا ولا لوم من عدل . على أنهـــا
وإن كانت من الأفعال الحسنة والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألســنة
فهي واجبـات توءدى ، وقربات بمثلها يبدى ، وهو أكبر من أنه بإجـــراء
أجر غيره يفتخر أو عليه يقتصر ، أو له يدخر . بل إنما تفخر الملـــوك
الأكابـر برد ممالك على ملوكهـا ، ونظمهـا على ماكانت عليه في سلوكهـا
وقد كان والده فعل شـيئا // مع الملوك السلجوقية وغيرهم ومـــا
كان أحد منهـم يدينه بدين ، ولا دخل معه في دين . وأقرهم فـــي
ملكهـم ، وما زحزحهم عن ملكهـم ويجب عليه ألا يرى حقا مغتصبا ويأبـــى
إلا رده ، ولا باعا ممتدا بالظلم ويرضى إلا صده . حتى إن أسباب ملكـــه
تقوى ، وأيامـه تتزين بأفعـال التقوى .

وأمـا تحريمه/ على العساكر والقراغولات والشحانـــي
بالأطـراف التعرض إلى أحد بالأذى وإصفاء موارد الواردين والصادريـــن
من شوائب القـذى فمن حين بلغنـا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا أيضا بمثلـه
إلى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب وإلى مقدمي العساكـــر
بأطراف تلك الممالك وإذا اتحد الإيمان وانعقدت الأيمان تحتم// هـــذا
الإحكام ، وترتب عليه جميع الأحكام .

وأما الجاسوس الفقيـر الذى أمسك وأطلق ،وأن بسبـــب
من يتزيا من الجواسيس بزى الفقراء قُتِلَ جماعة من الفقراء الصلحـــاء
رجما بالظـن فهذا بـاب من تلقـاء ذلك الجانب كان فتحه ، وزند مـــن

ذلك الطرف كان قدحه . وكم من متزى بفقير من ذلك الجانب سيروه/ ، وإلى الاطّلاع على الأمور سوّروه ، وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ماغطوه بخرقة الفقر بلم ولاكيف . وأما الإشارة إلى أن باتفاق الكلمة تنجلى ظلم الاختلاف وتدربها من الخيرات الأخلاف ، ويكون بها صلاح العالم ، وانتظام شمل بني آدم ، فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد // وجنح إلى السلم وما حاد ولاحادّ . ومن ثنى عناية عن المكافحة ، كان كمن مد يد المصالحة للمصافحة . والصلح وإن كان سيد الأحكام فلابد من أمور تبنى عليه قواعده ويعلم من مدلوله فوائده . فالأمور المسطورة في كتابه هي كليات لازمة يعمر بها كل مغنى ومعلم ، إن تهيأ صلح أو لم . وثم أمور لا بد وأن تحكم ،/ وفي سلكها عقود العهود تنظم . قد تحملها بلسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس ، وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس . وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى (وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا)[1] فما على هذا النسق من الود ينسج ولا على هذا السبيل // ينهج . بل لفضل المتقدم في الدين ونصره عهود ترعى ، وإفادات تستدعى . ومابرح الفضل للاولوية وإن تناهي العدد للواحد الأول ، ولو تأمل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروى وتأول :

وعندما انتهينا إلى جواب مالعله يجب عنه الجواب من فصول الكتاب ، سمعنا المشافهة التي / على لسان أقضى القضاة قطب الدين فكان منها مايناسب مافي هذا الكتاب : من دخوله في الدين ، وانتظام عقده بسلك المؤمنين ، ومابسطه من معدله وإحسان ، مشكورة بلسان كل انسان فالمنة لله عليه في ذلك فلا يشبها منه بامتنان . وقد أنزل الله على رسوله في حق من امتن بإسلامه : " قل لاتمنوا على إسلامكم

---

١) آية ١٥ سورة الإسراء .

بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان(١)" .

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء ،ما أغناه عن امتداد الطرف الى مافي يد غيره من أرض وماء ، فان حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمر حاصل . فالجواب أن ثم أمورا متى حصلت عليها الموافقه ، ابتنى على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة/ ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا ، وإذلال عدونا وإعزاز مصافينا . فكم من صاحب وجد حيث لايوجد الأب والأخ والقرابة ، وماتم أمر هذا الدين واستحكم في صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة ، فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد وحسن الوداد ، وجميل الاعتضاد ، وكبت الأعداء والأضداد // ، والاستناد إلى من يشتد الأمر به عند الاستناد فالرأى اليه في ذلك .

ومن المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى مافي يده من أرض وماء فلاحاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يوءذون المسلمين بغير فائدة تعود . فالجواب عن ذلك أنه إذا كفّ كفّ العدوان وترك المسلمين ومالهم من ممالك سكنت/ الدهماء ، وحقنت الدماء وما أحقه بألا ينهى عن خلق ويأتي بمثله ، ولا يأمر ببر وينسى فعله . وقنغرطاى بالروم ،وهى بلاد فى أيديكم وخراجها يجبى إليكم ، وقد سفك فيها وفتك ،وسبى وهتك ، وباع الأحرار ، وأبى إلا التمادى على الإضرار والإصرار .

ومن المشافهة أنه حصل التصميم// على ألا تبطل هذه الغارات ولا تفتر عن هذه الإثارات ، فيعين مكانا يكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء . فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعين مرة ومرة قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم ،وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم . فوقت اللقاء/ علمه عند الله فلايقدّر وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدّر . ولا نحن ممن ينتظر فَلْتة ، ولا ممن له الى غير ذلك لفتة وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا تأتي إلا بغتة . والله الموفق لما فيه صلاح هذه الامة والقادر على اتمام كل خير ونعمة//.

---

١) آية ١٧ سورة الحجرات .

الملحق السادس

وصف موقعة عكا بين جيوش السلطان الأشرف خليل والصليبيين سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٠م على لسان بيبرس الدوادار الذى شارك بنفسه السلطان فتحها .(١)

"قال الراوى : وكنت حينئذ بالكرك، فلما بلغني أمر هذه الغزاة وردت على مراسم السلطان بتجهيز الزردخانات والألات ، تاقت نفسي إلى الجهاد ،وحنّت اليه حنو الأرض الظامئة إلى صوب العهاد فطالعت السلطان بذلك ، وسألته أن أصير إلى هنالك ، لاساهم في ثواب الغزو وأشارك ، فأذن لي في الحضور ، وسمح بالدستور ،فكنت كمن فاز أمله بنجاحه ، وانجلى ليله بصباحه ، فجهزت من الزردخانات المانعة والألات النافعة والرجال المجتهدين ، والرماة والحجارين ، والغزاة والنجارين ، وتوجهت ملاقيا السلطان ، فوافيته وقد وصل غزه فلقيت منه إكراما وبشرا وابتساما ، وسرت في ركابه إلى عكا .

فلما نزلنا عليها حاق المحاق بأهلها ، وكانوا لما بلغتهم حركة السلطان لغزوهم ، ومسيره إلى نحوهم ، قد أرسلوا إلى ملوكهم الكبار ، واستدعوا النجد من داخل البحار ، واجتمع بها كثير من الديوية والاسبتار ، وحصنوا الأبراج والأسوار ، وأظهروا المصابرة وعدم المبالاة بالمحاصرة ، فلم يغلقوا للمدينة بابا ، ولا اسدلوا دونها حجابا ، فنصبت عليها المجانيق الإسلامية ، وأحدقت بها العساكر المحمدية ، وأرسلت عليها حجارة كالصواعق الصاعقة ، وسهاما كالبوارق البارقة ، وضويقت أشد المضايقة ، وهم مع ذلك يظهرون الجلد ، ولا يغلقون أبواب البلد ،ويهاجمون العسكر ليلا ونهارا ، ويقاتلون قتالا مدرارا .

---

١) بيبرس الدوادار ،زبدة الفكرة ،ج٩ ،حوادث سنة ٦٩٠هـ .

واستشهد عليها الأمير علاء الدين كشتغدى الشمسي ، والأمير بدر الدين بيليك المسعودى ، وشرف الدين قيران السكرى وشدد القتال وأسعرت نار النزال وتوالت سحب النوال بالنبال .

وأنا في ضمن ذلك أتأمل مكانا تلوح الفرصة منه فأقصده ، وأتصفح جانبا تمكن منه الحيلة فلا أجده ،وبينما أنا أجيل فكرتي ، وأدير بصرى وبصيرتي ،إذ لمحت برجا من أبراجها قد أثرت فيه المجانيق ، وأمكن أن يتخذ منه طريق ، وبينه وبين السور فسحة مكشوفة ظاهرة ، لايمكن السلوك فيها ،لأن الجروخ مسلطة عليها ، إلا باتخاذ ستارة تطولها وتشملها ، وتقي من يد خلها ، فعمدت إلى اللبود فجمعتها جمعا ، ولفقت بعضها مع بعض لفقا ، فتصور منها سحابة كبيرة طولا وعرضا ، ونصبت تجاه البدنة المهدومة من البرج صار بين من كلا الجانبين ، وجعلت على روءسها بكرا كبكرات المراكب وحبالا ، ثم جذبت تلك السحابة المتخذة من اللباد ، فقامت كأنها سد من الأسداد ، واتقنت ذلك في جنح الليل وهم غافلون عنه ، فلما أصبحوا ورأوا ذلك الحجاب قصدوه بالمجانيق والنشاب ، فصارت الحجارة إذا وقعت فيها يرتخي اللبد تحتها فيبطل زخمها ، والجروخ إذا رمتها لاتنفذ رسمها .

فتمكنا من المرور ، ووجدنا سبيلا إلى العبور ، وضرب بيننا وبين الأعداء بسور ، وشرعنا في ردم الخندق الذي بين السورين بمخالي الخيل مملوءة بالتراب مع ماتيسر من الأخشاب ، فصار طريقا سالكا ، وكان رأيا مباركا ، وسمع به السلطان ، فاعجبه ، وركب بنفسه وحضر بالكوسات والطبلخانات ، وضربت عند الصباح ، ولاحت تباشير الفلاح وحصل الزحف عليهم من ذلك المكان وغيره ،وطلعت العساكر بالسناجق السلطانية واتخنوا في مقاتلة الفرنجية ،

وتمكنوا من المدينة ، وبذلوا فيها المناصل ، وأعملوا العوامل ، وسبوا الولدان والحلائل ٠

وحقق الله في الفتح الظنون ، وأقر به العيون ، واستبشر يومئذ المؤمنون وعلت الفرنجه ذلة وصغار ، وأنكسروا كسرا ماله انجبار ٠ وعصت الأبراج الكبار التي فيها الديوية والأمن والأسبتار هيهات ، وقد اسبتج حمى حماتهم ٠ وضعفت قوى أقويائهم وكماتهم ، فحاصرناهم حول عشرة أيام أخر فاستأمن منهم ماينيف عن عشرة آلف نفر ، ولم يجدوا مفرا من حين راموا المفر ، ولا مقرا حين أعوزهم المقر ، ففرقوا على الأمراء فقتلوهم عن أخرهم ، وأبقى السلطان جماعة من أسراهم ، وأرسلهم الى الحصون ٠

وكان هذا الفتح العظيم في يوم الجمعة المبارك السابع عشر من جمادى الأخرة من هذه السنة ، وأستنقذ الله عكا من أيدى الكافرين ، على يد الملك الأشرف صلاح الدين خليل كما كان فتوحها أولا على يد صلاح الدين ٠ وأقامت بايديهم مائة وثلاث سنين ، ولم ينهض أحد الملوك الأيوبيين ومن بعدهم من أرباب الدولة التركية باسترجاعها ، ولا سمت هممهم إلى امتراعها وذلك ان الفرنج أخذوها في الأيام الناصرية في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ولله الحمد على انتصار المسلمين واستظهار الموحدين ، وزوال دولة أعداء الدين ، وقمع الطغاة والملحدين ،بهمة أولى الهمم العلية ، والعزمات المنصورة المنصورية الأشرفية ولاخلاف في أن هذه الطائفة أربت على الأول ، ونالت بها الدولة من النصرة والنضرة ، مالم تنله الدول ولما أتاح الله هذا الفتح وسهله ، وأباحه وعجله ، قرضه الشعراء وذكره الفضلاء٠

الملحق السابع

الخلفاء العباسيون في النصف الثاني من القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى .

- المستعصم بالله (بغداد) ٦٤٠ – ٦٥٦هـ/ ١٢٤٢ – ١٢٥٨م .
- المستنصر بالله (القاهرة) ٦٥٩ – ٦٦١هـ/ ١٢٦١ – ١٢٦٣م .
- الحاكم بأمر الله (القاهرة) ٦٦١ – ٧٠١هـ/ ١٢٦٣ – ١٣٠٢م .

سلاطين المماليك

- شجر الدر ٦٤٨ – ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠ – ١٢٥٠م .
- المعز أيبك ٦٤٨ – ٦٥٥هـ/ ١٢٥٠ – ١٢٥٧م .
- المنصور نور الدين علي بن أيبك ٦٥٥ – ٦٥٧هـ/ ١٢٥٧ – ١٢٥٩م .
- المظفر سيف الدين قطز ٦٥٧ – ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩ – ١٢٦٠م .
- الظاهر ركن الدين بيبرس ٦٥٨ – ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ – ١٢٧٧م .
- السعيد ناصر الدين بركة ٦٧٦ – ٦٧٨هـ/ ١٢٧٧ – ١٢٧٩م .
- العادل بدر الدين سلامش ٦٧٨ – ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩ – ١٢٧٩م .
- المنصور سيف الدين قلاوون ٦٧٨ – ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩ – ١٢٩٠م .
- الأشرف خليل بن قلاوون ٦٨٩ – ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠ – ١٢٩٣م .
- الناصر محمد بن قلاوون (١) ٦٩٣ – ٦٩٤هـ/ ١٢٩٣ – ١٢٩٤م .
- العادل زين الدين كتبغا ٦٩٤ – ٦٩٦هـ/ ١٢٩٤ – ١٢٩٦م .
- المنصور حسام الدين لاجين ٦٩٦ – ٦٩٨هـ/ ١٢٩٦ – ١٢٩٨م .
- الناصر محمد بن قلاوون (٢) ٦٩٨ – ٧٠٨هـ/ ١٢٩٨ – ١٣٠٨م .

سلاطين سلاجقة الروم ٠

- عزالدين كيكاوس الثاني بن كيخسرو الثاني ٦٤٣ – ٦٥٥هـ/١٢٤٥ – ١٢٥٧م ٠
- قلج أرسلان الرابع بن كيخسروا الثاني ٦٥٥ – ٦٦٦هـ/١٢٥٧ – ١٢٦٧م ٠
- كيخسروا الثالث بن قلج أرسلان الرابع ٦٦٦ – ٦٨٢هـ/١٢٦٧ – ١٢٨٣م ٠
- مسعود الثاني بن كيكاوس الثاني ٦٨٢ – ٦٩٥هـ/١٢٨٣ – ١٢٩٦م ٠
- كيقباد الثالث ٦٩٥ – ٦٩٩هـ/١٢٩٦ – ١٣٠٠م ٠

ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية ٠

- كونراد الرابع ملك المانيا (ملك اسمي) ٦٤٨ – ٦٥٢هـ/١٢٥٠ – ١٢٥٤م ٠
- كونراد بن (ملك اسمي) ٦٥٢ – ٦٦٧هـ/١٢٥٤ – ١٢٦٨م ٠
- هيو الثالث ملك قبرص الثاني ٦٦٧ – ٦٨٣هـ/١٢٦٩ – ١٢٨٤م ٠
- حنا الأول ملك بيت المقدس ٦٨٣ – ٦٨٤هـ/١٢٨٤ – ١٢٨٥م ٠
- هنري الثالث ملك قبرص الثاني ٦٨٥ – ٦٩٠هـ/١٢٨٦ – ١٢٩١م ٠

أمراء أنطاكية

- بوهيمند الخامس ٦٣١ – ٦٤٩هـ/١٢٣٣ – ١٢٥١م ٠
- بوهيمند السادس ٦٤٩ – ٦٦٧هـ/١٢٥١ – ١٢٦٨م ٠

أمراء طرابلس

- بوهيمند الخامس ٦٣١ – ٦٤٩هـ/١٢٣٣ – ١٢٥١م ٠
- بوهيمند السادس ٦٤٩ – ٦٧٤هـ/١٢٥١ – ١٢٧٥م ٠
- بوهيمند السابع ٦٧٤ – ٦٨٦هـ/١٢٧٥ – ١٢٨٧م ٠

ملوك أرمينية الصغرى

- هيثوم الأول ٦١٩ – ٦٦٨هـ / ١٤٢٢ – ١٢٦٩م .
- ليو الثالث ٦٦٨ – ٦٨٨هـ / ١٢٧٠ – ١٢٨٩م .
- هيثوم الثاني(١) ٦٨٨ – ٦٩٢هـ / ١٢٨٩ – ١٢٩٣م .
- ثوروس الثالث ٦٩٢ – ٦٩٣هـ / ١٢٩٣ – ١٢٩٤م .
- هيثوم الثاني (٢) ٦٩٣ – ٦٩٥هـ / ١٢٩٤ – ١٢٩٦م .
- سمباد ٦٩٥ – ٦٩٧هـ / ١٢٩٧ – ١٢٩٨م .
- قسطنطين الأول ٦٩٧ – ٦٩٨هـ / ١٢٩٨ – ١٢٩٩م .
- هيثوم الثاني (٣) ٦٩٨ – ٧٠٥هـ / ١٢٩٩ – ١٣٠٥م .

أباطرة الدولة البيزنطية

- تيودور الثاني لاسكارس ٦٥٢ – ٦٥٦هـ / ١٢٥٤ – ١٢٥٨م .
- حنا الرابع لاسكارس ٦٥٦ – ٦٦٠هـ / ١٢٥٨ – ١٢٦١م .
- ميخائيل الثامن باليوليوجس ٦١٠ – ٦٨١هـ / ١٢٦٤ – ١٢٨٢م .
- أندرنيكوس الثاني باليولوخس ٦٨١ – ٧٢٩هـ / ١٢٨٢ – ١٣٢٨م .

حكام مغول فارس

- هولاكو خان ٦٥١ – ٦٦٣هـ / ١٢٥٣ – ١٢٦٤م .
- أبغا بنهولاكو ٦٦٣ – ٦٨٠هـ / ١٢٦٤ – ١٢٨١م .
- أحمد تكدار بنهولاكو ٦٨٠ – ٦٨٣هـ / ١٢٨١ – ١٢٨٤م .
- أرغون خان بن أبغا ٦٨٣ – ٦٩٠هـ / ١٢٨٤ – ١٢٩١م .
- كيخاتو خان بن أبغا ٦٩٠ – ٦٩٤هـ / ١٢٩١ – ١٢٩٤م .
- بايدوخان بن طرغاى بن هولاكو ٦٩٤ – ٦٩٤هـ / ١٢٩٤ – ١٢٩٤م .
- غازان بن أرغون ٦٩٤ – ٧٠٣هـ / ١٢٩٤ – ١٣٠٣م .

المصادر والمراجع

بيومي

المصادر والمراجع

أولا : المخطوطات :

- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر عبدالله بن أيبك ،ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢ م)
درر التيجان وغرر تواريخ الزمان . مكتبة البلدية بالاسكندرية
رقم ٣٨٢٨ ج .

- ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف الأتابكي ،٨١٣ - ٨٧٤هـ/١٤١٠-١٤٦٩م) .
١ - مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة صورة بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة رقم ٨٤٤ تاريخ
٢ - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. دار الكتب المصرية ، رقم ١٣١٠ . ،ونسخة مكتبة عارف حكمت ج١ رقم ٣٢/(٦٢٤ - ٦٣٠) ،
و ج٢ رقم ٦٣٠/٩٠٠ .

- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي ، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧ م)
١ - درة الأسلاك في دولة الأتراك ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة .
٢ - الفوائد المنتقاة من تاريخ صاحب حماة . صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة رقم ٣٧٢ .

- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) .
١ - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ،مكتبة أحمد الثالث في استانبول رقم ٢٩٠٣ .
٢ - نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة ، رقم ٨٥١ تاريخ .

- ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن ،ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) •

عيون التواريخ ، ج١٥ ،دار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ ؛ صورة بمكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى •

- ابن شداد (عزالدين محمد بن على بن ابراهيم الحلبي ،(ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)

١ - الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، مكتبة اياصوفيا باستانبول رقم ٣٠٨٤ ؛ ومكتبة الفاتيكان • برقم ٧٣٠ ؛ وتوجد منهما صورتان بمكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى •

٢ - تاريخ الظاهر بيبرس ، ج٢ ،مكتبة الجامع السليماني • في أدرنه • رقم ٢٣٠٦ •

- ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ،ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م) •

بغية الطلب في تاريخ حلب ، مكتبة أياصوفيا ،ومكتبة فيض الله ١٤٠٤، ومكتبة أحمد الثالث ٢٩٢٥ •

- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)

١ - التاريخ الصالحي ،مكتبة فاتح باستانبول رقم ٤٢٢٤ •

٢ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ،أو تاريخ الواصلين ج٦ ، دار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ •

- الأصفهاني (القاضي عماد الدين محمد بن محمد ، ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)

البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، وذيل عليه علم الدين سنجر المسروري من سنة ٥٩٣ الى سنة ٦٣٥هـ على المخطوطة نفسها ، مكتبة أحمد الثالث في استانبول ، رقم ٢٩٥٩•

- بدرالدين الحلبي(أبو محمد الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي ، ٧٧٩هـ/ ١٣٣٧م) .
جهنية الأخبار في تاريخ الأنبياء والخلفاء وملوك الأمصار ، مكتبة البلدية بالأسكندرية رقم ٥١٥٧ .

- البرزالي ، (علم الدين ، ت ٧٣٩ هـ / ١٣٤٠م)
المقتفى لتاريخ أبى شامة ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة ، رقم ٥٠٧ تاريخ .

- بيبرس الدوادار (ركن الدين بيبرس الخطائي المنصورى ،مملوك السلطان المنصور قلاوون الألفي ، ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)
١ - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ،ج٩ ، صورة بمكتة جامعة القاهرة رقم ، ٢٤٠٢٨ . ، توجد منها صورة بمكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى .
٢ - التحفة الملوكيه في الدولة التركية ، صورة بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٢٩ ، وتوجد منها صورة بمكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى .

- الجزرى (محمد بن إبراهيم بن محمد)
تاريخ دولة الأكراد والأتراك ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة ، رقم ١١٢ .

- الجنابي (أبو محمد الشريف مصطفى بن حسن بن سنان بن أحمد بن السيد حسن الحسيني الهاشمي ، ت ٩٩٩هـ /١٥٩٠م) .
البحر الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر ، مكتبة الحرم المكي الشريف رقم ٢ .

- الحريري (أحمد بن على) ، كان حيا سنة ٩٢٦هـ ، وهي سنة انتهائه من تأليف كتابه ، الأعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين ، صورة بمعهد احياء المخطوطات العربية في القاهرة .

- الحنبلي (أحمد بن أحمد نصر الله)
شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، صورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ، ٢٤٣١ .

- الخزرجي (جمال الدين على بن الحسن الأنصاري ، ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م)
العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك . صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة ، رقم ٧٣٦ تاريخ .

- الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز ،ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، دار الكتب المصرية في القاهرة رقم ، ٤٢ تاريخ .

- سبط ابن العجمي (موفق الدين أبو ذر أحمد بن ابراهيم الحلبي ، ت ٨٨٤هـ / ١٤٤٩م) .
كنوز الذهب في تاريخ حلب ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة ، رقم ٤١٧ تاريخ .

- السيوطي (كمال الدين محمد بن محمد بن أبي شريف ، ت ٩٠٦هـ/١٥٠٠م)
اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، دار الكتب المصرية في القاهرة ، رقم ١٨٢٩ .

- الصفدى(صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣م)
١ – تحفة ذوى الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، صورة بمعهد احياء المخطوطات العربية في القاهرة ،رقم١٥٢ تاريخ٠
٢ – أعيان النصر وأعوان النصر ، مكتبة جامعة استانبول ، رقم ٤٣٨٢ ٠

- العليمي (مجير الدين بن عبدالرحمن بن محمد الحنبلي المقدسي ، ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١ م)
كتاب في تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ، صورة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى رقم ١٢٠٦ عن نسخة المتحف البريطاني رقم ١٥٤٤ ٠

- العمرى (شهاب الدين أحمد يحيى بن فضل الله ، ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩م)
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج٧ ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث في استانبول رقم ٢٧٩٧ ٠

- العيني (بدرالدين أبو محمد بن أحمد بن موسى ، ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م)
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ج١٣ مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٣٩٠ ، وتوجد منه نسخة بمكتبة مركز البحث العلمي ،وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ج٢٠ ،دار الكتب المصرية في القاهرة رقم ١٥٨٤٠ تاريخ ٠

- قاضي المنزلة (معروف بن أحمد ، القرن العاشر الهجرى)
عجائب الأخبار عن مصر الامصار ، مكتبة الأزهر رقم ٣٢٠ – ٦٦٢٠تاريخ٠

- المولوى (أحمد بن لطف الله ، كان حيا سنة ١١١٦م)
صحائف الأخبار في وقائع الأمصار ، مكتبة أحمد الثالث باستانبول
رقم ١/١٢٥٤ .

- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب بن محمد ،ت ٧٣٢هـ/١٣٣٣م)
نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٢٨ ،٢٩ . دار الكتب المصرية
بالقاهرة ، رقم ٥٤٩ معارف عامة .

- اليافعي (حسن بن ابراهيم بن محمد ، كان حيا سنة ٦٧٩هـ)
جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء والسلاطين
الإسلامية ، صورة بمركز البحث وإحياء التراث الإسلامي ،بجامعة
أم القرى . رقم ١١٤٢ ، عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس
رقم ١٥٤٣ .

ثانيا : المصادر المطبوعة

- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ، ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م) .
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق ، نزار رضا ،ط بيروت .

- ابن الأثير الجزرى (أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد الشيباني ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م)
١ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق عبدالقادر طليمات ، ط ، القاهرة ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .
٢ - الكامل في التاريخ ، ط ليدن ١٨٧٦م .

- ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي،ت ٩٣٠هـ/١٥٤٤م)
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الأول القسم الأول ،تحقيق محمد مصطفى ،ط القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

- ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر عبدالله بن أيبك ، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)
١ - الدر المطلوب في أخبار بني أيوب . تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ، ط القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢م .
٢ - الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق ألرخ هارمان ط القاهرة ١٣٩١ هـ/١٩٧١م)
٣ - الدرر الفاخر في سيرة السلطان الناصر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، ط القاهره ١٣٧٩ هـ/ ١٩٦٠م .

- ابن بسام (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب)
نهاية الرتبه في طلب الحسبة ، تحقيق حسام الدين السامرائي
ط بغداد ١٩٦٨ م ٠

- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ،ت ٨٧٤هـ)
١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط القاهرة ١٩٣٥ م ٠
٢ - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، الجزء الاول ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ٠ ط القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م ٠
٣ - الدليل الشافي على المنهل الصافي ، ج١ ،٢ ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ،ط مكة المكرمة ٠

- ابن جبير (أبو الحسن بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ، ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) ٠
رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار
ط بيروت ١٩٨١م ٠

- ابن الجيعان
التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، ط بولاق ١٣١٦هـ/١٨٩٨م ٠

- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد ، ت ٨٥٢ هـ)
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٠ تحقيق محمد سيد جاد الحق ٠ ط بيروت ٠

- ابن حزم الظاهرى (أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهرى ، ت ٥٤٨هـ)
كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ط القاهرة ١٣١٧هـ ٠

- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي)
صورة الأرض ، ط بيروت ١٩٧٩م .

- ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون ، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م)
١ - تاريخ ابن خلدون ، المسمى ،كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر ، ط : ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م .
٢ - مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور على عبدالواحد وافي ، ط القاهرة الطبعة الثالثة .

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .
وفيات الأعيان وأنبا أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٢ م .

- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن آيدمر العلائي ، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)
الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، ط القاهرة ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٣م ١

- ابن الراهب (أبو شاكر بطرس بن أبي الكرم المهذب)
تاريخ ابن الراهب ، عنى بنشره الأب لويس شيخو اليسوعي ط بيروت ١٩٠٣م .

- ابن سعيد (على بن موسى ، ت ٦٧٣ هـ /١٢٧٥م)
العيون الدعج في حلى دولة بني طفج من كتاب المغرب في حلى المغرب نشر كنوت تلكوست .

- ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل)
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر بولس راديس ،
ط باريس ١٨٩٤م ٠

- ابن الشحنة (أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد الحلبي،
ت ٩٢١هـ / ١٥١٥م)
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تحقيق يوسف بن البان سركيس
الدمشقي ، ط بيروت ١٩٠٩م ٠

- ابن شداد (أبو المحاسن بهاء الدين يوسف ابن رافع بن تميم ،
ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) ٠
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، أو سيرة صلاح الدين ،
تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٦٤م ٠

- ابن شداد (عز الدين أبو عبدالله بن على بن ابراهيم الحلبي ،
ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م ٠
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الثاني
تحقيق سامي الدهان ، ط دمشق ١٣٨٢هـ / ١٨٩٢م ؛ الجزء الثالث
تحقيق يحيى عباره ، ط دمشق ١٩٧٨م ٠

- ابن طباطبا (محمد بن علي)
الفخرى في الآداب السلطانية والدول السلطانية ، ط بيروت
١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م ٠

- ابن طولون (محمد بن طولون ، ت ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦م)
إعلام الورى بمن ولى نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق
عبدالعظيم حامد خطاب ، ط القاهرة ١٩٧٣م ٠

- ابن عبدالظاهر (محيى الدين عبدالله بن رشيد الدين بن عبدالظاهر بن نشوان بن عبدالظاهر السعدى المصرى ، ت ٦٩٢ هـ/ ١٢٩٢م)
  ١ - الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر ، تحقيق عبدالعزيز الخويطر ، ط الرياض ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦م .
  ٢ - تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، ط القاهرة ١٩٦١م .
  ٣ - الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية تحقيق (Axel Moberg) ط ١٩٠٢م .

- ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الملطي ،ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م) تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت ١٩٥٨م ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

- ابن العديم (الصاحب كمال الدين أبو القاسم أحمد بن هبة الله بن أبي جراده ، ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)
  زبدة الحلب في تاريخ حلب ،الجزء الثالث ، تحقيق سامي الدهان ، ط بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

- ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبدالحي أحمد بن محمد بن العماد ت ١٠٩٨ هـ / ١٧٧٥م) .
  شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،ط بيروت بدون تاريخ طبع .

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن على ، ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)
  تاريخ ابن الفرات ، المجلد الرابع في قسمين ،تحقيق حسن محمد الشماع ، ط البصرة ، ١٩٦٧م / ١٩٧٩م ؛ المجلد السابع والثامن ، تحقيق قسطنطين رزيق ، نجلاء عز الدين ط بيروت ١٩٣٩م .

- ابن الفوطي (كمال الدين عبدالرازق بن تاج الدين أُحمد الشيباني ، ت ٧٢٣ هـ /١٣٢٣م)
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة ، تحقيق محمد رضا ، ومصطفى جواد ، ط بغداد ١٣٥١م .

- ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد ، ت ١٠٢٥هـ /)
ذيل وفيات الأعيان ، - المسمى درة الحجال في أسماء الرجال تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، ط الدرب الأحمر ١٣٩٠هـ /١٩٧٠م .

- ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة بن القلانسي ، ت ٥٥٥ هـ /١١٦٠م)
ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨م .

- ابن القيم الجوزية (أُبو عبدالله شمس الدين محمد بن أيوب ، ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠م)
كتاب الفروسية ، ط القاهرة ، بدون تاريخ طبع .

- ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر القرشي ، ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢م)
البداية والنهاية ، ط بيروت ١٩٦٦م .

- ابن المبارك (أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك بن واضح ،ت ١٨١هـ)
كتاب الجهاد ، حققه وقدم له وعلق عليه ، نزيه حماد ،ط جده .

- ابن مماتي (الاسعد بن مماتي ، ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩م)
قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، ط القاهرة ١٩٤٣ م .

- ابن منظور (أبو الفضائل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، ت ٧١١ هـ / ١٣١١م)
لسان العرب ، ط بيروت .

- ابن منقذ (أسامة بن مرشد بن على بن نصر الكناني ،ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)
كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، ط جامعة برنستون الولايات المتحدة ١٩٣٠م .

- ابن نظيف الحموى (أبو الفضائل محمد بن على بن نظيف ، عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجرى)
التاريخ المنصورى " تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان " تحقيق أبو العبد دودو ، ط دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .

- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧ هـ /١٢٩٨م)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ١ - ٣ تحقيق جمال الدين الشيال ، ط ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٠م ، ج٤ ، ٥ تحقيق حسنين محمد ربيع ، ط القاهرة ١٩٧٢م ، ١٩٧٧م .

- ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ)
كتاب الفهرست ، ط بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

- أبو شامة (الحافظ شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل ،ت٦٦٥هـ /١٢٦٧م)
١ - الروضتين في أخبار الدولتين ، الجزء الأول ، قسمان ،تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، ط القاهرة ١٩٦٢م . الجزء الثاني ، ط القاهرة ١٢٨٧م/ ١٨٧٠م .
٢ - الذيل على الروضتين ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، نشر ومراجعة السيد عزت العطار ،الحسيني ، ط بيروت ١٩٧٤م.

- آبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة ، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)
  ١ – المختصر في أخبار البشر ، ط بيروت . بدون تاريخ طبع .
  ٢ – تقديم البلدان ، ط باريس ١٨٤٠م .

- الأربلي (عبدالرحمن بن سنبط بن قنيتو ،ت ٧١٧ هـ / ١٣١٧م)
  خلاصة الذهب المسبوك ، وقف على طبعه وتصحيحه مكي السيد قاسم ، ط بغداد .

- الأسنوى (جمال الدين عبدالرحيم بن الحسن ، ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢م)
  طبقات الشافعية ، تحقيق عبدالله الحبورى ،ط بغداد ١٣٩١هـ .

- الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، الشهير بالعماد الكاتب ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م .
  الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح ،ط القاهرة ١٩٦٥م .

- البلوى (أبو محمد أحمد عبدالله بن محمد المديني ، عاش في القرن الرابع الهجرى)
  سيرة ابن طولون ، نشر محمد كرد على ، ط دمشق ١٩٣٩م .

- الجبرتي (عبدالرحمن الجبرتي)
  عجائب الأثار في التراجم والأخبار ، تحقيق حسن محمد جوهر ، عبد الفتاح السر نجاوى ، السيد ابراهيم سالم . ط القاهرة ١٩٥٨م .

- الحسن بن عبدالله بن محمد
  آثار الأول في ترتيب الدول ، ط القاهرة ، ١٢٩٥هـ .

- الحميري (محمد بن عبد المنعم)
الروض المعطار في خبر الأقطار ، ط بيروت ١٩٧٥م .

- الحنبلي (أبو اليمن القاضي مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي ، ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م)
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط النجف ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

- الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسين ، ت ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩م)
تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، ط بيروت .

- الذهبي (الحافظ شمي الدين محمد بن أحمد بن قايماز ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
١ - دول الاسلام ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، محمد مصطفي ابراهيم ، ط القاهرة ١٩٧٤م .
٢ - العبر في خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط الكويت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦م .

- الزبيدى (محمد مرتضى الزبيدى ، ت ١٢٠٥ هـ /١٧٨٩م)
ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط دمشق ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩م .

- رشيد الدين الهمذاني (رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبو الخير حفيد موفق الدين الهمذاني ، ت ٧١٨هـ / ١٣١٨ م)
جامع التواريخ ، أو تاريخ المغول المجلد الثاني ، الجزء الاول والثاني ، تاريخ هولاكو ، ترجمة محمد صادق نشأت ، محمد موسى هنداوى ، فؤاد عبدالمعطي الصياد ، ط القاهرة .

- سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزارغلي التركي ، ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م)
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، الجزء الثامن ، ط حيدر اباد ، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

- السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافي ، ت ، ٧٧١ هـ / ١٣٧٠م)
طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطناحي ، ط القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .

- السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦م)
١ - الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، الجزء الثاني ، ط القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٦م .
٢ - الذيل على رفع الأصر . أو بغية العلماء والرواة ، تحقيق جوده هلال ، محمد محمود صبح . ط القاهرة .

- السيوطي (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ، ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥م)
١ - تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد حجي الدين عبد الحميد ، ط القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .
٢ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨م .

- شافع بن علي
حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، ط الرياض ١٣٩٦ هـ /١٩٧٦م .

- الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبدالكريم ، ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣م)
الملل والنحل ، تقديم واعداد عبداللطيف محمد العبد ،ط القاهرة
١٩٧٧م .

- الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣م)
أمراء دمشق في الإسلام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ،ط دمشق ١٩٥٥م .

- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ، ت ٢٢٤ هـ ، ٣١٠ هـ)
تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط بيروت
الطبعة الثانيه ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م.

- الطرسوس (مرضي بن على ، كان معاصرا لصلاح الدين)
تبصرة أرباب الألباب ،نشر كلود كاهن في مجلة معهد الدراسات
الشرقية بدمشق ، ج١٢ .

- العصامي (عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكي ، ت
١١١١ هـ / ١٦٦٩م)
سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ،الجزء الرابع
ط القاهرة ١٣٨٠ .

- العيني (بدرالدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين ، ت
٨٥٥ هـ / ١٤٥١م)
السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ،
ط القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م .

- العياشي (عبدالله بن فتح الله البغدادى)
التاريخ الغياثي ، تحقيق ،طارق نافع الحمداني ، ط بغداد ، ١٩٧٥م .

- القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي ،ت ١١٠٩هـ/١٦١٠م)
أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، ط بغداد ،١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥م .

- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣م)
آثار البلاد وأخبار العباد ، ط بيروت ١٩٦٠م .

- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على بن أحمد ، ت ٨٢١ هـ /١٤١٨م)
١ - صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ط القاهرة ١٩١٩ - ١٩٢٢م .
٢ - مآثر الأناقة في معالم الخلاقة ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، ط بيروت .

- الماوردى (أبو الحسن على محمد بن حبيب ، ت ٤٥٠ هـ)
الأحكام السلطانية ، ط القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦م

- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى ،ت ٣٤٦ هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، الطبعة الخامسة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

- المقريزى (تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر ،ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)
١ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زياده ،ط القاهرة ١٩٥٦م - ١٩٥٧م .
٢ - خطط المقريزى ، المعروفه باسم " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " ط القاهرة ١٢٧٠م .

٣ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ،ط القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١م ٠

- موءلف مجهول
خزانة السلاح في الإسلام ، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز ، ط القاهرة ١٩٧٨م ٠

- النابلسي (أبو عثمان الصفدى ، من علماء القرن السابع الهجرى)
لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية ، تحقيق كلود كاهن ٠

- النسوى (نور الدين محمد بن أحمد بن على بن محمد المنشي ، كان حيا قبل سنة ٦٣٩ هـ)
سيرة جلال الدين منكبرتي ، تحقيق حافظ حمدى ،ط القاهرة ١٩٥٣م ٠

- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب بن محمد،ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م)
نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء الثامن ، ط دار الكتب المصرية ٠

- اليافعي (أبو محمد عبدالله بن أسعد بن على بن سليمان ،ت ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٧م)
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ، ط بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ٠

- ياقوت الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى ،ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)
معجم البلدان ، ط بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م ٠

- يحيى بن الحسين (القاسم محمد بن على ، ت ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م)
غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، ط القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م .

- اليونيني (قطب الدين أبو الفتح موسى بن أحمد بن قطب الدين البعلبكي الحنبلي ، ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)
ذيل مرآة الزمان م ١ - ٢ ، ط حيدر أباد ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٤م . م ٣ - ٤ ط حيدر أباد ، ١٣٨٠هـ / ١٩٥٩م .

ثالثا : المراجع العربية والمترجمة :

- ابراهيم أحمد العدوى

١ – تاريخ العالم الاسلامي،ط جامعة القاهرة (١٩٨٤م) .

٢ – الأساطيل العربية في البحر المتوسط . ط القاهرة بدون تاريخ طبع .

٣ – العرب والتتار، القاهرة ١٩٦٣م .

- ابراهيم على طرخان

النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ط القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م .

- أحمد السعيد سليمان

تاريخ الدول الإسلامية ، ومعجم الأسرات الحاكمة ، ج٢ ،ط القاهرة ١٩٧٢ م .

- أحمد شلبي

موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ط القاهرة سنة ١٩٦٧م .

- أحمد محمد أحمد جلي

دراسات عن الفرق ، ط الرياض ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- أحمد محمد عدوان

العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، ط الرياض ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

- أحمد مختار العبادى/ السيد عبدالعزيز سالم

تاريخ البحرية الإسلامية في مصر ،ط بيروت ١٩٧٢م .

- أحمد مختار العبادى

قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ط بيروت ١٩٦٩م ٠

- أرشبالد لويس

القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى، ط القاهرة ١٩٦٠م ٠

- أمين باشا سامي

تقويم النيل ، ج١ ،ط القاهرة ١٩١٦م ٠

- رنارد لويس

١ - اصول الاسماعيلية ، ترجمة خليل احمد جلو ، جاسم محمد الرجب ، ط دار الكتاب العربي بمصر ٠

٢ - الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) ترجمة سهيل زكار ، ط بيروت ١٩٧١م٠

- بول آميل

تاريخ ارمينيا ، ترجمة شكرى علاوى ،ط بيروت ٠

- جعفر خصباك

العراق في عهد المغول الايلخانيين ٠

- جوانفيل

القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة حسن حبشي ، ط القاهرة ١٩٦٨م ٠

- جوزيف نسيم

١ - العدوان الصليبي على بلاد الشام ،هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة ، ط الاسكندرية ١٩٨٤م ٠

٢ - العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، ط الأسكندرية ١٩٨٤م ٠

٣ - العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، ط القاهرة ١٩٨١م ٠

- حافظ حمدى

الدولة الخوارزمية والمغول ، ط القاهرة ١٩٤٩م ٠

- حامد زيان غانم

الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر في عهد سلاطين المماليك ، ط القاهرة ١٩٧٦م ٠

- حسن ابراهيم حسن

تاريخ الإسلام السياسي ، ج٤ ، ط ١٩٨٢م ٠

- حسن حبشي

١ - الحرب الصليبية الأولى ،ط القاهرة سنة ١٩٥٨م ٠

٢ - نورالدين محمود والصليبيون ، ط القاهرة سنة ١٩٤٨م٠

٣ - الشرق العربي بين شقي رحى ، حملة لويس التاسع على مصر والشام ، ط القاهرة ١٩٤٩م ٠

- حسين أحمد أمين

١ - الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها ، ط القاهرة سنة ١٩٨٣م ٠

٢ - تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ط بغداد سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ا

- حسنين محمد ربيع

١ - البحر الأحمر في العصر الأيوبي ، ندوة تاريخ البحر الأحمر ، بجامعة عين شمس سنة ١٩٧٩م .

٢ - دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ،ط القاهرة .

٣ - النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، ط القاهرة ، سنة ١٩٦٤م.

- دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية .

- الرويشدى

إمارة الموصل ،في عهد بدر الدين لوءلوء ، ط بغداد ١٩٧١م .

- الزركلي خير الدين

الاعلام ، ج٤ ، الطبعة الثالثه .

- زبيدة عطا

١ - الترك في العصور الوسطى .

بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون ، ط القاهرة بدون تاريخ طبع.

- ستانلي لين بول

١ - الدول الإسلامية ، القسم الثاني مع اضافة وتصحيحات بارتولد وخليل أدهم نقله من التركيه إلى العربية محمد صبحي فرزات محمد أحمد دهمان ط: دمشق ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤م .

٢ - طبقات سلاطين الإسلام ، ترجمه للفارسية عباس إقبال ، ترجمه عن الفارسية مكي طاهر الكعبي ، حققه وقابله على البصيرى ، ط بغداد ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م .

- ستيفن رنسيمان

تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ،ج ١ ـ ٣ ، ط بيروت سنة ١٩٦٨م .

- سعاد ماهر

البحرية في مصر الإسلامية ، ط القاهرة سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

- سعد محمد حذيفة الغامدى

سقوط الدولة العباسية ، ط بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

- سعيد عبدالفتاح عاشور

١ - الحركة الصليبية ، ط القاهرة ١٩٧١ ، ١٩٧٨م .

٢ - العصر المماليكي في مصر والشام ، ط القاهرة ١٩٧٦م.

٣ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ،ط بيروت ١٩٧٢م .

٤ - المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ،ط القاهرة ١٩٦٢م.

٥ - قبرص والحروب الصليبية ، ط القاهرة ١٩٥٧م .

٦ - بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ١٩٧٧م .

٧ - الظاهر بيبرس ، ط القاهرة بدون سنة طبع .

٨ - أوربا والعصور الوسطى ، ج١ ،ط القاهرة سنة ١٩٦٤م .

٩ - أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، ط القاهرة ١٩٦٤م .

١٠- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، ط القاهرة ١٩٧٦م .

- السيد الباز العريني

١ - المغول ، ط بيروت ١٩٨١م .

٢ - الأيوبيون ، ط بيروت ١٩٦٧م .

٣ - المماليك ، ط بيروت ١٩٧٩م .

٤ - الشرق الأوسط والحروب الصليبية ،ط القاهرة ١٣٨٣هـ /١٩٦٣م .

- السيد عبدالعزيز سالم
تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، ط الاسكندرية سنة ١٩٦٩م .

- شاكر مصطفى
التاريخ العربي والمؤرخون ، ج٢ ،ط بيروت ١٩٨٠م .

- صبحي الصالح
النظم الإسلامية ، نشأتها وتطورها ، ط بيروت ١٩٨٢م .

- طلال العصيمي
الاقطاع الحربي في العهد الأيوبي ، رسالة ماجستير من جامعة أم القرى عام ١٤٠٤هـ لم تطبع .

- عبدالأمير الأعسم
الفيلسوف نصير الدين الطوس ، موءسس المنهج الفلسفي في علم الكلام الإسلامي ، ط بيروت ١٩٨٠م .

- عبدالحليم عويس
دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ،ط جدة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

- عبدالرحمن زكي
١ - قلعة صلاح الدين وماحولها من الآثار ، ط القاهرة ١٣٩١ ، ١٩٧١م.
٢ - الجيش الإسلامي ، ط : القاهرة ١٩٧٠م .
٣ - السلاح في الإسلام . ط القاهرة ١٩٥١م .
٤ - الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع ، ط القاهرة ١٩٦٦م.
٥ - سلسلة مقارنه الأديان ، الجزء الرابع ،أديان الهند الكبرى ، ط ١٩٨٦ / ١٤٠٦هـ -

- عبد السلام عبد العزيز فهمي
تاريخ الدولة المغولية في إيران • ط القاهرة ١٤٠١هـ/١٩٨١م •
- عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ،ط الرياض ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م •
- عبدالله ابراهيم الوهيبي •
العز بن عبدالسلام ، حياته وآثاره ، ومنهجه في التفسير ، ط ١٤٠٢هـ
١٩٨٢م •

- عبدالله سعيد الغامدى
صلاح الدين والصليبيون • ط مكة المكرمة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م •

- عبدالفتاح عبادة
سفن الاسطول الإسلامي ، وأنواعها ومعداتها في الإسلام ، ط القاهرة
١٩١٣م •

- عبدالقدوس الانصارى
بنو سليم ،ط بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م •

- عبدالمنعم ماجد
نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ، ج١ ،ط القاهرة ١٩٧٩م•

- عفاف سيد صبره
العلاقات بين الشرق والغرب ، ط القاهرة ١٩٨٣م •

- عليه عبدالسميع الجنزورى
١ - إمارة الرها الصليبية ، ط القاهرة ١٩٧٥م •
٢ - الثغور الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى
ط القاهرة ١٩٧٩م •

- علي ابراهيم حسن
١ – تاريخ المماليك البحرية ، ط القاهرة ١٩٦٧م .
٢ – مصر في العصور الوسطى ، ط القاهرة ١٩٦٤م .
٣ – نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب ،ط القاهرة ١٩٨١م .

- علي حسني الخربوطلي
الإسلام في حوض البحر المتوسط ، ط بيروت ١٩٧٠م.

- علي محمد الغامدي
١ – بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ،ط مكة المكرمة ١٤٠٤هـ/ ١٤٨٤م .
٢ – بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، رسالة دكتوراه من جامعة أم القرى ، عام ١٤٠٦هـ لم تطبع .

- عماد الدين خليل
١ – الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ، ط بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .
٢ – عماد الدين خليل زنكي . ط بيروت ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

- عمر رضا كحالة
١ – دراسات اجتماعية في العصور الوسطى ،ط دمشق ١٣٩١هـ / ١٩٧٣م .
٢ – معجم المؤلفين ، ط : بيروت .

- عمر طوسون
مالية مصر في عهد الفراعنة . ط ١٩٣١م .

- غسان علي محمد الرمال
صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر . ،ط جده ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

- فايد حماد عاشور
العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ، ط القاهرة .

- فؤاد عبدالمعطي الصياد
١ - ، موٴرخ المغول ،رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، ط القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م .
٢ - المغول في التاريخ ،ج١ ، ط بيروت ١٩٨٠م .

- فيليب حتى
١ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي ، ط بيروت ١٩٥٩م .

- كارل بروكلمان
تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية ،نبيه آمين فارس، منير البعلبكي ، ط بيروت ١٩٧٧م .

- كلود كاهن
تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ترجمة بدر الدين القاسم . ط بيروت ١٩٧٧م .

- كي لسترانج
بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس ،وكوركيس عواد . ط بيروت سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

- لو شروب ستودارد
حاضر العالم الإسلامي ،ترجمة عجاج نويهض ، وفيه فصول وتعليقات مستفيضه عن أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث ، بقلم الأمير شكيب أرسلان . ط : بيروت ١٣٩٤هـ /١٩٧٣م .

- محمد أبو زهره
تاريخ المذاهب الإسلامية ، ط القاهرة بدون تاريخ طبع .

- محمد جمال الدين سرور
١ - تاريخ الدولة الفاطمية في مصر . ط : القاهرة سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
٢ - دولة الظاهر بيبرس في مصر ،: ط القاهرة سنة ١٩٦٠م .
٣ - دولة بني قلاوون في مصر ، ط القاهرة ، بدون تاريخ طبع .

- محمد حلمي محمد أحمد
مصر والشام والصليبيون . ط القاهرة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

- محمد حمدى المناوى
١ - نهر النيل في المكتبة العربية . ط القاهرة ١٣٨٦هـ /١٩٦٦م .
٢ - مقال عن الروك ،لم يطبع .

- محمد صالح ضرار
سواكن والبحر الأحمر ، ط القاهرة .

- محمد عبدالعال أحمد
البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ،ط الاسكندرية ١٩٨٠م .

- محمد عبدالله عنان
موءرخوا مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى . ط القاهرة ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

- محمد عبدالمنعم خفاجي
الحياة الأدبية في مصر (العصر المملوكي والعثماني) ، ط القاهرة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ٠

- محمد كرد علي
الإسلام والحضارة العربية ، ج٢ ، ط القاهرة ، ١٩٦٨م ٠

- محمد ماهر حماده
وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ٠ ط بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ٠

- محمد محمد أمين
١ – الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ،ط القاهرة ١٩٨٠م ٠
٢ – شمال أفريقيا والحركة الصليبية ، بحث مستخرج من مجلة الدراسات الافريقية العدد الثالث ١٩٧٤م٠ ط القاهرة ،١٩٧٥م٠

- محمد محمد الشيخ
الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ٠ ط القاهرة ١٩٧٤م ٠

- محمد مصطفى زياده
١ – حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ،ط القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ٠
٢ – دراسات عن المقريزى ، ط القاهرة ١٩٧١م ٠

- محمد ناصر الجعوان
القتال في الإسلام ، أحكامه وتشريعاته ،ط الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ٠

- مسفر سالم الغامدى
الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر ، ط جده ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- نبيل محمد عبدالعزيز
الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك . ط القاهرة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

- نظير حسان سعداوى
١ - الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، ط القاهرة ١٩٦١م .
٢ - جيش مصر في أيام صلاح الدين ، ط القاهرة ١٩٥٩م .
٣ - نظام البريد في الدولة الإسلامية ، ط القاهرة ،١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

- نعيم زكي فهمي
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب. ط القاهرة ١٩٧٣م .

- نقولا زيادة
دمشق في عصر المماليك ، ط بيروت ١٩٦٦م .

- هاملتون جب
دراسات في حضارة الإسلام . ط بيروت ١٩٧٤م .

- يعقوب ليسز
خطط بغداد في العهود العباسية الأولى،ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى، ط بغداد سنة ١٩٨٤م .

- يوسف درويش غوانمه
التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي الاول ، ط عمان سنة ١٩٨٢م .

رابعا – المراجـــع الأجنبيـــة

- Ayyubide, Mamlukes and Crusaders . Selections From the Tarikh Al - Duwal - Muluk, of Ibn al - Furat in two Volumes . Text and translation by U. and M.C.Lyons. Cambridge 1971 .

- Cahen, Claud,
1) LA Syria du Nord al, Epoquedes Croisades, Paris,1940.

- The Cambridge History of Islam , Vol .1 ALondon1970.'

- The Cambridge MEDIEVAL History, Vol IV, The Byzantine Empire, Partl , Byzaintum and its Neighboure, London 1964 .

- Campbell " G " .
The Crusades . London , 1935 .

- EHRENKREUTZ .
The place of Saladin in the Naval History of the Mediterranean Sea in the Middle Ages .
JOURNAL OF THE AMERICAN ORIENTAL SOCIETY ,
(1955) Vol 15 .

- DOZY , " R "
Supplement Aux Dictionnaires Arabes Toms 2,
Paris 1967 .

- The Encyclopaedia of Islam , (NEW EDITION) , London 1960 .

- GIBB," H.A,R. "
The Damascus Chronicle of the Crusades ,
London , 1967 .

- LANE _ POOLE , STANLY,

  1) Ahistory of Egypt in the Middle Ages , London 1936 .

  2) Saladin and the Fall of Kingdom of jerusalem, Beirut (1964) .

- LEWIS , B ,

  Saladin and the Assassins , BULLETIN OF THE SCHOOL OF ORIENTAL AND AFRICAN STUDIES , VOL 15 (1953) PP.239 - 245 .

- Lestrange , Gey ,

  Palestine under the Moslems . Beirut , 1965.

- Painter, Sidney ,

  History of the Middle Ages , London , 1975 - 1976 .

- Poliak , A. N .

  Feudalism in Egypt , Syria , Palestine and the Lebanon , London , 1939 .

- Rabie , Hassanein ,

  The Financial System of Egypt , London , 1972.

- Stevenson , W.B. ,

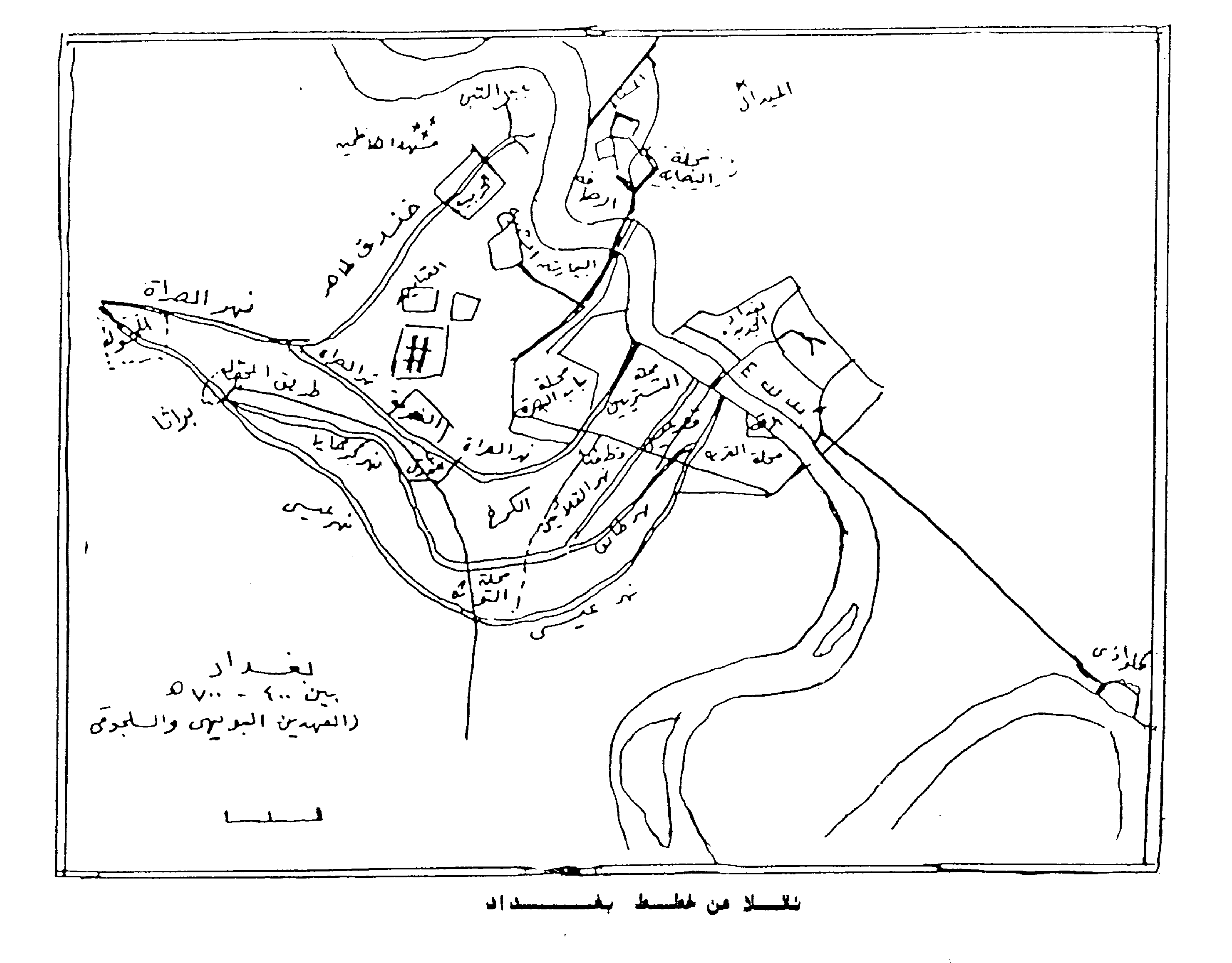
  The Crusaders in the East. Cambrige 1907 .

- Zakkar , Suhayl ,

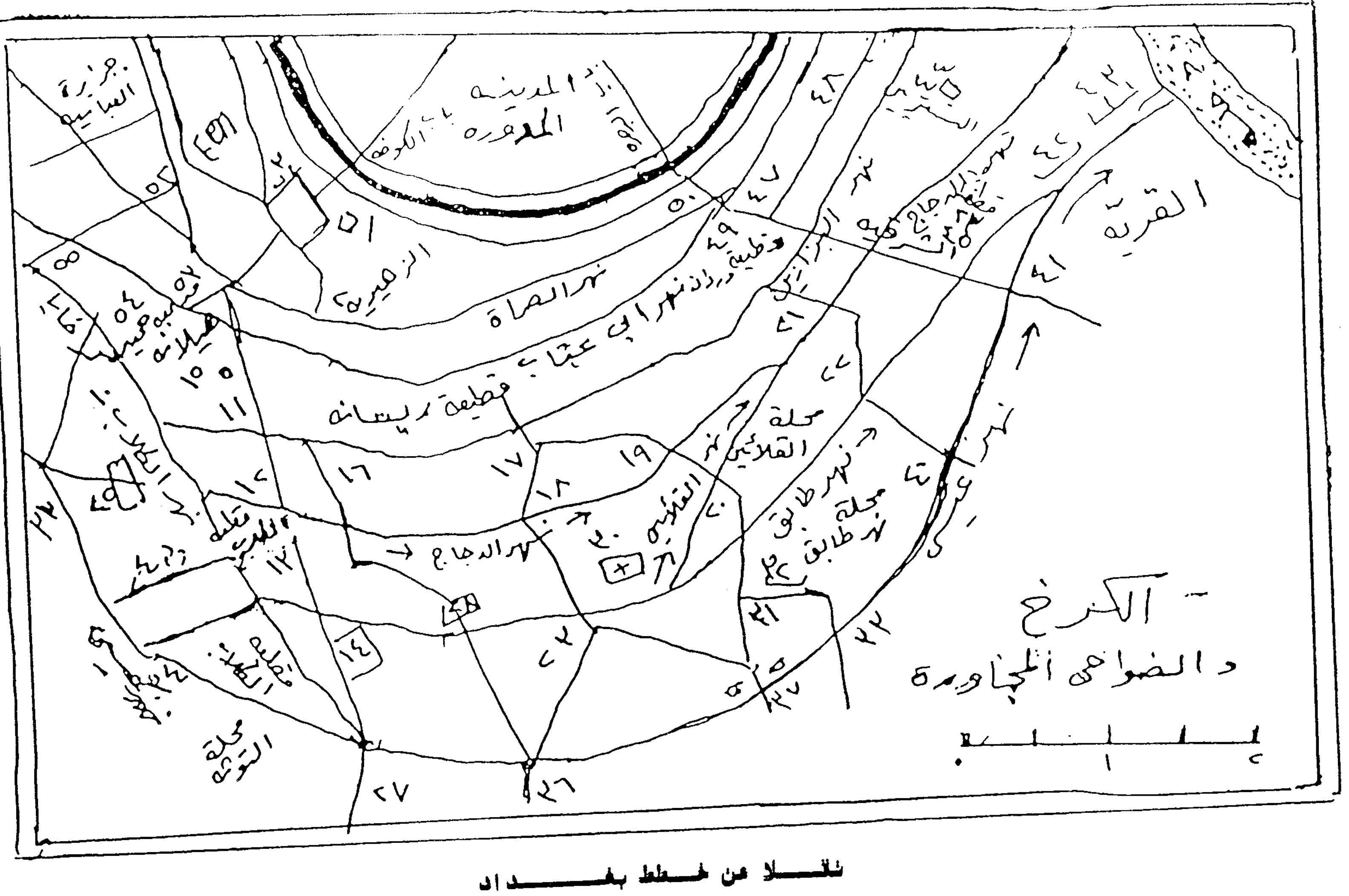
  The Emirate of Aleppo (1004 - 1094), Beirut, 1971 .

الخرائط

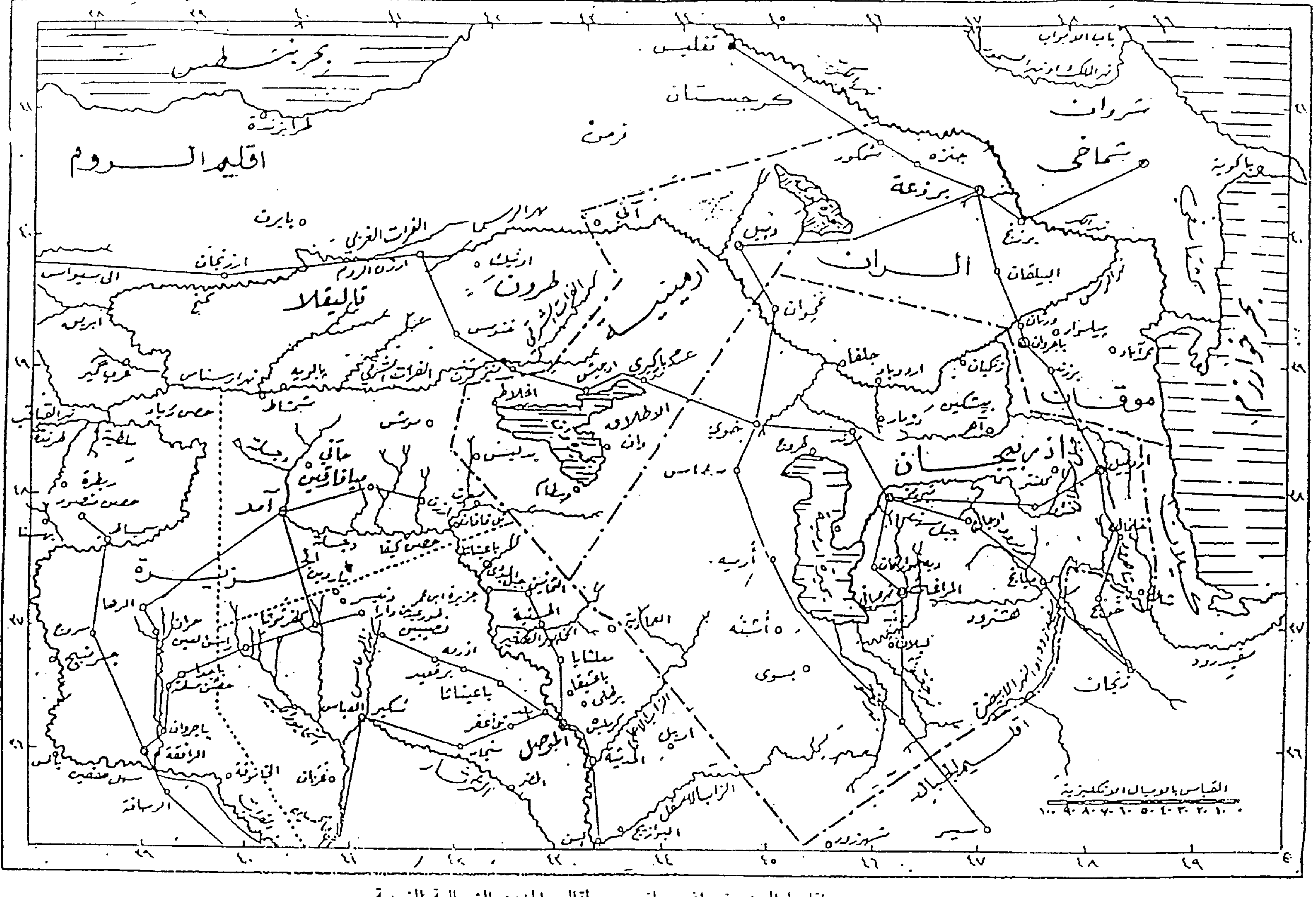
بيومي



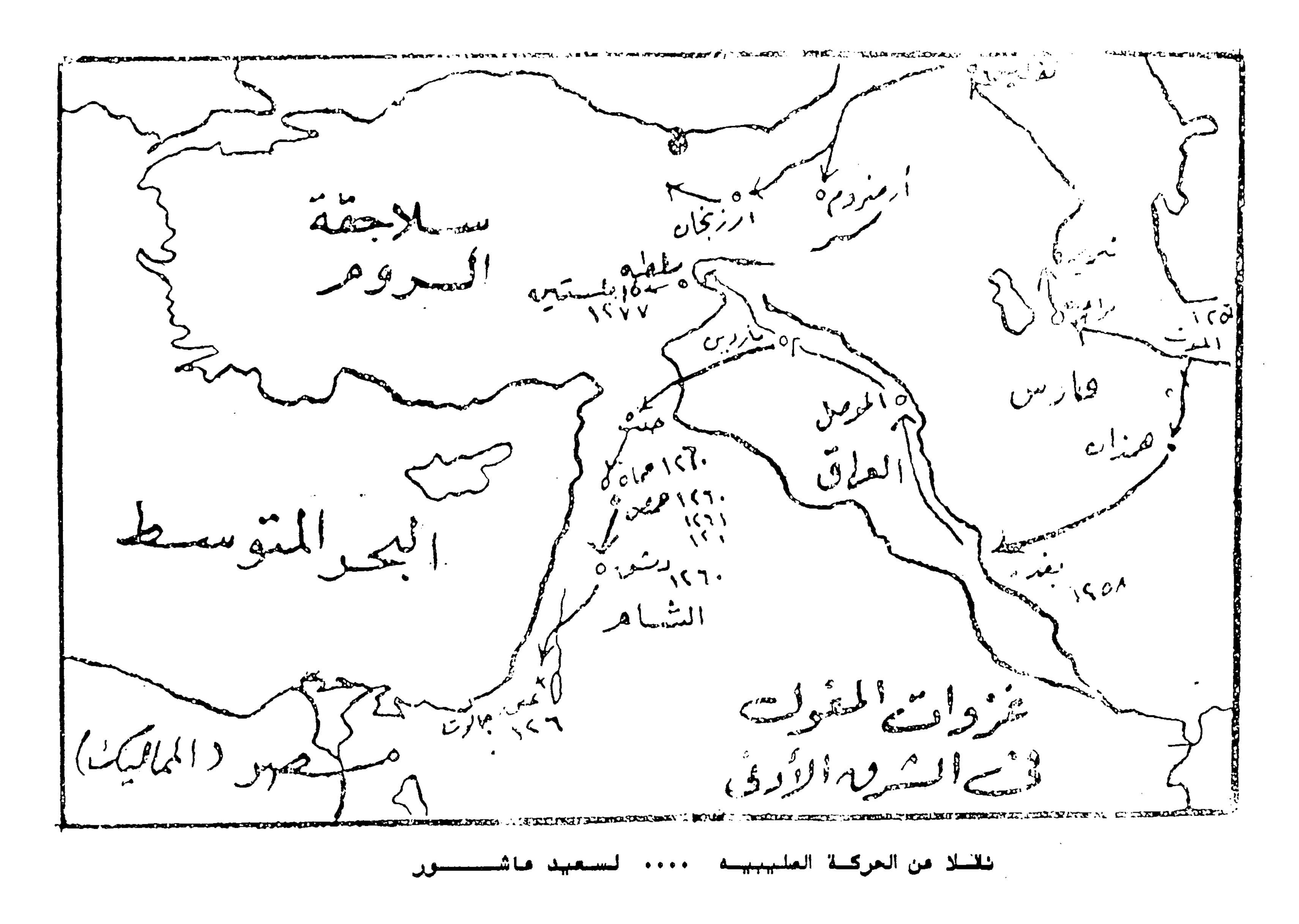
مثالا من خطط بغداد



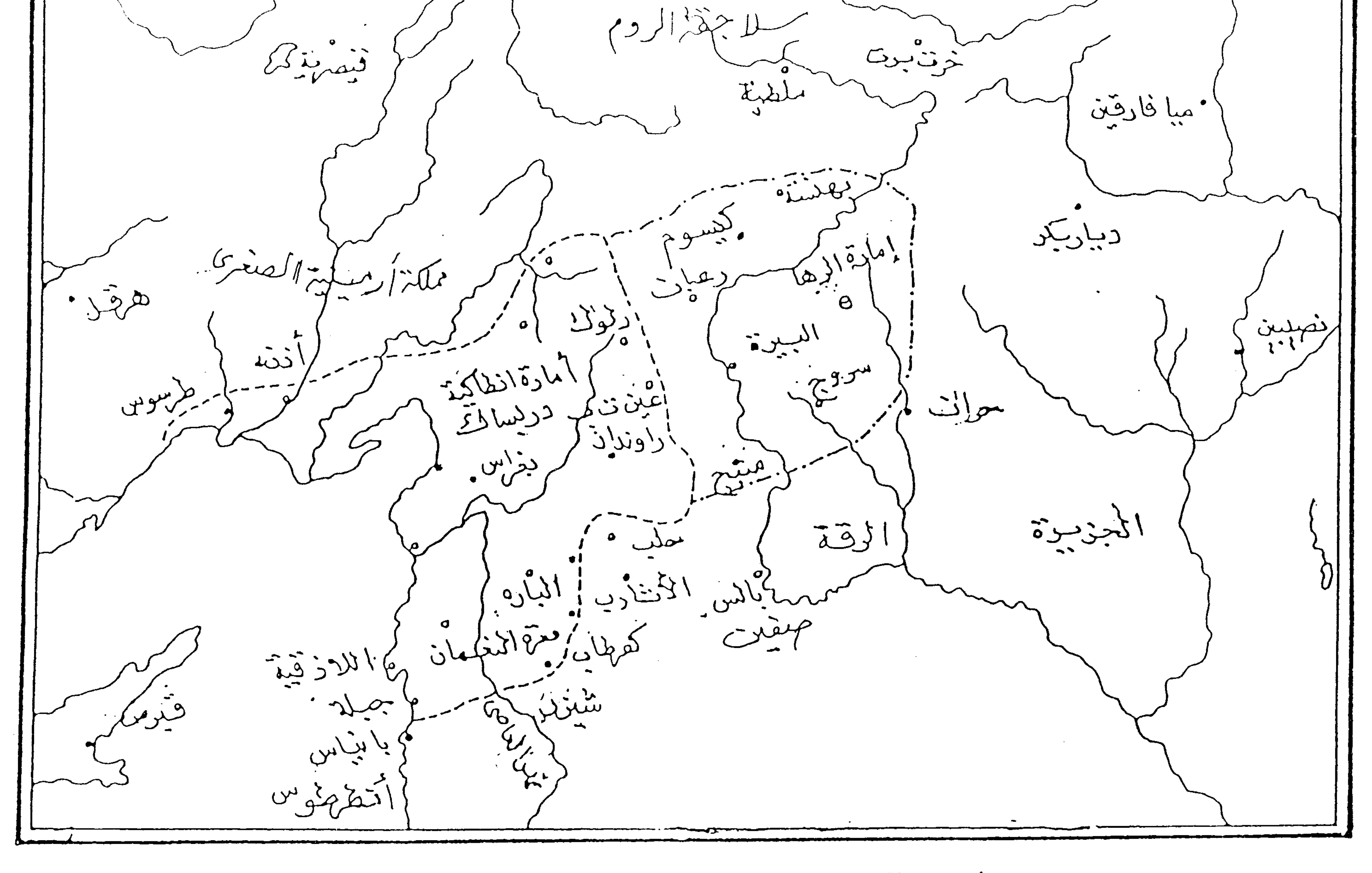
نقلا عن خطط بغداد



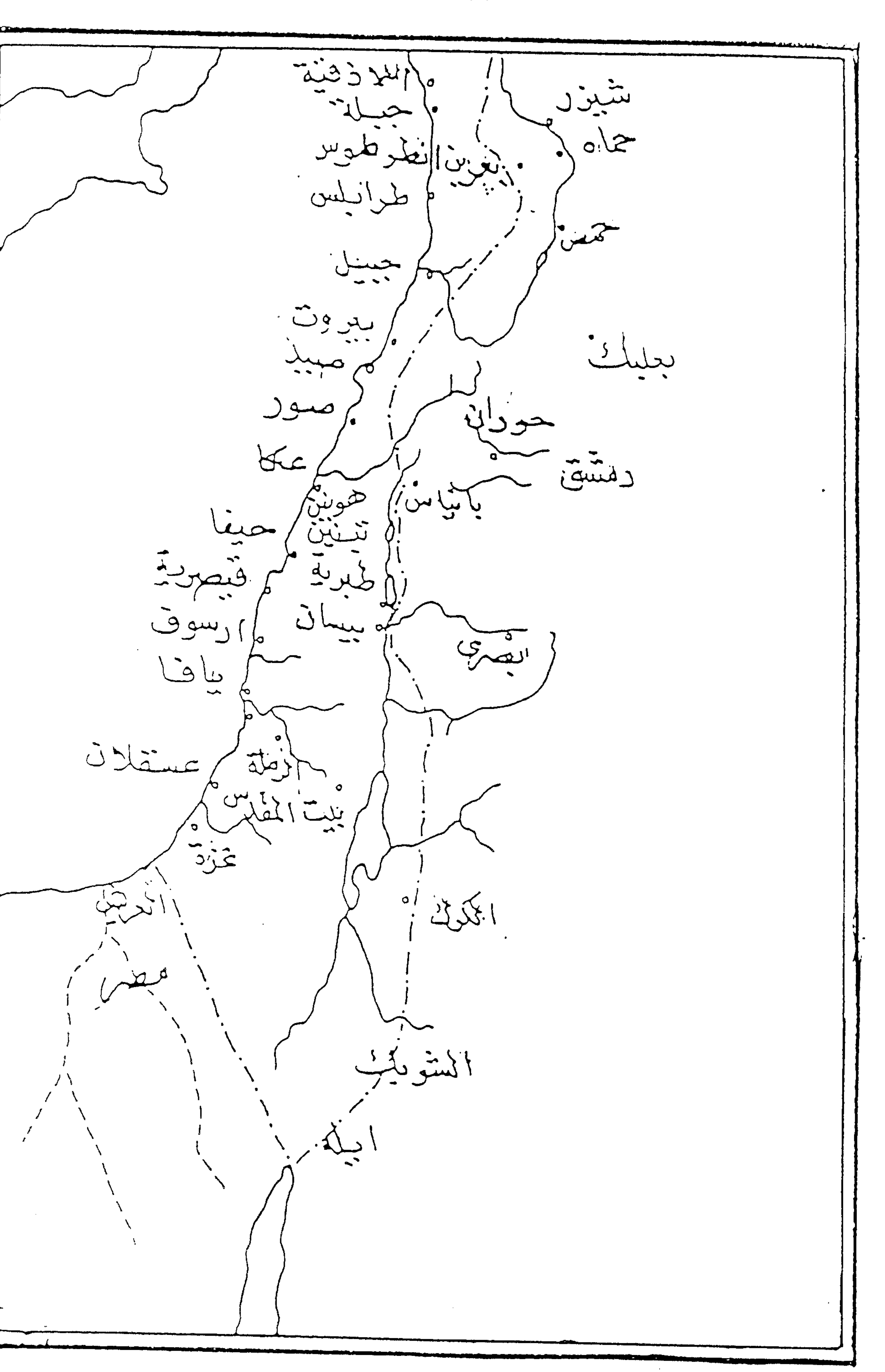
اقليما الجزيرة واذربيجان ، مع اقاليم الحدود الشمالية الغربية
نقلا عن كتاب بلدان الخلافة الشرقية



نقلا عن الحركة الصليبية .... لسعيد عاشور



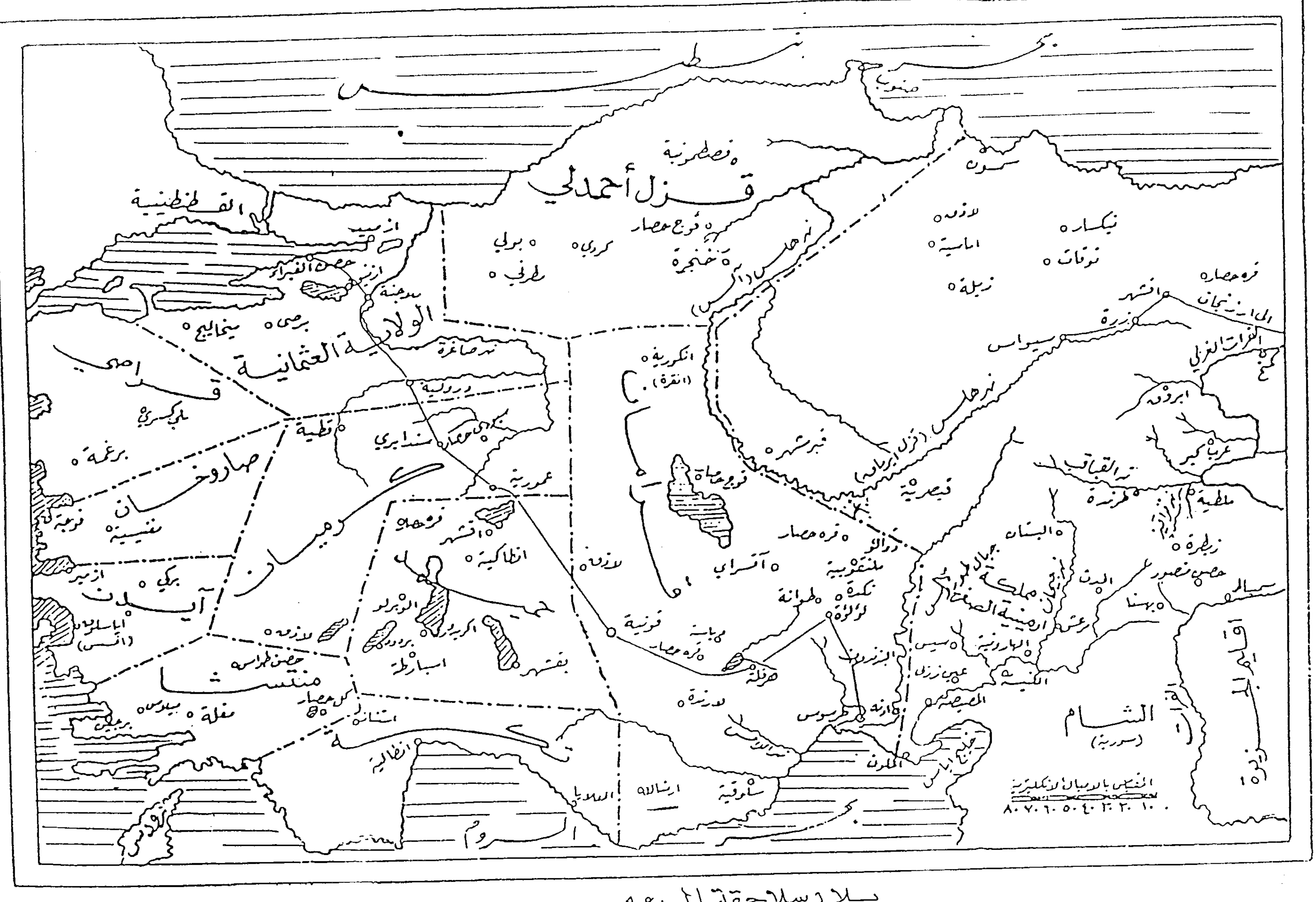
خريطة شمال بلاد الشام



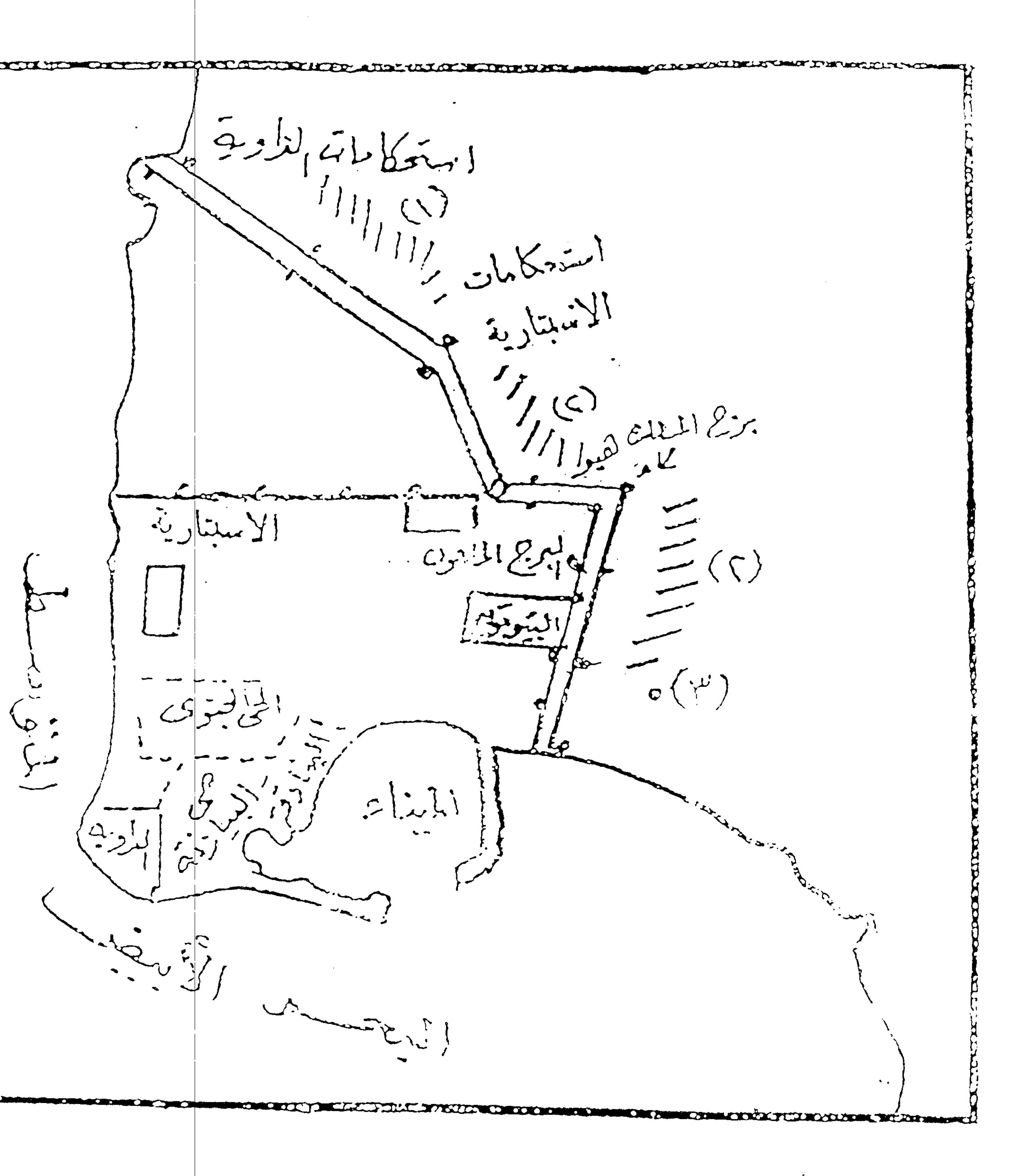
خريطة جنوب بلاد الشـــــام



معركة عين جالوت ... نقلا عن الجيش المصري في العصر الاسلامي
لعبد الرحمن زكي ..



بلاد سلاجقة الروم
نقلا عن كتاب بلدان الخلافة الشرقية



معركة عكا ... نقلا عن الجبهة الاسلامية

لحامد غنيم أبو سعيد

١ – جيش حماه

٢ – القوات المصريه

٣ – خيمة السلطان الأشرف .

صورة المعسكر الإسلامى عن كتاب فهرسة الكتب

